

المملكة العربية السعودية

وزارة التعليم العالي

جامعة أم القرى

كلية اللغة العربية

مكة المكرمة



٣٠١٠٢٠٠٠٠٠٠١٨٧٦

الوحدة الإسلامية في النثر العربي الحديث

في الفترة [١٣٠٠ - ١٣٦٠ هـ / ١٨٨٢ - ١٩٤٠ م]

رسالة لدرجة العالمية < الدكتوراه > في الأدب العربي الحديث

إعداد الطالب

حبيب حنش حمدان الزهراني

إشراف الأستاذ الدكتور

حسن أحمد الكبير

٩٦٠٤٠٠

١٨٧٦



الجزء الأول

١٤١١ هـ / ١٩٩١ م



قُلْ إِنْ

كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ
وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ
تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ
فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ ۖ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾

سورة التوبة

القدمة

إنّ الحمد لله ، نحمده تعالى ونستغفره ونستهديه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن اقتفى أثره واتبع شريعته إلى يوم الدين وسلّم تسليما كثيرا . .

أما بعد :

فلم تعد منزلة الأدب العالية ودوره في حياة الأمم والشعوب خافية على الناس ، إذ هو عامل قوي في توجيه المجتمع وتلوين الحياة والسيطرة على فكر الأمة ونزعاتها ، والسير بها إلى معارج الكمال والرفعة والمجد .

فهو بقدر راته الخلاقة ونبضاته الدافقة ، وصوره البديعة ، وتعابيره الرائعة الممتعة ، يتغلغل إلى أعماق تيارات الحياة وأخص بواطن النفوس ، فيساعد على تجلية الغوامض وكشف الأسرار الحياتية والنفسية ومكوناتها الدفينة ، ذلك إضافة إلى الإمتاع واللذة ، وتلك الروعة التي يشمل بها القارئ والسامع ، والتأثير الذي يبعثه فيهما ، مما جعل الأمم والجماعات تُعنى بآدابها وروائعها وتحافظ عليها وتفخر بها ، وتعدّها من كنوزها التي لا تنفد ، ولا تفرط فيها بأيّ حال من الأحوال .

وحسب الأدب في شرف منزلته أنه يرتفع بالنفوس إلى معالي الأمور وأنبال الخصال ، ويهفو إلى قيادة البشر نحو معارج الفضيلة وأرفع معاني الإنسانية ومثلها ، وهذا - لعمري - من أبرز أهداف رسالة الدين إلى الناس ، فهو إنّما جاء لإسعاد البشرية وتحقيق كرامتها وهدايتها في استمتاعها بالحياة على كرام العصور . فالدين والأدب كلاهما ضروري للإنسان ، وكلاهما يتوجه نحو الكمال والرفعة ، لكن لكل من الأدب والدين وسيلته التي يتخذها إلى تلك الغاية النبيلة ، ولئن اختلفت الوسيلة بين كل منهما ، فهو اختلاف الأسلوب في إصابة الغاية وتباين الأداء مع ثبات الجوهر ، مادام المجال واحدا في محوره حول الإنسان والحياة .

والإنسان روح وجسد ، وعقل وعاطفة ، والنفس السوية لا بد لها من غذاء يلبي هذه الجبلة بلونيتها المادي والمعنوي ، ولن يكون الإنسان إنساناً يملك المشاعر الرقيقة والعواطف النبيلة إلا عندما تأخذ الروح غذاءها وتنمي مواضع الانسانية منه ، وما أجدى الفن البديع لتحقيق هذا الغذاء ، وما الأدب بأشكاله المتعددة إلا فن إنساني رفيع ،

هذا هو الأدب كما تفهمه الأمم الواعية وكما يدركه أولو الأبواب ، نشاط إنساني وجهد إبداعي عظيم ، يقصد إلى سعادة الإنسان ورفعته ، وإن من الغبن وسوء التقدير أن تُهدر هذه الطاقة الخلاقة في غايات هزيلة ومرام قصيرة ضئيلة .

فلأدب رسالة عظيمة ، وله غاية خطيرة ذات أبعاد تربوية خلقية إقناعية ، يمضي إليها لتحقيق غاية الحياة ذاتها في الارتباط بمعايير الوجود الحق والخير والجمال ، وهو باقٍ ما بقي الإنسان لأنه مرتبط بالمجتمع يقوده إلى الحق والخير والجمال ، ومادام الأدب كذلك فلا بد له من مضمون يحمله وفكر يعبر عنه حتى تتحقق رسالته ويؤتي أكله ، وإلا فإنه خواء وفراغ .

يقال هذا وقد وُجد في بعض الأمم والبيئات من قال : إن الأدب - مطلوب لذاته ، ولا يريد منه صاحبه إلا الجمال الفني دون أن تكون ثمرة منفعة خاصة سوى متعة الجمال نفسها ، أي أنه إنما كتب للتسلية والإثارة والاستمتاع ، مما عُرِفَ بنظرية (الفن للفن) والتي يكفي عند أربابها لكي يكون العمل فناً أن يُحكم عليه من ظاهره وشكله الفني دون التقيد بمضامين معيّنة ، أو ربط بين الجمال والمنفعة ، إذ الجمال شكلي ذاتي بعيد عن الغايات المتعددة ، ولكل أمة أن تنظر إلى الفن ورسالته من خلال وعيها وروحها واتجاهها ، لأن مفاهيم الأمة وفكرها هو الذي يحدّد اتجاه الأدب وتوجه النقد فيها .

وأما أمتنا الإسلامية بمفاهيمها ومنهجية تفكيرها ، وارتباط ذلك بعقيدتها مقياساً شاملاً متوازناً ، فلا تعترف بهذه النظرية ولا تؤمن بها ، وإن

وجد في بعض مجتمعاتنا من نادى بها وأراد إحياءها بعدما دفنها أهلها وأعرضوا عنها .

حقاً إنَّ العمل الأدبي تعبير فني، ولكي يظل العمل فناً أدبياً لا قيام له بدون شكل فني، ويظل العمل منسوباً إلى الفن مادام محققاً للتأثير والفاعلية والايحاء، والشكل الفني يجب المحافظة عليه، والمضمون وحده لا يقوم بالعمل الفني، فمهما تكن المعاني شريفة، والفكرة إنسانية عميقة، والغاية نبيلة سامية، إلا أنها مهلهلة البناء سطحية الصور والأخيلة لاعمق فيها ولا جمال، لا تعتبر فناً كاملاً ولا عملاً أدبياً ناجحاً، ولا توحى بشيء مالم يتلاحم المضمون بالشكل الفني، وتُزف المعاني بأشكال قشبية الجمال، من الصور والإيقاع والأساليب المميزة الأداء .

والأمة المؤمنة أمة رسالة ودعوة، فليس يدعأ أن تكون أولى الأمم حفاوة بالأدب وأكرمها لأهلها، وخيرها في الاستفادة منه، ولذلك فإنها لا ترضى له أن يتجه إلى إثارة الغرائر أو الاستهانة بالقيم والعادات أو أن يعيش في حدود حياة صاحبه ومشاكله، بل تدعو الأديب ليشعر بأمتة، ويكون له أفق أرحب ومجال أوسع وآمال إنسانية أشمل، يسمو بها وتسمو بها أمتة إلى عالم الخير والفضيلة والمثل العليا .

لذا أدركت الأمة الإسلامية وغيرها من الأمم أن الأدب ليس لونا من الترف أو ضرباً من العبث، فالأدب ذو أثر عظيم على الناس والحياة، وأثر كلمته وصداها لم يكن قويا في القديم أو لدى العرب فحسب، بل ذلك عند كل الأمم في القديم والحديث، ولو أردنا التدليل على تأثير الأدب في القديم والحديث وبيان مكانته وأثره لأعياننا الحصر، وحسبنا أن نذكر أن العرب كانوا إذا نبغ فيهم الشاعر أقاموا الأفراح ومدّوا الموائد اغتباطاً بظهوره بينهم، وإن نبينا عليه الصلاة والسلام كان له شعراؤه الذين يذّبون عن دعوته، وقد أكرمهم وأعطاهم ودعا لهم، وأن الخلفاء والأمراء كانوا يتبارون في إكرام الشعراء والاكثار منهم حولهم، ويعطونهم المنح التي لا يبلغ عطاؤهم للعلماء معشارها، وأن الحركات الكبرى التي قامت في العصر الحديث في الغرب قد سبقتها نهضات أدبية مهّدت لها وبشّرت

بها كالثورة الفرنسية والوحدة الإيطالية وثورة روسيا البلشفية وغيرها .

هكذا نجد الأدب نعمة كبرى فإذا لطف وعطف كان برا ورحمة وأما وأمانا ، وكان نسمة عليلة تبعث الحياة وتشرح الصدور ، وإذا شار وغضب كان زلازلا وبراكينا تقذف شواظا وحُمما ، وريحا عاصفة تعصف بكل ما يصادفها ، فأحرى به أن يكون سلاحا للأمة تلجأ إليه في أكثر أحوالها وتوجّهاتها .

على هدي من هذا الفهم لوظيفة الأدب وغايته في المجتمع والحياة اتجه هذا البحث إلى موضوعه (الوحدة الاسلامية في النثر العربي الحديث) دارسا ومنقبا ، بيد أن هناك أمرا آخر قاد البحث وساعده في الاتجاه إلى هذه الوجهة كي تكون مطلقا له ، فالذى كان ينبىء به الأدب الحديث في مطلع هذا العصر هو ارتباطه الجلي بالفكر في ميدان الشعر والنثر ، فلقد ساعدت ظروف المجتمع العربي في الفترة التي تناولها البحث (١٣٠٠ - ١٣٦٠) على تأكيد الوظيفة الاجتماعية للأدب ، فقد كان الكفاح هو السمة السائدة في البلاد العربية آنذاك ، كفاح ضد الساسة الظلمة الطامعين ، الذين يسعون إلى مصالحهم الذاتية على حساب شعوبهم ، وكفاح ضد الأجانب المستعمرين الذين تسلطوا على شعوبهم ونهبوا خيرات البلاد ومنافعها .

لاغربة أمام هذه الظروف الحرجة والمسئولية الملقة على كواهل أرباب الفكر والبيان أن تتحول مهمة الأديب من فنان يخلق الصور الجميلة والتراكيب الرائعة ، ويجرى خلف حوك الألفاظ إلى مفكر وواع يسعى لرسم طريق النجاة لأبناء أمته .

وقد أكد هذه الحقيقة كثير من مؤرخي هذا الأدب ودارسيه ، منهم جرجي زيدان في (تاريخ اداب اللغة العربية ٤ / ٢٠٥) وهاملتون جب في (دراسات في حضارة الاسلام ٣١٨) الذى يقول عن طبيعة الادب العربي في هذه الفترة : " إنك إذا اعتبرت الأقطار العربية من هذه الزاوية وجدت أدبها الحديث معيارا صادقا للحركات الفكرية التي تعتلج فيها ، بل لعله

المعيار الوحيد الذى نستطيع به أن نميز الطبيعي من المصطنع على نحو واضح حاسم .

كان من الأسباب الرئيسية التى وجهتني إلى اختيار هذا الموضوع والمضي به إلى غايته مايلي :

إن النشروعاء لفكر الأمة ومشعل لها ، كما أنه ظرف عقائد هـا وانفعالاتها ومقياس رقيها واتقاد وعيها ، اذ هو يسجل ماوصلت إليه الأمة من دقة فى التفكير وعمق فى التقدير ، ثم إن هذا النثر قد أصابه التجديد ومر به عصر النهضة فبعث فيه روحا قوية و حياة جديدة جعلته ينطلق في صور بدیعة وأساليب عربية قویمة ، أعادت له روحه القوية الصافية وديبا جتسه المشرقة فما أخرى المرء أن يطلع على ذلك ويقبس منه فوائد ودرا وقد ولج فى شتى المناسبات والالوان التى فتحها أمامه العصر الجديد .

ان النثر الفنى العربى متأثر فى روحه البلاغية بسحر البيان العربى الذى جاء القرآن الكريم بأعلى طرزه وأفضل أنماطه .

وإن سمو النثر من حيث اللفظ والمعنى والاداء والمنهج يرجع الى التأسي بالقرآن الكريم والتأثر ببديع أساليبه و تراكيبه العجيبة ؛ وإن رواد النثر العربى فى ألمع صوره وأزهى عصوره إنما قبسوا ديبا جاتهم من انبهارهم بجمال القرآن الأدبى وساروا على طرائقه وسبله ، وبذلك تربعوا على عرش البلاغة واحتلوا من الفصاحة أجمل مكان .

إن النثر العربى فى مطلع هذا العصر قد احتوى هموم الأمة الإسلامية والعربية وقضاياهما ، وأسدى أياد بيضاء فى حماية الثقافة والمحافظة على التراث ، فضلا عن دفاعه عن كيان الأمة ومبادئها وقيمها ، وهو بذلك قاوم أعداء الأمة وفضح عملاء الاستعمار ، والوقوف على هذا النثر بعد ذلك ليس كثيرا عليه أن تتاله عناية البحث بل مما يسمو به ويزيده فضلا وشرفا .

الوحدة الإسلامية فكرة عظيمة وغاية سامية جليلة عرفت الأمة ثمرتها فى كل

العصور، وحين تزعزت في عصرنا الحديث حاق بالأمة من الضعف والهوان والتخلف ما لا تزال تعاني منه إلى اليوم ، فلعل البحث في هذه الوحدة العظيمة جهد في البيان والتبيين عما تستحقه، ويجب التذكير به وعدم الغفلة عنه ، ذلك أن حال أمتنا اليوم بعد ما يزيد عن نصف قرن من فترة هـذه الدراسة لم يتغير في حقيقته ، فالتاريخ كما يقال : يعيد نفسه ، وتفكك الأمة المسلمة لم يشهد إلى اليوم ما يعيد تماسكه وقوته بصدق ، فلعل هذا البحث المتواضع يكون مسهما بجانب من هذا التذكير والتنوير في معترك الحوالم التي تمر بها الأمة منذ مطلع عصرها الحديث إلى يومنا هذا .

إن فترة النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجرى - فترة زمن هذا البحث - فترة عصيبة في تاريخ الأمة الإسلامية ، إذ سيطر الاستعمار فيها على العالم الإسلامي فكان له أكبر الأثر في فرض الأفكار والمبادئ ، بل الزعامات والأشخاص التي تحطت في حبله وتسير في ركابه ، فلا غرو أن يزرع كثيرا من مبادئه وأفكاره التي تخدم مصالحه وأهدافه ليجعلها مبادئ وأفكارا للأمة تؤمن بها وترضى عنها ، ويلبس أذنابه وعملائه ثياب الزعامة ووسام القيادة والعلم والإصلاح ، ويجعلهم القدوة والأسوة وأن يُعشي الأبصار عن الزعامات الحقيقية التي لم تلن له أو تسالم فكره وثقافته وأدبه .

وفي هذا ما يجعلنا نعيد النظر كرات ومرات في كثير من الآراء والقضايا والمواقف والأسماء التي لمعت في سماء الفكر والأدب في ضوء هذه الحقيقة ، وقد مرت الأيام وبانت كثير من الحقائق التي كانت تتبهرج بادعاء الإصلاح والخير، ثم انجلت الأيام عنها فإذا بها هدم وحرب لكيان هذه الأمة ومقوماتها وقيمها ، وما الميدان الأدبي إلا واحد من هذه الميادين التي أرجو أن يكون هذا البحث مسهما بالكشف عن بعض الكتابات التي تدرجت به لتنفذ إلى مآرب خطيرة ، فيها المكر والكيد والتضليل لأمة الإسلام ، في مبادئها وفكرها ووجهتها .

مضى هذا البحث إلى غايته ولم يكن له أن ينسى التذكير ببعـض

الدراسات التي سبقته فيما يتصل بموضوعه ، فقد كان ثمة دراسات أنارت بعض سبيل هذا البحث وأفاد منها ، ويأتي في طليعة ذلك كتابات الدكتور محمد محمد حسين - رحمه الله - في كتابه (الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر) فقد كانت القضايا الكبرى التي تناولها والفكر النير الذي أحاطها به مما أفدت منه فوائد كثيرة في هذا البحث، ولا سيما فيما يتعلق بمبحثي (الجامعة الاسلامية) و (الخلافة الاسلامية) ، فهو وإن اعتمد على الشعر في أكثر ما كتب إلا أن منهج تتبعه الفكرة قد أفادني كثيرا في هذين الفصلين .

وكان ثمة العديد من الدراسات التي تناولت الأدب وقضية القومية في العصر الحديث مثل (الادب والقومية العربية) لاسحاق موسى الحسيني و (الاتجاه القومي في الشعر العربي المعاصر) لعمر دقاق، إلا أن هذه الكتب فضلا عن ارتباطها بالشعر كانت تكتب بحماسة قومية تُذيب الوحدة الإسلامية في التيار القومي، أو تجعلها من مقوماتها المتعددة على أحسن حال ، وذلك ما جعل أصحابها يبعدون عن روح الفكرة الإسلامية للوحدة ويحيدون عنها، فلم تكن الاستفادة من دراساتهم ذات طائل أو جدوى تذكر.

وفي مصر أعد الدكتور عبد الباسط احمد على حموده رسالة علمية (دكتوراه) في (النثر الفني المصري في العصر الحديث) من بداية القرن العشرين إلى قيام الحرب العالمية الثانية كنت أعتقد أنها ستحمل كثيرا مما يتطلع إليه البحث، إلا أنني بعد الاطلاع عليها وجدتتها تكاد تكون راصدة لتطور النثر في هذه الفترة وما طرأ عليه من تغير، ثم تتجه إلى تصوير ألوان الأساليب النثرية ، والتي ذكرت منها أسلوب أرباب البيان العربي المترسل ، وأسلوب أصحاب الاحتفاء باللفظ والمعنى ، وأهل الاتجاه إلى الأسلوب الفكري .

ولم تخل هذه الدراسة من الإشارة إلى بعض القضايا الفكرية التي عالجها الكتاب في هذه الفترة ، إلا أن معالجتها لهذه القضايا كانت موجزة وفي لمحات مقتضبة جدا .

كما كتب الطاهر محمد على البشير رسالة أخرى وسمها به بالدعوة إلى الخلافة العثمانية وأثرها في الادب العربي الحديث (ولا شك أن شمولية عنوانها للشعر والنثر جعلها تبتعد عن التركيز والاحاطة من جهة ، ومن جهة ثانية أنها جعلت انهيار الخلافة نهاية لها فلم تتطرق إلى ما طرأ بعدها ، كما أنها اكتفت بالإشارة إلى معالم الدعوة إلى الخلافة العثمانية عند بضعة كتاب مما قوت عليها التذكير ببعض الجوانب التي تتعلق بالدعوة إلى الخلافة مثل حوادث الغزو وحروب الدولة وغيرها ، غير أن مما يحمد لهذا البحث أنه كشف عن جوانب أدبية عند الحركات الدينية في مطلع هذا العصر من خلال موقفها من الخلافة والدولة العثمانية .

وأخيرا كتب عبدالعزيز محمد الشبان رسالة علمية للحصول بها على درجة الدكتوراة من جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية في الرياض سماها (شعر الوحدة الاسلامية منذ عهد السلطان عبدالحميد حتى قيام جامعة الدول العربية) (وقد سار الباحث في تتبع تاريخي لهذا الشعر في هذه المرحلة عارضا لكثير من نماذجه وصوره الجميلة ومحللا لها ، لكن كما نلاحظ أنه أوقفها على الشعر بينما نتجه بها نحن الى النثر الأدبي . والذي يبدو أن الرسالة في غمار تتبعها التاريخي كادت تتجاهل التيارات الاخرى التي كانت تتنازع هذه الوحدة ، حتى لانجد لها رصيда في الشعر العربي الحديث على الرغم من ظهورها وقوتها وآثارها .

وبالرغم من أنني لأعظم هذا البحث حقه من الجدة والكشف عن جوانب كثيرة مما يتصل بالشعر ، وبالرغم من أننا لانعظم تلك الدراسات حقها من العناية والجدية في البحث ، وأنها كشفت عن جوانب كثيرة مما يتصل بالشعر فان بعضا من الجوانب التي أغفلتها هذه الدراسات أفرد هذا البحث لها صفحاته ، وناقشها وحاول أن يجلي جوانبها ، مما يجعلني أشعر أن هذا البحث اضاف لبنات أخرى الى جوار تلك اللبنات والجهود السابقة ولاسيما في مجال معارضة الوحدة الاسلامية وصدى اتجاهها الأدبي ، فضلا عن الميدان النثري الواسع الذي كان له من الرحابة في معالجة بعض قضايا هذه الوحدة ما لم يتح للشعر في قيوده الايقاعية والعاطفية والانفعالية

المتسرع ، والتي يتحرر منها النثر في العادة ، وتهب انطلاقا غير محدود .

مضى هذا البحث يتجاوز المصاعب التي واجهته ، والتي يقف على رأسها أن الكثير من نماذج أدب هذه الفترة حملته الدوريات والصحف ، ومنها الآن ما مر على صدوره قرابة قرن كامل ، وكثير منها تناثرت وتآكلت ، والحصول عليها أمر عسير ، والتعامل معها وقد غلب عليها فقد الفهارس التي تيسر التعامل مع بعضها يحتاج جهدا وزمنا كبيرين ، ودوريات كثير من البلاد العربية في هذه الفترة في حكم النادر العزيز ، مما جعل البحث يركز على الدوريات المصرية التي تفوق سائر الدوريات الأخرى في وجودها وإمكان الاطلاع عليها ، وإن كانت مصر فضلا عن ذلك تعتبر مركز العرب الثقافي والذي يكاد يصور أغلب ما يقع في العالم العربي أو يدل على صدى ما حدث فيه من ثورات وحركات عسكرية وفكرية وسواها .

مضى هذا البحث يتجاوز المصاعب التي واجهته من قلة بعض النماذج وغيابها في مصادر لم يسعف الحال في الوصول إليها ، إما لأنها في دوريات مفقودة ، أو آثار غير موجودة ، وتناول مسائل الشائكة ومباحثه التي تبعث على التحفز والزلق ، وخرج في صورته النهائية في عدد من المباحث المتعددة عمادها بابان سبقهما تمهيد وقفتها خاتمة .

أما التمهيد فقد عرض البحث لمفهوم الوحدة الإسلامية ووسائلها وغاياتها ، ثم أبان عن حال هذه الوحدة قبل فترة البحث .

والباب الاول معالم الوحدة الإسلامية ، فقد خرج في أربعة فصول الاول منها في الجامعة الإسلامية وفيه قسمان ، الأول ويشتمل على عدد من المباحث ، الاول حول الجامعة الإسلامية والسلطان عبد الحميد وهذه الجامعة وارتباطها بالدولة العلية العثمانية ، والبحث الثاني دار في اتجاهات الجامعة الإسلامية وصورها المتعددة ، والبحث الثالث كان عن الجامعة الإسلامية وأوروبا .

والقسم الثاني فقد كان عن مظاهر التصور الأدبي للجامعة الإسلامية وفيه عدد من المباحث منها مدح السلطان العثماني ، والدعوة الى المحافظة

على الدولة العثمانية ، والحث على الوحدة ونيل التفرّق ، والتحذير من الروابط المختلفة سوى الرابطة الدينية . وأخيرا وصف دار الخلافة .

والفصل الثاني كان عن الخلافة الإسلامية، وقد انقسم إلى قسمين ، عرض الأول منهما للخلافة الإسلامية والواقع التاريخي ، وعرض الثاني منهما للخلافة الإسلامية في منظور الرؤية الأدبية .

والفصل الثالث شمل حوادث العالم الإسلامي، وقد مهدت له ببيان عن ارتباط هذه الحوادث بالوحدة الإسلامية ، ثم عرضت لأهم تلك الحوادث في العهد العثماني وبعده مبينا الصدى الأدبي الذي رافقها ونتج عنها .

والفصل الرابع خصّ لأشهر كتاب الوحدة الإسلامية وجهودهم في هذا الاتجاه ، وقد وقف هذا الفصل بأناة عند بعض الكتاب كجمال الدين الأفغاني والأمير شكيب أرسلان وغيرهم ، بينما اكتفى بلمحات سريعة عن كتاب آخرين في العالم العربي ممن احتفوا بهذه الوحدة وكتبوا ماضلين من أجلها ومحامين عنها .

وبالباب الثاني خصّه البحث للتيار المعارض والرافض للوحدة الإسلامية في النثر الحديث، وخرج في أربعة فصول .

الفصل الاول عن بواعث هذا الاتجاه المعارض وقد جاءت في ثلاثة مباحث : الاول الاستعمار ، والثاني سياسة رجال الاتحاد والترقي ، والثالث أهل الذمة ممن يقيمون في ديار الإسلام .

والفصل الثاني تحدث عن مظاهر هذه المعارضة التي خرجت فيها، وقد انتظم في عدد من المباحث : الاول القومية العربية ، والثاني عن الدعوة الى الوطنية والثالث : عن إحياء النعرات الاقليمية القديمة ، والرابع : الولاء لأوروبا والانبهار بحضارة الغرب ، والخامس في التعريض بالخلافة والسادس في هدم الرابطة الدينية وزعزعتها .

والفصل الثالث تحدث عن مظاهر المعارضة للوحدة الإسلامية في

الفن القصصي والمسرحي ، فقد كان جليًا في عدد من نتائجهما ، مما لا يمكن الاغضاء عنه ولا تجاهله في مثل هذه الدراسة الأدبية .

والفصل الرابع تعرّض لأبرز كتاب التيار المعارض وجهودهم في هذا الاتجاه مكتفيا بما يتعلق عندهم بالمعارضة دون الخروج إلى ما سواها من أفكارهم وجهودهم الأخرى المتعددة .

وأخيرا أوردت الخاتمة ، وقد اشتملت على قسمين : تحدثت في الأول عن اتجاه النثر وخصائصه الفنية في فترة هذه الدراسة ، ثم خصائص القصص والمسرحيات التي تعرّض لها البحث ، أما القسم الثاني فقد كان أهم النتائج التي وصل إليها البحث وأضافها إلى الدراسات التي سبقته وبها ينتهي البحث .

أما منهج هذه الدراسة فقد كان منهاجا تاريخيا تحليليا ، يحاول أن يتتبع الأفكار والقضايا ويرصدها ، ويجمع الأقوال والآراء فيها ، ولا يعمد بعد ذلك مناقشتها أو تحليلها والتعليق عليها أو الموازنة بينها في بعض الأحيان .

ولا غرو أن الفكر هو مدار هذا المنهج وإن أشرنا بلمحة موجزة إلى الناحية الفنية بآخر البحث ، لكن الذي يجب ألا يغيب عن قارئ هذه الدراسة أنّ كثرة المسائل والقضايا التي تتعلق بقضية كل فصل فيها كثرة كبيرة قد ألجأتنا في مواطن عدة إلى الجنوح إلى العرض الذي تكتمل به القضية ، وجعلنا نترك التحليل والتعليق خشية الإطالة ، بل ربما اضطرنا ذلك إلى الاستشهاد ببعض النصوص الأدبية الأقل فقا وبيانا لأنها تكمل الفكرة وتنمّيها ، مما قد لا تظفر به في أقوال أخرى تفوقها روعة وجمالا وتعبيرا .

وفي ختام هذه المقدمة لا يسعني إلا أن أحمد الله حمدا كثيرا يكافي نعمائه وآلائه ويليق بجلاله وعظمته على نعمة التي أولانيها وعاينني بها على إتمام هذا البحث حتى خرج إلى الوجود ، وهي نعم لا تُعدّ ولا تُحصى ، أحمده عليها حمد العبد الخاشع الذليل ، وأسأله المزيد من فضله وواسع بره وكرمه ورحمته .



ثم أقدم شكرى الوافر لجامعتى الغالية، جامعة أم القرى على ما توليه طلاب العلم من عناية وخفاوة، وما تبذله فى سبيلهم من عون وأياد كريمة مشكورة، كما أشكر كليتي العزيزة، كلية اللغة العربية ممثلة فى عمادتها وقسم الدراسات العليا بها وأساتذتها، وأخص بوافر الشكر والتقدير أستاذى الجليل سعادة الأستاذ الدكتور حسن احمد الكبير على ما أولانيه من عنايته ودأبه، وما أسداه للبحث من جهد وإخلاص .

وأسأل الله ان يجزى الجميع عنى خير الجزاء .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

وصلى الله على نبيينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

نهيـد

الوحدة الإسلامية

أ - مفهومها

ب - وسائلها

ج - غاياتها

د - الوحدة الإسلامية قبل فترة البحث

(أ) مفهومها :

جبلت النفس البشرية السوية على العيش في وسط طائفة من بني جنسها ، حيث تتعامل معها وتعاشرها وتتبادل معها كثيرا من شئونها التي لا قبل لها بها من دون هذه الجماعة التي تنتمي إليها .

والنفوس البشرية بهذه الفطرة الاجتماعية تنزع إلى تآلف وتكاتف تكون منه أشكالا مختلفة من التجمع البشرى ، قد يكون طوائف أو قبائل أو دولا أو غيرها ، وفي ضوء هذا الاجتماع تضع الأمم الأنظمة وتتخذ الشرائع وتحدد القيادة ، كي يكون لهذا التجمع البشرى نظام تطرد فيه الأمور وتستقيم شئون أمه وتنجو من الشقاق والفوضى ، فيعرف كل فرد ماله وما عليه ، فلا يبغي أحد على أحد ، ولا يتعدى إلى ماله ، فيعيش المجتمع في وئام وسلام وفلاح ، ويتوجه المجتمع إلى الغاية بشئون حياته المتعددة ويسعى لرفيها والعمل على ازدهارها والإفادة الكبرى منها .

والإسلام الذى هو دين الفطرة لم يتنكر لهذه الجبلّة الانسانية ، وأكد أن الانسان مدني بطبعه كما قال ابن خلدون وهو يتحدث عن هذه النزعة الاجتماعية بين سائر البشر^(١) ، ولهذا سعى الإسلام على أن يجعل منها خيرا وبركة وسعادة تعود على أفراد هذا التجمع البشرى ، فألف بين الجموع التي تنضوى تحته إيلافا حقيقيا ينبع من القلوب ، وحبّب بعضهم الى بعض ، وكفل لهذا التجمع نظاما يقوم على حياته ، فينظّمها ويصلحها ويقودها إلى كل خير ، ويصونها من الفتن والقلال والفوضى التي تقعد بها عن معارج التقدم والرفق ، بل وضع لهذا التجمع ما يصونه عن التصدع والشقاق ، وما يعود به إلى حالته القويمة مجتمعا صالحا مترابطا عندما تعصف به فتن الفرقة وعوادي التمزق والبغضاء !

والوحدة الاسلامية التي تحتشد لها هذه الدراسة ماهى إلا التجسيد الإنساني القويم لهذا الاجتماع البشرى ، لئلا تجسد حيّ ينبض

(١) انظر : مقدمة ابن خلدون ٣٧ .

بالخير والبر ويفيض بالحب والمودة والرحمة، ويؤمن إيماناً عظيماً بكرامة النفس الإنسانية في كل زمان ومكان، ويسعى جاهداً لإسعادها وإخراجها من دياجير الظلم والظلام إلى ظل العدالة الوارف ونور الإيمان الساطع المبين .

هذه الوحدة التي تعرض لها ربما اختلفت الآراء وتباينت العقول في تحديد مفهومها أو المراد بها ، ورغم أن هذا التباين يعود إلى عدد من الأمور التي تتصل بهذه الوحدة أو ترتبط بها بوشائج قوية. فأننا الآن نترك هذه الآراء المختلفة في فهم هذه الوحدة ، ثم ندلف إلى الوقوف عليها من خلال نظره سريعة إلى أمرين يعينان على فهمها وتصور أبعادها .

أول هذين الأمرين يعرفنا كيف نشأت وقامت الوحدة الإسلامية حتى باتت معروفة في المجتمع الإسلامي ، وثانيهما هو موقف الشريعة الإسلامية من أمر هذه الوحدة ، والذي لا ريب فيه أن هذين الأمرين رغم إنارتتهما لمفهوم هذه الوحدة وبعدها، مما يلزم التنبيه إليه ، ويجدر بنا الوقوف ملياً عليه ، ولا غنى لمن يتصدى لبحث هذه الوحدة ودراستها من التذكير به ، فهذان الأمران أساس في هذه الوحدة ، وفي قيامها إن لم يكونا روحها وعلة وجودها .

إنَّ نشأة الوحدة الإسلامية تتجلى بإيجاز في قيام المجتمع الإسلامي الذي كان خاتم الأنبياء والرسول - صلى الله عليه وسلم - هو مؤسسه وقائده والموجه له إلى هذه الوحدة ، غرسها في ذلك المجتمع وهو يُعَدُّ بالأفراد ، ورعاها بجدٍّ ومثابرة يوم أن أصبح للإسلام دولة ذات شعوب وطوائف متعددة من الناس ، وتجلت فيها ثمار هذا الغرس طيبة مباركة ، حلوة المذاق معسولة للعالمين .

لقد آخى - عليه وآله الصلاة والسلام - بين أفراد الطائفة القليلة التي آمنت به في مكة ، وكون منهم جماعة متعاونة متألّفة على اختلاف أنسابهم وطبقاتهم ، يأخذون بأمره ويلزمون طاعته ويحذرون مخالفتهم ، ينضون تحت قيادة واحدة ، منها تُلقى التغاليم وتصدر التوجيهات ، وإليها يُرجع فيما يظهر من أحداث ويستجد من أمور ، وتأخذ القيادة نفسها

بمسئوليتهم هذه الطائفة فتجعل منهم أسرة واحدة متعاطفة متآزرة يعيشون على بصيرة من أمرهم ، ويعملون على نصرة طائفتهم وإعزازها ، فى جهود متكاملة ، ووعى بدور كل عنصر أن يوظف فى الموضع اللائق ويستثمر الاستثمار النافع ، شأن أعظم قيادة حكيمة واعية فى توزيع شعونها وترتيب أمورها واستغلال قدرات أبنائها وإمكاناتها .

وبعد الهجرة إلى المدينة النبوية تتضح الرؤية ويتكامل البناء وتخفف المعوقات ، فيتوافد المسلمون إلى المدينة على اختلاف بلادهم وقبائلهم ، ويجتمع بها شملهم ، ويحيطون بها رحالهم ، بعد ما ذاقوا العنت وآذاهم المشركون فى سبيل دينهم إياها شديدا .

لقد هيا الله لرسوله الكريم - عليه الصلاة والسلام - آئذ أن يضع قواعد دولة الإسلام ويشيد بنيانها الشامخ الذى ستقوم عليه ، وكان أعظم تلك القواعد توحيد هذه الجموع المتلاقية تحت عبوديتهم لله رب العالمين لاشريك له ، ثم توحيد آرائهم وكلمتهم وصفهم تحت قيادة واحدة لا يرمون أمرا ذا شأن دون علمها ، ثم توحيد أساس أخوتهم وتآلفهم ، وربطهم بأواصر الأخوة وأمتن الوشائج بأخوة الإسلام ، فكان ذلك الإخاء وتلك الرحمة بين أولئك القوم مما ذاع به الزمان ، وندر فى الأمم ، وصار مثار الدهشة لمطالعي التاريخ ودارسي حياة الأمم والشعوب .

إخاء بين المهاجرين والأنصار ، وبين الأوس والخزرج الذين لم تزل نار الحرب والشحناء مضطربة بينهم قبل ذلك ببسير ، وبين المهاجرين الذين نأت بهم الديار وبعدت بينهم الأنساب حتى كانوا جميعا إخوة فوق كل تصور للإخاء فى دنيا الناس ، فذا يقسم داره وماله لأخيه ، وذا يشرك أخاه فى عمله وغلته ، وذا يتنازل عن إحدى زوجتيه مواساة لمن لا زوج له ، إلى كثير من تلك الصور العظيمة التى غلبت على ذلك الإخاء التاريخي الفريد .

لقد كان ذلك المجتمع المدني مجتمعا واحدا فى عبوديته وآماله وأهدافه وتطلعاته ومشاعره ، موحدا فى مقابل أى مجتمع آخر سواه من حول المدينة أو خارجها ، له ميزاته وطابعه وحياته ، وله تكاتفه الذى قوت على

خصومه تفرقته أو غرس بذور الشقاق بين أعضائه ، كما أن له الوقفة الشجاعة الموحدة ضد من يكيد له أو يحاول النيل منه من الخصوم الظاهريين أو المستترين .

خرج هذا المجتمع - بعد ما أطمأنّ قائده إلى سلامته من التفرق وإلى عصمة وحدته التي يعسر النيل منها - يدعو من حوله من القبائل والأمم إلى دين الإسلام ، وبدأ الإسلام ينتشر بالدعوة والجهاد إلى أن أطبق الإسلام برايته على جزيرة العرب ودخل الناس في دين الله أفواجا ، وهنا نلاحظ دور الإسلام حيال هذه القبائل المتعددة والفئات المتباينة من الناس وقد دخلوا في هذا الدين .

لم يكن دخول هذه الجماعات في الإسلام ليحدث اضطرابا وتمايزا من جراء كثرة هذه العناصر الجديدة ، والتي لكل منها مذهب ودين في الحياة ، ولا غرو أن التوفيق بين كل هذه الطوائف لكي تتعايش مع بعضها في حياة طيبة لانزاع فيها ولا خلاف أمر غير يسير ، وتحقيقه يتطلب ضروبا عالية من القيادة البشرية والمعاملة الإنسانية وغيرها كثير من جسام الأمور حتى يتم ذلك تحت ظلال العقيدة الإسلامية .

كانت هذه القبائل وهي تدخل في الإسلام تُعَلِّم أصوله ومبادئه التي لا إسلام بدونها ، وتشعر أنها بعد ذلك صارت جزءا من أمة هذا الدين ، لها ما للمسلمين ، وعليها ما عليهم ، وأنهم إخوة بأخوة الإسلام ، ولهم مع ذلك ما يربطهم بقيادة الإسلام الكبرى ، في اتصال بها يتلقون منها ما تأمر به أو تنهى عنه ، غير ما تدفعه إليها من الخراج أو المدد الذي قد تطلبه القيادة منهم عند التوازل والنائبات .

لقد أبان قائد الأمة - صلى الله عليه وسلم - وحدة هذه الجماعات التي دانت بالإسلام في مجمع المسلمين العظيم ، في حجة الوداع ، وأرشدوا إلى ما فيه صلاحها وعزها ، وأبان لها ما يعصمها من التفرق والضلال ، وما يحميها من الشتات والمباعدة ، وكان مما قال : " وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به : كتاب الله وسنة رسوله . يا أيها الناس ، اسمعوا وأطيعوا وإن أمّر عليكم عبدٌ حبشيّ

مجدّع ما أقام فيكم كتاب الله وسنة رسوله . . . ولا ترجعوا بعدي ضلّالاً
يضرب بعضكم رقاب بعض " (١)

أمّا اجتماعه بالمسلمين في صعيد واحد على هيئة واحدة يؤدّون
نسكا موحدة، فلا ريب أن ذلك أفهم تلك الحشود التي دخلت حديثه في
الإسلام معاني وأبعادا سامية وواسعة لوحدة المسلمين واتحادهم .

لم يلحق النبي - عليه وآله الصلاة والسلام - بربه إلّا وقد أورث أمته
فهم هذه الوحدة الإسلامية وكان له من أتباعه من يحمل الراية ويشق
الطريق على نفس الدّعوة والمبادئ، وينهض بأمة الجزيرة المسلمة لبث نور
الإيمان في أرجاء الأرض .

وتأتي الخلافة الراشدة، وينتشر دين الله في الآفاق، وتدخل في
الإسلام شعوب وأمم مختلفة في الأجناس واللغات والعادات، فالفرس
والروم والترك والأقباط والأحباش وخلافهم بلغتهم الدعوة وأسلموا لله
رب العالمين .

أخذت هذه القيادة الراشدة بسنن قائدها الذي وّحد الجماعات
القليلة في المدينة أول أمره، ثم وّحد القبائل التي ملأت الجزيرة يوم
دخلوا في دين الله أفواجا، جعلت تلك القيادة من كل هذه الشعوب
والأمم أمة واحدة، لم يفرّقها اختلاف الألوان والألسنة، ولم تحزّبها
العروق والأصول، ولا جمحت بها القوميات والعنصرية المتوتّبة، أسلست
أمرها لقيادة واحدة، ودانت كلّ هذه الأمم بديانة واحدة، واعتنقت
أفكار هذه الملة التي أوحى لها بالاخوة والألفة، وربطت بين أفرادها
بالمودة والرحمة، كان مجتمعا كبيرا في أفرادهِ وشعوبهِ وأجناسهِ ومواطنهِ،
وكبيرا جدا في كل ذلك وغيره، لكنّه مع كل ذلك مجتمع واحد في كل ما
يعني أي مجتمع ويقوم به أمره من عقائد ومبادئ وتصور وأهداف .

وبرغم ما عصف بالأمة الإسلامية من أحداث حاسم إبان هذه

(١) رواه مسلم في كتاب الحج عن جابر بن عبد الله، صحيح مسلم بشرح

النووي ١٨٤ / ٨

الخلافة الراشدة كحروب الردة ومقتل عثمان رضى الله عنه ووقعة الجمل وصفين وغيرها مما هو كفيل بأن يشق صفوف الأمة ويمزق وحدتها ، إلا أن تمسك القيادة بمبادئ الإسلام في هذه الوحدة أبقى للامة اجتماعها، وحفظ لها وحدتها وائتلافها ، بل لقد كان من تغلغل جذور هذه الوحدة وعمقها في نفوس الأمة الإسلامية أن حافظت على هذه الوحدة وكانت من أكبر عناصر قيامها وبقاءها بعدما آل أمر خلافة الأمة الإسلامية إلى الأمويين والعباسيين ، هذا بالرغم من اتساع رقعة الدولة الإسلامية الشاسع في ذلك العهدين وكثرة الأمم التي دخلت في الإسلام وخضعت لحكومته من غير نسيان للأحداث والفتن التي نشبت في الحكومتين وفي الأخيرة منها على وجه الخصوص .

هكذا نشأت الوحدة الإسلامية في مجتمع المسلمين (١) ، وارتبط المسلمون بها ارتباطا شديدا في قرون الأمة المفضلين ، ولا يعني ذلك عدم اضطراب هذه الوحدة أو اختلالها في بعض الأزمان أو بعض البقاع من بلاد الاسلام نتيجة بعض الفتن أو الاحداث، لكن هذه وإن أحدثت فرقة في القلوب أو جفوة في النفوس لم تمزق الوحدة ، بل استمرت قائمة في المجتمع سرعان ما تظهر عندما تزول الفتن أو يبغي على المسلمين عدو من غيرهم ، ينال منهم أو يحاول اغتصاب شيء من حقوقهم ، فيكونوا أمامه قوة واحدة، كأن لم يكن بينها شيء مما قد حدث من فتنة أو شقاق .

أما موقف الشريعة من أمر هذه الوحدة فهو واضح مبين ، دعت إلى اتحاد ابنائها وحثت على وحدة شعوبها وأممها ، وأمرت بتراطبها ووحدة صفها ، وحذرت من الفرقة والتحزب أشياء وشيعا ، وقطعت الطريق وسدت الأبواب على كل سبب يوصل إلى الفرقة أو يهيجها أو يعين عليها .

إن نظرة إلى المصدرين الرئيسيين للشريعة الإسلامية تدلنا صراحة على ذلك ، وآيات الكتاب العزيز التي تدعو للوحدة تأخذ إحدى

(١) انظر الوحدة الإسلامية : محمد ابي زهرة ص ٣٤ ، وما بعدها

صورتين : أما أن تدعو إلى ذلك مباشرة مثل قوله تعالى بعد ما ذكر جملة من أخبار أنبيائه " إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون " (١) ، أو يفهم منها ذلك كما فى الآية : " إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص " (٢) ، ولا ريب أن التعارف بين الناس والشعوب عامل كبير من عوامل الألفة والإخاء ، ومدعاة إلى التعاون والمساندة ، ومعبّر لتآلف القلوب ووحدة الأمم فى كثير من شئونهم ، ولذا نرى القرآن الكريم يجعل التعارف والألفة من وراء خلق الناس شعوبا وطوائف شتى " يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا . . . " (٣) أما إشارات القرآن إلى وحدة الأصل والمنشأ ، وإلى الوحدة الإنسانية وإلى فطرة الله التى فطر الناس عليها ، وإلى وحدة الدين من ربهم إلى سائر الأمم ، ووحدة المعبود الذى يخضع له الوجود ، فقد حفلت بها كثير من آياته البينات (٤) ، وكل هذه له من الحوافز والدافع الى الوحدة والتوجه إليها مالا يخفى لمن تأمل فيه .

تلك هى الصورة الأولى من هذه الآيات أما الأخرى فهى التى تنهى عن التفرق وتحذر منه وتسد ما يوصل إليه من منافذ ، ومن أوضح ذلك قوله تعالى : " واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفي حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون . ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم " (٥) ، وأمر الله عباده بلزوم صراطه القويم وترك ما عداه لأنها توصل الى الفرقة وكثرة السبل " وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه

(١) سورة الانبياء ٩٢ .

(٢) سورة الصف ٤ .

(٣) سورة الحجرات ١٣ .

(٤) انظر الايات : النساء ١ ، الاعراف ١٨٩ ، يونس ١٩ ، العنكبوت

٤٦ ، البلد ١٠ وغيرها .

(٥) آل عمران ١٠٣ ، ١٠٥ .

ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقنون" (١) ، ذلك فضلا عن الآيات التي تنعى ، على أهل الكتاب والمشركين كثرة اختلافهم وتفرقهم شيئا وأحزابا فى أديانهم (٢) لئلا يكون المسلمون على حالهم المقيتة أوزاعا وشيعا متنافرين .

والسنة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم السلام لم تخل من مثل ماسبق من هدى القرآن في الوحدة الاسلامية، وحسبنا من ذلك أن نشير إلى قوله عليه الصلاة والسلام وقد شبك بين أصابعه : " إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا " (٣) ، وهذا معنى واضح للوحدة التي فيها الترابط والتماسك وشد كل جزء من البناء للآخر ووقوفه أو استناده عليه حتى لا يتصدع وينهار ذلك البناء الواحد الذي لا تحصى عناصره وأجزاؤه الصغيرة التي تكون منها .

وإذا كانت الوحدة تعاوننا وتكاملا ، وعطفا وتراحما ، وصلة وبراء ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم يُشبه وحدة المسلمين بوحدة الجسد ، ويأله من تشبيه دقيق عظيم لوحدة هذه الأمة ، فكيف يُتصور جسد واحد يمكن أن يكون مفرقا أو موزعا ، وكيف يكون جسد واحد نقص منه عضو أو أكثر من أجزائه ، ذلك لا يكون إلا فى الأجسام العليلة ، التي لا تنهض بتكاليف الحياة السوية وأعبائها " ترى المؤمنين فى تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى " (٤) .

وذلك شأن وحدة المسلمين كوحدة الجسد الذى إذا أصيب عضو منه تأثرت لذلك واحست بهذا المصاب بقية الأعضاء الأخرى فتألم كما يألم ،

(١) سورة الانعام ١٥٣ .

(٢) انظر: الانعام ١٥٩ ، الروم ٣٢ ، الشورى ١٣ .

(٣) رواه البخارى فى كتاب الصلاة عن أبى موسى ، فتح البارى شرح صحيح البخارى ٥٦٥/١ .

(٤) رواه البخارى فى كتاب الأدب عن النعمان بن بشير . فتح البارى

شرح صحيح البخارى ٤٣٨/١٠ .

وتسهر كما يسهر حتى يذهب ذلك الداء، ويعود هذا العضو سليماً معافى يقوم بعمله في جسده مع أعضائه الأخرى .

أمّا الأحاديث الكثيرة التي في ذكر الإخاء والبر والأدب والإحسان بل الإيمان أيضاً، فإن ماتحويه للمتأمل من عواطف الأخوة ووشائج تقارب أفراد المجتمع الإسلامي وتراحيمهم وتأزرهم، ما يوحى بالحفاوة الكبرى التي توليها الشريعة هذه الوحدة من خلال أحكامها وآدابها المتعددة، وتكون من مقاصدها وغاياتها الكبرى .

هذان الأمران اللذان فتحا الباب - مبدئياً - لفهم الوحدة الإسلامية يتجلى لنا من خلالهما - ولا سيما نشأة الوحدة - وجود قيادة كانت تقف على رأس هذه الوحدة، تقوم بأمرها وتتولى شئونها، ولعل في هذا ما يسمح لنا باعطاء نبذة عن هذه القيادة ووظيفتها وخصائصها لارتباطها الجلى - كما هو واضح - بهذه الوحدة .

تعرف هذه القيادة في المجتمع الإسلامي بالخلافة أو الإمامة العظمى، والحديث عن الخلافة في الإسلام بابه واسع ومباحثه جملة متعددة (١)، إذ هي من لوازم هذه الوحدة في إقامتها أولاً ثم المحافظة عليها بعد ذلك، إلا أننا سنكتفي هنا بحديث مُجمل عن طبيعة الخلافة لأننا سنعرض لها في فصل خاص بها - ان شاء الله - من هذا البحث.

تعتبر الخلافة الإسلامية هي المنهج الذي اختارته الأمة المسلمة وأجمعت عليه طريقة وأسلوباً للحكم تُنظّم من خلاله أمورها وترعى مصالحها وقد ارتبطت نشأة الخلافة بحاجة الأمة لها واقتناعها بها، ومن ثم كان إسراع المسلمين في اختيار خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم يتولى أمرهم ويسوس حكومتهم، فالأمر " أن الله جلت قدرته ندب للأمة زعيماً خلف به النبوة وحاط به الملة، وفوض إليه السياسة ليصدر التدبير عن

(١) انظر: كتاب الإمارة في صحيح البخاري وصحيح مسلم وغيرهما من كتب السنة، ويراجع أيضاً حقيقة الإسلام وأصول الحكم - الشيخ محمد بخيت المطيعي، الإمامة العظمى عند أهل السنة والجماعة عبد الله بن عمر الدميحي .

دين مشروع ، وتجتمع الكلمة على رأى متبوع ، فكانت الإمامة أصلاً استقرت عليه قواعد الملة وانتظمت به مصالح العامة حتى استتببت به الأمور العامة وصدرت عنه الولايات الخاصة" (١)

(٢) ويُجمع علماء المسلمين على أن الخلافة فرض أساسي من فروض الدين وواجباته ، بل هى الفرض الاول والأهم لانه يتوقف عليه تنفيذ سائر الفروض الاخرى ، وتحقيق المصالح العامة للمسلمين ، فعليهم أن يسعوا لإقامتها ويحافظوا عليها ويتمسكوا بها حتى ولو اسموها بغير اسمها كالإمامارة أو السلطنة أو غير ذلك ، فالمهم أن توجد القيادة التى تأخذ بنظام الأمة وتحقق أهدافها المقصودة .

لهذا فالشريعة الاسلامية تدلنا على أن على الأمة الاسلامية أن تعنى عناية كبرى بالشخص الذى سيتولى هذه المهمة الكبرى ، وتشترط فيه أموراً كثيرة ، كأن يكون مكلفاً أى بالغاً وعاقلاً ، على علم بأصول الإسلام ومقاصده ، عدلاً أميناً فلا يحيد عن الحق ولو كان على نفسه ، ولا يكون نهماً ومتطلعاً الى هذه القيادة أو حريصاً عليها ، ولا يتخذها ذريعة لخاصة منافع وأهوائه ، ذلك فضلاً عن الذكورة والكفاية التى تؤهله عن غيره لهذه الأمر مما يجعل هذا العمل لا ينافى إلا بأفذاذ الرجال وخيار الأمة مما فيه صلاحها وتحقق مقاصدها .

ثم إن تعيين هذا الخليفة لا يكون لفئة محددة فى الأمة ، وإنما هو راجع لارباب الحلّ والعقد فى المجتمع الإسلامى ، وهم خير من يرعى مصالح الأمة ويحرص على ما ينفعها ، فلا يعقدون خلافة الأمة إلاّ فيمن هو أهل لها فى نظرهم على قدر اجتهادهم فى البحث والتحرى الدقيق . وهذا الخليفة الذى تولى أمر القيادة بعد هذا - كما تقرّر شريعة الاسلام - لا يقطع أمراً دون الأمة وأخذ رأيها ، بل أمر المسلمين شورى بينهم ، ولا يستبدّ برأيه فى شىء أبداً ، وإنما يقوم على تنفيذ نظام الاسلام والإشراف عليه بأكبر

(١) الاحكام السلطانية للمواردى ٣ .

(٢) انظر: السياسة الشرعية - ابن تيمية ١٦١ ، الاحكام السلطانية ٥ .

الجهد والطاقة المتاحة لديه . ثم هو بعد ذلك مسئول عند الأمة عن أدنى خروج عن روح هذا النظام كي تحاسبه وتَقُومَ اعوجاجه وخطل رأيه ، كما تسعى لمساعدته وإعانتته، وتجب على الأمة طاعته متى ما التزم فيهم الجادة وبقي على الحق حاكما بشريعة الله ، فإن عصى فلا طاعة له على الأمة .

ونظام الحكم الاسلامي يفوق ويفضل في حقيقته توارث القيادة وحصرها كما وقع في تاريخ الاسلام ، ولا يعترف بجبروت الملك الذي يحيل خلافة الأمة ملكاً عَصُوْضاً ، فكل ذلك رغم حدوثه في المجتمع الاسلام إلا أنه غريب عن حقيقة نظام الحكم في الاسلام وروحه العظيمة ، والتي تجعل منه خلافة راشدة ومسئولية عظيمة يتحاشى ولايتها الأختيار وبيتعد عنها عباد الله الصالحون ، الا عندما تُلْزَمُهم الأمة ذلك فيقومون به خدمة لها وأداءها للواجب لاحبا وطمعا في جاه أو سلطان .

من خلال هذا يتجلي لنا خصائص هذه القيادة في المجتمع الاسلامي (١) ، وأن الأئمة المسلمين أصحاب كتاب مُنَزَّل وشريعة إلهية ، لا يُقَنَّنُونَ ولا يُشَرَّعُونَ من عند أنفسهم ، ولا يَتَخَبَطُونَ في سلوكهم وسياستهم ومعاملتهم للناس خبط عشواء ، بل قد جعل الله لهم نورا يمشون به في الناس ، وجعل لهم شريعة يحكمون بها بين الناس ، وأنهم لم يتولوا الحكم بغير تربية خُلُقِيَّة وتزكية نفس ، بل قد مكثوا زمنا طويلا تحت إشراف دقيق وأخذوا بحظ وافر من الزهد والورع والعفاف والامانة والإيثارة على النفس وخشية الله وعدم الاستشراف للولاية أو الحرص عليها ، فإذا وُلُوا الأمر لم يعدّوه مغنما ومطمعا ، بل عدّوه أمانة في أعناقهم وامتحانا من الله لهم ، وأنهم مسئولون أمام ربهم عن الدقيق والجليل ، ولم يخطر ببالهم أنهم لم يُخْلَقُوا إِلَّا ليكونوا حكاما ، ولم تُخْلَقِ الأمة إلا لتكون حكومة لهم ، ولا انتصبوا ليقوموا لأمتهم ملكا يباهون به الأمم ، أو ليستعيدوا ملك الآباء والأجداد .

وهكذا لم تَعْرِف أُمم الأرض قيادة أكمل وأرشد وأثمر من القيادة الإسلامية الصحيحة ، ودور الخلافة الراشدة في العالم مثل المدنية الصالحة

(١) انظر: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ١٢٢ ، ١١٣ .

" فقد تعاونت فيه قوة الروح والاخلاق والدين والعلم والادوات المادية فى تنشئة الإنسان الكامل ، وفى ظهور المدنية الصالحة ، كانت حكومة من أكبر حكومات العالم ، وقوة سياسية مادية تفوق كل قوة فى عصرها ، تسود فيها المثل الخلقية العليا وتحكم معايير الأخلاق الفاضلة فى حياة الناس ونظام الحكم ، وتزدهر فيها الاخلاق والفضيلة مع التجارة والصناعة ، ويساير الرقى الخلقي والروحي اتساع الفتوح واحتفال الحضارة ، فتقلّ الجنايات وتندر الجرائم بالنسبة إلى مساحة المملكة وعدد سكانها رغم دواعيها وأسبابها ، وتحسن علاقة الفرد بالفرد والفرد بالجماعة وعلاقة الجماعة بالفرد ، وهو دور كمالي لم يحلم الإنسان بأرقى منه ولم يفترض المفترضون أزهي منه " (١) .

هذه هي القيادة الاسلامية الصحيحة كما رسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمته، وكما أقامها على أثره الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم ، قبل أن تدخلها شهوة الملك وأطماع النفوس والأهواء ، وقبل أن يفهمها الناس من خلال تاريخها القديم والحديث فى هيئة مشوهة من أطماع وصراع وتنافس إلا عند قلة من الخلفاء والسلاطين ، وهذا نظام الحكم فى الاسلام كما أمر الله، وكما يجب أن يكون ، وهكذا يجب أن يُفهم حقيقته ، فإذا ما حاد المسلمون عنه أو أدخلوا عليه ما ليس منه فى عصور حكمهم فلا يعنى ذلك قصور هذا النظام وتأخره وعدم وفاته بحق القيادة ، كلا . . . وإنما العيب عيب الذين خرجوا به عن حقيقته أو قصّروا فى تطبيقه أو أخذوا بعض جوانب منه وتركوا أخرى .

هذه القيادة لم تكن إلا بسيرة الرجال الذين قاموا بها على وجهها القويم ، يُنفذون خطتها فى الحكم والسياسة العامة بروح من عقيدتهم وتربيتهم الصالحة ، فكان لها الأثر الحميد فى حياة الأمة الاسلامية خاصة ، والنفع العام للبشرية كافة بعد ذلك .

هذه القيادة التى تقف على رأس وحدة الأمة وتضامناتها والمسئولة

عنها سواء كانت قيادة واحدة للأمة الإسلامية على نحو ما كانت عليه في عصر الراشدين تحت خليفة واحد ، أم كانت تحت عدد من القيادات في شكل دول أو إمارات وغيرها كما هو حال المسلمين في الدويلات التي قامت في عصر الضعف من خلافة بنى العباس ، أو على شاكلة ما عليه المسلمون اليوم ، القيادة على أى صورة كانت ، وعلى أى رُقعة من الأرض وعلى أى عدد من المسلمين يجب عليها أن تكون على نفس الصورة التي عرفناها الآن عن القيادة الإسلامية ، أمانة ونزاهة وديانة ، ومسئولية ونظاما وحكما وسياسة ، والأئمة والولاة أصحاب دين وأرباب أخلاق عاليه ، أمناء خاشعين متواضعين .

هذه القيادة الأصلية هي التي سرعان ما تتحقق بها وحدة الأمة وإخائها ، وبدونها يضمحل وتذوب وتتلاشى ، وحين تنبذ الأمة أساليب هذه القيادة الراشدة تُشرف أمم الاسلام على الفناء ، وقد كان ذلك ، إذ عندما قامت في البلاد الإسلامية دول فرقت المسلمين ونبذت أساليب السياسة الإسلامية الراشدة لتحافظ على سلطانها وسيطرتها ، آنئذ قام على المسلمين الحكام المستبدون والولاة الجائرون والرجال الظلمة والجُنْد الأجراء ، ولم يُبالِ أحد بالشورى ولا الرجوع الى أهل الحلّ والعقد ولا تطبيق الأحكام الإسلامية في الميدان السياسى فضلا عن ظلم الرعية فكانت العاقبة " نسيان الأحكام السياسية الكفيلة بسعادة الدولة في نظامها ومالها ثم زالت الدول ، أمّا الرعية فقد بدت بينهم أمارات الضعف لما ابتُلوا به من الذلّ والقهر ، ولم تَبْقَ فيهم حياة فكرية ، وعداوة الحكام للرعية جعلت الرعية أذلاء عاجزين على يأْس من الآمال " (١) .

على هذا نفهم أن نكبات الأمة الإسلامية إنما تعود لإغفال المسلمين قواعد سياستهم الإسلامية ، وأن العيب في الأمة والرجال الذين قاموا على أمرها ، ولم يكن أبدا في أساس النظام القيادى ، وهذا النظام لا يُضفي على القائد أو الوالى قداسة خاصة ، ولا يحل له أن يكون مستبدا بأمر الأمة وشؤونها ، ولا هو مطلق اليد في أموالها يتصرف فيها

على ما يراه ، ولا حق له في الأبهة والعظمة دون الأمة . لو اتبعت
الحكومات المسلمة قواعد السياسة الاسلامية لاشترك المسلمون في الحكومة
وأحسوا إحساسا عميقا بأنها حكومتهم التي عليهم أن يحافظوا عليها
ويرعوها ، ولنتج من هذا (١) رجال نابغون يعرفون كيف يسوسون العالم
الإسلامي ويدافعون عنه ، لكن لما حيل بينهم وبين هذه القواعد وجاء
الظالمون ورجال الاستبداد أرادوا أن يُسَيِّرُوا الأمور بأهوائهم وجبروتهم ،
فلم يُرضهم أن يشاركهم أحد في السلطان ، فأصبحت الدول أمورا خاصة
بهم وبأسرهم ، فلما زالوا فنيت بزوالهم ، ولم تلق الأمة الكُفء لقيادتها
فتضطر الى التجربة بكل ما فيها من نقص وأخطار وعيوب ، لكنها تجربة في
أخطر أمورها وأعظم شئونها فمتى تفوز فيها بالفلاح والتوفيق ! .

هذه القيادة الحاكمة في الاسلام ، بعد ما عرفنا الحال التي تكون
عندما تأخذ الأمة بقواعد السياسة الاسلامية وتطبقها ، والحال عندما
تنحرف عنها أو تتجاهلها أو تأخذ ببعضها دون بعض ، كيف تكون القيادة في
الحالين ؟ .

هذه القيادة التي وقفنا عندها - على عجل - إنما لنعي المكانة
الكبرى التي تملكها وتستطيع الأخذ بها لتحقيق الوحدة الاسلامية بين
المسلمين ، فهي لاشك مكانة عظيمة وخطيرة فاذا اتجهت - كما تُلمي عليها
قواعد السياسة الاسلامية - إلى بعث هذه الوحدة وإيجادها عند ضعفها
أو استئثارها كانت لها اليد الطولى وآتت ثمرتها جنية في سرعة وسهولة ،
تفوق بذلك شتى الوسائل التي ترمي إلى تحقيقها .

فإذا ما وصلنا إلى هذا فلنعد الان إلى مفهوم الوحدة الذي
وعدنا به ، خاصة وأن هذه العُجالة عن الخلافة أو القيادة الاسلامية قد
فتحت الأذهان كي يخامرها تصوّر لهذه الوحدة فيمكننا أن نقول : قد
يُتبادر إلى الفهم أن معنى الوحدة الاسلامية أن يخضع المسلمون لقيادة
إسلامية واحدة تحكمهم سواء سموها خلافة أو إمامة أو غيرهما .

وهذا المفهوم أول ما يكاد يفهم عن الوحدة الإسلامية ، وكأنها بذلك وحدة حكم وقيادة ، أو ما يمكن أن يسمى بوحدة سياسية ، ولا ريب أن نشأة الوحدة الإسلامية في قرونها الأولى - كما أشرنا إليها - تؤكّد هذا المفهوم وتعزّزه ، فقد دان المسلمون في ديارهم المترامية من الهند إلى المغرب الأقصى تحت سلطان الخلافة الإسلامية وتحت قيادة إسلامية واحدة سواء كانت في المدينة أم في دمشق أم في بغداد .

وهذا المفهوم للوحدة هو أيضا ما كان يحرض عليه كثير من المسلمين ويدعون إلى الجامعة الإسلامية في العصر الحديث - كما سنرى عند الحديث عنها - يوحى من هذا التصور لها ، ويريدونها تحت ظل الخلافة العثمانية ، فهل هذا المفهوم هو المراد بالوحدة الإسلامية ؟

وقبل أن نجيب عن هذا يجدر بنا أن نعلم الدافع الكبير وراء هذا المفهوم للوحدة ، فلا شك أنه لم يأت من فراغ ، فالواقع الذي عاشه المسلمون منذ قيام دولتهم الأولى في المدينة النبوية إلى العصر الحديث كان على ارتباط كبير بالخلافة على مر القرون ، بل إن الخلافة بذلك حققت لهم وحدة شاملة عظيمة نعيموا بها ، واكتسبت في أذهانهم حالة من الشرعية والإجلال بالأجداد التي حققتها للبشرية ولهم ، وكان نظامها يقوم على أمور دينهم ودنياهم ، وقد رضي بهذا النظام وألفه وأحبه العرب المسلمون في جزيرتهم ، وظفروا بالولاء العميق بين المسلمين في خارجها ، وهكذا نجد أن نظام الخلافة حقق للأمة وحدة شاملة طويلة الزمن عميقة الآثار ، وغدا قيام الدولة الإسلامية في الأذهان مرتبطا بهذه الخلافة ، بل أصبح جزءا من إيمانهم وركنا من عقيدتهم ، فلم يستطع المسلمون أن يتصوروا قيام دولة لهم بدون خلافة ، ولم ينقطع ولاؤهم للخلفاء حتى عند ما استولى على نفوذهم بعض الأمراء والولاة في عصور الضعف السياسي ، بل كانوا يدعون له على المنابر ، ويضربون العملة باسمه ، كل هذا إضافة إلى اصطباغ هذا النظام بروح الإسلام في أغلب مظاهره مما أسبغ على الخلافة أنها هي وحدة الأمة ومركزها ، وكأنه لا وحدة للمسلمين بدونها .

فاذا ما أردنا الإجابة عن مفهوم الوحدة وهل هو الخلافة

الوحدة التي يخضع المسلمون لها ؟ فاننا لا نقدر أن نقول: إن هذه هي وحدة المسلمين رغم أهميتها الكبرى وتعلق الأمة بها، ورغم أمجادها التي أقامتها على مر العصور.

والمانع من ذلك أننا لو جعلنا الخلافة هي الوحدة الإسلامية فاننا بذلك نلغي هذه الوحدة حين تذهب الخلافة في بعض الفترات كما حدث لها وكما هو حالنا اليوم، ولو ربطت الوحدة بالخلافة لكانت وحدة معرضة للزوال والنفاذ، إذ كيف تكون الوحدة آنذا ؟ ولو كان ذلك صحيحا فما معنى وحدة المسلمين اليوم ؟ لكأنه قد قُضي عليها وذهبت من الوجود، ولكن هذا ليس بصحيح !

ثم ماذا تكون الوحدة حين تتعدد الخلافة، ويظهر في المسلمين عدد من الخلفاء لكل منهم دولة وسلطان، فأين تكون الوحدة ومع من من الخلفاء يُحمَلُ لواؤها، وماذا يعمل المسلمون حيال هذه القيادات المتعددة ؟ كل هذا قد حدث في تاريخ الخلافة فهل نغض عنه العين أو ننكر أثره على وحدة المسلمين ؟ .

مادام أن ذلك كله قد وقع فلا أظن أننا نستطيع أن نقول إن الخلافة هي الوحدة الإسلامية كاملة، وقصارى مانقول : إن نظام الخلافة من أهم أركان الوحدة، بل هو مظهرها السياسى، ونظام الحكم الذى يجسدها، ومادام أنه عرضة للزوال والقلقل فلننظر الوحدة فى غيره وننظر مانجد بعد هذا الانتقال ؟

مادامت الخلافة لا تمثل هذه الوحدة كاملة فلنتجه إلى الدين الذى هو أصل الخلافة وعلة الوحدة، وهو الإسلام الذى وضع قواعد الوحدة وشيّد بناءها، فهل عندما يدين بهذا الدين جماعات من البشر وفئات من الناس يمكن أن نجد أمامنا وحدة حية نابضة تدل على تضامن وتوحيى باخاء وترابط وألفه ؟

إنّ هذا يدفعنا إلى ذكر أساس هذه الوحدة والذى بدونه لا قيام لها ولا وجود، إذ عليه تُبنى هذه الوحدة ولا بد من وجوده لمن يريد

الدخول في مجتمعها ويصبح فردا من أفرادها ، ذلك الأساس هو الدخول في دين الاسلام ، والإيمان بالله ورسوله مع القيام بما في هذا الدين من أوامر والبعد عما نهى عنه كما هو معلوم من شريعته ، ثم الأخوة الإسلامية بين أفراد هذا المجتمع وفق حقوق الأخوة ومستلزماتها، والقيام بهـا والمحافظة عليها داخل الجماعة الإسلامية ، وهكذا قام مجتمع الأمة المسلمة " على ركيزتي الإيمان والأخوة .

الإيمان بالله كي يتوحد تصوّرها للوجود والحياة والقيم والأعمال والأحداث والأشخاص ، وترجع إلى ميزان واحد تقوم به في كل ما يعرض لها في الحياة ، وتتحاكم إلى شريعة واحدة من عند الله ، وتتجه بولائها كله إلى القيادة القائمة على تحقيق منهج الله في الأرض والأخوة في الله كي يقوم كيانهما على الحب والتكافل اللذين تختفي في ظلالهما مشاعر الأثرة وتتضاعف بهما مشاعر الإيثار ، الإيثار المنطلق في يسر ، المندفع في حرارة المطمئن الواثق المرتاح " (١) .

حقا إن من يدين بهذا الدين في صدق وإخلاص وعلى بصيرة قد هيا نفسه لاعتناق هذه الوحدة وقبول كل ما تنطوي عليه ، فهل نعدّ من دخل في هذا الدين وأقام شعائر عبادته قد حقق الوحدة ؟ وهل هذه الوحدة هي وحدة دينية ؟ .

إننا نجد آفا بل ملايين من الناس قد دخلوا في الاسلام ودانوا بعقيدته ، وقيمون شعائر عبادته ، لكننا قد لانجد بينهم ما يدل على روح الوحدة بل قد يكونون في بعض البلدان والأزمان متنافرين متخاصمين وأعداء متحاربين ، فماذا يعنى هذا ؟ أيعنى أن الوحدة الدينية لم تحقق بينهم إخاء ورحمة حتى وصلوا إلى ما وصلوا إليه من العداوة والبغضاء ، أم أن هناك أمرا آخر قد يكون وراء هذا العداء والعدوان ؟ .

من هنا يمكن القول : إن الذين يفهمون الوحدة الإسلامية على

أنها وحدة عبادة وشعائر بين الانسان وبين ربه فقط لا تخرج الى ما وراء ذلك فانهم لا يكادون يختلفون كثيرا عن غيرهم من الأمم الذين يجعلون هذه الوحدة وحدة دينية ينضافون بها إلى فقام من الناس قد سبقتهم إلى اعتناق دين من الأديان ، أى تكون على شاكلة الرابطة المسيحية التي يلتقى حولها النصارى ولم تمنعهم أن يكونوا أجزاها ومذاهب شتى متناحرة وقس على ذلك البوذية والمجوسية وغيرها .

وعلى هذا فهل الوحدة الاسلامية التي أساسها الدين تكون على شاكلة هذه الوحدة ؟ والجواب كلا ، فالوحدة الاسلامية وإن قامت على الدين فانها ليست مثل روابط الأديان والنحل الاخرى ، إذ أن دين الإسلام يختلف اختلافا كبيرا عن كل ماعداه من ملل ونحل ، فهو رسالة الله الخاتمة للناس أجمعين فى كل زمان ومكان ، ورسوله رحمة الله للعالمين ، فلا غرو أن تكون الوحدة التي يقيمها ويدعو اليها مخالفة لاتحادات الأمم وتضامنها . إنها بايجاز وحدة من نوع خاص ، وتجمع بشري على طراز فريد .

إن هذه الوحدة التي تنبع من طبيعة دين الاسلام العالمى وحدة عالمية إنسانية ، فهي ليست وحدة دين فقط ، او وحدة حكموسياسة ، بل هي اضافة على هاتين الوحدتين وحدة ثقافية وفكرية ، ووحدة أحاسيس ومشاعر وآمال وتصوّر ، وهي أيضا وحدة حضارة بما تحمله من أصول عظيمة وبما تتميز به من مرونة لأن تقوم في مختلف الأزمنة والأحوال ، وما كل هذه المعانسي لهذه الوحدة إلا لأن الاسلام الذى هو أساسها لم يكن مجرد مجموعة من الطقوس الدينية ، شأن الأديان البشرية أو المحرفة ولكنه كان حضارة كاملة يحملها الاسلام حيثما ذهب ، لها لغتها التي لا يصح التعبد بغيرها ، ولها قيمها وقوانينها التي تمتد وتتغلغل لتشمل سائر احتياجات الأفراد والجماعات فى سلوكهم ، وفى معاملاتهم وفى نشاطهم الفكري والفني والعاطفي على السواء .

ولم يمض على ظهور الاسلام قرن حتى كانت النظم الاسلامية حضارة كاملة ، يحملها الاسلام معه حيثما ذهب ، ليس فيها ثغرة أو فجوة ، وقد كان هذا هو السبب فى وحدة الحضارة الاسلامية ، وفى قوة الرابطة التي

تجمع أفرادها على هذه الحضارة ، والتي تذيب ما بينهم من فوارق الجنس واللغة والمكان ، بل يذيب الفوارق الناشئة عن اختلاف الزمان ، لتضم هذه الأمة فى وحدة كونية ، ترد آخرها الى أولها ، وتجمع حاضرها وماضيها ، بسبب ثبات القيم الاسلامية ، وقد رتها على الاستجابة لحاجات الحياة فى تقلباتها وتطوراتها ، وبسبب ثبات لغة هذا الدين ومرونتها" (١) .

وكل هذا لا يكفي لكي نفهم الوحدة الاسلامية ونعي مراميها ونحيط بأقطابها ، اذ هناك أمور أخرى لم نتطرق إليها وهى متصلة بها ، يجب ألا نغفل عنها حتى نقف على فهم قويم - قدر الطاقة - لها ، من غير تحييز ولا محاباة ولا مبالغة ، ولعل فى المقارنة بينها وبين عدد من التجمعات البشرية ما يعين على ذلك ، ولنرى خصائص ومميزات هذه الوحدة من خلالها .

أهم خصائص الوحدة الإسلامية ومميزاتها

(١) الوحدة الإسلامية ليست بدعا عن الوحدات البشرية في موافقتها ومسايرتها للاجتماع البشرى والتآلف الإنسانى والتعاون المعيشى بين فئام من الناس، فهى لا تتنكر لهذا الاجتماع الفطرى الذى جُبِلَ الانسان عليه، بل تؤمن به وتؤكد على أهميته وفائدته الكبرى، وتُهيئ له من الوسائل ما يُيسر قيامه ووجوده، ثم تضع له من الضوابط والمعايير ما يحفظ له بقاءه ويكفل له الاستمرار والنجاح حتى يحقق أطيب العوائد وأبرك الثمار.

لكن هذه الوحدة مع موافقتها لروح هذه الفطرة السوية تختلف عن سائر التجمعات البشرية والتكتلات الأممية والتضامات الدولية، إذ هي تقيم مجتمعا على أسس مختلفة عن أسس المجتمعات البشرية الأخرى، ولها وسائلها التى تحقق بها هذا الاجتماع، كما أن لها غايات مختلفة عن غايات سائر التجمعات والتكتلات البشرية.

هذه الوحدة تتخذ روابط تضم من ينضون تحتها أسمى من كل روابط البشر المتعددة، وهي تسعى جاهدة بوعي من الفطرة السوية إلى إقامة المجتمع الإنسانى المثالى، ولتكون هذه الوحدة هي ذلك العالم الإنسانى الرفيع الذى لا يدانيه أو يلحقه عالم آخر أو يمكن أن يفضله مجتمع سواه.

المجتمع الإنسانى الذى يتمتع فيه البشر بحقوقهم كاملة غير منقوصه، ويعاملون فيه بالمساواة على درجة واحدة، وينعمون فيه بالأمن والسلام والحرية والاطمئنان، ويأخذون حقوقهم بالعدل والقسطاس، هذا المجتمع، هو مجتمع الوحدة الإسلامية الذى تقيمة فى دنيا الناس، والإسلام هو الذى وضع معالم هذا المجتمع الإنسانى الفريد وأسس الفكرية والعملية، فهل نجد لدى المجتمعات البشرية فى القديم وفى العصر الحديث نظرية كاملة تقيم على أساسها هذا المجتمع الإنسانى؟

نظرة سريعة توضح لنا ذلك، فى التاريخ القديم نجد مثلاً أن

الامبراطورية الرومانية كانت أشهر من أقام تجمع بشرى تحت سيادة دولة كبرى ، وقد احتوت على أجناس متعددة من الأمم ، ولغات متعددة وأوطان واسعة كثيرة ، لكن هذا المجتمع - كما هو معروف عنه - كان يقوم على نظام الطبقات (١) ، طبقة الملوك والأمرء ، وطبقة الأشراف والسادة ، ثم طبقة العبيد التى تكاد تشكّل غالبية المجتمع، ويكفي فى تصوير هذا المجتمع أن يكون سواؤه عبيدا، حيث يعانون الظلم والجور، ويسومهم أسيادهم الخسف والإهانة والاحتقار، فضلا عن صبغ الجنس الرومانى بالسيادة على سائر الاجناس، وعبودية الأجناس الاخرى لأسيادهم الرومان ! فأَيُّ إنسانية فى هذا المجتمع، وكيف يكون مثاليا وسعيدا ؟

والمسيحية رغم رغبتها فى السلام، من قديم فَصَلَتْ بين الدين و الحياة، وجعلت لقيصرها الدولة والحكم يُصَرِّفها كما يشاء فناقضت الفطرة السوية التى تجعل الإنسان مخلوقا من المادة والروح ، وماهى عليه فى العصر الحديث كما فى امريكا (٢) ، حيث المسيحيون من السود والبيض يعيشون بديانه واحدة ، لكنهم لا يستطيعون الاجتماع داخل كنيسة واحدة ولا يجلسون على مقاعد واحدة متجاورين فى مركب أو مطعم أو غيرها ، وإذا انتقلت أسرة زنجية الى حيّ البيض لاقت حَتْفَهَا ، وأولاد السود لا يتعلمون مع أولاد البيض، هذا فى امريكا التى بلغت قمة الرقى والمدنية المادية ، فما هو الحال فى غيرها كجنوب افريقيا ؟

إنّهُ التفريق العنصرى ، لكنه بصورة أكبر وأشد وأنكى !
فهل مثل هذا الدين يُمكن أن يُعد صالحا لإقامة مجتمع إنسانى رفيع ؟ !

وإذا أتينا إلى العصر الحديث حيث التجمعات البشرية المتعددة ، لأنها لم تأخذ بنظام مثالى يوائم الفطرة الانسانية ، فتضطر للانتقال من نظام إلى آخر ، فان البشرية تضع أنظمة لمجتمعاتها ، يرسمها لها العلماء والمختصون فى علم الاجتماع والمدنية ، فتقيم النظريات وتشرح الهيئات والفلسفات التى يقوم عليها المجتمع ، ولا تكتفى بذلك بل تُوَلِّف الكتب وتذيع النشرات فى بيان حسناتها ومميزاتها ، وتقف للدفاع عنها .

(١) انظر: الاسلام على مفترق الطرق - محمد أسد ٣٥ ، ٣٦ .

(٢) انظر: التعصب والتسامح بين المسيحية والاسلام - محمد الغزالى .

فهناك القومية والوطنية ، والشيوعية ، وعضبة الأمم ، والأمم المتحدة والكونولث البريطاني ، والاتحاد الإفريقي ، وحلف وارسو ، وحلف الأطلسي وغيرها كثير .

لنتأمل في بعض هذه المجتمعات والتجمعات ، فالقومية التي ظهرت في أوروبا وسيطرت على أممها في القرن التاسع عشر الميلادي واشتهرت من بينها القومية الألمانية والقومية الإيطالية ، هذه القوميات منها من اعتمد اللغة والثقافة أساسا له كالألمانية ، ومنها من اعتمد على الجنس والدم والتاريخ كالإيطالية ، ومنها من اعتمد على إرادة الأمة ومشيعتها والآمال التي تطمح الشعوب وتتطلع اليها كالقومية الفرنسية (١) .

وكل هذه الأسس التي قامت عليها القوميات ليس لها في الحقيقة ما يجعلها تعتبر نفسها أفضل وأقوم من أي قومية أخرى ، فاللغة والجنس واللون والمصالح المشتركة والمصير كلها أواصر يشترك فيها كل انسان ، ويشترك الحيوان فيها أيضا مع الانسان وان لم تكن على ماهي عليه عنده ، فكل أمة سوف تنافس غيرها بهذه الأسس ، وقد كان ذلك ما أدت اليه القومية في أوروبا ، لقد كان القرن التاسع عشر وردح من القرن العشرين مجال صراع وحروب بين القوم ، وما الحربين العالميتين الأولى والثانية بنجوة من روح هذه النزعة ، فضلا عن القوميات الصغيرة التي كانت تبتلعها القوميات القوية الكبرى ، في خضم الصراع والمنافسة القومية ، وحين سرت هذه القومية إلى ديار الإسلام وكانت سبيل قوة للأمم الغرب ، فانها كانت في العالَم الإسلامي سبيل فرقة وانقسام وتطاحن ، فخرجت القومية الطورانية والقومية العربية وجوارهما القومية الإيرانية الفارسية ، وبدا التنافس بين هذه القوميات ولم يحقق لأممها إلا النكبات والبوار ولو اكتفين بالقومية العربية التي بلغت شأنا في البلاد العربية من العقد الرابع من القرن العشرين إلى اليوم لأدركنا أي مجتمع أقامته

(١) انظر : دراسة مقارنة للحركات القومية في ألمانيا - إيطاليا - أمريكا - تركيا

دكتور : صلاح العقاد ، فكره القومية العربية على ضوء الإسلام ٣٠ - ٣٧ .

وأى إنسانية صنعها دعائها (١) وإنها حققت عكس ماتريده أو مازعمت أنها
تطمع في تحقيقه من وحدة العرب الكبرى .

هذه هي القومية في بضع عقود من ظهورها وانتفاشها في الغرب
ثم في الشرق ، كيف قلبت العالم إلى أمم متصارعه وجعلت الدنيا جحيماً
وقلاقل ، وكانت لعنة على البشرية عانت منها أمم العواقب وأهلك الأزمان ؟

هل هذه النظرية الاجتماعية بعد هذا يؤمّل منها أن تُقيم
مجتمعاً إنسانياً تحلم البشرية فيه بالسعادة والأمان والكرامة ؟ ! .

الأمر واضح فهي بعيدة جداً عن ذلك مهما قال أدعياءها ووسطر
منظروها وفلاسفتها في بيان عظمتها وصلاحتها ، فالتجربة قد جعلت العالم
يقول : قطعت جهيزة قول كل خطيب .

وآخر ما يتعلق بهذه القومية أننا لو أردنا مناقشتها في أصولها
التي استندت إليها في إقامة المجتمعات لرأينا العجب في هذه النظريات ،
بل إننا سنقع على التناقض وما يكاد يكون مُحيراً من ادعاءات أربابها
وفلاسفتها ، ثم بعد ذلك قصور هذه النظريات أن تُطبق في مجتمعات
ثانية أو في أزمان أخرى (٢) ، مما يؤكّد ضيقها وصغر حدودها وأقطارها عن
أن ترقى إلى إقامة مجتمع إنساني عالمي !

لننظر إلى الوطنية ، والتي تجعل الإقليم الجغرافي المحدود أساس

(١) يكفي أن نعلم أن جمال عبد الناصر الذي حمل رُكْبَ هذه الدعوة في
العقد الخامس والسادس من القرن العشرين هو الذي أرهق العالم
العربي بسياساته القومية وفرقهم واشعل الفتنة بينهم ، مما مكن إسرائيل
من توسيع رقعتها ، فضلاً عن تجافيه للعالم الاسلامي وضرب روح
الاسلام في الامة المصرية ، وفي أيامنا هذه انكشف الحق عن
القوميين العرب في أكبر أحزابهم ، في العراق ، فنكبوا العرب بنكسة
جديدة في أزمة الكويت مما لا يدع مجالاً للظنون في إنسانية
القومية والقوميين رغم توالي الاحداث !

انظر : الشعوبية الجديدة - محمد مصطفى رمضان
(٢) انظر : الرسالة الخالدة - عبد الرحمن عزام ٢٠٥ ، فكرة القومية العربية
على ضوء الاسلام ٢٤٠ - ٢٤٧ .

التجمع البشرى، فكل من سكن هذا الوطن وعاش فيه انتمى إلى مجتمعه ولزمه أن يحرص على علاقته بأبنائه، ويكون ولاؤه وعنايته الكبرى هذه الرقعة الأرضية التي ينعم بخيراتها، فينبغي للمحافظة عليها والمفاخرة بها، ولا يعنيه ما وراءها من آلاف الأوطان إلا ما فيه مصلحتها ورفقيها .

ظهرت هذه النزعة في الغرب الاوربي مع النزعة القومية، وربما كان المزج بينهما في كثير من الأحيان لتكتمل كل واحدة عيوب الأخرى أمام الملاء، وشقى بها القوم - لاسيما الاوطان الصغيرة - هناك، ثم وصلت هذه البضاعة المزجاة إلى ديار الاسلام فما كان من بركاتها ؟

لقد وجهت العقول والأنظار التي كانت تتطلع الى العالم كله لتدعوه إلى نور الإيمان إلى وضع الحدود والحواجز الحقيقية والوهمية وانصرف المسلمون إلى العناية بهذه الحدود ودرسوها وانشغلوا بها فترة من الزمن استغلها أعداؤهم، وهذه أول البركات، ثم جاءت الثمرة المرة مباشرة وهى نتاج طبيعى للوطنية - حيث الخلاف فى هذه الحدود والمشاكل العويصة حولها، ثم التنافس فى إزاحتها وتوسيع الأوطان التى أصبحت جامعة القوم وأكبر ما يخفلون به فى حياتهم، وهكذا نظرة واحدة فى عالمنا العربى فى ضوء الحدود الجديدة لوطنياته منذ نصبها أعداؤنا - مع الأسف المرير - ورضينا بها بين أمتنا الواحدة وإلى يومنا هذا، نجد المغرب فى صراع وخلاف مع الجزائر فى حدود الصحراء الكبرى، والحدود بين مصر وليبيا مثار خلافات ومنازعات، أما سوريا ولبنان والعراق حيث تصاقب البلدان وتداخل المصالح وجريان الأنهار فحدثت عن الخلافات ولا حرج، وجزيرة العرب فى جنوبها كل يتوجس شرا من الآخر، أما منطقة الخليج فمع خروج النفط فيها بغزارة فقد لفتت الأنظار وقامت فيها حروب الحدود بين العراق وإيران ثمان سنوات (١٤٠٣ - ١٤٠٩) ما سبب كل هذا ؟

إنها الوطنية التى ازعجت عالمنا الإسلامى ومكنت أعداءنا منا، كي يفترسوا كل إقليم وظهرهم آمن أن الأوطان والاقاليم الاخرى لن تهيب لنجدته وإغااثته، فليسرخوا فى هذه الاوطان كما يشاءون !

وهكذا يتجلى لنا بُعد الوطنية الكبير - فى إيجاز - عن أن تقيم -
دعائم قويمه لمجتمع إنساني سعيد .

وقامت الشيوعية لتنشئ تجمعا من نوع آخر ، وأرادت به أن تتخطى
حواجز الجنس والقوم والوطن وسواها ، فأقامته على النظام الطبقي ، أعنى
طبقة العمال الكادحين الفقراء ، أما ما عدا هذه الطبقة فانها لا تنظر
إليها إلا بعين الحقد والكراهية ، ماذا كان أمر هذا التجمع الذى جعل
الفرد كالترس فى الالة الكبيرة المتحركة؟ ، حسبنا أن عامنا هـــــــــــــــــ
(١٩٨٩ / ١٤١٠) هو عام إعلان سقوط الشيوعية وانهارها ، ونقول
إعلان السقوط لأنه اتخذ الصورة الرسمية والعلنية وتصريحات الزعامات
الشيوعية بذلك ، والا فالحقيقة أن الشيوعية سقطت قبل ذلك بكثير ، ولولا
قوة الحديد والنار التى فرضتها الأحزاب الشيوعية الحاكمة للفظت أنفاسها
قبل هذا العام بعشرات الأعوام ، هذا والشيوعية لم يتجاوز عمرها بضعة
عقود ، ضربت على نفسها الحواجز حتى لا يعلم أحد الواقع المرير الذى
تُعانيه ، أو يخرج من داخلها من يدل على عوارها ويكشف زيفها للعالمين .

وأخيرا هيئة الأمم المتحدة التى تزعم أنها تريد لأمم العالم
الأمn والحرية والعدل والسلام ، وتكاد تضم جميع دول العالم اليوم ، وقراراتها
التي تصدرها تكاد تكتسب الإجماع الدولى والرضى العالمى ، هذا الاتحاد
العظيم فى هيئته وهياكله ، لو تذكرنا بعض أسسه ومواقفه لأدركنا - بسرعة
كبيرة - بُعده عن النزاهة والعدل ، فمن أين تأتية النزعة الإنسانية المثالية
العالمية ؟

فمن أسس هذه الهيئة أن هناك خمس دول فيها تمليك دون غيرها
من دول العالم حق النقض (الفيتو) لأي قرار تتخذه الهيئة ، فكأنما
هي هيئة الدول الخمس لا الأمم المتحدة ! ثم إن بعض القرارات التى
اتخذتها هذه الهيئة وحسبنا منها ما يعنى عالمنا الاسلامى ، نراها
موسومة بالظلم والتواطؤ مع الجور والطغيان ، وما موقفها من قضية فلسطين
وقضايا المسلمين فى القارة الهندية إلا خير شاهد لانحيازها إلى البغي
وتجافيتها عن الحق وأهله .

وهكذا وهكذا سائر المجتمعات والتجمعات البشرية الحديثه. لو استطردنا في تتبعها لخرجنا بما وجدناه في أحوال التجمعات المشار إليها حيث الاختلال والنقص ، وحيث البعد عن النزعة الانسانية في هذه التكتلات البشرية ، مما يجعل البشرية لا تثق فيها ولا تطمئن بها ، وتظل متعطشة إلى المجتمع المثالي الذي يحقق لها انسانيته ، ثم آمالها الاخرى بعد ذلك .

الوحدة الاسلامية هي وحدها التي تحقق المجتمع الانساني وتقيمه ، وتضع للبشرية المجتمع الفاضل بصورة أجمل وأكمل مما يتصور المفكرون والفلاسفة الذين يكتبون عن المدينه الفاضلة. تحقق ذلك بعد ما عجزت المجتمعات البشرية أن تضع نظرية صحيحة تُقيم على أساسها هذا العالم الانساني فضلا عن أنها تجعله حقيقة ماثلة في دنيا الواقع المعاش .

جاء الاسلام ولم يكن ديناً وجدانياً بين العبد وربّه فحسب، ولكنه دين ونظام وحكومة وقد تضمنت مصادره القواعد والنظم التي تكفل له قيام مجتمعه ذي المعالم المتميزة ، وتضمنت له بعد ذلك بقاءه وحفظه من التصدع والشقاق ، وكل ذلك بواسطة دعائمه المتينة المحكمة التي إذا حافظ عليها المسلمون فقد ضمنوا لهم مجتمعا صالحا كريما .

وقد علمنا أن الأساس الذي يقوم عليه هذا المجتمع هو العقيدة الإسلامية ، فمن اعتقدها صادقاً مخلصاً ، مؤمناً بربه مستمسكاً بإخاء الايمان ، فقد دخل في هذا المجتمع وصار فرداً من أفرادهِ ، والإسلام الذي لجأ لتكريم الإنسان ، إنما أراد له ذلك باظهار خصائصه التي تميزه عن غيره من الخلق ، إذ بها يظهر التكريم ويتجلى الفارق وتبرز إنسانية الانسان ، والعقيدة هي أعلى خصائص الانسان ، فهي كما يقول الشهيد سيد قطب (١) رحمه الله " التي تفسر للانسان وجوده ، ووجود هذا الكون من حوله تفسيراً كلياً ، كما تفسر له منشأ وجوده ووجود الكون من حوله ، ومصيره ومصير الكون من حوله ، وترده إلى كائن أعلى من هذه المادة وأكبر وأسبق وأبقى

(١) في ظلال القرآن ٣ / ١٥٦١ ، ١٥٦٢ .

فهى أمر آخر يتعلق بروحه وإدراكه المميز له من سائر الخلائق ، والذى ينفرد به عن سائر الخلائق ، والذى يقرر (إنسانيته) فى أعلى مراتبها ، حيث يخلف وراءه سائر الخلائق ، ثم إن هذه الآصره - آصرة العقيدة والتصور والفكرة والمنبع - هى آصرة حُرّة يملك الانسان اختيارها بمحض إرادته الواعية . فأما أواصر القطيع (أى النسب واللغة والارض والجنس واللون والمصالح وغيرها) تلك فهى مفروضة عليه فرضاً لم يخترها ولا حيلة له فيها كلها مسائل عسيرة التغيير ، ومجال (الإرادة الحرة) فيها محدود ، ومن أجل هذا كله لا يجعلها الإسلام هى آصرة التجمع الانساني ، فأما العقيدة والتصور والفكرة والمنهج فهى مفتوحة دائماً للاختيار الانساني ، ويملك فى كل لحظة أن يعلن فيها اختياره ، وأن يُقرر التجمع الذى يريد أن ينتمى إليه بكامل حريته ، فلا يُقيّد فى هذه الحالة قيد من لونه أو لغته أو جنسه أو نسبه ، أو الارض التى وُلِد فيها ، أو المصالح المادية التى تتحول بتحول التجمع الذى يريده وهنا كرامة الانسان فى التصور الإسلامى

إنّ العقيدة الإسلامية وضعت لتكون رابطة أخوة أسمى من كل رابطة وفوق الأمم والعصبيات والأجناس كلها ، فلا تكاد تُقرن العصبيات الخاصة بها حتى تفقد كل قيمة لها .

وقد يخال لبعض الناس أن المجتمع الاسلامى لم يَعدُ أن استبدل بعصبية اللغة والوطن وغيرها عصبية دينية مما يقيم التنافس بين الأمم ، لكن حين نتأمل فى أساس المجتمع الاسلامى (العقيدة) نجده يجعل أساس العلاقات على وحدة الفكر ووحدة الغاية المعنوية ، والناس أشد ما يكونون انفعالا للشر حينما يكون الخلاف حول المادة والبدن ، لكنه لا يكون على خلاف ديني أو مذهبي الا فى النادر^(١) فهو بلا ريب أقل شراً من سابقه بكثير .

كان من نتيجة هذا المنهج الذى اتخذه الاسلام لإقامة المجتمع الإسلامى على آصرة العقيدة وحدها أن أصبح المجتمع الاسلامى مجتمعاً

(١) انظر : الرسالة الخالدة ٢٠٦ .

مفتوحا لكل الاجناس والأقوام واللغات، بلا عائق من الأواصر النفعية المتعددة، فاجتمع في هذا المجتمع العربي والهندي والفارسي والرومي والأسود والابيض ومن كل الألوان والاجناس، واجتمعوا كلهم على آصرة العقيدة، إخوة مؤمنين متحابين، فانصهروا في بوتقة واحدة، وكونوا مجتمعا فائقا متجانسا ومتناسقا، ساهم فيه كل منهم بأقصى كفاياتهم وخبراتهم، وصبوا فيه خلاصة تجاربهم، فأقاموا حضارة حوت خلاصة الطاقات البشرية في زمانها مجتمعة، ولم يكن اختلاف اللغات والاجناس والاطان ليميز أحدا عن آخر، في هذا المجتمع الذي ينتسبون اليه جميعا على قدم المساواة، وهذا ما لم يتجمع قط لأى تجمع آخر على مدار التاريخ (١) !

إنّ المجتمع الإسلامي لا تفريق عنده بين الاجناس والشعوب، كلهم عبيدا لله، وخيرهم من آمن بالله " يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند الله اتقاكم . . " (٢) .

والإسلام لا يعرف وثنية العنصر ولا الوطن، فوطن المسلم يمتد مع امتداد عقيدته، في وطن معنوى شاسع، لا يرتكس في رقعة تضيق بنفسه او تخالف طمأنينة قلبه " يا عبادى إنّ أَرْضِي واسعة فأَيّاي فاعبدون " (٣) فيستخفّ بالوطنية التي تُضَيِّق على بني آدم أرض الله الواسعة، وتدعوهم الى الوقوف والخنوع .

ومما يؤيد كد إنسانية هذا المجتمع أنه ليس حربا على من لم يعتقدوا بعقيدته من بنى البشر، كلا فهو بريء من ذلك كما سنرى .

(١) انظر: في ظلال القرآن ١٥٦٢/٣ .

(٢) سورة الحجرات ١٢ .

(٣) سورة العنكبوت ٥٦ .

(٢) ميزة أخرى من مزايا هذا التجمع الاسلامي ، وهي سماحته الدينية ، فهذا المجتمع رغم قيامه على أساس العقيدة - كما علمنا - إلا أن ذلك لا يجعله يرفض من لم يأخذوا بعقيدته من البشر ، ولا يُجبرهم على الخروج من أرضه ، وهو بذلك لا يُريد لهم ولسائر المجتمعات إلا خيرا ، ويسمح لأرباب النحل والاديان أن يعيشوا بين أبنائه محفوظي الحقوق وموفوري الكرامات ، وبذا يجب أن يُعلم أن تجمع المسلمين وتوحدهم ليس غولا أو شبحا مخيفا يهدد سلام العالم وينذر به بشر مستطير ، وإنما غاية هذا المجتمع - كما سنرى - سلام ورحمة للعالمين ، بل إن هذا المجتمع لجعل لغير أهله ممن يقيمون داخله حقوقا يجب ادائها والتزامات ومواثيق لامحيد من الوفاء بها وإنفاذها ، مما لا تكاد تحظى به الأقليات في أكثر المجتمعات الأخرى ، ولا أدل على هذه الحقيقة الناصعة أن مُدونات الإسلام الكبرى وكتب الأحكام والامهات تعقد المباحث المتعددة والضافية للمسائل المتعلقة بغير المسلمين ، تحت مسميات أهل الذمة أو أهل الكتاب أو المستأمنين ونحوها (١) ، وتقرر فيها مالهم وما عليهم ، وما يجب على المسلمين من القيام به من حقوقهم والبرّ بهم .

وبيان ذلك أن الإسلام يقرر أن الأديان السماوية كلها إنمّا جاءت بالإسلام واستقت من معين واحد " شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه " (٢) ولذا يؤمن المسلمون بسائر الأنبياء والمرسلين ويذكرونهم بالفضل والإجلال ، ولا يعيبون على من اتبعهم وسار على ما جاءوا به من الحق ، بل يجلبونهم ويرضون عنهم .

ثم إن الإسلام وهو يدعو أهل الأرض إلى الإيمان بالله تحت عقيدته لا يُكره أحدا ولا يُقصر الناس بالقوة والقسوة على الدخول فيه ، بل يترك للناس الحرية المطلقة ، من شاء أن يدخل فيه ومن شاء أن يعتنق سواه ، كل

(١) انظر على سبيل المثال : أحكام أهل الذمة - ابن قيم الجوزية ، وأحكام الذميين والمستأمنين في الإسلام - الدكتور : عبد الكريم زيدان .

(٢) سورة الشورى ١٣ .

ذلك فى صراحة أعلنها القرآن الكريم " لا إكراه فى الدين (١) " ويخاطب الرسول صلى الله عليه وسلم بهذه الامر " أفأنت تُكره الناس حتى يكونوا مؤمنين " (٢) ، بل إن سماحة الاسلام عندما يقوم القتال والحرب بين المسلمين وغيرهم من أهل الملل كأهل الكتاب، فإن الاسلام يأمر أتباعه بعدم هدم معابد القوم وكنائسهم وميادين عباداتهم، فهم لم يخرجوا أصلاً لذلك ، وإنما خرجوا ليزيلوا الطواغيت والسلطات التى تحول بين الناس وبين حريتهم فى أن يدينوا بما يشاءون .

أما حين تقيم فئام من غير المسلمين داخل المجتمع الاسلامي ، ويرضون البقاء تحت حكم دولته فالإسلام يوجب البر بهم والإحسان إليهم " لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرؤهم وتقسطوا إليهم . . (٣) " ويفرض لهم حسن المعاملة ورقة الجانب وحسن الجوار ، بل ويبيح طعام أهل الكتاب ومصاهرتهم " اليوم أُجِّلَ لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم . . (٤) " وبهذا تختلط الأسر وتمتزج الدماء وتقوى وشائج القرى ، ثم إن دولة الاسلام يجب عليها أن تحمي أماكن عبادتهم ولا تتدخل فى عقائدهم ، بل يتركوهم وطقوسهم التى تفرغوا لها ، ولا يجوز الجور عليهم ، بل يُساوون مع المسلمين فى الحقوق والواجبات العامة (٥) ، وأن تُصان لهم كرامتهم وإنسانيتهم .

غير أن الجزية التى يفرضها الإسلام على أهل الذمة ربما كانت مظنة الظلم والطعن على هذا المجتمع الذى يفرضها على غير ابنائه ، لكن الذين يثيرون هذه القضية لو تأملوا بعين الحق فى أحكامها فى شريعة الاسلام ، ما مقدارها ، وعلى من تجب ، وماذا يسقطها ، وما الواجب فى معاملة أهلها . لأخذها إلى غير ذلك (٦) ، حيث إن الجزية التى تؤخذ

(١) سورة البقرة ٢٥٦ .

(٢) سورة يونس ٩٩ .

(٣) سورة الممتحنة ٨ .

(٤) سورة المائدة ٤ .

(٥) انظر: احكام الذميين والمستأمنين فى دار الاسلام . ٧ ، ٨٦ وما بعدهما

(٦) المرجع السابق

من غير المسلمين أقل بكثير من الزكاة التي يؤدونها المسلمون ، وأنهم لا تجب إلا على القوي القادر المكتسب ، ويُعفى منها الضعفاء والأطفال والشيخوخة ، وأنهم قد سقطوا لو لم يجدوا ما يُخرجون أو حين يعجز المسلمون عن الدفاع عن أنفسهم وعن أهل ذمتهم ، وأنه يجب على الجبلة والخاصين عدم التشدد على أهل الذمة في الجزية ، ولا يؤخذ منهم ما لا يطيقون أدائه ، كل ذلك وغيره لو تأمله من يظنون - جهلا وعصية - أن الإسلام يظلم بالجزية أهل ذمته ، لوجدوا ما يقطع حجتهم ويسكتهم .

هكذا قام المجتمع الاسلامي بوعي من روح التسامح الديني فعاش داخل مجتمعه كثير من الملل والطوائف ، ولم يكونوا يشعرون بظلم ولا اضطهاد ولا جور ، بل كانت أموالهم وأعراضهم محفوظة ومرعية ، ولو ذهبنا نتلمس آثار هذا التسامح الذي لقيه أهل الذمة في المجتمع الإسلامي ، حيث جاورت الكنائس المساجد ، وترقى كثير من أهل الذمة في كثير من الوظائف في الدولة الإسلامية ، وكان من أسرهم من يعاشرون الخلفاء ويعملون لهم وما كانوا يقيمونه في أعيادهم وحفلاتهم من مراسم البهجة والسرور وسط مجتمع المسلمين وملتئهم^(١) ، لعلمنا من كل ذلك سماحة الإسلام ومقدار الفضل الذي نعم به القوم في جواره .

أمّا لو أردنا بالمقابل أن ننظر ما لقيه المسلمون في ظل النصرانية وخزايا أهلها في التعصب الديني ضد المسلمين في الحروب الصليبية ، وما قاموا به من فضائع وفضائح في مسلمي الأندلس ومحاكم التفتيش وما اتسموا به في استعمارهم لديار الإسلام في العصر الحديث من قسوة ووحشية وهمجية ، بقصد إزالة دين الإسلام ، وصد المسلمين عن دينهم ، فضلا عن الصراعات والحروب التي قامت بين نحلها ، مثلما حدث بين الكاثوليك والبروتستانت وصراعات البابوية ضد مخالفيها في العصور الوسطى ، إضافة إلى ما تلقاه سائر الأقليات في مختلف البلدان في العصر الحديث من حيف وضغوط من أرباب الأديان الحاكمة والمتسلطة ، لو تأملنا كل ذلك - وهو غيض من فيض - من صراع المجتمعات ، وما كان للدين من أثر

(١) انظر : من روائع حضارتنا - مصطفى السباعي ٨٤-٩٠ .

كبير في ذلك الصراع ، لادركنا عندئذ كم هو الاسلام بعيد وبعيد عن تعصب (١) الأديان ، وكم هو رحب الصدر في التسامح الديني، لم يكن عدواً للاديان ولا محاربا لها ، وحسبه أنه عاش في مجتمعه منذ القرن الأول الى اليوم آلاف البشر من شتى الملل والاديان ، رغم ما كان يلحقه من جراء هذه السجية الكريمة العاليه من أضرار أودت في بعض الاحيان بزوال دولته وذهاب سلطانه من بعض بقاع كبيرة وعظيمة على وجه الارض .

إن هذا التسامح الديني الذي بدأ الاسلام فيه سائر الأديان فضلا عما سبق، لهو ما شهد به الاعداء قبل الاصدقاء (٢) ، ولعل ذلك أعظم الحق وأصدق الشهادة على عظمة هذا الدين وروعته وإنسانيته .

(٣) المجتمع الاسلامي في تضامنه وصدق إخائه وترابطه يُشكّل وحدة قوية متماسكة لاتصل إلى قوة ترابطها سائر المجتمعات الأخرى ، وهى بذلك تُحوّل مجتمعها صلابة ومنعة تجعله يستعصى على عوادي الزمان التي تبديد الأمم وتفتني الجماعات والمجتمعات .

وما مصدر هذه القوة في الحقيقة إلا من روح دين الاسلام، إذ أن عقيدته وشريعته ومنهجه الذي يشمل شتى جوانب الحياة تحمل من عناصر القوة والروعة والخلود والافضلية ما يجعلها تفوق سائر المناهج التي تتخذها المجتمعات البشرية لحياطتها وحفظها .

ولاغرو أن يكون هذا الاساس الديني وراء تلك الدول الاسلامية العظيمة التي أطبقت على المشرق والمغرب، إذ أن الدولة العامة الاستيلاء العظيمة الملك ، أصلها الدين، إما من نبوة أو دعوة حق ، وذلك لأن الملك إنما يحصل بالتغلب ، والتغلب إنما يكون بالعصبية واتفاق القلوب، وتأليفها إنما يكون بمعونة من الله في إقامة دينه ، قال تعالى : (لو انفقت ما فى الارض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم) وسره أن القلوب

(١) انظر لمزيد من الايضاح : التعصب والتسامح بين المسيحية والاسلام - محمد الغزالي .

(٢) انظر مثلاً : من روائع حضارتنا ٩٤ ، ما يقال عن الاسلام عباس العقاد

إذا تداعت إلى أهواء الباطل والميل إلى الدنيا حصل التنافس وفش —
الخلافاً، وإذا انصرفت إلى الحق ورفضت الدنيا والباطل وأقبلت على الله
اتحدت وجهتها فذهب التنافس وقل الخلاف، وحسن التعاون والتعااض
واتسع نطاق الكلمة لذلك فعظمت الدولة (١) .

ثم إن المجتمع الإسلامي الذي جعل العقيدة أساس وحدة بنية
وتجمعهم ، قد جعلهم تحت مظلة إخوانا بأكبر معاني الأخوة وحقوقها ، ونظرة
إلى التماسك الاجتماعي في الإسلام تجعلنا نقف على قوة هذا الإخاء ، فهو
إخاء يقتضى تبعات وحقوقاً ، فيجب على كل أخ أن يهتم بأمر أخيه والعناية
بشأنه والدفاع عنه والعمل على ما فيه خيره وسعادته " والمؤمنون والمؤمنات
بعضهم أولياء بعض " (٢) ويقول صلى الله عليه وسلم : " مثل المؤمنين في
توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو
تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى " (٣)

ومن مظاهر هذا الإخاء ألا يدع المسلم أخاه للمحسن والارزاء تنال
منه دون أن يشاركه محنته ، ويبذل له من ذات نفسه وذات يده ما يدفع
به مانزل به من المصائب أو الشرور ، فالمسلم كما قال صلى الله عليه وسلم
" أخو المسلم ، لا يظلمه ، ولا يخذله ولا يحقره ، بحسب امرئ من الشران
يحقر أخاه المسلم كل المسلم على المسلم حرام دمه ، وماله ، وعرضه " (٤) .

أما مظاهر التكافل الاجتماعي التي جاء بها الإسلام فحسبنا أن
نعلم أن الزكاة الركن الثالث من أركان الإسلام التي لا لمسلم لمن ترك
واحدا منها ، هذا فضلا عن أن روح الشريعة في العبادات والمعاملات تؤكد
روح الإخاء والترابط والتكافل وحفظ الحقوق ، وحسب مجتمع هذا شأنه
أن يظل قويا عزيزا .

وإذا تذكرنا أيضا أن وحدة هذا المجتمع ليست فقط في الدين

(١) مقدمة ابن خلدون ١٠٩ .

(٢) سورة التوبة ٧١ .

(٣) رواه البخاري ومسلم .

(٤) رواه مسلم في كتاب البر

والحكم - كما سبق - بل هي وحدة ثقافة وفكر ولغة لأدركنا جيدا قوة هذه الوحدة الحقيقية واستعصاءها على الزوال والاضمحلال ، إنَّ وحدة الأمة والمجتمع في العالم الاسلامي لم تكن نتيجة الوحدة السياسية ولا مرتبطة بها ، فكثيرا ما تعددت الدول وتصارعت في المناطق من غير أن يُؤثر ذلك على الوحدة العقيدية والاجتماعية والفكرية للأمة الإسلامية .

ولاشك أن وحدة الأمة أساس صالح للوحدة السياسية حيث تجعلها سهلة وممكنة ، لكن الوحدة السياسية للأمة لم تكن شرطا لوجود وحدة الأمة عقيديا واجتماعيا وفكريا في الماضي ، ولن تكون شرطا لها في المستقبل ، " إنَّ الوحدة السياسية لاى دولة أسرع انهيارا من وحدة الأمة لأنها تتأثر بعوامل خارجية وداخلية ذات طابع عسكرى أو سياسى لا تؤثر حتما في كيان الامة الاجتماعى والعقيدى .

ان الوحدة العقيدية لامتنا تتمتع بحصانة أقوى وأكبر ضد الغزو الفكرى الخارجى وضد عوامل التفرقة الداخلية . إنها يمكن ان تبقى أجيالا ولا تنمو رغم فقد الوحدة السياسية . لذلك فان كثيرين يخطئون عندما يظنون أن الامة الاسلامية فقدت وحدتها وشخصيتها المستقلة منذ أن فقدت الدولة أو الدول الاسلامية استقلالها أو وحدتها السياسية . أن شخصية هذه الامة باقية مابقى الاسلام الذى تتمثل فيه وحدة المنطقة وخصائصها من الناحيتين الفكرية والاجتماعية " (١) .

ان من الخطأ الفاحش أن يظن أن الشعوب الاسلامية بعد زوال وحدتها السياسية أصبحت لا تكون أمة واحدة ، أو أنها أصبحت لذلك ميدانا للتنافس بين القوى السياسية في الشرق أو الغرب ، فهذه الشعوب مازالت تحتفظ بوحدة امتها وعقيدتها وشخصيتها ومقوماتها الثقافية والاجتماعية والفكرية .

ولعل هذا يؤكّد لنا السبب في انحراف ميدان الصراع بين امتنا

(١) جريدة المسلمون - عدد ٢٠٧ - ٣ جمادى الثانية ١٤٠٩ - مقال :
اسلحة الحداثة والمسح والتغريب للدكتور : توفيق محمد الشاوى . +

وأعدائها في العقود الأخيرة من القرن العشرين وان لم يغفلوا عنه قبل ذلك ، حيث أصبحت الثقافة والفكر والأدب والفن وبعض ضروب من العلم هي مجال التنافس ومضمار السباق ، فقد ركن أعداؤنا إلى هذه الميادين وأرادوا تنفيذ مآربهم في سلخ هوية هذه الأمة من خلالها ، واتخذوا لهم من بعض أبناء الأمة الشواذ أو الضالين عملاء يتعاونون معهم لبث أفكارهم ونشر سمومهم في تلك الميادين ، ويريدون أن يزرعوا بها فكرهم وأيدولوجيتهم ليصرفوا بها أمتنا عن مراكز وحدتها ، وعن القواعد والأصول الفكرية التي تكون الأمة وعقيدتها، وتكسيها أصالتها واستقلالها وشخصيتها الإسلامية المتميزة .

وقد يُهاجم أولئك العملاء والمستغريون أصالة الأمة ويحاربون دعاة الأصالة والمدافعين عنها ويريدون أن تنسى الأمة بما ييئون من سمومهم- أصولها ومقوماتها ، ويستدرجونها كي تنحرف عن طريق وحدتها لتنتهي إلى مذاهب وعقائد وأفكار شرقية أو غربية، من صالح أهلها أن تنال الرواج بين المسلمين، يعملون ذلك تحت ستار كثيف من الشعارات المُضلَّلة باسم العلم أو التطور أو الحداثة أو المعاصرة .

إن هذا الصراع الذي لا يزال ضاريا بشراصة إلى اليوم هو أكبر مأهُدَدَتْ به أمتنا ووحدتها قديما وحديثا ، وكما حاول الاستعمار في مطلع هذا العصر أثناء سيطرته على أكثر بلاد الإسلام أن يمحو عقيدة الأمة ودينها ، ثم قاومته الأمة - على ضعفها - حتى استردت حريتها وسياستها وأوطانها ، فكذلك يجب عليها أن تثور للحفاظ على أصولها وثقافتها وعقيدتها التي يراد هدمها حتى تعود لها وحدة أمتها وشخصيتها المتفردة الأصيلة وألا تغدو ظلا شائها لا يدولوجيات شرقية ولا غربية .

إن دعائم وحدة المسلمين تمنح مجتمعهم ترابطا قويا لا نظير له في أى مجتمع آخر، ولذا فاتحاد المسلمين قائم رغم ذل المسلمين السياسي وتخطيط قياداتهم ذات اليمين و الشمال ، إذ أن سر هذا الاتحاد أنه وشيجة نفسية وآصرة لا تعمل فيها مدافع ولا سواها ، وأن هذه الروابط

لا تُحل بأي قوة مادية أبداً (١) ، وكل ظلم وعسف على الإسلام وأهله يزيـد هذه الرابطة قوة وتماسكاً ، إذ هي قوة نفسه ، والآمال القومية والعواطف الدينية لا تُتغلب بقوة المدافع والبنادق أبداً ، فهي قوى روحية لا تُعمل فيها قوى المادة شيئاً ، وحسب هذه الوحدة بهذه القوة التي تمتلكها وتمتاز بها أنها تتعالى على وحدات المجتمعات الأخرى ، وتغالب حوادث الدهر في صمود وشمم وكبرياء .

(٤) الأصل الصحيح والقيوم في الوحدة الإسلامية أن تكون للمسلمين حكومة واحدة مهما كثر العدد وتعددت الأوطان ، وهذا ما أرشدهم إليه نبيهم صلى الله عليه وسلم ، وسار على هديه الخلفاء الراشدون وكثير من خلفاء المسلمين بعدهم .

والعجب العجيب أن يظل المسلمون تحت هذه الوحدة يضع عشر قرناً حتى أزيلت الخلافة الإسلامية في العصر الحديث ، ثم تتعالى الأصوات ويكثر الضجيج بعدم صلاح الخلافة لحكم الأمة وتظهر - كما سنرى - الطعون والانتقادات عليها ، هذا وهي مُثبتة قدرتها لقيادة الأمة وتفوقها على الأمم الأخرى ، بل هي التي صدّت عن المسلمين اعتداءات شتى الأمم عليها من الشرق والغرب ، على الرغم من تباعد الديار ونأي الأوطان وبدائية الوسائل التي تعين على الاتصال على امتداد تلك العصور ، ثم نجد من يدّعي عدم صلاحها لحكم المسلمين في العصر الحديث . . . (١)

المجتمع المسلم له حكومة إسلامية واحدة لا تقبل التجزؤ ، هذا ما يدعوا إليه الإسلام ، وما يفهم من طبيعته وروحه وعصمته .

وعلماء الإسلام الذين بحثوا هذه القضية فيما سَمّوه " تعدد الائمة " بمعنى هل يلزم المسلمين جميعاً أن يكونوا حكومة واحدة لها إمام واحد ، أم يجوز لهم أن يتخذوا أكثر من دولة بأكثر من حاكم ؟

حين يناقشون هذه المسألة نجدهم يذكرون فيها رأيين . (١)

الأول : لا يُجيز تعدّد الأئمة .

والثاني : يجيز هذا التعدد .

لكن الذى يظهر من رأى العلماء المحققين أن التعدد جائز للضرورة فحسب، كتبنا عدالديار أو فصل الكفار قطعة من أرض المسلمين وراءهم عن الإمام، والرأى الاول هو الراجح لما يعضده من نصوص القرآن والسنة والإجماع التى لا تُقاس بها أدلة مُجيزى التعدد ، ثم إن مجيزى التعدد إنما أباحوه على سبيل الاستثناء المحض، والضرورة هى التى أجازته وهم يقرّون أن وحدة الإمامة هى الأصل فى الاسلام ، والضرورة تُقدّر بقدرها ، فإذا زالت زال حكمها وبقي الأصل .

لندع هذا على أهميته ولننظر فى الأمر الواقع حيث المسلمون دولاً وحكومات متعددة ، فهل يعنى هذا أن الوحدة الاسلامية قد ذهبت ريحها وانقطع دابرها من بينهم؟

الحق أن هذه الوحدة تمتلك قوة عجيبة - كما رأينا - تستعصي على الحوادث والأزمان ، والحكومات والدول الاسلامية رغم تفرقها لو صدقت فى ولائها الإسلامى وإخلاصها لعقيدتها لما ضربها كثيراً تعددُ حكوماتها ودولها ، إذ أن ما يجب على كل حاكم مسلم من تحكيم شريعة الله والاعتصام بالكتاب والسنة وحفظ حقوق أمته الاسلامية أفراداً وحكومات ، وكل ذلك يجعل كل حكومة مع الحكومات الأخرى كالأخ مع اخوته ، يههم ما أهمهم ، ويؤذيه ما يصيبهم ، وحياته بحياتهم ومصالحه هى مصالحهم ، لو أنصفت القيادات والحكومات الاسلامية المتعددة حقاً والتزمت بدينها قولاً وعملاً لما نزل بها منازل من الهوان والخذلان وتسلط الأعداء وسلب المقدسات !

إنّ المطامع والشهوات والاستئثار بالملك والميل إلى الدنيا واتباع الأهواء هى التى نكبت وحدة المسلمين وأكثرت قياداتهم ، والأهواء أدّت

(١) لخصت هذه المسألة بإيجاز عن : الإمامة عند أهل السنة والجماعة ٥٥٢-٥٦٣ ، وانظر : صحيح مسلم بشرح النووي ٢٣٢/١٢ ، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٧٣/١ .

الى التفرق ، وأينما حل التفرق فهناك الشقاء والشقاق .

لم تُبقِ الحكومات الظالمة فى المجتمع الإسلامى على الأخوة الإسلامية ، " وكثرة الأمراء أدت الى زيادة الفرق ، ونماؤها فى حرية أدى الى النزاع وظهور المذاهب الضالة المختلفة بين المسلمين فلم تبق بينهم مودة ، وزوال الألفة لم يلبث أن أزال الحكومة الإسلامية ، كما محى كل حكومة وفرق كل جماعة " (١) والأمثلة لدينا عديده ، وما حل بالأندلس حتى خرجت من حوزة الإسلام الا مطامع الأمراء - طلاب الدنيا - الذين لم يتعاونوا مع إخوانهم ، بل استعانوا عليهم بأعدائهم - حرصا على سلطانهم فالتهمهم عدوهم واجدا تلو واحد حتى لم يُبق منهم أحدا !

لو كانت حكومات المسلمين المتعددة تستشعر واجب الأخوة الإسلامية لكانوا قوى عديدة تنهال من كل دولة وحكومة إسلامية على أى عدو ينزل بأى حكومة من حكوماتهم ، ولربما يذهب الخيال بالمرء إذا ملكت هذه الحكومات بعضا من أسباب القوة ، أنها ستفرض رأيها ومكانتها على المجتمع الدولى بكل اعتزاز واقتدار .

وإذا تذكرنا العالم الإسلامى وقد قامت عليه عدد من الحكومات قبل العصر الحديث فإن الأخوة الإسلامية كانت حية قائمة ، والعالم الإسلامى رغم تلك الدول يرى أنه عالم واحد ، وكل مسلم يدين بالولاء والطاعة لى حكومة يعيش تحتها أتى وجدت ، ويشعر بمسئوليته فى المحافظة عليها والمشاركة فى الدفاع عنها ، وتلك الدول كان لها أن تستفيد من الطاقات البشرية المتواجدة فى كل مكان من العالم الإسلامى ، وكان ثمرة ذلك أن الرجل كان يذهب من أقصى الغرب إلى أقصى الشرق ، يدخل أى بلاد يشاء دون عقبات ولا حواجز ، يمكنه ما يمكنه ويطلب العلم أو يتجرأ أو يطلب الرزق ، أو يبحث عن عمل متنقلا من بلد الى آخر ، فيجده دون صعوبة على نحو ما قصه ابن بطوطة الطنجى (٢) (٧٠٣-٧٧٩) الذى

(١) اتحاد المسلمين ٥٨ .

(٢) انظر ذلك فى رحلته (تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) وكانت قد استغرقت سبعة وعشرين عاما .

طوّف بلاد الإسلام من المغرب إلى الهند واتصل بسلطانها ، فقلده منصب قاض القضاة وبعثه سفيراً له إلى حكومة الصين ، كما نتج عن ذلك أنّ المسلم لم يكن يحس بغربة ولا جفوة ولا غضاضة وهو يدخل تحت حكومة بعد ما نقلته ظروفه تحت حكومة سواها .

إن تعدّد القيادات أو الحكومات الطامعة في الشهوات والزعامة جعل الغايات متباعدة والاغراض متباينة ، وشغل العامة بمظاهرة كل خصم على خصمه ، وفُرقت الأمة والعدو على الأبواب ، كانت الغاية لهذه القيادات ألقاب الإمارة وفخخة السلطان حتى ولو على بلدة صغيرة فتسمى بالإمارة أو الحكومة السلطنة ، وهي في ميزان الدول لا تساوى شيئاً أبداً ، فحولوا أوجه المسلمين في كل اتجاه ، وخرج كل أمير على ملكه أو خليفته ، فتناكرت الوجوه وتبدّد شمل الأمة وذهب شأنها وقعدت عن التقدم والرقى في معارج العلوم الحديثه حيث سبقتها الأقوام .

أمّا عند ما نسمع من يقول : إن وحدة المسلمين قد عفت عليها — الحوادث وغبرت عليها السنون ، فما معنى هذه الوحدة وقد أضحى المسلمون فرقاً وأحزاباً ، ودولاً متفرقة وشعوباً ، وحكومات متنافرة وربما متحاربة أزماناً ، كما يُغني واقعهم اليوم عن بيان لشتاتهم وتمزقهم ؟ فحسبنا أن نُذكرهم ، أنّ واقع المسلمين المزري لا يُعفي المسلمين أمام ربهم وأمام مسئوليتهم — عن المطالبة والسعي لتحقيق وحدتهم وإعادة جماعتهم ، بل لقد طولسوا بالاتحاد وهم أمة واحدة مبالغة في التحفظ والصون عن الفرقة ، ولا يعني ذلك " أن تُعاد الخلافة الإسلامية كما ابتدأت وارفة على الجماعة الإسلامية وإن كان يجب أن يكون غرضاً مقصوداً وهدفاً منشوداً .

ولنّما نكتفى بالحد الأدنى من الوحدة ونبني عليه ما بعده من ادوارها حتى يصل المسلمون إلى أعلى مدارجها ، في أمر جامع لهم ، تحت أي شكل من الأشكال " (١)

وإذا تعاظم المسلمون تحقيق هذه الوحدة فكيف ينسون قيام

شعوبا عديدة تجمع مئات الملايين من البشر ربما فاقوا المسلمين عددا تحت حكومة واحدة ، مع وجود اختلاف اللغات والأجناس والأوطان على مثل ما عليه كل من الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الأمريكية وجمهورية الصين .

تحققت هذه الحكومات الكبيرة لشعوب عديدة وما تنطوي عليه شعوب المسلمين من عوامل الوحدة والاتحاد يفوق ما يماثلها عند تلك الشعوب فكيف نؤمن بهذه ونكفر بتلك ؟

(٥) الوحدة الإسلامية بعد ماسبق تمتاز بواقعيتها وسهولة قيامها وتحقيقها ، فالحق الذي ينبغي ألا نُخطئه عن هذه الوحدة ، إنَّ الوحدات التي قامت في شتى المجتمعات والتجمعات قد إما وحديثا لم يصل رصيدها الحقيقي في واقع المجتمعات ولا يمكن أن يرقى إلى ما هو عليه فسي مجتمع المسلمين أو يصل إليه ، وأصدق ما ندل به على هذا الإخاء الحقيقي الذي يوجبه الإسلام على أهله تلك المؤاخاة التي تمت بين المهاجرين والأنصار في صدر هذه الأمة ، فقد وُحد بينهم الإسلام على المواساة العظيمة فكان الأنصار يتسابقون في مؤاخاة المهاجرين ، حتى يؤول الأمر إلى الاقتراع ، ثم بعد ذلك نرى الانصار - رضى الله عنهم - يُحكّمون إخوانهم المهاجرين في دورهم وآثامهم وأموالهم وأرضهم وكراعهم ، ويؤثرونهم على أنفسهم ، حتى بلغ الأمر بالقوم أن يقول الانصاري لأخيه المهاجر : انظر شطر مالي فخذ ، ولى امرأتان فانظر أيّهما أعجب إليك حتى أطلقها وتتزوجها . هذه هي روح هذه الوحدة أو ما يجب أن تكون عليه ، حتى لاتخذ عنا انحرافات المسلمين القليلة والكثيرة عنها بعد ذلك فيتجاهلها اقوام ويتنكر لها آخرون .

هذا أمر وهناك أمر آخر يضاف إليه ، إذ أن هذه الوحدة وهي تُلبّي فطرة الناس وحاجتهم إلى الاجتماع ، تغاير كثيرا من نظريات الاجتماع وتفضلها ، إذ نجد هذه النظريات تضع أصولها وترسم مناهجها وفلسفتها وغاياتها ، ولكنها عندما تأخذ بها في الحياة وتطبقها حقا تقع في التناقض والتخبط والاضطراب ، وتمنى بالفشل الذريع في إقامة المجتمع

على تلك النظريات ، ولذا تَظَلُّ أكثر هذه النظريات الاجتماعية خيالا لا حقيقة له، ولوائح لا تطبيق لها، ونظريات محجوزة بين الصفحات والأوراق لا تتعداها، ولعل ما ذكرنا من حال القومية والوطنية والشيوعية وغيرها من النظريات والتجمعات تدل على حقيقة ذلك ، إذ أنَّ قصور تلك النظريات عن حاجات المجتمع الإنساني قد أدَّى إلى سرعة زوالها في بضعة عقود ، بينما الوحدة الإسلامية تتمتع بعمر ينيف على أربعة عشر قرنا ولا تزال محتفظة بما يكفل لها الحياة والاستمرار رغم الضربات العنيفة التي منيت بها في العصور الأخيرة . ولعل في هذا أكبر دليل على واقعية هذه الوحدة وتلبيتها الصحيحة للاجتماع الانساني، وإلا لما كان لها أن تظل تلك الاحقاب محافظة على نفسها وحية مزدهرة في مجتمعها ، فهي ليست خيالا ولا ظنونا وأوهاما ، ولا نظرية تدور في العقول وتكتب في السطور والصفحات ثم لا نجد لها واقعا حيا يمثلها ويصدق عليها .

أمَّا سهولة تحقيقها التي قد يُظنُّها اليوم خرافة كثير من الكتاب والزعماء السيايين - بسبب بعد هم عن فهم حقيقتها وروحها - فلا يُضيرنا التأكيد عليها رغم الوضع المزري لأمتنا اليوم فيما يتصل بهذه الوحدة، وجفوتهم لها وبعد هم عن الأخذ بأسبابها، فالحق الذي يجب أن يُقال من غير تأثر بحال أمتنا اليوم : إن هذه الوحدة على درجة كبيرة من السهولة واليسر عند ما يُراد تحقيقها وإقامتها ، ولا أظنَّ ذلك يصبح غريبا علينا بعد أن عرفنا بعض خصائص هذه الوحدة وأسسها .

فهي باتخاذها العقيدة أساسا لها ومرتكزا لإخاء مجتمعها نراها بهذا الأساس قد نَجَتْ من كثير من العوائق التي اتخذتها المجتمعات البشرية أساسا لاتحادها ، وأراحت المجتمع الاسلامي من كثير من أسباب الشقاق والتنافر والتصدع ، فالأمم التي اتخذت الجنس أو العنصر والدم ركيزة لمجتمعها تواجهها مشكلة عويصة تكاد تعصف بهذا الأساس، إذ مَنْ من الأمم يستطيع أن يدَّعي نقاء أُمته وصفاء عنصرها وعدم اختلاط دمائها بالأمم من حولها ؟ إنَّ ذلك مستحيل قطعاً ، والأمم البشرية على مدار تاريخها معرضة لاختلاط الأجناس وتنقل الناس وهجرات الشعوب والأسر . وكل ذلك يجعلها تضطرب عندما تريد تحديد شعوبها وأجناسها، مَن

تَأْخُذُ وَمَنْ تَدْعُ ، وَمَنْ تَدْخُلُ وَمَنْ تُخْرِجُ ، ولعل في اضطراب القومية الطورانية التركية في العصر الحديث^(١)، بين أن تكون مكتفية بالأتراك العثمانيين وسائر من ساكنهم واختلط بهم في غربي آسيا وجنوبي أوروبا ليشكلوا أمة قائمة بذاتها ، وبين من يرون أن الترك أمة قديمة وأنهم هم والجنس المغولي يعودون لأصل واحد فيلزمهم أن يعودوا أمة واحدة ، لعل في هذا الاضطراب خير دليل على ضخامة العقبة التي تواجه أساس هذا الاجتماع .

وهكذا لو أردنا أن نمضي مع أسس المجتمعات الأخرى - كما مر بنا - فالقومية التي تعتمد اللغة كيف لها أن تنجح وتقوم في بعض المجتمعات التي تتكلم عددا من اللغات كدول وسط أوروبا كالنمسا وسويسرا فضلا عن وجود اللهجات داخل كل لغة ، والوطنية تقابلها ظروف البيئة التي تجعل الناس يتزاحمون على مواطن الخصب والزراعة ورخاء العيش، إضافة إلى المواقع الاستراتيجية، مما يجعل البلدان التي تتمتع بها عرضة للصراعات والمنافسات الدولية والأممية ، والناس ليسوا كالقطيع في انضمامهم، فهم آمال وطموح وروح إنسانية ، عندما لاتجد المقام الذي يرضيها ويريحها فلا تكثر لان تدعه إلى سواه .

يبقى بعد هذا أن يُقال: هناك مجتمعات اتخذت الدين أساسا لها كاليهودية أو النصرانية فحال دون سرعة اتحاد أممها ، فلماذا نزعّم ذلك للإسلام ؟

قد سبق أن علمنا أن اتحاد المسلمين الذي قام على دين الإسلام يتميز بروح التسامح الديني الكبرى ، فهو ليس خصما لمن لم يدينوا به ، بل يسمح باقامتهم ويعطيهم حريتهم وكرامتهم داخله كي يعيشوا سعداء آمنين، وهذا الأمر يجعل هذه الوحدة سهلة لانضمام من لم يدينوا بالإسلام تحت وحدة سلطانه ومظلمته ، وليس غريبا إذن يكون أهله أعظم ألفه وإخاء وترابطا خاصة وأن إخاء أفراد مجتمعه - كما علمنا - قد شدّ بكل وسائل التضامن التي تجعله يغالب كل أسباب الفرقة والخلاف والاختلال .

هكذا يتجلى لنا أن الوحدة الإسلامية تجاوزت الأسس الوطنية

واللغوية والجنسية والنفعية لمجتمعها ونجت من عراقيلها وأحابيلها ، ولم
تضق ذرعا بمن لم يعتنقوا دينها أن يستظلوا بدوحة مجتمعها الوارفة في
عافية وأمان ، فكيف لنا بعد هذا ان نستنكر سهولة تحقيقتها ؟

قد تعود لأذهاننا حالة الانقسام والفرقة التي مُنيت بها أمتنا
اليوم، فكيف يزعم امروء سهولة الوحدة والحال مانرى ؟

هنا نتذكر ما رأيناه آنفا من قوة هذه الوحدة ، وأنها وحدة أمة
وعقيدة وفكر ، وأنها لا تسقط ولا تذهب بزوال الوحدة السياسية ، بل إن
الوحدة السياسية ليست شرطا لازما لوجودها ولكنها تعين حقا على حفظ
وحدة الأمة عقديا وفكريا ودوليا ، ولا شك أننا حين ندّعي للوحدة الإسلامية
الواقعية وسهولة التحقيق ، لانّدعى أنها بذلك لا تجد عقبات أمامها عند ما
تأخذ سبيلها في ميدان الحياة العملي ، كلا- فقد تواجهها بعض العقبات
التي تقف أمام بعض المجتمعات القائمة على الوطنية أو اللغة أو غيرها ،
لكن ما يجب أن نعيه أنها تمتلك من المقومات والمقدرات في تجاوز هذه
العقبات ما لا تملكه غيرها من الوحدات الاجتماعية ، فتصل إلى إقامة
مجتمعها وإنشاء وحدتها من أيسر السبل وأفضلها ، وتلك ميزة لا يستهين
أحد بها ، خاصة وأنه قد أكدها مفهوم هذه الوحدة من خلال دينها
ومن خلال مسيرتها التي ظهرت فيها أيام نشأتها الاولى ، ومهما كان
حال الوحدة الإسلامية وما اعترأها من عقبات زلزلتها في بعض العصور
أو أفقدها وحدتها السياسية كما وقع في العصر الحديث فإن طبيعتها
وروحها الصحيحة تجعلنا - بلا تأثر ولا ميل - نصدع بالحق الصراح أنها
أصدق وحدة بشرية واقعية وأيسرها من الإيجاد والمنال .

(ب) وسائلها :

لا يخفى أن المجتمعات الانسانية إنما تقوم عندما يتآلف الأفراد ويتعاونون ويتعاونون ، وإنما يقوى هذا التآلف والتواد بقدر ما تقوى بين أفراد المجتمع أسباب التعارف والترابط وتكثر وشائج التراحم والتواصل والتعاون ، والتي إنما تنبعث عن تقارب الأمزجة وتشابه الافكار والأنظار إلى المعاني والأشياء ، واتحاد المشاعر والأحاسيس والآراء ، مما يجعل الأمة الكثيرة كالأسرة الواحدة ، والإرادات العديدة كالإرادة الواحدة ، وفي ذلك ما يدل على وجود المجتمع الإنساني حقيقة ، حيث التماسك والتعاون والإخاء .

ولذا كان كل تجمع بشري يتخذ له أسسا يُقيم عليها مجتمعه لأنها أهم بواعث التآلف وأعظم أسبابه التي يعتقدها ، ورأينا الأمم تتفاوت في هذه الأسس ، فلا غرو أن مما يُعلم من حال الأمم والمجتمعات أن هناك أساس كبير من أسس التجمع البشري يكاد يكون أعظم باعث لأسباب التآلف والتواد والتقارب في الأحاسيس والمشاعر والافكار ، ذلك هو الدين في سائر المجتمعات وفي أغلب الأحوال . فالأديان بطبيعتها يكون لها تأثير كبير في تحديد معالم المجتمعات وخصائصها ، وهي التي تكاد تحدد للأمة عاداتها وتقاليدها وأخلاقها وأمزجتها ولغتها وعلاقة أفراد الأمة ببعضهم وصلات الأمة بغيرها من الأمم أو الشعوب الأخرى .

يقال هذا بصفة عامة على الأديان ، أما إذا نظرنا إلى دين الإسلام في ضوء ذلك فإننا نجد أنه ينطبق عليه انطباقاً عظيماً ، بل إنه لا يفوقه في ذلك دين آخر أبداً ، إذ الإسلام لم يكن شعائر وطقوس محدودة ، ولكنه نظام شامل كامل لكل جوانب الحياة ومناحيها المتشعبة ، فهو الذي يحدد للأمة شعائر عبادتها ويحدد وجهتها ورسالتها وآمالها في الحياة ، وهو الذي ترسم مصادره للمجتمع نظاماً في شتى ألوان المعاملات والقضاء والعلاقات الأسرية والاجتماعية والعادات والأخلاق ، وتحدد لأفراده ما يجب عليهم وما يجب لهم داخل مجتمعهم ومع قيادتهم وعلاقتهم بالأمم الأخرى .

من هذا يتجلى لنا - ونحن نبحث عن وسائل الوحدة في الإسلام - أن رأس هذه الوسائل وعمودها الذي تقوم عليه سائر الوسائل ولا غنى للعمد الأخرى عنه هو تحقيق هذا الدين في مجتمعه واقامته حياً فاعلاً بين أهله وهيمنته على نظمهم واحكامهم العامة والخاصة .

ودين الإسلام الذي أمر بهذه الوحدة قد هياً لها كثيراً من الوسائل لتقييمها وتظهرها ، منها وسائل تسعى لإيجادها عندما تكون معدومة أو مفقودة ، ومنها وسائل تعمل على المحافظة عليها بعد قيامها وترمي إلى تقويتها ومدّ نفوذها ، وصدّ كل ما من شأنه أن يضعفها أو يهددها حتى تكشفه وتقضى عليه .

ولا غرو أن توجيهات الإسلام هي التي نبهت إلى تلك الوسائل وشرعت الأخذ بها ، وهي لاشك وسائل كثيرة ، لكن ما يعنيننا في هذا التمهيد أننا نكتفي باللمحة السريعة والنظرة العجلى إلى ما أراه أهم هذه الوسائل المتعددة .

رأس هذه الوسائل - كما قلنا - هو وجود دين الإسلام في مجتمعه نظاماً كاملاً فاعلاً في مختلف الشئون ، فإذا ما تحقق ذلك تحقق قويمًا ونظرنا بعد ذلك في نظام هذا الدين وأحكامه لوجدناه يهدي إلى هذه الوحدة ويرمي إليها ، فالمسلمون في كل زمان ومكان يعبدون إلهاً واحداً لا شريك له ، يتعبدون له بعبادات محددة ومعلومة لا مجال للابتداع أو الزيادة أو النقص منها ، وأحكام معاملاتهم وقضائهم ونظامهم الأسري وما يتصل بشئونهم الاجتماعية كلها مستمدة من شريعتهم ليس لهم قانون سواها .

وما جاء به الإسلام من نظرة وتصور للوجود والحياة ، وما أوحى به من اعتقاد المغيبات وما وراء الحياة ، كل ذلك مما يستلهمه المسلمون من عقيدتهم ، فهم يَعدُّون بذلك ولهم نظرة واحدة إلى الوجود والأَكْوان والأحداث ، كما أن لهم فهمهم الخاص في علة مجيئ الإنسان إلى هذه الحياة ، من أين جاء ، ولماذا ، وأين يسير ، وما هي وظيفته في الأرض ؟

كل هذه التصورات والمفاهيم واحدة في معتقد كل مسلم ومسلمة .

أما عبادات الإسلام وشعائره الكبرى ، فكم فيها من معان كبيرة للوحدة ، فالشهادتان تنطق وتلهج بها شفة كل مسلم ، والصلاة يجتمع لها المسلمون خمس مرات في اليوم واللييلة إضافة إلى اجتماعهم الأكبر في الجمعة والعيدين ، الأعمال واحدة والاتجاه إلى قبلة واحدة . والزكاة حافلة بمعاني التعاطف والرحمة والألفة ، يتفقد بها المسلمون بعضهم ، ويسترون بها خلة محوزيهم ونواب جماعتهم ، ومتى وُجد التعاطف والبر والتراحم داخل أي مجتمع فلا شك في حياة وحدته وتقارب أهله . والصوم فيه من وحدة الزمان والمشارف فوق ما يدفع إليه من الرحمة والإحسان بين الأمة ما يحمل روح الوحدة ويُدل عليها . أما الحج فما أكثر معاني الوحدة الإسلامية فيه وأعظمها ، إذ هي واضحة جداً لمن أمعن البصر والتبصر فيها .

من كل هذه المعالم يمكننا القول : " إن الإسلام هو أكمل تصوّر لحقيقة الوحدة - وهي أضخم الحقائق على الإطلاق - وحدة الخالق الذي ليس كمثله شيء . ووحدة الإرادة التي يصدر عنها الوجود كله بكلمة (كن) ووحدة الوجود الصادر عن تلك الإرادة . ووحدة الناموس الذي يحكم هذا الوجود ، . . . ووحدة البشرية من آدم - عليه السلام - إلى آخر أبنائه في الأرض ، ووحدة الدين الصادر من الله الواحد إلى البشرية الواحدة ووحدة الرسل المبلغة لهذه الدعوة . ووحدة الأمة المؤمنة التي كُتبت هذه الدعوة . ووحدة النشاط البشري المتجه إلى الله وإعطائه كل اسم (العبادة) ووحدة الدنيا والآخرة داري العمل والجزاء . ووحدة المنهج الذي شرعه الله للناس فلا يقبل منهم سواه ، ووحدة المصدر الذي يتلقون عنه تصوراتهم كلها ومنهجهم في الحياة . . . " (١)

هكذا تجد سائر أصول الإسلام ومبادئه إذا نُظِر إليها وبُحِث فيها بروية نجد مبدأ التوحيد والاتحاد مرمي كل عمل وأساس كل قاعدة ، وفي ذلك ما يؤكّد اهتمام الإسلام العظيم بهذه الوحدة وحرصه عليها ، بيد أن هذه الوسيلة الكبرى التي تجعل الإسلام حياة أمة قائمة به وتمثله له في كل مناحي حياتها ، تعني التبعات الكبرى والمسئوليات الصعبة

والأمانة العظمى على أتباع هذا الدين ، وتلك رسالة أنبياء الله إلى الأمم كافة ، حيث يتحملون نشر هذا الدين وإقامة الدعوة إليه وتعليمه الناس وتطبيقه في الأرض ، وتلك مسئولية عامة تقع على جميع الأمة ، وهم مطالبون بها ولا عذر لهم في التخلي عنها ، وعلى ولاية الأمور والعلماء يقع القسط الأكبر من هذه المسئولية التي هي رسالة هذه الأمة في الحياة ، وهذا لا شك يحتاج إلى جهود ضخمة ومتابعة لا توقفها سبل البيان والتطبيق في الداخل عن الدعوة بشتى الأماكن والوسائل إلى الإسلام في خارج دياره وحوزته .

ما يأتي بعد وسيلة إقامة الدين منهج حياة ودستور أمة من وسائل أخرى إنما ترجع في الحقيقة إلى هذه الوسيلة وتستند إليها ، لكن مع ذلك لا مندوحة من الإشارة إلى بعضها والتذكير بها لأهميتها الكبرى في بلوغ وحدتنا هذه .

أول هذه الوسائل إشاعة روح الوحدة في مجتمع المسلمين بحيث يعتبرون أنفسهم مهما تناءت بهم الديار واختلفت بهم اللغات أمة واحدة وأخوة متحدتين تربطهم ببعضهم أكبر رابطة تفوق رابطة النسب والقربان ، ويشعرون أنهم مرتبطون بروابط وثيقة تمتد إلى أعماق نفوسهم ، وأن تكون الوحدة حية في ضمائرهم غاية لهم ، وأن من خالف ذلك فقد خالف روح الإسلام " ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا " (١) وان تكون روح هذا الإخاء حاضرة للمسلمين ألا تقوم بين فئتين أو إقليمين حرب أو بغى ونزاع .

ثم يأتي بعد ذلك أمر عظيم يتصل بهذه الوحدة وهو إحياء الولاء والبراء الإسلامي في جماعة المسلمين ، فولايتهم وحبهم الكامل وثقتهم الغالية إنما ينز لونها بإخوانهم المؤمنين وعباد الله الصالحين ، ويحققون البراءة من الشرك وأهله فلا يركنون إليهم أو يطمئنون إلى عدلهم وتزلفهم (٢) ، وآية ذلك ألا يُقال عن حاكم مسلم أو طائفة مسلمة أنه يَنْزَع مَنَزَعًا شَرْقِيًّا أو غَرْبِيًّا ، أو يوالي سياسة أوروبا أو يتبع نهج روسيا ، أو يكون

(١) سورة النساء ١١٥ .

(٢) انظر: الولاء والبراء في الإسلام - محمد سعيد القحطاني .

تابعاً لهم وأسيراً لسياستهم ، كلا ، لكن يجب أن يكون المَنزَع إسلامياً والاتجاه إسلامياً والقضايا والمواقف اسلامية لا يتقدم عليها شيء أبداً ، ولا يمتنع ذلك - أبداً - من إقامة علاقات مصالح مع القيادات والحكومات الأجنبية ، والإستفادة منها في كثير من جوانب المادة والمصالح المتنوعة الأخرى .

إن الولاء والبراء أكبر برهان على صدق الإيمان كما قال صلى الله عليه وسلم " (أوثق عُرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله) (١) وحين تُوهَن رابطة الولاء تصبح رابطة الأمة هشة شاحبة ، وتتوزع الأمة اتجاهات شتى ، ويفتح الباب لأعداء الأمة كي يصلوا إلى تمزيقها ، لأن الولاء كان يعصمها من ذلك ، وما الآيات القرآنية التي تُذكر بذلك إلا أسطع حجة على حاجة الأمة إليه ، وَصَدَقَ اللهُ " إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ . وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ، يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياءً واتقوا الله إن كنتم مؤمنين " (٢)

إن عقيدة الولاء والبراء في الاسلام تفرض على المجتمعات الإسلامية التآزر والتكتل فيما بينها حتى لا ترتبط بذيل تكتلات الأمم الأخرى ، فثقة المسلمين إنما تكون في إخوانهم ، وقوتهم إنما هي لأمتهم ، ولعل في ذلك ما يدعو المسلمين إلى اتخاذ نهجاً واحداً لهم في سياستهم الخارجية وألا يَدْخُلَ أى بلد أو حكومة اسلامية في أي اتفاق سياسي أو دولي منفرداً عن حكومات الأمة الأخرى ، فإن ذلك يقود إلى اختلاف المسلمين في اتفاقاتهم وسياساتهم فيوالي هذا دولة يعاديهما آخر ، ويصادق آخر دولة تفتك بالمسلمين في أحد الأوطان ، وهكذا تُفْتَحُ أبواب الفرقة حين تفتح أبواب الإتفاقات الحرة للحكومات المسلمة ، حيث يبدأ كل يوالي حليفه ويدافع عن سياسته ، بينما هو عبدو مبين لطائفة من شعوب الإسلام التي تندد به وتريد الإنتقام منه ، فيقع المسلمون أسرى الخلاف والفوضى وتدب

(١) رواه الطبراني وذكره السيوطي في الجامع الصغير ٦٩ / ١ وقال الشيخ

محمد ناصر الدين الألباني في صحيح الجامع الصغير ٣ / ٢ ٣٤٣ حديث

حسن .

(٢) سورة المائدة ٥٥-٥٧ .

بينهم الفرقة والشقاق ، لذا يجب كي تقوم الوحدة الاسلامية أن يُوحَّد المسلمون سياستهم الخارجية حتى يكونوا مجتمعين قوة دولية موحدة ولا يشذ أحد منهم عنها .

إن هذا لا يعني أن يغفل المسلمون عن التكتلات الدولية والتحزبات الأممية من حولهم ، ولكنه يريد أن تكون لهم مكانتهم الكبرى وسط هذه التكتلات ، فلا يطمع عدو فيهم ولا يبغي عليهم أحد ، ولا عليهم بعد ذلك أن يُشاركوا في المحالفات الإنسانية النبيلة ، التي تسعى إلى الحق والعدل وكرامة الإنسان ، وأن يربأوا عن تحالفات الظلم والبغي والعدوان .

ومن أعظم وسائل الوحدة الاسلامية وحدة الثقافة والفكر ، فلا ريب أنها من أنفذ الاسباب لتآلف العقول وتلاقح الأنفس ، ومن حسن حظ المسلمين أن أصل هذه الوحدة يرتكز على أساس ثابت من دينهم وشريعتهم بيد أن بُعد المسلمين التدريجي عن هذا الأساس مع تعاقب الأزمان ، ثم دخول الثقافات والأفكار العديدة إلى ديار الاسلام وخاصة في العصر الحديث حيث نجد أعدادا من الثقافات بأفكارها وفلسفاتها قد زاحمت الفكر والثقافة الإسلامية ، وكل ذلك أودى بالمسلمين إلى الابتعاد عن المنهل العذب الذي يستقون منه ثقافتهم ، فخرجوا بذلك إلى فرق متعددة وطوائف متخالفه ، ومذاهب متباينة ، كل حزب بما لديهم فرحون .

فالمسلمون بين سُنّة وشيعة وباطنية متشعبة الفرق ، وبين مذاهب فقهية مشهورة وغير مشهورة ، وبين محافظين على القديم ودعاة الحداثة والتجديد الذين يروجون لكل فكر عرفوه عن أمم الشرق والغرب ، وكل ذلك إضافة إلى التفرقات الاقليمية التي مُني بها المسلمون في العصر الحديث قد خلقت فجوة في الفكر والثقافة وتبايناً في التصور والمسلك ، واختلافاً في المناهج والتعليم والتربية ، فأني للمسلمين بوحدة بعد هذا الشتات ؟

إن مجتمعات المسلمين لو صدقت العزيمة وأخلصت النية في ذلك لا هتدت إلى وحدة في الثقافة والفكر ، فما دام الأصل ثابت لا مجال للريب فيه ، ففناوة هذه الوحدة لا تزال حية ، وإنما يبقى العمل الجدي إليها ، ولعل

من معالم ذلك أن يعود المسلمون إلى كتاب ربهم وسنة نبيهم في اجتلاء الحقائق فيما يختلفون فيه من مسائل عقيدتهم وشريعتهم بين فرقهم ومذاهبهم المتعددة، رائد هم قوله تعالى " وإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً " (١) .

حين يتم للأمة الإسلامية الوقوف على أساس متين من عقيدتهم وارتباط جلي بشريعتهم في ميدان الثقافة والفكر، فما وراء ذلك من ألوان المعرفة البناءة والحضارة النافعة لا يغدو معارضا لوحدهم ولا مهدداً لها، لكن يجب على المسلمين ألا ينسوا وهم يتطلعون إلى ثقافات الأمم الأخرى أن الفاعل الأكبر والسبب الرئيسي الذي قعد بهم عن التقدم المادي والازدهار العلمي وجعل عدوهم يتسلط عليهم، ليس من ضعف في ثقافتهم ولا تدنٍ في فلسفتهم أو قصور في مجالات فكرهم، كلا، فالمسلمون إنما غلبوا لتأخرهم في مجال العلوم المادية البحتة وإهمالهم لها في حين احتفى بها سواهم، فامتلكوا مقدراتها وقواتها وجنوا ثمراتها والمسلمون مملقون منها، فتسلحوا بها في الحروب الحديثة قوة عاتية ليس بأيدي المسلمين شئ منها، فقهرهم وساموهم سوء العذاب.

يبقى في سبيل الوحدة الفكرية والثقافية أمر لا مندوحة من التذكير به، إنه إعطاء اللغة العربية الميدان الرحب في مجتمعات المسلمين حتى تُيسر وتُقرب هذه الوحدة، فالذي أعان على فرقة المسلمين الثقافية والعلمية هو إقامته العربية في أقاليم الإسلام وإحياء اللغات الإقليمية عوضاً عنها، والتعارف بين المسلمين لا يتم إلا إذا وجدت لغة جامعة بينهم، بحيث يتفاهم بها المسلمون حين يتنقلون بين بلدانهم التي لها لغات شتى، أليس من المخجل أن يلتقي المسلمان في أكثر أنحاء الأرض فلا يتعارفان إلا بالانجليزية أو الفرنسية أو غيرها ؟ .

إن إحياء العربية في مجتمعات المسلمين أمر تقتضيه المصلحة، وتنبيء بمكانته الأدلة، فهي " لغة القرآن أولا، ولغة الاجتماع

الإسلامى ثانيا ، ووعاء العلم الإسلامى ثالثا ، فلا بد أن نُعدَّ هذا الوعاء
للمسلمين أجمعين " (١)

إن ذلك لا يعنى إماتة اللغات الاقليمية وإلغائها، ولكن لتكن العربية
لغة الثقافة الدولية بين المسلمين ، ولا يعنى ذلك تعصب للعرب أبداً ، لكن
إذا أردنا للأمة المسلمة لغة تجمعها فماذا نختار؟ إن العربية بدهشة
هى أجدر لغة لتوحيد المسلمين ، فهى فضلا عن تسلسلها إلى كثير من لغات
المسلمين الفاظا وكتابة حروف، لغة القرآن ولغة السنة النبوية ولغة العبادة
فى الاسلام ولغة أعظم مدونات التراث الاسلامى بمذاهبه واتجاهاته المتعددة .

ان وحدة الثقافة والفكر فى ديار الاسلام هى التى تعصم الأمة
من التأثر بالأفكار الغربية والمنحرفة التى تريد التسلل إلى عقول المسلمين
لتصرفهم عن دينهم ، وتقف حاجزا منيعا بين الأمة وبين شبهات المنحرفين
وتشكيكات المنافقين وأباطيل الحاقدين ، ممن يسعون لحلّ عرى هذه الامة
وتوهينها .

يبقى من الوسائل الفعالة التى يجب التنبه لها الوحدة
الاقتصادية بين المسلمين ، والاقتصاد فى عصرنا الحديث تقوم عليه قوى الأمم
وتنافساتها ، إن لم يكن مبعث الحروب بينها ومُحرّك أطماعها وشهواتها .

والعالم الاسلامى كما هو معلوم من موقعه وكنوز أرضه واخيرات بلاده
يملك ثروات هائلة وغلات وفيرة وكنوزا ضخمة فى ظاهر الارض وفى داخلها .

وليس من وكد هذا العجالة - بالطبع - رسم صورة لهذه الوحدة
الاقتصادية ، أو بناء منهج لتكاملها أو القول بتوحيد العملة النقدية وإقامة
البنوك الاسلامية أو سواها رغم أهميتها ، ولنجعل أهل الخبرة والاختصاص
اجدر بذلك وأقوم قليلا فيه ، ولا غنى عن رأيهم فى هذا الميدان .

لكن من جانبنا يمكننا أن نقول : إن المسلمين بهذه الخيرات التى
وهبهم الله إياها فى بلادهم يستطيعون أن يُشكّلوا كتلة اقتصادية كبرى

يحققون بها اهدافا كبيرهم لأمتهم ، فيها يستطيعون أن يستغنوا عن سائر الأمم الأخرى التى تريد أن تملأ إراداتها على شعوب الإسلام حين يمدون يد الحاجة إليها ، كما أنها تمكنهم من تشكيل تكامل اقتصادى بين أمتهم ، حيث يأخذ كل إقليم ما ينقصه من الأقاليم الأخرى أو من أحدها ، ولا شك أن هذا التعامل يبعث على التعارف والاحتكاك والتآلف بين أبناء المسلمين ثم إن الأمة الإسلامية بهذه القوة الاقتصادية الكبرى التى تمتلكها تستطيع أن تفرض إرادتها على أمم العالم مهما كانت ، مما يدفعها ألا تقدم على أى عدوان على أى أرض من أرض الإسلام . ولو ضربنا مثلا توضيحيا بالبتترول الذى تقوم عجلة الحياة الحديثة عليه فى كل شئ ، وتذكرنا أن للمسلمين نصيب الأسد من ملك البترول العالمى ، لو كانت لهم كلمة وسياسة واحدة فى استغلال هذا المورد فى خدمة قضاياهم لكان لهم من ذلك صوت مسموع وجانب مرهوب وإن كان الامر - من أسف شديد - على خلاف ذلك .

إن غاية الوحدة الاقتصادية إنما هى " ثروة المسلمين للمسلمين وثمرات التجارة والصناعة فى جميع المعمور الإسلامى هي لهم يتنعمون بها وليست لنصارى الغرب يستنزفونها . وهى نفى اليد من رؤوس المال الغربية والاستعاضة عنها بروؤس مال إسلامية . وفوق جميع هذا ، هي تحطيم نواجز أوربة ، تلك النواجز العازة على موارد الثروة الطبيعية فى بلاد المسلمين ، وذلك بعدم تجديد الامتيازات فى الأرضين والمعادن والغابات وقطر الحديد والجمارك ، والعقود التى مادامت خارجة من أيدي العالم الإسلامى فهو يظل عالة على الغرب " (١)

الوحدة الاقتصادية وحدة عملية كبيرة فى ديار الإسلام ، تدعو المسلمين الى تعاون وتكاتف فى مضمار التجارة والصناعة والزراعة والسلاح وهي اليوم من أعظم أسباب القوة التى يطالب المسلمون بالآخذ بها " وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة . . " (٢) ، وهي دون شك ستبعث فى العالم الإسلامى حركة ويقظة وازدهارا ماديا ، وستجعل المسلمين

(١) حاضر العالم الإسلامى ١ / ٣٢٨ .

(٢) سورة الانفال : ٦٠

يتبادلون الخبرات ويأخذوا بأسباب العلم الحديث، فإذا ما لاح ذلك فسى
الامة أتى بأطيب الثمار وأعظم النتائج ، وحطّم أكثر الحواجز والقيسود
المصطنعة بين المؤمنين، وفتح الأبواب الواسعة للاستثمار الاسلامي الحر
بعيدا عن أن يستغله أو يربح من وراءه غير المسلمين حين يقيمه المسلمون
فى ديارهم، وفوق كل ذلك أن المسلمين وهم ينعمون بثمرات هذه الوحدة
يشعرون بحياة وعطاء وقوة أمتهم ومجتمعهم فلا يتطلعون إلى غيرهم ، وإن
ذلك سبغت حتما على روح التعاون والتكامل الاجتماعى الذى يريده
الإسلام ، فالمسلمون وهم يتعاورون الخبرات ويتبادلون السلع لن يعدموا
روح العطف والاحسان إلى إخوانهم المحتاجين ، فهم لن يعاملوهم
بمقدار درهم والدينار، وإنما سيكيلون لهم بالكيل الاوفى ويزيدون، وحسب
ذلك فضلا لهذه الوحدة المباركة .

هذه بعض أهم وسائل الوحدة الاسلامية التى رأيت الإشارة إليها
ولا غرو أن هناك ما قد يلحق بها ، كالوقوف على أسباب الفرقه المتعددة
سواء كانت بين ولاية المسلمين أم بين فرقهم ومذاهبيهم أو حول مصالحهم
وشرواتهم وقطع دابرها . أو حسم النزاع الناجم بين طائفتين من الأمة
والاصلاح بينهما على هدى من أمر المولى سبحانه " وإن طائفتان من
المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الاخرى فقاتلوا
التى تبغى حتى تفيء إلى أمر الله فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل
وأقسطوا وإن الله يحب المقسطين " (١)، وكفى بهذه الوسائل أن تكون مقيمة
لوحة الأمة ومحقة لها سواء كانت لها بضع قيادات أو كثير من الحكومات.

(ج) غاياتها :

تحفل الوحدة الاسلامية بأهداف عظيمة وغايات نبيلة جليلة ، تتجلى فى تلك الأهداف حقيقة دين الإسلام وتبرز عظمته ، ويورى من خلالها صلاح مبادئه وسلامة أنظمته كي يعيش المجتمع البشرى عليها ، ويهتدى بنورها فى غسق الضلالت وعند اضطراب التشريعات البشرية وقصور قوانينها ، كما تتأكد بها حيويته ومرونته التي تواكب تجدد حوادث الحياة وتقلبها فى شتى البقاع ومختلف الأزمان ، وأنه شريعة من هو أعلم بما تستقيم به الحياة ويصلح به الاحياء (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير^(١))

الوحدة الاسلامية التي تقوم على الإسلام ديننا والاخوة عمادها والتآلف والرحمة شعارا ومنهجها تطلب فى مقدمة أهدافها ، بسل رأس غاياتها تحقيق خلافة الله فى الارض وهيمنة حكمه عليها وقيادة سلطانه لأهلها ، وهذه الغاية إنما جاء الإسلام لأجلها ، وحمل خاتم الانبياء صلى الله عليه وسلم لواءها وكلفه ربه بأدائها " هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون " (٢) وهذه الغاية هى عبادة الله التي من أجلها خلق عباده ، وأمرهم بطاعة رسوله فيها وأن " من يطع الرسول فقد اطاع الله . . " (٣) .

وإنما كان هذا الامر أكبر غاية لوحدة المسلمين لأن منهج الله هو الهدى الذي فيه هداية البشرية وراحتها من عى المناهج المتعدده المتباينة ، وفيه برُّ بها وإحسان إليها ، كما أنه رحمة ولطف بها ، وأنه فوق ذلك الحقيقة التي تبطل معها أديان الأرض المتعددة ، والتي تستنكف عن الحق ولا تقوم به أو تتجه إليه ، وتبغى فى الأرض ولا ترجع إليه . وإنما تنبع هذه الحقيقة الكبرى عند أمة الاسلام والمنصفين من غيرهم من اعتقاد راسخ لا يتزلزل ، وإيمان لا يشوبه الشك أن شريعة

(١) سورة الملك ١٤ .

(٢) سورة الصف ٩ .

(٣) سورة النساء ٨٠ .

الاسلام أفضل مذهب ومنهج لحياة إنسانية كريمة ، ولا يُقاس به أى مذهب ولا أية ملة فى سلامة أحكامه وسمو غاياته وتُبل مقاصده وعدله بين يحتكمون إليه .

وإذا كنا قد علمنا أنّ الاسلام نظام حياة شامل كامل ومنهج أمة ، فمن البدهي أنّ ذلك لاغنى له عن مجتمع يقوم به ، بل إنه إنما جاء لإقامة هذا المجتمع ، وليس خيالات ولا لوائح لا رصيدها فى الواقع العملى ، وهذا المجتمع الإسلامى يكون أمة متحدة لها قيادة أو قيادات متحدة ، وعليه وعلى قياداته كثير من الواجبات التى تطالب الأمة بها لأنها من رسالتها ، ومنها إقامة دين الاسلام وإظهاره للناس^(١) ، وذلك بنشره والدعوة إليه باللسان والسنان وأنواع الجهاد المختلفة ، ومنها حماية البيضة وتحصين الثغور من الأعداء المتربصين ، ودفع الشبه والريب والبدع والأباطيل التى تثار لفتنة المسلمين وتفريقهم ، ولِمن من إقامة الإسلام إقامة شرائعه وتنفيذ أحكامه وحدوده ، كما أن سياسة الدنيا بقوانين الشريعة الاسلامية التى تنشر العدل وترفع الظلم وتهيئ الناس للقيام بعمارة الأرض واستخراج خيراتها من أعظم إقامة للإسلام .

ولاشك أنّه بدون أن يكون للمسلمين مجتمع ولا قيادة تتعاون على إقامة الإسلام فى الأرض وتدعو إلى إظهاره على سائر الأديان فإنه سيظل منزويا ومنعزلا عن الحياة إن لم يكن ناقصا فى بعض صورته التى لاغنى لها عن جماعة وقوة تسندها .

ليس غريبا أن تهدف الوحدة الاسلامية الى ما تنشده سائر المجتمعات والتجمعات البشرية من امتلاك قوة ومنعة ، وإيجاد شوكة وعصبية وسلطة قاهرة ، لكن إذا وجدت هذه القوة والشوكة فما الغرض منها ؟

إنّ هذه القوة التى تتحقق باتحاد شعوب الإسلام وتضامنها تختلف اختلافا كبيرا فى غايتها عن غايات سائر القوى التى تشكلها التجمعات البشرية المتعددة ، فأهداف التجمعات الدولية وتضامنها

(١) انظر: الإمامة عند أهل السنة والجماعة ٧٩ وما بعد ها .

لا تتعدى التنافس البهيمي على الشهوات، فهي تسعى إما إلى الاستيلاء على أرض وأوطان لتمتص ثرواتها وتنعم بخيراتها على حساب أهلها الذين تستضعفهم لذلك وتأخذ أموالهم وممتلكاتهم ، وإما قد تكون لاستعباد شعب واخضاعه لإرادتها كي يُنفذ أوامرها وسياساتها ، وقد تكون غـرورا وحمقا باظهار القوة والاختيال على الأمم التي تنافسها حتى تخشى بأسها إلى غير ذلك .

وكل ذلك - كما نرى - لا يعدو لنزوات الحيوانية و الشهوات المادية الأرضية الوضيعة ، مما يقلب الحياة جحيما وصراعا وتنافسا بين المجتمعات ، ولا أصدق على ذلك من أن العالم في العصر الحديث حين ملك اسباب القوة وكثرت مجتمعاته وكُتل قواه أصلى العالم بأسره في حوالى ربع قرن-من القرن العشرين-حربين عالميتين ، أذاقت العالم كله عذابا وجحيما وجعلته يئن و يضطرب، ويعمه القلق والخوف من جراء ذلك التصادم المادي الشهواني الدنيء . لكن القوة التي تحققها وخذة المسلمين تتعالى عن ذلك علوا كبيرا . . .

إنّ هذه الوحدة أول ما تسعى إليه إقامة مجتمع يحكم بشريعة الله في الأرض - كما سبق - وحتى يقوم هذا المجتمع لابد له من قـوة تحفظه من داخله و خارجه ، فمن الداخل بإقامة نظام الاسلام في المجتمع يهيمن على جنات حياته ويفيئها، ومن الخارج لحماية هذا المجتمع من شرور اعدائه الكثيرين المتربصين به ، فمن حقه أن يدافع عن نفسه وكيانه من كل عدوان ثم يدعو الناس إلى هذا الدين .

إنّ طبيعة هذه القوة تنبع من طبيعة دين الإسلام فهو - كما نعلم - إنما جاء ليخرج الناس من ظلم الأديان الى عدل الاسلام ، ومن عبادة العباد إلى عباد الله وحده ، وهو في سبيل دعوته هذه لابد أن يكون له قـوة تمكنه من أداء رسالته ، هذه القوة ليست لفرض الإسلام على الأمم الأخرى كما يدعى ذلك على الإسلام من لاعلم له (١) ، وإنما هي لازالة

(١) انظر: الجهاد - ابو الأعلى المودودي ، في ظلال القرآن ٣ / ١٤٣٢ وما بعدها .

تلك القوى والسلطات التي تحول بين الأمم والشعوب وبين حرياتهما ، فإذا زالت فالحرية الكاملة لتلك الشعوب لمن يريد الدخول في الاسلام ولمن لا يريده ، ولو تسامحت تلك المنظمات والحكومات مع شعوبها وأعطتها حرية الاعتقاد والدين ، ومكنت المسلمين لان يُبينوا لهم الإسلام ويدعوهم إليه ، لو تحقق ذلك لما حرص المسلمون على الحرب ، ولربما لما عرف في تاريخهم ذلك الصراع الذى قام بينهم وبين من وقفوا لصد هم عن نشر نور الله فى الارض !

إن القوة التي يشكلها اتحاد المسلمين لم تكن لتحقيق الشهوات والمطامع ، وحسبنا أن كثيرا من الشعوب دخلت الاسلام بدون تلك القوة ، وإن تلك القوة التي كانت تزال بها السلطات التي تحول بين الناس وبين حرياتهم وروية نور الإسلام ، لم يكن المسلمون بعد غلبهم لها ليسيطروا أو يستعمروا أو يسوموا الناس خسفا واستعبادا ، وإنما تبقى لهم حرياتهم وكراماتهم ، وإن دخلوا في الإسلام لم يبق للمسلمين الفاتحين أو الغالبين ميزة عليهم ، إذ قد أصبحوا إخوانهم فلم يبق لهم ما عليهم ، فأين شئ من هذا نجده عند دول الاستعمار فى العصر الحديث؟!

ثم لو تذكرنا حال العالم عند ما كانت للمسلمين فيه قوة مرهوبة وكيف كانت الصراعات فيه ، ثم قارناها بالصراعات التي أعقبت ضعف قوة المسلمين وتخلّفهم فى ميدان القوى عن الأمم الأخرى ، عندئذ نعرف كم خسر العالم من جراء ذهاب هذه القوة التي كانت تحفظ له نصيبا كبيرا من التوازن والأمن والسلام!

إن حقيقة هذه القوة إنما هي حقيقة الإسلام الذى جاء رحمة للعالمين ، فلا غرو أنها رحمة وليست لإخرا ب أو دمار ، إنها نظام لرد الحق المنهوب ونصر للكرامة الإنسانية المنتهكة ودفع للظلم عن المظلومين ، ونشر للحرية المطبوعة وتعميم للأمن والرخاء ، وكل ذلك ما تلج به آيات القتال (١) فى الكتاب العزيز .

(١) انظر: سورة البقرة ١٩٠ ، سورة النساء ٧٥ ، ٧٦ ، سورة التوبة ١٣ .

إن إقامة المجتمع الإنساني المثالي الذي تسعى إليه الوحدة الإسلامية فوق كونه مطلب إنساني نبيل فإن وجوده وإقامته ضروري للأمة المسلمة كي تؤدي رسالتها المكلفة بها ، إذ حين يقوم ذلك المجتمع تكون قد أقامت للبشرية منارا يضيء لها وتهتدى به بين سائر المجتمعات البشرية ومن خلال هذا المجتمع تلتئم الأمم والنور والخير الذي تتوق إليه ، ومن خلال أخلاقيات هذا المجتمع تدعو الأمة الإسلامية إلى مبادئها التي تؤمن بها ، وقد كانت هذه الأخلاق والإنسانية العالية للمجتمع المسلم وراء انتشار الإسلام في كثير من الأقطار التي لم يبلغها المسلمون داعين مجاهدين كما في جنوب شرق آسيا وأجزاء من قارة أفريقيا وغيرها .

ثم إن إقامة هذا المجتمع إنما هي ليتزعم قيادة العالم إلى الحياة الكريمة ، وليعزل الأمم المزيّفة من زعامة الانسانية ^(١) التي استغلتهن وأساءت إليها ليسير بها سيرا حثيثا متزنا عادلا بعد أن توفرت الصفات التي تؤهل هذا المجتمع لقيادة الأمم ، كما أن ذلك يؤكّد واقعية هذا المجتمع للبشر حتى لا يظن أحد أنه من الادعاءات والخيالات التي تدّعيها أكثر الأمم وليس لها في الواقع حظ ولا نصيب .

ومن مقاصد الوحدة الإسلامية أنها تخلق الوجدان المشترك بين أبنائها ، فجميعهم ينتمي إلى الجنسية الإسلامية الواحدة ، وأفضل الجنسيات ما يكون سببا لتأسيس هذا الوجدان المشترك بين أفراد المجتمع ، وبهذا يحصل الاتحاد الحقيقي الذي هو اتحاد فكرى - كما سبق - وعلى ذلك تتحدّ الغايات والنواقف في مختلف الشئون والأحوال ، ولا غرو أن يكون ذلك الوجدان أمنا عظيما للامة من الشقاق ، ويجعل الأمة آمنة من الفتن معافاة من القلاقل والمحن ، متعاضة بعيدة عن التمزق والاضطراب ، مما يجلب الأمن وينشر الطمأنينة ويحفظ للأمة كيانها ومقداراتها ، ويوفر لها القدرات والإمكانات في ميادين العمل والانتاج ، ويمكنها من الأخذ بأسباب التقدم وعمارة الأرض ، كما يسمح لها بالابتكار والابداع والاستفادة مما سخر لها في البر والبحر .

(١) انظر : ماذا خسر العالم بالخطا المسلمين ١٢٣ .

وحتى لو تركنا الفوائد التي يحققها اتحاد المسلمين للإنسانية لانه أسمى أمل مدني يرفق بالناس ويحميهم من طمع المستعمرين وجشع الغالبين ، لو تركنا هذه المثالية وحصرنا فائدة هذا الاتحاد في أهله وهم يكادون يبلغون خمس العالم اليوم ، وقلنا إنه انقاذ لهم من الخلافات الداخلية وإصلاح لهم من الجهالة والفساد، وحصانة لهم من أطماع المتربصين بهم ، لو لم يكن لهذا الاتحاد إلا هذه الغاية التي لا أظن أحد يماري في سموها لكفى بها أن تجعله مُعْتَبَراً عند أولي الأبصار من العالمين .

والمجتمع المسلم له تميزه الخاص عن سائر المجتمعات ، وإنّ - المصلحة الكبرى التي يمكن أن يحققها قيام تعاون واتحاد فعال بين مجموعة شعوب الإسلام ترمي إلى إيجاد مناعة تحفظ العالم الاسلامي وتبقيه كيانا متميزا وسط أمواج الغزو الفكري التي تدور حوله وتنضح في داخله ، وبذلك يبقى العالم الاسلامي منيعا أمام الغزو الاجنبي .

إن العالم اليوم مقسم إلى تكتلات مذهبية (ايدولوجية) وإن مصالح الدول كثيرا ما تتكيف تبعاً للتقسيمات العقائدية ، فالزمن زمن التكتلات الفكرية ، وهى تكتلات زاحفة، وغايتها صبغ العالم بلونها سلما أو حربا ، ولا عاصم للمسلمين من هذا الصراع الفكرى الدائر حولهم أمة متميزة ذات - شخصية مستقلة وطابع خاص، وليس مجرد مُسْتَعْمَرة لهذا الفريق أو ذاك ، لاسبيل لها إلى ذلك إلا بالعودة إلى فكرة عميقة الأصول فى تاريخ الأمة الإسلامية يقوم عليها البناء الاجتماعى وتصبح رابطة تجمع الشعوب الاسلامية (١) .

إننا لو نظرنا إلى اتحاد المسلمين - علاوة على ما سبق - فى ضوء مبررات وأسباب أخرى تتشبه بهابعض المجتمعات أو التجمعات البشرية لالتمسنا لقيام هذا الاتحاد غايات أخرى لها ما يُسَوِّغها ولا سيما فى عصرنا الحديث .

من ذلك (٢) أننا نجد منظمات واتحادات تقوم على التكتل

(١) انظر: الطريق الى وحدة الأمة الاسلامية- ابو الأعلى المودودى صه

(٢) انظر: الطريق الى وحدة الامة الاسلامية ٢٨ وما بعدها .

والتضامن لاجل أهداف وأغراض بسيطة، هي في جملتها أقل بكثير مما يطمح إلى تحقيقه اتحاد المسلمين من أهداف متعددة ، وتلك الاتحادات والمنظمات مع ذلك لا يكاد يجمعها الا رابطة أو رابطتين ، فـدول الكومنولث البريطاني مثلاً ، لا يجمعها الا الخضوع للاستعمار الانجليزي الذي سبق لها أن رزحت له ، ومنظمة الشعوب الافريقية لاتجمعها الا القارة السوداء والدفاع عن مصالح السود ضد البيض ، وحلف (وارسو) لاتجتمع فيه إلا الدول الاشتراكية ، والاتحاد الاسلامي - كما مربنا - يتفوق تفوقاً كبيراً في مثل هذه الاسباب التي تدعوه للترابط والالتفاف .،

ثم ان الشعوب الاسلامية ليست رابطة الدين هي التي توثق بينها، بل إن لها من تاريخها وحضارتها ما يكاد يجعلها كالشعب الواحد في عاداته وطبائعه ومشاعره ، فالمسلم حين يتنقل بين هذه الشعوب على اختلاف أوطانها ولغاتها وأجناسها لا يجد فرقاً كبيراً بين أحوال هذه الشعوب ولا يحس بالفجوة الكبيرة التي يجدها لو ذهب إلى شعب آخر ليس من شعوب الإسلام .

أليس من حق هذه الشعوب بعد ذلك ومن مصلحتها أن تُقوّي هذه الوشائج وأن تكون اتحاداً يضمها ويزيدها قوة إلى قوتها ؟ .

والموقع الجغرافي ، الذي تتربع عليه الأقطار الإسلامية يُعدّ أهم المواقع الاستراتيجية في الكرة الأرضية ، ذلك فضلاً عن خصوبة أقطار وكثرة خيراته وثمراته - كما سبق - وكل ذلك بلا ريب يجعل هذه الأقطار عرضة للغارات والغزوات ، والدخول في صراعات الدول الكبرى ، ولو تذكّرنا أسباب الاستعمار في مطلع هذا العصر الحديث وتنافس دوله على مناطق الثراء والنفوذ ، لأدركنا تلك الأهمية وخطورتها ، فمن الواجب أن تكون المحافظة على هذه المواقع والأوطان والاستفادة منها في ميدان الصراع الدولي من غايات اتحاد المسلمين لما لذلك من عظيم الفوائد والثمار .

ثم إن هناك أخيراً التعصب الديني الذي نجده دفع أمم الغرب الصليبية منذ القرون الوسطى وحتى عصرنا الحاضر - رغم تنكّرهم لذلك كما

سنرى فيما بعد - إلى حرب المسلمين واضطهادهم والاعتداء عليهم واستعمارهم
وامتصاص خيرات بلادهم، أمّا يَجِبُ على الأمة المسلمة والحال ما ذُكِرَ
أن يَهْبُوا وَيَتَّحِدُوا ليدفعوا عن أنفسهم عدوان ذلك التعصب وشروره وأذاه؟
لماذا لا يتّحد الضعفاء المضطهدون المغلوبون على أمرهم، وقد اتحد الأقوياء
والظلمة والمعتدون على الهجوم عليهم واذلالهم واقتلاع شأفتهم لو استطاعوا؟
أيهما أقبح تضامن المعتدين على الظلم والعدوان أم تضامن
المظلومين المُعتدى عليهم لصد البيغي والعدوان ؟ .

هكذا من كل هذه الأحوال والأهداف والمبررات لا يبقى لمن زعم
- بحق أو باطل - وجود شكوك أو معوّقات توقف وحدة المسلمين أو تحول
دونها، بعد كل هذه الغايات الجليلة الساطعة كالشمس في رابعة
النهار.

الوحدة الإسلامية ضرورة لاغنى للمسلمين عنها بأى صورة وعلى
أى حال من الأحوال، وهى بما تمتلكه من خصائص ومميزات عظيمة ليست من
الأوهام ولا من الظنون، لكنها تستطيع القيام والحياة فى مختلف الأزمنة
والامكنة، حتى صدّقت النوايا وسلّمت القلوب وأُخِذَ بأسبابها ووسائلها .

وفى ضوء هذا الفهم اتجه هذا البحث منقبا عن هذه الوحدة
ومتطلعا إليها، وإتّحاد الوحدة الإسلامية لديه تاريخا مشرقا . . . وواقعا
مُخَنّا مُتَفَكِّكا . . . ، وأملّا لا تخبو جذوته ولا تهدأ صولته . . . واللى
المستعان .

(د) الوحدة الاسلامية قبل فترة البحث :

لعل من الخير أن أضع - قبل الولوج في ثنايا هذه الدراسة- نبذة يسيرة لما كان من شأن هذه الوحدة الإسلامية قبل الفترة التي ستتناول فيها، ذلك أن هذه النبذة العجلة لا تخلو من ربط لفكرة الموضوع في الجملة، فضلا عن أنها تدفع ما قد يرد إلى الذهن عما كانت عليه هذه الوحدة قبل أن تعرض لها هذه الدراسة، ومع ذلك فنحن لانعدم فائدة بعد ذلك تقودنا إلى ما طرأ على هذه الفكرة بين الفترتين ، وماذا ظهر عليها من تغيير، وما وراء ذلك من أبعاد وموثرات وملابسات .

وإذا كان من المعلوم أن الوحدة الإسلامية لم تكن ابنة النصف الاول من القرن الرابع عشر الهجرى - فترة هذه الدراسة تقريبا - بل هي عريقة الأصل، تضرب جذورها إلى أيام أن قامت للإسلام أمة لها شأنها بين الأمم في المدينة النبوية ، بعدما خلت نيف وستمئة سنة من ميلاد المسيح عليه السلام ، فإن هذه الوحدة في زمن هذا البحث قد زادت الحاجة إليها ، وعظم الاهتمام بها ، وكثر الحديث والنقاش بين المفكرين والأدباء عنها ، مما جعل لها حيزا كبيرا ، وبُعدا خاصا يدعو إلى التأمل ويبعث على المتابعة والرصد والتحليل ، وكل ذلك كان - بلا ريب - من أبين الدواعي لاقتحام دراسة هذا الموضوع والعمل فيه .

ولما كان للدولة العلية - حكومة بنى عثمان - إبان فترة هذا البحث، وقبله أيضا من سلطان كبير، إذ يخضع لحكمها جل العالم الإسلامي ، وبخاصة بلاد العرب مستثنى منها اليمن ثم بلاد تونس والجزائر والمغرب في شمال افريقيا ، فإن هذه الدولة هي التي كانت تجمع المسلمين وتمثل وحدتهم رغم كثرة الفتن ومحاولات الخروج عليها من كثير ممن خضع للوائها ودان لحكمها ، ذلك فضلا عن إحيائها للخلافة الإسلامية ، وتمسكها بخليفة واحد تدعو سائر المسلمين إلى الاعتراف بسلطته وشرعية ولايته، والتفكير من الاعتصام بطاعة غيره من السلطات أو الحكومات .

ومع ما كانت توليه من عناية خاصة للأمة الإسلامية العربية ، حتى لا تخرج عن سلطتها، فإنها لم تعدم الوسائل والطرق التي استخدمتها في بث شعور الوحدة الإسلامية بين سائر رعاياها ، والاستفادة من الأحداث لتجعل المسلمين يلتقوا حولها، إلى ما سوى ذلك من أمور جعلت الانضواء تحت هذه السلطة وطاعتها وإجلالها أو العطف عليها أو الدعوة لها هي مفهوم الوحدة الإسلامية ، بل هي مرادفة الذي يدل عليه ويوحى به كما سنوضح ذلك في موضعه بإذن الله ومشيئته .

عندما كانت الدولة العثمانية هي ممثلة هذه الوحدة ورمزها يومئذ لم يكن غريباً أن نجد المعاضدة والتأييد الذي يشد من آصرة هذه الدولة ويناصرها ، فهي وحدة المسلمين وجامعتهم وسندهم الذي يركنون إليه بعد ربهم ، وقد اتخذ هذا الولاء وهذه المعاضدة صورا متباينة وأشكالا شتى، إلا أنها جميعا تلتقي حول مركز واحد هو تأييد سلطان هذه الحكومة والثناء عليها والدفاع عنها ومقارعة خصومها .

وبين يدنا الآن بعض إشارات تدلنا على حقيقة الأمر، رغم أن هذه الاشارات قد تتفاوت قريبا وبعدا عن فترتنا الزمنية التي تعيننا ، لكن ذلك لا يعدنا الوصول الى ما تدل عليه .

ففي تونس عندما نشبت حرب القرم بين روسيا والعثمانيين قام والي تونس بإعانة السلطان ، فأرسل أربعة عشر ألف جندي إلى اسطنبول ثم أخذ يجمع المال ويرسله لحاجة هذا الجيش الذي بعثه إلى تركيا (١) .

(١) اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الاطمان ص ٩٨ - تأليف احمد بن ابي الضياف ، ط، الجامعة التونسية (١٩٧١ م) وهذا والي هو الباي احمد - توفي ١٢٧٠ - ١٨٥٥ م .

وانظر ترجمة الباي احمد هذا بنفس المرجع المذكور، وفي ص ١٨٤ ان هذا الباي وقد بعث وزيره سنة (١٨٥٠ م) معزيا السلطان عبد المجيد عندما بلغه نعي والدته السلطان ، وكان مما قاله لمبعوثه إلى السلطان بحضرة وزيره أن قال : (ان تخوفنا وثفرتنا من الدولة العثمانية أراه يجربنا إلى العدم ، ومعاذ الله أن أكون سببا في اخراج هذا القطر الإسلامي من يد المسلمين ، وخروج روحى أهون علي من ذلك . وهب أن الدولة انتزعت مني هذا الملك ألسنتُ بمسلم ؟) .

وعندما تضرّب الامور في تونس في أول خلافة السلطان عبد الحميد يهرع المصلحون من رجالها إلى اللوذ بجنا ب السلطان ، منطلقين بموقف عاطفي من الباب العالي والدولة العثمانية ، وطمعوا أن يجدوا في الاستانة فائدة تعينهم أن يرجعوا إلى تونس ويصلحوا شأنها ، وقد وجدوا من السلطان عناية ورعاية ، وإن خاب ظنّ هؤلاء المهاجرين في الإفادة من الدولة العثمانية لإصلاح وضع تونس (١) .

وكثيرا ما نجد الصحف التي تدعو للالتفاف حول الجامعة العثمانية والارتباط بالدولة العلية ، وسيأتي لنا مستقبلا باذن الله مزيد من ذلك ، ففي لبنان تصدر جمعية الفنون في بيروت صحيفة (ثمرات الفنون) أصدرها بعض أدباء المسلمين وأعيانهم في (٢٠ نيسان ١٨٧٥ م) وكانت قبلتها واتجاهها خدمة الأمة الاسلامية والجامعة العثمانية " وكانت للمسلمين ثقة عظيمة بهذه الصحيفة التي بقيت لسان حالهم مدة طويلة ، لاسيما بعد احتجاب (الجواب) في الاستانة . فكانوا يطالعونها من جميع الجهات لانّها كانت تنشر أخبارهم وحوادث ممالكهم ، وأحوال شعوبهم في مشارق الارض ومغاربها ، وتدعوهم لطاعة أمير المؤمنين والالتفاف حول عرشه . " (٢) .

ونجد من صور هذا التأييد ما يتخذ منحى آخر خلاف ما سبق ، ويتفق معه في الدعوة إلى تأييد هذه الدولة العثمانية والمحافظة عليها ، ففي العراق نجد أحد كبار علمائها يؤلف كتابين لخدمة الارتباط بهذه الدولة ، تدور مباحث أولهما على شرعية وجود الدولة العثمانية ووجوب طاعة سلطانها على جميع المسلمين ، كما أنه يردّ على ادعاءات الشيعة الذين كانوا يُضمرون الكراهية لهذه الحكومة العثمانية ، أمّا الآخر فهو بحث في الجهاد وبيان فضائله والدعوة اليه ، ألف هذا الكتاب كالتذكير للمسلمين بمساعدة الدولة إبان هجوم روسيا القيصرية على مناطق القوقاز

(١) ورد هذا الخبر في كتاب " الرحلة الحجازية " لمحمد بن عثمان السنوسي وقد أورد فصلا ، من هذا الكتاب بعنوان (الخبر عن التونسيين بالاستانة) علي الشنوفي - تحقيق ود راسة - في حوليات الجامعة التونسية ، العدد السابع (١٩٩٠ م) ص ٨٦-٨٢ .

(٢) تاريخ الصحافة العربية - فيليب طرازي : ٢٦ / ٢٥ / ٢

التابعة للدولة العثمانية سنة ١٢٧٠-١٨٥٣م (١)

ونظرف في بلاد الشام بأديب يجعل ديوانا مستقلا يمدح به السلطان العثماني (٢) .

واذا يَمُنّا جهة مصر فإننا نجد هذا الارتباط قويا جدا ، ونلمس دلائله في كثير من الأمور ، مما يدفع إلى القول : إن شعور أهل مصر وتعلقهم بهذه الرابطة أقوى وأكبر من تعلق سواهم بها من بلاد العرب .

ففي الصحف الأدبية نجد صحيفة " وادى النيل " تفتتح صدر عدد لها الأول بإبراز هذه العلاقة الحميمة وتؤكد ها ، وهاهي تقول : " سبحانك ما أوفر نعمتك جعلت لنا ملوكا وولاة يقيمون بيننا حدود الشرائع ، فأصبح كل شعب بهم آمنا تحت ظل لواء العدل رافع ، كما ألفت علينا تحت سلطنة ال عثمان التي أضاء بنور خلافتها الزمان ، بمطالع شمس الوجود ، وإكليل تاج السعود السلطان الأعظم والخاقان الأفخم ، السلطان بن السلطان ، السلطان عبدالعزيز خان ، أيّد الله سريره شوكته مدى الدوران ، فإن أفكاره العلية ، ونواياه الخيرية قد سهّلت أبواب الترقى والنجاح ، ووسعت دائرة العلوم والفلاح ، في كافة أقطار ممالكه المحروسة بهمة رجال دولته العظام ، وأصفاء شوكته الكرام . " (٣)

ومثل صحيفة وادى النيل تصدر أخرى واسمها " حقيقة الاخبار " سنة

(١) انظر : الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة - للدكتور على المحافظه ص . ٥٥ .

ومؤلف الكتابان هو الشيخ : ابو الثناء شهاب الدين محمود الألوسي البغدادي ولد ١٢١٧ ، وكانت وفاته ١٢٧٠ من الهجرة ، وقد وسم كتابه الاول : البيان شرح البرهان في إطاعة السلطان . ويفهم من هذا العنوان انه شرح لكتاب آخر في نفس الموضوع . وكتابه الآخر كان عنوانه : سفر الزاد لسفرة الجهاد ، وانظر : المجلة التاريخية المصرية المجلد الرابع عشر (١٩٦٨) مقال : مواقف سياسية لابي الثناء الألوسي للدكتور : عبدالعزيز نوار .

(٢) الاديب هو شاعر شقيق الاديب والصحفي اللبناني الذي عاش جزءا من حياته في مصر وكانت وفاته ١٨٩٦م وعنوان ديوانه : الذهب الابريز في مدح السلطان عبدالعزيز ، انظر لترجمته : الشعر والوطنية في لبنان والبلاد العربية - وليم الخازن ٥٠١ .

(٣) افتتاحية العدد الاول وقد صدر في محرم ١٢٨٧-١٨٧٠م وصاحب الصحيفة هو عبدالله ابو السعود

١٨٧٧م وهي في خطتها تراعي ميول المسلمين عموما وتدافع عن حقوق العثمانيين خصوصا في الحروب التي دارت رحاها بين تركيا وروسيا والدول الغربية الأوروبية (١) .

وعندما ينشب الخلاف بين السلطان العثماني والخديوي إسماعيل - في أواخر حكم إسماعيل - بسبب ما أعطاه للانكليز من امتياز قناة السويس، أخذت كثير من الصحف في مهاجمة الدولة العثمانية لتأييد وضع مصر الخاص في نطاق السلطنة، خاصة وقد سمح الخديوي إسماعيل بذلك، فما إن جاء الخديوي توفيق وريث إسماعيل إلا وكان وحكومته على العكس من ذلك، فقد أوقف كل صحيفة تهاجم الدولة العثمانية، وأُرسلت الانذارات تترى لتحذير من يخالف ذلك، ورأت السلطات أن تُصدر إخطارا عاما إلى كل الصحف التي تصدر في مصر " بأن الحكومة المصرية لما لها من علاقة وثيقة وصداقة تامة وإخلاص للسلطان والدولة العلية لا تسمح لأحد من الناس أن يتفوّه بما يمس حقوقها السامية، أو يخل باحترامها الواجب، وعلى ذلك تخطر كافة الجرائد التي تطبع في الديار المصرية " (٢) .

وقد كان الخديوي عباس الذي خلف والده على عرش مصر في يناير ١٨٩٢م حريصا على ربط الصلة والصداقة بالسلطان العثماني، وزار عاصمة بني عثمان عدة مرات، وكان يطمح أن يجد بها نصيرا يأخذ بيده، وينقذه من تسلط الانجليز وضغوطهم عليه لكيلا يسلس قياده لهم، ولكنّ عباسا لم يظفر بما كان يرجوه من عون واسعاد، إذ الخليفة العثماني تضطرب به الفتن والمحن من كل ناحية، وهو عاجز عن دفع ما هو به، فأثنى له أن يدفع عن سواه؟

ومن أجلّى البراهين على قوة هذا الارتباط بين مصر والسلطان العثماني ما وقع في أحداث الثورة العربية، فقد كان المصريون لا يرون عيبا في الإقرار بسلطان بني عثمان " وحين ثار عرابي على فساد أساليب الحكم في مصر، وعلي تغلغل النفوذ الأجنبي لم يخطر بباله أن يخلع طاعة الخليفة أو يخرج عليه،

(١) صاحب " حقيقة الاخبار " ورئيس تحريرها أنيس بك خلاط الطرابلسي،

وانظر: تاريخ الصحافة العربية لطرازي ٩/٣ .

(٢) حرية الصحافة في مصر (١٧٩٨-١٩٢٤م) خليل صابات وآخرون .

فهو يعرض عليه خطواته مستمد آمنه السلطة في كل مايفعل . . . وفي مقدمة برنامج الحزب الوطني الاعتراف بسلطة الباب العالي ، وبأن جلالة السلطان عبدالحميد مولا هم وخليفة الله في أرضه ولإمام المسلمين ، . . . والمنشورات التي كان يصدرها الخديوى توفيق تستعين على تنفير الناس من عرايى بتصويره خارجا عن الخلافة ، عاصيا أوامر أمير المؤمنين ، وقد كانت كل خطب العرايين تدور حول الحز عن الدفاع عن الدين الإسلامى ، وظل عرايى يعتمد على مساعدة السلطان وتأييده حتى أعلن عصيانه تحت ضغط انجلترا فكان لهذا الإعلان أسوأ الاثر كما يقول عرايى نفسه فى مذكراته " (١) .

واذا كان ما سلف من حديث يقرب الرابطة الإسلامية بالدولة العثمانية فإن من المناسب والمؤكد لما قيل هنا أن نذكر بالحملة الفرنسية على مصر - وان تقدمت زمتا بائنا عن فترتنا لما لها من دلالة - فقد كان الولاء الإسلامى هو الحمىة الوطنية والغيرة الدينية ، وقد كان هذا الحدث مما أيقظ أخوة الإسلام فى خارج مصر ، فثارت المشاعر وقويت العواطف لنجدة بلاد مصر من نعمة الفرنجة ، واندفع بعض المسلمين من بعض الأصقاع الإسلامية للمشاركة فى الدفاع عن حياض الإسلام ، وتسامت نفوسهم إلى هذا الشرف التليد ، حتى كان مصر أحد كبار قادة الفرنسيين على يد مسلم من أهل حلب ، مما كان له أطييب العواقب فى سرعة خروج تلك الحملة الخبيثة الماكرة (٢) .

(١) الاتجاهات الوطنية فى الادب المعاصر - الدكتور محمد محمد حسين ١٧/١ ، وانظر فى تفاصيل ذلك كتاب : الثورة العربىة والاحتلال الانجليزى - عبدالرحمن الرافعى .

(٢) روى المؤرخ العلامة : عبدالرحمن الجبرتي فى تاريخه المشهور (عجائب الاثار فى التراجم والأخبار) فى حوادث شعبان من سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف :

" تواتر الأخبار من ابتداء شهر رجب بأن رجلا مغربيا يقال له الشيخ الكيلاني كان مجاورا بمكة والمدينة والطائف ، فلما وردت أخبار الفرنسيين إلى الحجاز وأنهم ملكوا الديار المصرية انزعج أهل الحجاز لذلك ، وضجوا بالحرم وجردوا الكعبة ، وإن هذا الشيخ صار يعظ الناس ويدعوهم إلى الجهاد ويحرضهم على نصره الحق والدين ، وقرأ بالحرم كتابا مؤلفا فى معنى ذلك فاتعظ جملة من الناس وبذلوا أموالهم وأنفسهم ، واجتمع نحو الستمائة من المجاهدين وركبوا البحر إلى القصير مع ما انضم اليهم من أهل ينبع وخلافه ، فورد الخبر أواخره أنه

هكذا من خلال هذه النثار المتفرقة من أفكار الكتاب والأدباء في البلاد العربية قبل مطلع القرن الرابع عشر الهجرى (قبل الربع الأخير من القرن التاسع عشر الميلادى) وما شابهها يتبين لنا أن الولاء الاسلامي والإخاء الروحي كان الشعور العام المهيمن على القوم في أكثر وأغلب البلدان العربية وقد تمثل ذلك الولاء في الاتحاد والتضامن مع دولة الخلافة العثمانية والالتفاف حول رايته وإعزاز خلافتها، إذ هي خلافة الأمة الإسلامية قاطبة، وكان القوم رغم ظهور المعارضات الدينية لمسلك الدولة على نحو ما قامت به بعض الحركات كالوهابية وغيرها ، ورغم قيام بعض المعارضات العسكرية القوية للاستقلال عن الدولة كما فعل محمد علي باشا في مطلع القرن التاسع عشر لم يكونوا ليتنكروا لهذه الخلافة التي عدوها حصنهم الواقى ، بل وكهفهم الذى لا يجدون من دونه مؤيلا .

انضم اليهم جملة من أهل الصعيد وبعض أترك ومغاربة ممن كان خرج معهم من غز مصر عند وقعة امبابه ، وركب الغز معهم أيضا وحاربوا الفرنسيين فلم تثبت الغز كعادتهم وانهمزموا وتبعهم هواره الصعيد والمتجمعه من القرى وثبت الحجازيون ثم انكفوا لقلتهم وذلك بناحية جرجا . . . ووقع بين أهل الحجاز والفرنسيين بعض حروب غير هذه المرة بعدة مواضع وبفصل الفريقان بدون طائل .

والقائد الفرنسي المشارا ليه هو " كليبر " الذى قتله سليمان الحلبي وكان شابا في الرابعة والعشرين من عمره ويقيم في الجامع الازهر ، انظر تفصيل ذلك في المرجع المذكور (. . حوادث سنة خمس عشرة ومائتين والف) .

الباب الأول

معالم الوحدة الإسلامية

الفصل الأول

الجامعة الإسلامية

أولاً :

الجامعة الإسلامية والرؤية التاريخية

ثانياً :

مظاهر التصور الأدبي للجامعة الإسلامية

أولا : الجامعة الإسلامية و الرؤية التاريخية

(١) نظرة تاريخية

أ (مفهومها ونشأتها :

ليس للجامعة الإسلامية في حقيقة الأمر مفهوم يخالف مفهوم الوحدة الإسلامية ، إلا أن مدلول الجامعة الإسلامية قد يكون ذو مرونة أكثر في الميدان السياسي ، وتمثل هذه المرونة في وجود عدد من الحكومات والقيادات التي ترعى شئون الأمة الإسلامية ، وتتضافر جهودها في سبيل حفظ حقوق الأمة الإسلامية والدفاع عنها مع بقاء كل قيادة على القيام بأمرها من المسلمين .

وهذا المفهوم وإن كان يقتضيه الأمر كما هو الحال في شأن الأمة الإسلامية في مطلع القرن الرابع عشر الهجري - وغيره من الأزمان - ويكون عندئذ أحد صور الجامعة الإسلامية - كما سنرى بإذن الله - إلا أنه قد يبعد عن الفهم بعض ما توحى به دقة مدلول " الوحدة الإسلامية " من الارتباط بحاكم واحد ، أو ربط حركة الأمة باتجاه وحدة سياسية عامة ونبذ ماعداها ، كما رسخ التاريخ هذا المفهوم في أذهان الناس ، ولعل هذا - في رأبي - يُبرر استعمال المفكرين والأدباء لهذا المصطلح " الجامعة الإسلامية " وتغليبها على الوحدة الإسلامية منذ مطلع هذا العصر الحديث ، ومنذ يومئذ جرى استعمال هذا المصطلح وكثرت داوله بين المفكرين والكتاب مما قوى شيوعه واستعماله بين سائر المعاصرين حتى اليوم .

ولا أدلّ على أن المراد بالجامعة الإسلامية نفسها هو مدلول الوحدة الإسلامية من أننا نجد كثيرا ممن تحدثوا عن أي منهما من الأدباء والمؤرخين - كما سيأتي - لا يكادون يفرقون بينهما ، ويجعلون المراد بهما شيئا واحدا . وعلى هذا فلا مزيد في القول عن مفهوم الجامعة الإسلامية من أنه هو بذاته مفهوم الوحدة الإسلامية الذي سلف القول به .

والذى لا ريب فيه أن الجامعة الإسلامية قد صارت منذ مطلع العصر الحديث حركة واضحة ، ودعوة ظاهرة هدفها جمع الأمة الإسلامية فى رابطة واحدة ، وقد نالت قسطا عظيما من عناية المصلحين والكتاب والمفكرين ، وأنارت لشعوب الأمة الإسلامية منارا تطلعت اليه الأبصار واشربأت اليه النفوس منذ بروزها والدعوة اليها .

ولا محيص لمن يدرس الوحدة الإسلامية من التعرف على نشأة هذه الجامعة ابّان مطلع القرن الرابع عشر الهجرى ، وما طرأ عليها بعد ذلك ، وما مرّت من أطوار أو صاحبها من أحداث . ونظرا لكثرة الدراسات (١) التى أفاضت فى ذلك فإنّ ما يلزم هذا البحث - فى تقديرى - هو الإشارة الموجزة إلى تاريخ هذه الجامعة ، ومن ثم ندلف الى المسائل التى ترتبط مع هذه الجامعة بوشائج قوية ، مما خلّفه الكتاب من النثر الأدبي فى مضمار الدعوة إلى هذه الجامعة أو ما يتعلق بها ، أو الإبانة عن أهدافها وغاياتها .

لم يكن الغزو الأوروبى الحديث للعالم الإسلامى فى مطلع هذا العصر هو الباعث الأول إلى الدعوة لقيام الجامعة الإسلامية كما يرى بعض الباحثين (٢) أو ما يفهم من كتاباتهم ، فالواقع أن العالم الإسلامى قبل هذا الغزو واستفحاله قد دبّت فيه يقظة إصلاحية سابقة له بما يقرب من قرن من الزمان . وتعتبر الدعوة السلفية التى نشرها الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١١١٥-١٢٠٦) فى جزيرة العرب فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر الهجرى هى فجر هذه اليقظة ، بل باعثة العودة إلى صفاء الدين ونقاء العقيدة ، وكانت - بحق - من أكبر الثورات على الخرافات والبدع التى ليست من دين الإسلام فى شىء وقد انتشرت هذه الدّعوة فى جزيرة العرب وشعّ نورها إلى ماحولها من ديار الإسلام التى أوقعها انحطاط دينها فى شروبلأ ، وكانت تتطلع بعد ذلك الى إصلاح العالم الإسلامى قاطبة ، ومن ثم تحقيق وحدته السياسية .

(١) انظر فى تاريخ الجامعة الإسلامية : حاضر العالم الإسلامى - لوشروب ستوارد ٢٨٧/١ - ٣٢٨ ، الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ١٧/١ ، الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، د . عبد العزيز محمد الشناوى ١٨١/٣ وما بعدها .

(٢) انظر المراجع السابقة نفسها .

وعلى الرغم من النهاية المؤلمة (١) لهذه الدعوة ومحاوله القضاء عليها، مع ذلك إلا أن أثرها سرى إلى خارج الجزيرة العربية.

كان من فضل هذه الدعوة المباركة أن جذوتها أشعلت اليقظة الدينية الصحيحة في الهند وفي أفغانستان وفي البلاد العربية، وكانت الشوكانية (٢) في اليمن أقرب من استفاد من هذه الدعوة، كما تعدى ذلك إلى إفريقيا حتى بلغت أقصى المغرب، وكان خير ماتجلى فيه أثرها قيام الدعوة المهدية في السودان والحركة السنوسية في ليبيا.

ولعل ما يعزز القول بسبق اليقظة الإسلامية في العالم الإسلامي للغزو الصليبي الأوروبي، أن هذا الغزو الذي استفحل وبسط سلطانه على بعض البلاد الإسلامية خارج الدولة العثمانية في حوالى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى، لما يأت هذا الغزو إلا والدعوة الوهابية والحركة السنوسية لهما وجود واضح، دفع الاستعمار الغربى إلى التريث والحذر، قبل أن يحاول الدخول في بلاد انتعش فيها فكر هذه الحركات.

أما حين أراد الاستعمار أن يضيف بلاداً أخرى الى ما سبق أن استولى عليه، وأخذ يبسط نفوذه على أجزاء أخرى ومنها أجزاء من بلاد العرب بعد ذلك، فهذا مما لا خلاف في أنه كان أحد البواعث الرئيسية للدعوة إلى الجامعة الإسلامية.

غير أن الذى لا يُنكر أن هذه اليقظة التى سبقت غزو الاستعمار قد

(١) انظر: فى سيرة الشيخ محمد عبد الوهاب ودعوته : عنوان المجد فى تاريخ نجد - عثمان بن عبد الله بن بشر - الجزء الأول - تحقيق - عبد الرحمن بن عبد اللطيف ال الشيخ .

(٢) نسبة إلى الإمام محمد بن على الشوكانى (١١٧٣ - ١٢٥٠) الذى كان لدعوته إلى الدين القويم فضلا عن علمه وقضائه وفتاواه ومؤلفاته المشهورة خير الثمرات فى نشر الوعي الدينى الصحيح فى اليمن . انظر ترجمته لنفسه فى : البدر الطالع ١ / ٢٥ .

(٣) يروى أن محمد بن عبد الله سلطان مراكش (١٧٥٧ - ١٧٩٠ م) حين علم بهذه الدعوة عن طريق الحجاج المغاربة، قام بتلاف آلاف الكتب الأشعرية، ودتر بعض الزوايا، واعتاد أن يقول فى مجالسه : إتنى مالكي المذهب ، وهابى المبدأ . راجع كتاب : الاتجاهات الفكرية عند العرب فى عصر النهضة ، د . على المحافظة - ٤٣ .

هيات الأجواء ، ومهدت لانتشار روح الأخوة التي يدعو الدين الاسلامى الى الاعتداد بها منهجاً وسلوكاً ، فاذا ما تشربتها النفس المؤمنة سهل توجهها وحرصها على ما يجمع كلمة المسلمين وينظمهم فى وحدة شاملة .

وعندما جثم الغزو الاستعمارى على الهند وأخذ القوقاس واقتطع أكثر ما تملكه الدولة العثمانية من جزئها الأوروبى ، وأنشأ أظافره فى شمال أفريقيا ، هنا عظم أمر هذه الجامعة وبدأ يشتد كلما ازداد الاستعمار فى غيّه وعتوّه ، وعندئذ انبعثت الحمية الاسلامية ، وحاولت الشعوب الاسلامية أن تدفع عن نفسها ذلك الخطر الداهم ، كما قامت بعض البلدان بالالتفاف حول بعض أبطالها البارزين فى محاولة لجمع الصفوف وتوحيد الكلمة ، لكن ماحق بالبلاد الاسلامية من انعدام قيادة رشيدة ، وبخاصة فى البلاد التى نزل الاستعمار بها ، إضافة الى ما تميز به هذا الغزو من تنظيم ودقة وتقدم فى المجال الحربى ، كل ذلك أتاح للغزاة الظفر فى أكثر غزواتهم ، ثم التقدم لاستلاب أملاك وأمصار جديدة والسيطرة عليها ، وبالتالي جعل تلك الجهود المقاومة والساعية لتضامن أهل بلد ضد اعدائهم هباءً منثوراً .

فى غمرة هذه الأحداث المتفرقة فى أكثر البلاد الاسلامية التى تسلط عليها الاستعمار ، أدرك كثير من أرباب الفكر وبعض القيادات السياسية فى العالم الاسلامي أن الجهود المبعثرة لصد المستعمرين فى معظم البلاد الاسلامية لا تغنى فتياً فى دحره وصدّه ، ولا مناص من اتخاذ خطة جديدة لهذا الأمر ، وكان التفكير فى توحيد هذه الجهود وتضافرها مع العمل الجماعى الموحد تحت الرابطة الاسلامية وتحقيق الوحدة الاسلامية أبرز ما ظهر للقوم من سبيل يمشون فيه ، إضافة الى الأخذ بأسباب أخرى تهدف إلى نفس الغاية كالاستفادة من الوسائل الحضارية المادية الجديدة ، وإحياء الثقة فى النفوس التى خامرتها بعض الهواجس الموهنة من جرّاء ما نزل بهم وطعنهم فى اخوانهم وبلدانهم وحرّياتهم .

ب) السلطان عبد الحميد والجامعة الاسلامية :

مع بزوغ فجر الربع الأخير من القرن التاسع عشر الميلادى كان غزو العالم الاسلامي قد تقدّم تقدماً كبيراً فى اخضاع مناطق عديدة

تحت سلطته (١) ، فقد أوغلت روسيا في ضم كثير من الممالك الإسلامية حتى تاخمت حدود الافغان وايران ، وبسطت انجلترا أساطيلها في مياه الخليج وبحر العرب ، وأخذت تمهد لاقتحام مصر ، وبسطت فرنسا سلطانها في شمال افريقيا حتى بلغ الأمر أن التآمر الأوروبي أخذ يهدّد الدولة العثمانية في أجزائها الأوروبية المتبقية .

في هذه الآونة لاح لبعض القيادات الإسلامية ولجماعة من المصلحين والمفكرين المسلمين على أن اتحاد واجتماع كلمتهم وتنسيق جهودهم وتعاونهم مع بعضهم هو خير ما يواجه به هذا الموقف العصيب .

تولى السلطان عبد الحميد الخلافة العثمانية مع السنوات الأخيرة من القرن الثالث عشر الهجرى (١٢٩٤ / ١٨٧٦ م) وكان أعظم القيادات الإسلامية ، بل هو زعيم الأمة الإسلامية وخليفة المؤمنين يومئذ ، وهو أكبر وأهم الشخصيات التي دعت إلى الجامعة الإسلامية ، بيد أن كان قدّره أنه لم يصل إلى الخلافة إلا والدولة العثمانية على غاية من الضعف والاضطراب وسوء الحال في مختلف شئون الدولة كما صرح بذلك في مذكراته (٢) . والدول الاستعمارية التي كانت تتحين الفرصة للانقضاض على الدولة العثمانية واقتسامها فلم يكن له معها الا السياسة الأريية في ضرب بعضها ببعض ، واكتفاء شر واحدة بأخرى .

عمد هذا الخليفة إلى استغلال هذه الجامعة خير استغلال ، فدعا مختلف الشعوب الإسلامية للالتفاف حول الخلافة العثمانية واعتباره زعيم الاسلام وحامي المسلمين من أعدائهم ، واستفاد من بعض الصحف في العالم الاسلامي لكي تدعو إلى هذه الجامعة ، كما جمع حوله عددا من الشخصيات النابهة من زعماء البلاد الإسلامية ومفكريها (٣) ، وقربهم منه لكي يستفيد منهم في

(١) انظر : تاريخ الدولة العلية العثمانية - محمد فريد ٣٢٦ وما بعدها .

(٢) انظر : للتوسع في أمر السلطان عبد الحميد والجامعة الإسلامية رسالة بعنوان : السلطان عبد الحميد والخلافة الإسلامية - أعدها موفق بنى المرجه - جامعة عين شمس - كلية الآداب ، ط ١٩٨٤ م - مؤسسة صقر الخليج - الكويت ، حاضر العالم الاسلامي ١ / ٣٠٨ .

(٣) منهم جمال الدين الأفغانى (١٢٥٤ - ١٣١٥) ، عزت باشا العابد من أهل سوريا (١٢٧٢ - ١٣٤٣) وخير الدين التونسي من تونس (١٢٢٥ - ١٣٠٨) .

الدعوة لفكرته ، كما عمد لإرسال دعائه إلى البلاد الإسلامية وخاصة الواقعة تحت الاستعمار لبحث فكرة الجامعة الإسلامية ، وتعليق أمل النجاة من الأعداء على يد الخلافة العثمانية . وفوق ذلك عمل السلطان عبد الحميد إلى الافادة من وسائل العصر الحديث ، فبنى كثيراً من المعاهد والكليات ، وسعى لممدّ الخطوط الحديدية وبخاصة خط حديد الحجاز ، وكانت للبلاد العربية عنده نظرة خاصة جعلته يزيد من حديه عليها حتى يستميل القلوب إليه .

لقد عمد هذا الخليفة إلى الاستعانة والإفادة من مختلف الوسائل والطرق ، وتحمل كثيراً من الصعاب والأهوال في توحيد الأمة الإسلامية ، وكان من حنكته أن جعل الجامعة الإسلامية الطريق الأمثل لحفظ الدولة الإسلامية في الداخل من الفتن والانشقاق ، كما أنها في الخارج سلاح وشبح يرهب به الدول الاستعمارية حتى تنصرف عن اقتحام الديار الإسلامية .

وكانت القيادات الإسلامية التي كانت معاصرة للسلطان عبد الحميد وبخاصة الحركات الإصلاحية تعمل لهذه الوحدة (١) .

فالملك عبد العزيز آل سعود (٢) كان يوفق بقدر استطاعته بين علاقاته مع بريطانيا وبين فكرة الجامعة الإسلامية ، والتي قد تقتضيه الوقوف ضد بريطانيا في بعض المواقف ، كذلك فإن دعوة الامام الشوكاني في اليمن جعلت أئمة اليمن الشمالي يحملون ولاءهم للدولة العثمانية حتى ألغيت الخلافة .

أما الحركة السنوسية فقد كان من أهم مبادئها التي انتشرت في الزوايا الكثيرة عبر الصحراء الليبية وفي بعض أجزاء أخرى من العالم العربي ،

(١) انظر : السلطان عبد الحميد والجامعة الإسلامية - الباب السابع - الفصل الثاني : الحركات الإصلاحية والجامعة الإسلامية .

(٢) عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود ملك المملكة العربية السعودية الاول وموحد الجزيرة تحت لوائه بعد معارك وغزوات مع جميع القوى التي كانت بها حتى وحدها (١٣٥١) وكانت وفاته ١٣٧٣ ، انظر في ترجمته : تاريخ نجد الحديث ، وملوك العرب (كلاهما لأمين الريحاني) ، شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز خير الدين الزركلي .

أنه ليست هناك حدود تُجَزَىء العالم الإسلامى ، والحركة الاصلاحية- مثلها - يلزم أن تكون شاملة لكل أقطاره أو أكثرها بقدر الامكان على السواء . ومع ما كانت تتخذه من مواقف محايدة من سياسة العثمانيين ، إلا أنها حملت راية الجامعة الاسلامية واستمرت عليها وعلى الولاء للخلافة حتى قُضي عليها .

والمهدية فى السودان وَحدت القبائل وراء فكرة تتظاهر بالروح الإسلامية ، كما كانت ترى فى جهادها للاستعمار الانجليزى الذى جثم على كثير من بلاد المسلمين وخضد شوكته تطبيق لأهداف الجامعة الإسلامية .

بهذا يتجلى لنا أن الحركات الاصلاحية فى بعض البلاد العربية قد سعت لإحياء شعار الجامعة الاسلامية وإعلاء راية الإسلام ، وإن اختلفت فى الطرق والأساليب لتحقيق هذه الجامعة ، وكان لهذا أعظم الأثر فى بقاء هذه الفكرة حية حتى عندما ذهب الخلافة ببضعة عقود .

غير أن ما ينبغي ملاحظته هنا أن الاستعمار كان وراء كل هذه الحركات بالمرصاد ، وعمل بكل وسائله لمحو صبغة هذه الجامعة مع قياداتها وتضليل أتباعها عنها ، وإن عجز عن ذلك جرّها إلى اتجاه آخر يحاول فيه أن يحتويها أو يحورها بصورة تذهب بحقيقتها وهدفها .

وبجوار هذه القيادات التى تاقت إلى الجامعة الاسلامية فى عهد السلطان عبد الحميد كان هناك قادة فكر حملوا مشعل الهداية الى هذه الجامعة ، وكانت لهم جهود غير منكورة فى هذا المجال ، وهؤلاء المفكرون وإن اختلفوا فى تصوّر هذه الجامعة وتحديد معالمها فقد دفعت جهودهم مع جهود القيادات السابقة إلى بلورة الفكرة وسعة انتشارها وقوتها ، ومن أشهر هؤلاء جمال الدين الافغانى وعبد الرحمن الكوكبى وغيرهما ، وسوف نؤجل الحديث عن دعاة الجامعة الاسلامية هؤلاء قليلاً لنعرض لهم فى الحديث عن الصور أو الهيئات التى ظهرت فيها الجامعة الاسلامية وفق تصور أشهر دعاة الذين تصدّوا لنصرتها وإحيائها .

ولاشك أن مما ساعد على تعلق الشعوب الاسلامية بهذه الدعوة والتفافهم حولها ما كان يذيعه أو يكتبه أو ينشره قادة الغرب ومفكروه من طعن وازدراء بدين الإسلام وتجريح للمسلمين على نحو ما فعل (كرومر)

مندوب الاستعمار البريطاني في مصر في بعض تقاريره وكتبه التي نشرها كما سيمرّ بنا عندا لحديث عن الجامعة الاسلامية وأوروبا باذن الله . وكان لمهاجمة الدول الأوروبية للدولة العثمانية بروح دينية صليبية رافد آخر للالتفاف حول هذه الجامعة .

وإذا كان اعلان الدستور في آخر حكم السلطان عبد الحميد (١٣٢٦ / ١٩٠٨ م) حافظا على تقوية هذه الجامعة والرابطة العثمانية كما يرى بعض الباحثين (١) ، حيث تُودى بالحرية والمساواة والإخاء بين أبناء الشعوب العثمانية على اختلاف مللهم ، وكان لذلك فرحة عظيمة استبشرت بها الأمة في هذا العهد الجديد ، ودعت رعاياها من شتى الطوائف إلى المودة والتآلف والاتحاد ، وببذ الأحقاد والتفرق ، إذا كان كذلك فانه ينبغي الا يفهم ذلك على اطلاقه ، فلا ريب أنه أحدث هزة وفرحاً كبيراً، وخاصة في أوساط الطوائف من غير المسلمين ، ونال المسلمين أيضا سروره ، لكن التفسير الحقيقي لهذا الحادث أعمق مما قد ذكر أولئك الباحثون . إذ الحق أن إعلان الدستور هو حكم بغير شريعة الله للأمة ، وفي هذا ما يلغى الخلافة ويقيد السلطان أميرالمؤمنين ، ومتى زال حكم الله وسلطانه فأى خلافة تبقى وهذا ما كان يقصده دعاة الدستور في عهد السلطان عبد الحميد وينادون به ، وهذا السلطان لم تغب عليه هذه النوايا البعيدة بل كان بصيرا بها ، فاستطاع أن يعصف بالدستور الذي أُضطر إلى اعلانه في مطلع حكمه (١٢٩٤ / ١٨٧٧ م) وهكذا الدستور الثاني هذا (١٣٢٦ / ١٩٠٨ م) لاشك أنه أُضطر مرغماً لإعلانه ناوياً لإطاحة به ، لكن لم يمهله القدر حتى خُلِعَ قبل أن يسقط الدستور مرة أخرى .

أما تفسير الفرحة بذلك الدستور الأخير - فيما أرى - فهي فرحة بتخفيف الظلم والضغط وكثرة الفساد الذي كان يقع على الشعوب العربية من بعض الولاة العثمانيين في عهد الدولة الأخير ، حيث انتابها الضعف ودب الخلل في كيانه فليس غريباً أن يصيب الولايات العربية شيء من أضرار ذلك الضعف والانحلال ، أما ما وراء ذلك فالدستور ليس في الحقيقة إلا نكبة وضربة

(١) انظر : التيارات الأدبية في العالم العربي الحديث - أنيس الخوري المقدسي ٤٤ ، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ١ / ٤٣ .

ما حقة للخلافة الاسلامية دبرها خصومها فى مكر ودهاء .

ويمكن القول أيضا: إنَّ حروب دولة الخلافة التى كُثرت فى عهد السلطان عبد الحميد وانتصارها فى بعضها كما حدث فى حرب اليونان (١٣١٥ / ١٨٩٧ م) مما دفع بالمسلمين إلى العطف على اخوانهم ودولتهم فى مقارعة خصومهم ، وكانت الانتصارات ترجع لهذه الدولة هيبتها ومكانتها عندهم ليثقوا بقوتها التى كان يصورها أعداؤها بأنها ضعيفة مختلة (الرجل المريض) وسائرة فى طريقها إلى الزوال .

وهكذا نجد أن الجامعة الاسلامية فى ضوء كل الأحداث والجهود السابقة ازدهرت طيلة حكم السلطان عبد الحميد ، وكان لسياسته الحكيمة فى اتخاذها أعظم الأثر فى انتعاشها وتطورها .

ج) الجامعة الاسلامية بعد السلطان عبد الحميد :

لم تطل مدة السلطان عبد الحميد الذى بعث الجامعة الاسلامية من وهدتها بعدما أُضطر لإعلان الدستور (١٣٢٦ / ١٩٠٨ م) ، فقد تأمر رجال جمعية (الاتحاد والترقى) ^(١) على هذا السلطان وخلعوه بعد أقل من عام

(١) جمعية الاتحاد والترقى جمعية سرية أنشأها بعض أعضاء جمعية " تركيا الفتاة " التى أنشأها بعض الأتراك العثمانيون ١٨٦٥ م ، وهدف الجمعيتان واحد هو الدعوة للحرية الفردية وقيام النظام الدستورى والقضاء على الإقطاع والتحرر من السيطرة الأجنبية ، وارتبط بهذه الجمعية بدء حركة القومية التركية داخل الدولة العثمانية ، وصحت عزميتها على ايجاد قوة لتفرض الإصلاح على السلطان وقد تسلل إلى هذه الجمعية وإلى غيرها من الجمعيات السرية التى كثرت فى استانبول بعض العناصر اليهودية وبعض عناصر أخرى ، وكانت جمعية الاتحاد والترقى هى الجناح العسكرى لجمعية " تركيا الفتاة " وكان لهذه الجمعية اتصال بالمحافل الماسونية التى رحبت بها وآزرتها فى أوروبا حيث جعلت لها فروعا فى باريس وبرلين ، وأغلب المنتمين إلى هذه الجمعيات ممن فتنوا بأوروبا ومن الجهلة بالإسلام لأنهم يتهمون الخلفاء بالحكم المطلق ، ويطالبون بوضع دستور للدولة على نحو دول أوروبا ، وقد تغلغل بعض رجال الاتحاد والترقى فى مناصب خطيرة فى عهد السلطان عبد الحميد حتى تمكنوا من خلعه و احلال الدستور . انظر : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ١٠٠٤ / ٢ / ١٠٠٥ .

من اعلان الدستور، وعلى الرغم مما كان لهذا الحدث من تحسرو ورثاء فى العالم الاسلامي - كما سنرى فى هذا الفصل - وقد كان إقصاء السلطان عبد الحميد - باعث الجامعة الاسلامية - عن الخلافة نكبة وضربة مُصيبة لدعوة الجامعة الاسلامية ، ومع هذا فان تيار الجامعة الإسلامية لم يخفت أبداً ، بل لقد اعتمد حكام الدولة العثمانية الجدد على هذه الجامعة واستغلوها فى كل مآربهم التى يمكن أن يتوصل بها فى تحقيقها ، واعتمدوا عليها فى مقاومتهم للعدوان الأوروبى الذى كان يترىص بدولة بنى عثمان .

وعندما أقدمت ايطاليا على غزو طرابلس التى كانت تابعة للدولة العثمانية ، ونشبت الحرب سنة (١٣٢٩ / ١٩١١ م) بين الطرفين ، وتمادى الطليان فى الوحشية فى حربهم ، قامت فى العالم الاسلامى دعوة إلى نصره الأخوة الإيمانية ، وتعالى الصيحات وهب الأحرار للنجدة وجمع التبرعات ، وانضم للجيش العثمانى أفراد وجماعات شتى من الأقطار الإسلامية .

وبالمثل عندما اضطربت البلقان وبلغاريا والصرب والجبل الأسود بتحريض من أوروبا كي تخرجها من سلطة العثمانيين الأتراك مما أدى إلى تفاقم الأمر واندلاع الحرب فى سنة (١٣٣٠ / ١٩١٣ م) ، هنا تظهر الجامعة الاسلامية كما فى حرب طرابلس ، ويتجلى فى كثير من الأقطار الاسلامية الحرص على متابعة حوادث البلقان ، وتحنو النفوس على ما نزل بالمسلمين من جرائم بشعة ، كان المسيحيون قد انتقموا بها من المسلمين حين تحقق لهم النصر وسقطت " أدرنة " أعظم مركز للدولة العثمانية فى جزئها الأوروبى .

وعندما قام الطياران التركيان (فتحى وصادق) وهما أول طيارين فى البلاد العثمانية ، ووصلا سوريا ولبنان ، وأرادا السير إلى مصر ، الا أنهم - سقطا وماتا قبل أن يحققا هدفهما ، فأعاد الكرة رفيقان آخران لهما حتى وصلا سالمين الى مصر وذلك قبيل نشوب الحرب العالمية الأولى ، كان لهذا الحدث الجلل فى الشام ومصر بالذات صدى كبيراً أستبشر به أهل هذه البلاد ، ورأوا فيه عزّة للإسلام وقوة للدولة العثمانية ، وكانت مشاعر الترحيب والتهنئة والعزاء مما ألهم العاطفة العثمانية الإسلامية .

وعندما نشبت الحرب العالمية الأولى (١٣٣٢ / ١٩١٤ م) لم يغيب

عن وعي الاتحاديين استغلال الجامعة الاسلامية التي مازالت حية فى ضمائر الأمة وتحلها مكانة عالية، اذ عندما خافوا أن تنكشف نواياهم ، وأنهم سيقفون معزولين عن تأييد غالبية المسلمين عمدوا الى اثاره الشعور الاسلامى لينالوا المؤازرة فى هذه الحرب، فأمروا السلطان (محمد رشاد) الذى وضعوه خلفا لعبد الحميد (١٣٢٧ / ١٩٠٩ م) ، أمره أن يعلن الجهاد المقدس ضد أعداء الدولة ليُهبَّ المسلمون لنصرتها .

وهكذا من خلال كل هذه الأحداث التى سيأتى الحديث عنها (١) - بحول الله - يظهر لنا من خلال هذا العرض السريع لبعض الأحداث المهمة بعد خلع السلطان عبد الحميد ، أن الجامعة الاسلامية قد استمرت حية فى جمهور الأمة والشعوب الاسلامية ، وبرغم أن الوضع القائم للأمة آنذاك قد أملى عليها أن تكون هذه الجامعة فى شكل مشاعر أخوية وروابط إيمانية فى الاغلب الأعم ، إلا أنها بقيت حية ومتيقظة من بعد خلع السلطان عبد الحميد والى انتهاء الحرب العالمية ، ولم يقف أمرها عند هذه الفترة ، بل نجدها حية عندما سقطت الخلافة وما أعقبها من دعوة لإعادتها وحياتها كما سيأتى كل ذلك فى موضعه من هذا البحث .

وهنا يجب أن نذكر أن هذا العرض الموجز من تاريخ الجامعة الاسلامية قد احتشد الأدب لمواكبته والتفاعل معه ، وكان الأدباء ينفثون أحاسيسهم ومشاعرهم أبان هذه الفترة ، ومع تقرير هذه الحقيقة فلعل فى التقديم بهذا الموجز من تاريخ الجامعة الاسلامية القاء بعض الضوء يهدى من يقرأ هذه الدراسة الى فهم ما يعرض بعد ذلك فى ثنايا هذا البحث من آراء وسنعرض للنثر الفنى الذى عالج قضايا هذه الجامعة وما رافقها من البيان الأدبى فى هذه الفترة وما يليها بحول الله تعالى .

(د) ارتباط الجامعة الاسلامية بالدولة العثمانية :

ليس غريبا أن ترتبط الجامعة الاسلامية فى مطلع العصر الحديث

(١) انظر : فصل : حوادث العالم الاسلامى من هذا البحث ، الاتجاهات الأدبية فى العالم العربى الحديث ص ١٥ وما بعدها .

بالدولة العثمانية وتندمج فيها ، ويقوى التشابك بينهما حتى كاد الفرق بين الجامعة الاسلامية والجامعة العثمانية ينعدم عند جملة من المفكرين والكتاب^(١) اذ يصبح تأييد هذه الدولة والدعوة اليها والدفاع عنها والإشادة بمآثرها ورجالها دليلا على الجامعة الاسلامية والوحدة السياسية، والذي لامرأ فيه أن فكرة الجامعة الاسلامية لم ترتبط بالدولة العثمانية اعتباطا أو مصادفة، فالدولة العثمانية تضرب فى تاريخ الأمة الاسلامية جذورا عميقة، وقد قام لها سلطان فى العالم الاسلامي نَيْفَ على ستة قرون ، وهو بحق أكبر وأطول حكم قام فى التاريخ الاسلامي إلى اليوم . أمّا خدمة العثمانيين للإسلام وحماية بيضته ونشره فى بلادنا عَزَّ الوصول إليها على من قبلهم ، إلى غير ذلك من الجهود السامقة التى بذلوها مما سجله التاريخ بمداد الفخر والسوء د فى سجل أعمالهم ، والتى لا يغض منها ومن مكانة هذه الدولة حنق بعض من يتجاهلون هذا المجد الباذخ ، ويرغبون أن يصبغوا أمجاد بني عثمان بسواد الأعمال ومنكر القول وتزوير الحقائق ، وان كان لا يُنكر وجود بعض الهنات التى لامناص لأي أمة من البشر - بطبعها - من الوقوع فى أمثالها (٢) .

ورغم حكم العثمانيين للعالم الإسلامى تلك القرون وتصدّ رهيم سياسته فقد حرصوا على صبغ حكمهم بالخلافة الاسلامية ، وكان السلطان سليم (٩١٨ - ٩٢٦) قد استولى على الخلافة الاسلامية من الخليفة العباسى الذى كان قابعا فى مصر عندما فتحها هذا السلطان ، وأعلن أن الحكم العثماني خلافة تقوم على الأمة الاسلامية ، فضلاً عن تسلمه مفاتيح الكعبة وإدخال بلاد الحجاز المقدسة تحت السلطنة العثمانية .

لقد أقام الأتراك العثمانيون الوحدة الإسلامية " وأعادوا الشرق الإسلامى إلى لواء الخلافة من جديد ، ووجدت الشعوب الاسلامية قوة تحميها

(١) انظر: الدعوة الى الخلافة العثمانية وأثرها فى الأدب العربى الحديث الطاهر محمد على البشير (المقدمة) رسالة دكتوراة - بكلية الاداب - جامعة القاهرة - ١٩٦١ م .

(٢) انظر: الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ١ / ٥ - ٧ .

من الغزوات التي تتناوشها من كل اتجاه ، ووضع العثمانيون نظاماً للحكم والإدارة والدفاع عن البلاد . . . " (١) .

لقد ظلت تركيا تمثل للعالم الإسلامي - الى مطلع القرن العشرين - القيادة السياسية الكبرى ، وظل سلطانها الخليفة الأعلى والمثال النير الذي يراود أذهان المسلمين ويعيد لهم سيرة الخلافة الإسلامية عبر التاريخ ، ولا أدل على ذلك أن نجد في القرن التاسع الميلادي ولاية كمصرتتاج لها الظروف بظهور نزعة قومية في الفكر والأدب ، ومع ذلك تظل النزعة العثمانية هي المستولية عليها ، وعلة ذلك كما يقول أحد الباحثين (٢) : " ما كان للخلافة ودعاتها من تأثير في نفوس المسلمين ، فكان سلطان تركيا الممثل الأكبر لعظمة الشرق والإسلام " .

لقد كانت العاطفة الإسلامية وفكرة الخلافة تسيطر بقوة على الأدباء ، ويمتزج ولاء الاسلام بخلافة بنى عثمان ، ومن ثم كانت " عاطفة المسلم تتجه - حتى العصور الأخيرة - إلى جهتين ، ثم إلى قومين ، فهي تتجه صوب مكة مسقط رأس النبي صلى الله عليه وسلم ومقام إبراهيم وكعبة المسلمين وقبله أنظارهم ، ومكة في بلاد العرب ، والنبي عربي والقرآن عربي ، وهي تتجه - أو كانت تتجه - صوب الاستانة ، مقر الخلافة الإسلامية ، ومقام الخليفة من آل عثمان ، والاستانة عاصمة الترك ، وخليفة المسلمين كان تركياً ، فكل مسلم كانت تعنيه وحدة المسلمين كان يتجه ببصره - إلى حين ألغيت الخلافة - نحو مكة ونحو الاستانة ، يستمد من الأولى المدد الروحي ، ومن الثانية مدد السيف والمدفع " (٣) .

وإذا كان الغزو الاستعماري الذي تكالب على العالم الإسلامي في القرنين التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ذو أثر عظيم في التفاف العالم الإسلامي حول السلطنة العثمانية ، وهي مع ذلك أعظم الدول الإسلامية وأكبرها قيادة في محيط الإسلام ، مما ساعد على التطلع إلى مؤازرة هذه الدولة التي ملأ تاريخ قوتها الأذهان ، ويعضد ذلك " أن الدولة العثمانية

(١) الشرق الإسلامي في العصر الحديث - حسين مؤنس - ٣٢ .

(٢) الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث ١٦ .

(٣) الشوقيات - أحمد شوقي - ١٣٠ ، ١٢ / ١ .

أكبر الدول الإسلامية آنذاك وأكثرها عرضة لأطماع الدول الغربية ومواءمتها ، فقد اتجهت إليها الأنظار لمواجهة الغرب والتصدي له ، فاختلطت هذه الدعوة (إلى الجامعة الإسلامية) بالدعوة إلى تأييد الدولة العثمانية^(١).

وقبل ذلك وبعده هناك الأخوة الإسلامية التي لا تتجافى عن التعاون والتعاقد مع أخوة العقيدة مهما فرقت بينهم السياسات ونأت بهم الأوطان ، وبهذه الرابطة بقيت الجامعة الإسلامية العثمانية على الرغم مما بذلته الدول الاستعمارية لضربها والقضاء عليها ، وبرغم ما كانت تعانيه الدولة العثمانية في أواخر عهدها من اختلال وفتن وضعف فقد ظلت ماثلة للعيان توءدى هذه الرسالة القيادية حتى مُحيت من التاريخ .

مما سبق من إشارات ترمى إلى مكانة الدولة العثمانية وصلتها بالجامعة الإسلامية يمكن القول : إننا سنعتبر كل ما يخدم الدعوة إلى الدولة العثمانية أو يوازر سياستها ويدافع عنها ويعاضدها مما دبجته أقلام الأدباء ونظمت قرائحهم جزءاً مهماً يدخل تحت مظلة الجامعة الإسلامية ، ويُعدّ من أعظم مظاهرها ، وسوف نرى نماذج نثرية كثيرة تؤكد ذلك نعرض لها بعد أن تتبين صور الجامعة الإسلامية التي أشتهرت بها وظهرت فيها بحول الله .

(١) الحركات الفكرية في عصر النهضة في فلسطين والأردن - د . علي المحافظه - ١١٣ .

(٢) اتجاهات الجامعة الاسلامية وصورها

لم تكن الجامعة الاسلامية التي نَعْنى بالحديث عنها على صورة واحدة واضحة ، ولا ذات دلالات محصورة محددة ، بل لقد اختلفت الصور التي فُهِمت بها ، والمعاني التي دُعيَ الناس الى فهمها عنها ، وكانت في الجملة على عدد من الصور والمفاهيم المتشابهة والمتقاربة التي قد يصعب التمييز بين بعضها البعض ، بل إن الأمر ليصل الى اختلاف كبير بين الكتاب عندما يرمون تحديد المراد بالجامعة الاسلامية عند أحد دعائها المشهورين .

والذي يبدو أن ما أوصل الى هذه الصور والفروق في فهم هذه الجامعة رغم وضوحها في مصادر الاسلام من الكتاب والسنة وغيرها أموران مهمان :

أحدهما : الاتجاهات السياسية والحزبية التي كان يرمى إليها من تعلقوا بهذه الجامعة من القادة السياسيين أو من العلماء المفكرين .
وثانيهما : ظهور مبادئ القومية والوطنية التي كانت تزاحم مفهوم الوحدة الاسلامية فأراد كثير ممن تشربوا هذه المبادئ الاجتماعية الحديثة أن يوفقوا بينها وبين الجامعة الاسلامية فذهبوا في ذلك مذاهب شتى متباينة .

ولما رأيت للجامعة الاسلامية صوراً متعددة رأيت أن أعرضها واحدة واحدة ، وأن أقرن مع كل منها أشهر من رأيت أنه يمثلها وبسّدت بالافغانى وتصوره لمفهوم الجامعة الاسلامية .

أ (جمال الدين الأفغانى :

فى الفترة العصيبة من تاريخ أمتنا فى مطلع العصر الحديث ظهر فى العالم الاسلامي جمال الدين الأفغانى (١٢٥٤-١٣١٥) فى صورة لامعة تثير الآراء والمناقشات فى كل بلد نزل فيه ، فملأ عصره وشغل الناس به حتى أثرت حوله الشكوك وانقسمت الآراء فيه بين مآدح وقآدح (١) .

(١) انظر: هذه الآراء فيما سياتى من حديث عن الأفغانى فى فصل : كُتَاب الوحدة الاسلامية من هذا البحث .

اقترن اسمه عند كثير من الباحثين بالجامعة الاسلامية ، ومع ذلك كله فاننا لانعدم من يشك في ذلك وبعده خلافاً للحقيقة (١) .

وهذا في نظري غلو في الرأي يخالف الحقيقة . فتاريخ الأفغاني وآثاره الفكرية تقطع بوجود جهد عظيم له في هذا الموضوع . أما توجيه نواياه من وراء عمله في هذه الجامعة فلايعنينا التحقيق فيه أو تتبعه إن كان لله نوايا أخرى غير خدمة الأمة الاسلامية التي لا أشك أنه أرادها (٢) .

وإذا كان الأفغاني من أشهر رجال الإصلاح في العصر الحديث، كما هو ذائع عند أكثر دارسيه (٣) وقد وهبه الله بسطة في العلم والجد وبُعْد النظر في عواقب الأمور ، وكان على وعى بحقيقة العالم الإسلامي في زمانه وما كان يعانيه من كثير من الرزايا التي رزح تحتها ، وكان الاستعمار وغزو بلاد المسلمين يتصدرها ، ونظراً لجولات الأفغاني وتنقله في العالم الإسلامي في أفغانستان والهند وجزيرة العرب ومصر وفارس والقسطنطينية وغيرها ، فقد رأى حاجة بلاد الاسلام إلى وجوه من الإصلاح ، وفكر في ذلك في وقت مبكر من حياته .

وتؤكد الدراسات عن الأفغاني أن دعوته إلى الوحدة الاسلامية من أعظم أفكاره التي آمن بها وبذل جهده في سبيل تحقيقها والدعوة إليها ، وهنا نلفت النظر إلى أن ما ذكره في هذا المقام ليس الغرض منه بيان جهوده في هذه الوحدة لأن ذلك سيأتي عند حديثنا عنه في موضع آخر من هذه الدراسة .

وحسبنا هنا معرفة صورة الجامعة الاسلامية وأبعادها كما رآها الأفغاني ودعا إليها ، لقد نظر الأفغاني فوجد الأمة الاسلامية وبلادها وحكوماتها دولاً شتى وأحزاباً متناحرة، ووقف يتأمل الداء الذي يفتك بالأمة،

(١) انظر: السلطان عبدالحميد والخلافة الاسلامية ٢٠٥، ٣٣٧، البركان

الثائر - فتحى الرملی ١٨، ١٩ .

(٢) انظر : جمال الدين الأفغاني في ميزان الاسلام ٢٣٤ .

(٣) انظر : زعماء الإصلاح في العصر الحديث - أحمد أمين - فصل :

جمال الدين الأفغاني .

وهاهو يرى كل صقع وكل دولة من دول الاسلام فى الشرق وما آل إليه أمرها فيه فيقول (١) : " وقد خصصت جهاز دماغى لتشخيص دائه وتحرى دوائه ، فوجدت أقتل أدوائه وما يعترض فى سبيل توحيد الكلمة فيه داء انقسام أهليه وتشتت آرائهم واختلافهم على الاتحاد ، واتحادهم على الاختلاف ، فقد اتفقوا على ألا يتفقوا ، ولا تقوم على هذا لقوم قائمة "

وإذا أيقن بالفرقة وانتصاب الخلاف يعمد إلى أصل يعول عليه ، ومن ثم يركن اليه المسلمون جميعاً ولا يختلفون فى الاتفاق عليه مهما اختلفت أوطانهم وتباينت آراؤهم ، ذلك هو دينهم الذى هو أصل وجود هذه الوحدة ، ففهمه وتطبيق منهجه من أعظم مايوصل إليها ، كما أن " السبب الأعظم والفاعل الأكبر فى السقوط هو اهمال ما كان سبباً فى النهوض والمجد وعزة الملك . وهو ترك حكمة الدين والعمل بها ، وهى التى جمعت الأهواء المختلفة والكلمة المتفرقة وكانت للملك أقوى من عصبية الجنس وقوته " (٢) .

فتفشي الجهل بحقيقة الدين وحكمته عند الحكام والولاة عصف بأعظم دعامة لأساس حكمهم وزلزلها ، فقد ضعف سلطان الدين ولم يعد له تلك القوة الجامعة المانعة من العصبية الأخرى ، فرجع هؤلاء الولاة والحكام إلى بعث العصبية القبلية وإحياء الجنسيات المتفرقة ، وبذلك وهنت رابطة الدين فانفتح الباب لروابط مصطنعة ومتعددة ، وحصل من ثم التفرقة والخلاف وانشقاق الأمة الواحدة .

ويوصى الأفغانى الأمة بالعودة الى القرآن وفهمه وتطبيق ما جاء به ففيه الهداية وهو الأصل الذى يجب أن يلتفوا حوله فيقول (٣) : " القرآن القرآن ، وإننى لأسف إذ دفن المسلمون بين دفتيه الكنوز وطفقوا فى فيافي الجهل يفتشون عن الفقر المدقع ، خالفوه فى كل أمر ، فعملوا عكس ما قال ، حتى كأنما القرآن أمرهم بالاختلاف وحذرهم من الائتلاف ، وحضهم على انتقاضهم على أنفسهم وتشتيت كلمتهم وألا يعتصموا بحبل الله جميعاً ، بل يتفرقوا ليفشلوا وتذهب ريحهم " .

(١) خاطرات جمال الدين الأفغانى - محمد المخزومى ، ٤٨ .

(٢) السابق نفسه ١٦٣ .

(٣) السابق نفسه ٩٩ .

ويؤكد الأفغانى الالتفاف حول عصبية الدين وأنه لا جنسية للمسلمين الا فى دينهم وهى التى تجمعهم ويحذر من الاعتصام بالأجناس التى توزع المسلمين أمماً ، ولا ريب أن الجنسية الاسلامية تُغني أهلها عن اتخاذ الجنسيات والعصبيات وتكفيهم عنها ، ولا يلتفتون إلا إلى علاقة المعتقد ، (فواز المسلمين فى الحقيقة شريعتهم المقدسة الإلهية التى لا تميز بين جنس وجنس . . . وكل فخار تكسبه الأنساب وكل امتياز تفيده الأ حساب لم يجعل له الشارع أثراً فى وقاية الحقوق وحماية الأرواح والأموال والأعراض ، بل كل رابطة سوى رابطة الشريعة الحقة فهى مقنونة على لسان الشارع ، والمعتمد عليها مذموم والمتعصب لها ملوم) (١)

وإذ يُورد الأفغانى بعض الأدلة الصحيحة لتقرير هذا الأصل فى دين الإسلام يعود ليوكد حقيقة فهم المسلمين لهذه الجنسية " هذا ما أرشدنا إليه سير المسلمين من يوم نشأة دينهم إلى الآن ، لا يعتدون برابطة الشعوب وعصبيات الأجناس ، وإنما ينظرون إلى جامعة الدين ، لهذا ترى العربى لا ينفر من سلطة التركى ، والفارسى يقبل سيادة العربى ، والهندي يُدعن لرياسة الأفغانى ، ولا اشمئزاز عند أحد منهم ولا انقباض ، وإن المسلم فى تبدل حكوماته لا يأنف ولا يستنكر ما يعرض عليه من أشكالها وانتقالها من قبيل إلى قبيل مادام صاحب الحكم حافظاً لشأن الشريعة ذاهباً مذهبها" (٢) .

واذ بين الأفغانى الأصل الذى لا يصلح الاجتماع إلا له وعليه ، قام يدعو إليه فى سائر ديار الاسلام التى مرّ بها ، ولكنه وهو يدعو إلى الاتحاد لم يغب عن باله حال الحكومات المتعددة التى تقوم على الأمة الاسلامية ، واختلاف قياداتها وآرائها ، فاتجه يدعو كل حكومة أو قطر من أقطار المسلمين أن يتحدوا فيما بينهم ويكونوا أمة قوية على نحو ما قال عن مصر: (٣) "إذا اتحد المصريون ونهضوا كأمة لا ترى بداً من استقلالها ، ولا تقبل به بديلاً ، وثبتوا على شىء من الجور والحيث والقتل فى بادىء الأمر ، وصبروا ورابطوا وارتبطوا فيشر المصريون بحسن المآل ونيل الاستقلال إن شاء الله" .

(١) العروة الوثقى ٥٠ ، ٥١ .

(٢) السابق نفسه .

(٣) خاطرات جمال الدين الأفغانى ١٨٧ .

واذا قامت هذه الوحدة والقوة فانها لا تقف عند ذلك ولكن لكي تنظر كل حكومة وكل قطر إلى أقطار المسلمين الأخرى . وتتعاون معهم وتأزر أخوتهم ولا تغفل ذلك أبداً ، هذا هو الممكن وقتذاك في نظر الأفغاني ، لأن جميع المسلمين تحت حكومة واحدة قد يكون مستحيلاً تحقيقه ، وقد أبان الأفغاني عن ذلك في مقولته المشهورة ، والتي تصور جانباً مهماً من تصوّره للجامعة الإسلامية عندما قال داعياً إلى الوحدة (١) : " لا ألتمس بقولي هذا أن يكون مالك الأمر في الجميع شخصاً واحداً ، فإنّ هذا ربما كان عسيراً ، ولكنني أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن ، ووجهة وحدتهم الدين ، وكل ذي ملك على ملكه يسعى بجهدده لحفظ الآخر ما استطاع ، فان حياته بحياته وبقائه ببقائه ، إلّا أن هذا بعد كونه أساساً لدينهم ، تقضى به الضرورة وتحكم به الحاجة في هذه الأوقات " .

ويلح الأفغاني على تأكيد مبدئه هذا عندما نراه يدعو مسلمي القارة الهندية إلى الاتحاد ، ويحث الأفغانيين على التعاون مع اخوانهم الإيرانيين كما يأمر الإيرانيين بذلك ، فاذا اتحدوا فان اخوانهم في الهند سيشخصون بأبصارهم ويحرصون على التكاتف معهم (٢) .

والأفغاني بجانب دعوته لتعاون الممالك الإسلامية وتضامنها يرجو ويتمنى أن لو اجتمعت هذه الممالك تحت قيادة خليفة المسلمين فذلك ما يطمناه ، وهو الاتحاد الذي يراه يعيد للإسلام مجده وعظمته التي فقدتها ، ومن العجب ألا نجد من يذكر هذه الفكرة للأفغاني من معظم دارسيه الكثيرين ، مع أنها تفهم من مقولته السابقة التي نجد هم يوردونها (٣) دون أن يدققوا تأملهم في مدلولها ، فالرجل لم يتنكر لجمع المسلمين تحت حاكم واحد ، ولكن ذلك أمر عسير أو هو كالمستحيل في ذلك الوقت ، فالأمر عندئذ يمكن تداركه أن يبقى كل ملك على ملكه وكل سلطان على حكومته مع تعاونهم وتأزرهم وحفظ بعضهم لبعض ، ثمان هذا الحل الذي يقدمه الأفغاني قضت به الضرورة واستدعتة

(١) العروة الوثقى ١١٢ .

(٢) خاطرات جمال الدين الأفغاني ١٨٧-١٩ ، العروة الوثقى ١٤٧ .

(٣) انظر : مصروحركة الجامعة الإسلامية من عام ١٨٨٢-١٩١٤م - نصر الدين

عبد الحميد نصر ، ٣٨ ، الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني - محمد

عمار - ٥١ .

الحاجة الوقتية ، وفى هذا مايوحى بتغييره عندما يواتى الزمان وتسعـف
الأحوال .

ولا أدل على وجود هذه الفكرة عند الأفغانى أنه عندما دعا بعض
البلاد الاسلامية كمصر وايران وأفغانستان إلى الاتحاد بين أفرادها ثم إلى
الاتحاد مع اخوانهم فى بقية الاقطار الإسلامية تجده يقول عقب ذلك (١) " وما
أجلها نعمة وأهيبها سطوة وأمنعها قوة اذا توسط عقد تلك الوحدة الاسلامية
صاحب الخلافة العظمى والإمامة الكبرى جلالة السلطان ، فيستردوا المغصوب
من ملكهم ، ويسترجعوا المنهوب من أموالهم ويستعيدوا مجدهم وما بان من
عزهم ، ويرجعوا الملك الإسلامى كما كان مسيطراً ما بين نقطة المغرب الأقصى
إلى أحشاء الصين ، فى عرض ما بين قازان من جهة الشمال وبين سرنديب
تحت خط الاستواء ، وتعاد السيرة الأولى التى كانت لملوك الاسلام العظام
الذين أداروا شوكتهم أكثر المعمورة من الكرة الأرضية ، أولئك ما كان يُهمـز
لهم جيش ولا يُنكس لهم علم ولا يُردّ قول على قائلهم " .

من مقولة الأفغانى هذه ومقولته المشهورة السابقة يجب أن يُلاحظ
هنا بدقة كيف أن الأفغانى يجمع فى فهمه للجامعة الإسلامية بين الأمانة
الغالبية أن تكون الدولة العثمانية أعظم دولة تقود المسلمين إلى الوحدة ، ثم
لا يتنكر لاستقلال وقيام الشعوب الإسلامية فى شكل دول مستقلة ، لكنه يدعو
هذه الدويلات الى التعاون والتضامن الإسلامى لصد أعداء الاسلام واحباط
خططهم ، ودعوة الأفغانى للمحافظة على الدولة العثمانية قد لا ينبعث من
عقيدة الايمان بالخلافة القائمة آنذاك لتكون مركز هذه الوحدة (٢) ، لكن الوضع

(١) خاطرات جمال الدين الأفغانى . ١٩٠ وانظر ما يأتى قريباً عن : الجامعة
الإسلامية تحت الخلافة العظمى .

(٢) يدل على هذا قول الأفغانى وهو يرد على الذين اتهموه بالتآمر مع
الخدوى عباس - خديوى مصر - لاقامة خلافة عربية : " الخلافة كقالة
الله فى خلقه ، فأين أحلام أولئك العجزة من مقام الامامة والخلافة
وما تتطلبه من الشروط والصفات ؟ أين ؟ . . (ثم يقول عن الخلافة
العثمانية) أين الولاية الخاصة لأمير المؤمنين اليوم فى الممالك
الإسلامية ؟ وأين أين المؤمنون الملتفون حول خليفة المصطفى صلى الله
عليه وسلم ؟ وأين الحرية المطلقة للخليفة فى تعريفها على وجه الشريعة =

آنذاك هو الذى ألجأ لذلك ، لكنه لا ينكر أن الخلافة حين تقوم فى صورتها الحقة أنها أعظم وأصلح أساس تقوم عليه الوحدة الاسلامية ، ولعل هذا التصور للأفغانى هو الذى أوحى لأحد ادرسيه (١) إلى أن مراده بالجامعة الاسلامية أقرب ما يكون " اتحاداً فدرالياً " أى أنها دول متعددة ولكن ترجع لأصل واحد .

والذى يظهر من المناقشة الصريحة التى أبدى فيها الأفغانى للسلطان عبد الحميد تصوراته لتحسين حال دولته وحياطتها من الأعداء أنه خير برهان لفهم هذه الجامعة عند الأفغانى كيف تقوم (٢) .

فهو يرى أن يجعل السلطان من ولايات الدولة الكثيرة ومقاطعاتها خديويات على نحو خديوية مصر قبل احتلال الانجليز لها ، فهى خاضعة للدولة ومن الأجزاء المتممة للسلطنة ، يأتمر خديويتها بأمر السلطان ، وعساكر الخديوية عثمانية تسرع لتلبية الأمر بالحقاق بجيوش السلطان وخاضعة طائفة له ، وهكذا خديوية الشام والحجاز وغيرها . . . ، ثم إن السلطان يُفوض أمر كل واحدة منها الى من عُرف بالاخلاص ويُعد الهمة من آل عثمان أو غيرهم ، وتقع على عاتقهم نهضة تلك الخديويات وأخذها بنصيبها من الرقى والعمران ، ثم يبقى جلالة السلطان ملك أولئك الملوك الذين ينضمون إلى عرشه .

فاذا تم لهذه الممالك أو الخديويات أن تكون مثل خديوية مصر ثروة وانتظاماً فان ما يحدث - كما يرى الأفغانى - أن إيران ستُسرع للاتحاد مع السلطنة العثمانية لحاجتهم لمن يشد أزهم ، ثم ما أسرع الأفغان عند ذلك للانتظام فى هذا السلك ومثلها الهند ، وعندئذ يتم اجتماع كلمة دول الشرق الإسلامية تحت راية الخلافة العظمى .

وإذا وصلنا إلى هنا أمكننا القول : ان هذه الصورة أو التيار من صور

-
- أو السيرة على سررة الراشدين ؟ وأين القوة التى تدفع بها اذلال أو استعمار واستعباد المسلمين فى بلادهم وممالكهم وديارهم ؟ وأين ؟ وأين ؟
- انظر : الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى ٢٤٧ .
- (١) دعوة جمال الدين الأفغانى فى ميزان الاسلام ٢٣٤ .
- (٢) انظر : الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى ٢٣٧ - ٢٤٠ .

الجامعة الاسلامية أو تياراتها - كما يمثله جمال الدين الأفغانى -
 يمكن تلخيصه فى انه يدعو الى اتحاد الامة الاسلامية وتضامن شعوبها فى
 مشارق الأرض ومغاربها للدفاع عن دينهم وأمتهم أمام أعدائهم الذين انقضوا
 عليهم ، وهذا الاتحاد لا يعنى أن يكون على العالم الاسلامى حكومة أو حاكم
 واحد وان تمنى ذلك وسعى إليه، لكن الظروف لا تسمح بوجوده ، ولذا فالوحدة
 تكون بالحاح شديد على حكومات البلاد الإسلامية المتفرقة المتنافرة أن تتكاتف
 وتتآزر مع بعضها بعض، وتحذيرها من الهلاك الذى يدبره المستعمرون لها
 لتتجه إلى الوحدة و الوثام الذى يتكفل بصد الاعتداء عليها ، أما الأسس
 العامة التى يقوم عليها هذا الاتحاد ويرى دعاة هذا التيار أن الاعتماد عليه،
 وهو الذى يوصلها إلى الوحدة والتضامن فهو الاعتماد على الأخوة الايمانية
 والرابطة الدينية ونبذ كل رابطة اخرى سواها ، والاحتفاء الكامل بالفهم
 الصحيح لهذا الدين كما جاء صافياً نقياً فى كتابه الذى لا يأتيه الباطل من
 بين يديه ولا من خلفه ، والبعد عن التفرق الذى منبعه الأهواء والمفاهيم
 المجافية أو المخرقة عن حقيقة دين الإسلام ، ولعل فى هذا ما يخلص فكرة
 الجامعة الاسلامية كما كان يتصورها جمال الدين الأفغانى ، والتى رآها
 الدواء الذى يعالج به داء الأمة الأكبر ويعيد لها حياتها وعزتها .

ب) الكواكبي والجامعة الاسلامية :

يعتبر معظم دارسي عبد الرحمن الكواكبي (١٢٦٥ / ١٣٢٠) أنه
 أحد دعاة الجامعة الاسلامية المعدودين كما رأيت (١) ، بيد أن أحد
 متأخري دارسيه يراه رائد الدعوة إلى القومية العربية كما يراها دعاة
 المحدثون ، وأنه سبقهم بقرابة نصف قرن من الزمان إليها بفكره وعبقريته (٢) ،
 ومع أن تحقيق مثل هذا ليس من هدف هذا البحث إلا أن هذا الباحث
 الأخير يضيف أن الذين عدوا الكواكبي داعية خلافة اسلامية إنما أتوا من
 ترديده لعبارات توهم بذلك " كالجامعة الدينية " و " الرابطة الدينية " وأهل

(١) انظر على سبيل المثال : عبد الرحمن الكواكبي - عباس محمود العقاد

٨٧ ، الاتجاهات الفكرية عند العرب فى عصر النهضة . ٥ ، عبد الرحمن

الكواكبي - سامى الدهان ٧٠ .

(٢) الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي - محمد عمارة ٣٥ - ٥٦ .

القبلة " ، ومما أشاعه بعض من كتبوا عنه بأنه " من رجالات الإصلاح الإسلامى " إضافة الى ما حرص عليه الكواكبي في كتابه " أم القرى " من جمع الجنسيات المختلفة التى لا يجمعها إلا الإسلام فى المؤتمر الذى صوّره الكتاب (١) .

وهذا الكاتب وان كان محققا فى إبراز نزعة العروبة عند الكواكبي وسرد الأدلة التى يراها صريحة عليها (٢) لم يستطع أن ينكر النزعة الدينية والجامعة الإسلامية فى فكر الكواكبي، وذلك ما ألزمه أن يتحدث عن الدين فى نظر الكواكبي كما أنه أوماً الى هذه الرابطة بقوله (٣) : " إن الحديث أى حديث عن " الجامعة الإسلامية " و " الرابطة الدينية " لا يمكن أن يستلزم الحديث عن الدولة الإسلامية ، وانما هو يعنى ذلك الايمان بوجود روابط معينة ، وخيوط مشتركة وقسط من الوحدة بين الذين يدينون بدين الاسلام لا يرقى لمستوى الوحدة السياسية فى الدولة الواحدة ، ولا حتى فى الامبراطورية الواحدة " .

والذى يبدو لى أنا لو اعتبرنا الكواكبي من دعاة القومية العربية ، فالقومية التى تفهم عنه هى قومية ذات منزع إسلامى ، أى متلبسة بالإسلام على نحو ما كانت هذه القومية عند بعض دعائها حين أعلنت ثورة العرب الكبرى على الترك (١٣٣٤ / ١٩١٦ م) . كما كان يفهمها الشريف حسين بن على (١٢٧٠ / ١٣٥٠) قائد هذه الثورة ، ولم تكن قومية الكواكبي على صبغة القومية غير الإسلامية التى وصلت إليها فيما بعد (٤) .

وفكرة الكواكبي لهذه الجامعة تتلخص فيما أودعه كتابه الموسوم بـ " أم القرى " (٥) ، حيث رأى أن الضعف والخلل الذى حل بالمسلمين ومعرفة علتة التى يزول بزوالها كان باعث الكواكبي إلى هذا السبيل ، وقد كان مايكتبه المصلحون فى عصره فى بعض صحف العالم الإسلامى مما شجعه

(١) الاعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي - محمد عمارة ٣٥ ، ٣٦ .

(٢) السابق نفسه .

(٣) السابق نفسه ٣٦ .

(٤) راجع : الاتجاهات الوطنية فى الادب المعاصر ٢ / ١٢١ - ١٢٣ .

(٥) اعتمدت فى التلخيص هنا على طبعة (الاعمال الكاملة لعبد الرحمن

الكواكبي) التى تحوى (أم القرى) .

لتوسيع البحث فى أسباب ذلك الخلل ، ثم صور ملاح له فى حل هذا الخلل والضعف ، حيث سعى لعقد وتكوين جمعية من سراة الإسلام فى مكة ، ثم قيامه بسياحة لأمّيات البلاد العربية لاستطلاع الأفكار والآراء بها وتهيئة الاجتماع فى موسم أداء فريضة الحج . وبعد رحلته التى انتهت به إلى مكة حيث وافى بها أكثر الذين أجابوا دعوته هى أفاضل تلك البلاد التى مرّ بها ، وعند ذلك أضاف إليهم اثنى عشر عضواً آخرين من بعض البلاد الإسلامية والعربية الأخرى ، وبعد أن اختار لهم مكاناً آمناً خفياً يأمنون فيه على أنفسهم اجتمعوا أو انعقد مؤتمّهم فى اثنى عشر اجتماعاً غير اجتماع الوداع .

وقد جرت فى هذه الاجتماعات مذكرات مهمة وصار ضبطها وتسجيلها بكمال الدقة ، إضافة الى كيفية الاجتماعات وجميع المفاوضات والمقرّرات غير ما أثّرت الجمعية كتمه ، وبعد تلك الاجتماعات قرّرت الجمعية أموراً لا تُذاع إلا قراراً واحداً ذكرته لعله المراد من المؤتمّر كلّ . والقرار أن الجمعية بعد البحث الدقيق فى أحوال وخصال جميع أقوام المسلمين ، وجدت أن الجزيرة العربية وأهلها بالنظر إلى السياسة الدينية لهم مجموعة خصائص وخصال لا تتوفر فى غيرهم . وعلى ذلك رأت الجمعية أن حفظ الحياة الدينية متعينة عليهم لا يقوم فيها مقامهم غيرهم مطلقاً ، وأنّ انتظار ذلك من غيرهم عبث محض ، على أنّ لبقية الأقوام خصائص ومزايا تجعل لكل منهم مقاماً مهماً فى بعض وظائف الجامعة الإسلامية ، وقد بسطت الجمعية أسباب ميلها للجزيرة وأهلها والعرب عموماً . وذلك لأجل رفع التعصب السياسى أو الدينى .

والسبب فى تعلّق الجمعية بمباحث السياسة الدينية وإعطائها الموقع الأول فى مناقشاتها أنها رأت أن أفضل وسيلة لحصول المطلوب هو رفع علة الفتور ، حيث انتجت المباحثات أنّ علة الفتور هى الخلل الدينى ، وبناءً عليه حوّلت الجمعية اهتمامها لجهة العلة حتى اذا زالت زال المعلول . واذا تحققت النهضة الدينية أتى النظام السياسى تبعاً للدين .

واذ رأت الجمعية أن دين المسلمين أصبح أحزاباً وفاقاً فلا بد من إصلاح هذا الخلل ورأب الصدع حتى يتّحد الرأى وتتفق الأمة ، فأصل الدين واحد لا أحزاب ولا فرق ، ولذلك تم اتفاق أهل الجمعية " أن نترك جانباً اختلاف المذاهب التى نحن متبعوها تقليداً ، فلا تعرف مآخذ كثير من أحكامها

وأن نعتمد ما نعلم من صريح الكتاب وصحيح السنة وثابت الاجماع لكى لا نتفرق فى الآراء ، وليكون مانقرره مقبولا عند جميع أهل القبلة، إذ أن مذهب أهل السلف هو الأصل الذى لا يُرد ولا تستنكف الأمة أن ترجع اليه وتجتمع عليه فى أمهات المسائل" (١)

وقد كان مما بررت به الجمعية فى تعليق أكبر آمالها فى اعزاز الدين بالعرب دون دولة آل عثمان وسلاطينها ، اذ ترى أن احترام الشعائر الدينية فى اكثر ملوك آل عثمان ظواهر محضة ، وليس من غرضهم أن يقدموا الاهتمام بالدين على مصلحة الملك ولا تساعدهم الظروف لذلك ، بل دولتهم وفيها وزراء وهم أهل أديان ونحل مختلفة ، ورغم أن إدارة الدين وإدارة الملك لم تتحد فى الاسلام تماما كما ترى الجمعية - إلا فى عهد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز رضى الله عنهم ، ثم افترقت الخلافة عن الملك ، والأدلة كثيرة عند الجمعية عن أعمال السلاطين العثمانيين التى أتوها رعاية للملك وان كانت مصادمة للدين ، كما أن نعت هؤلاء السلاطين بالخلافة وخدمة الحرمين ونحو ذلك لا يفيد الدين وأهله شيئا .

والذى ينتهى إليه الأمر (٢) - كما يبدو للجمعية - أن تكون الجامعة الدينية تحت لواء الخلافة وأن يكون الخليفة عربى قرشى مستجمع للشروط وأن تكون اقامته فى مكة ، وترتبط به جميع السلطنات والإمارات الإسلامية ارتباطا دينيا ، كما تُشكّل هيئة للشورى العامة من جميع السلطنات تجتمع كل عام لبحث الشئون السياسية والدينية العامة . وبهذا فلا يوكل أمر الخلافة إلى سلاطين بنى عثمان ، وانما يجتمعون مع غيرهم على خليفة قرشى ، وبهذا تحل مشكلة الخلافة ، ويسهل عقد اتحاد اسلامى تضامنى تعاوني ، وبذلك تأمن الحكومات الاسلامية الموجودة على حياتها السياسية من الغوائل الداخلية والخارجية ، وتفرغ للترقى فى المعارف والعمران والثروة والقوة مما لا بد منه للنجاة من التخلف والموت .

وهكذا يضع الكواكبي خطة عملية للجامعة الاسلامية ويصوغ فكره

(١) الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي " أم القرى " ١٣٨ .

(٢) السابق نفسه ٣١٣ - ٣١٥ .

الدينى فى قالب روائى داعياً لخلافة اسلامية عربية قرشية ، تتخذ مكة مركزاً لها، والخليفة سلطته على الحجاز ولا يتدخل فى الشئون السياسية وغيرها فى السلطنات والأمارات، والعثمانيين يجتمعون مع غيرهم على هذا الخليفة الدينى والذى يشرف على هيئة شورى عامة أعضاؤها يمثلون جميع السلطنات والإمارات الاسلامية ، وبذا يسهل عقد " اتحاد اسلامي تضامنى تعاونى " يكون للعرب فيه هم الوسيلة لجمع الكلمة الدينية ، والتي بها تجتمع الأمة ، ولم يكن الكواكبي من أنصار زوال " السلطنة أو الخلافة العثمانية " ولكنه يريد إصلاحها وتجديدها على أن تقف عند حدود السلطة الروحية التى تلعب المهمة الرئيسية فى التضامن الاسلامي وركز على وجوب نقل هذه السلطة الى العنصر العربى ، وهذا مايؤيد كد ماقلناه سابقاً من ارتباط الكواكبي بفكرة الجامعة الاسلامية وعمله على ايجاد كيان واضح لها .

ج) الجامعة الاسلامية فى رؤية كتاب آخرين :

إذا كان الكواكبي قد يقترب فى فهمه للجامعة الاسلامية من الفهم الكهنوتى المسيحى الذى ينيط بالبابا الشئون الدينية ويكل الأمور السياسية وغيرها الى السلاطين أو الأمراء كل فى بلده وحكومته ، فانا نجد للجامعة الاسلامية فهماً وتصوراً آخر عند عدد من الكتاب والمفكرين يبتعد بها أو ينفى عنها الجانب السياسى ويرى أنها تتكىء على الشعور الدينى ، وإن مزجت هذا الشعور ببعض الوسائل أو العوامل التى تنميه وتبعث على حياته وحركته .

ويبدو أن من أصحاب هذه الصورة للجامعة الاسلامية من كان يراها فى صورة غيرها ثم عدل عنها لعارض اضطره لذلك ، أو نتيجة تطور فى الفكر رافق مسيرة هذه الجامعة فى تاريخها المتقلب بها - كما رأينا - فوجد أنه المناسب للحال الذى يختلف عن سابقه .

ولعل أقرب فهم لهذه الصورة أن المراد بالجامعة فيها جامعة الدين والثقافة والفكر ، فتكون هذه الجامعة دعوة إلى تحقيق وحدة المسلمين الدينية عن طريق توحيد مناهج التعليم فى المدارس فى جميع البلدان الاسلامية ، وإحلال اللغة العربية مكانة مرموقة فى التعليم فى ديار الاسلام

باعتبارها لغة القرآن الكريم، وعقد المؤتمرات لدراسة مختلف المشاكل التي تواجه البلاد الإسلامية، ونشر الأفكار الدينية بين عامة المسلمين^(١)، واتفاق المسلمين من سوقة وأمراء وملوك وولاه في مشارق الأرض ومغاربها على مايعلي شأنهم ويشد أزهرهم ويقوي جامعتهم ويوسع نطاق العلوم والمعارف بينهم.

وهذا الفهم المنطوي للجامعة الإسلامية والذي يبعدها عن الرابطة السياسية ربما كان للمذاهب والطرق الصوفية في العهد العثماني أثر واضح في إرسائه وانتشاره، والصوفية رغم ماخرجت به عن روح الدين الإسلامي الصافية، حتى جعلت الدين أساليب دجل وشعوذات وخرافات كان لها شأن كبير في الدولة العثمانية وخاصة في عهود الضعف الأخيرة منها حتى نهايتها، وإضافة إلى ذلك فقد كانت الصوفية ترى لها الفضل في إحياء الجامعة الإسلامية، ولعل مايوكد صحة ذلك أن نجد أحد رجالها المعدودين وهو الشيخ محمد توفيق البكري^(٢) " شيخ مشايخ الطرق الصوفية في مصر " نجده قد ألف كتاباً عنوانه " المستقبل للإسلام " ركّز فيه على أثر الصوفية في إنشاء الجامعة الإسلامية وبنائها، لكنه يجعل لهذه الجامعة جانبين : الجانب السياسي والجانب الديني، ثم نراه يرفض الجانب السياسي منها، بل ويحذر المسلمين من التفكير في إقامة الجامعة الإسلامية بشكلها السياسي، لأن ذلك سيقابله جامعة مسيحية في الغرب، مما يزيد في حدة الصراع بين الشرق والغرب^(٣)، ولذا فهو يريد الجانب الديني فقط، أمّا الجانب السياسي فلا يطمح إليه.

وإذا كانت الصوفية أساءت فهم الدين في بعض جوانب فإنه لا ينكر لها فضل المحافظة على تأكيد الإخاء بين جميع المسلمين والعمل على نشر الإسلام وحفظه في بقاع كثيرة في العالم الإسلامي.

ونجد قريب من ذلك الفهم للجامعة الإسلامية ما نراه عند الشيخ محمد عبده^(٤)، والذي كان تلميذاً وفيّاً لجمال الدين الأفغانى وكان على فهم

-
- (١) انظر : الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة ١١٦، ١١٧.
- (٢) محمد توفيق البكري (١٢٨٧-١٣٥١) من أعيان مصر تولى نقابة الأشراف ومشايخه المشايخ، (١٣٠٩) وكان يجيد عدة لغات فضلاً عن أنه شاعر وأديب مترسل وله عدة من التأليف. انظر : في الأدب الحديث ٢ / ٤٢٣.
- (٣) انظر : مصر وحركة الجامعة الإسلامية ٤٥.
- (٤) انظر : ما يأتى عنه في فصل : الكتاب المؤيد للوحدة الإسلامية من هذا البحث.

الأفغانى وتصوره للجامعة الإسلامية بجانبها السياسى ، وكان محمد عبده يحرص على حفظ مصر متصلة بالدولة العثمانية وبخاصة أيام حياة أستاذه الأفغانى ، لكن رأيه تغير بعد ذلك وأصبحت الجامعة الإسلامية عنده هى وحدة الدين والملة ، وأن الدين من أقوى الروابط بين مجتمعات الشرق ، والجامعة الإسلامية تقوم على مُثل عليا وعواطف يشترك فيها كل المسلمين ، معززة بالتعليم والثقافة الإسلامية .

وعندما رد على " هاناتو " - المستشرق الفرنسى ومستشار المستعمرات والذى كتب دراسات عن الإسلام ويطعن فى الجامعة الإسلامية ، صور محمد عبده الجامعة الإسلامية أنها لا تخرج عن كونها تحقيق التضامن الإسلامى والاستفادة من وجود الدولة العثمانية فى مجالات الإصلاح المختلفة (١) ، كما نجده يوصى رشيد رضا (٢) - صاحب المنار - بعدم التحدث عن الإمامة فى مجلة (المنار) ويقول له (٣) : " إن المسلمين ليس لهم اليوم إلا القرآن وإن الكلام فى الإمامة مثار فتنة يُخشى ضرره ولا يرجى نفعه الآن " .

ومثل محمد عبده نجد الشيخ علي يوسف (٤) - صاحب المؤيد الشهيرة - والذى بدأ حياته الصحفية بذلك الحماس للجامعة العثمانية واقتناعه بتوثيق العلاقة بين مصر وتركيا وجهاده فى متابعة حروب الدولة العلية وجمع التبرعات لها إلى كثير من جهوده التى سترها فى مواضع من هذا البحث ، نرى الشيخ على بعد ذلك يهدأ بعد ما حصل الاتفاق بين الخديوى وسلطان الانجليز المستعمر مصر آنذاك (١٩١٢ / ١٣٣٠) ، فهو يعلن أنه يؤمن بالجامعة

(١) انظر: الأعمال الكاملة للشيخ محمد عبده - محمد عماره / ١ - ١٠٩ - ١١٢ .

(٢) الشيخ محمد رشيد رضا (١٢٨٢ - ١٣٥٤) ولد ونشأ فى طرابلس الشام وكان من دعاة إصلاح الإسلامى ، ورحل الى مصر (١٣١٥) وأصدر بها مجلته (المنار) ولازم محمد عبده كثيرا ، كان كاتباً وعالماً وبشيمجلته أكثر آرائه العلمية والإصلاحية ، وانظر: محمد رشيد رضا لاحمد الشرباصي ، حاضر العالم الإسلامى ١ / ٢٨٤ .

(٣) الأعمال الكاملة للشيخ محمد عبده ١٥ / ٧٣٤ .

(٤) الشيخ على يوسف (١٢٨٠ / ١٣٣١) من أكابر الصحافيين فى مصر ، فهو صاحب جريدة (المؤيد) التى أصدرها ١٣٠٧ هـ وكان لها صيت ذائع فى مصر والبلاد الإسلامية ، وكان على اتفاق كبير مع خديوى مصر (عباس حلمي الثانى) لكنه مال عنه فى آخر عمره وقد ولي مشيخة السجادة الوفاييه بمصر .
انظر: أدب المقالة الصحفية فى مصر - الجزء الرابع - د . عبد اللطيف حمزة ، مجلة الكتاب ٦ / ٢٣٢ ، مقال عنه لعمر الدسوقي .

الاسلامية من الناحية الدينية ولكنه لا يؤمن بها من الناحية السياسية ، ويقول (١) :
 " إن الجامعة الإسلامية كعقيدة سياسية غير موجودة ، والجامعة الإسلامية
 قسمان دينية وسياسية ، والدينية موجودة بوجود العقيدة الإسلامية ، والسياسية
 غير موجودة ولم توجد لعدم وجود الرابطة بين الأمم الإسلامية : وهى
 المصلحة : ذلك أن المسلمين إذا أوجدوا جامعة سياسية إسلامية أوجد
 غيرهم جامعة مسيحية ، وهكذا فتكون من ذلك المصرة عليهم " .

وقريب من هذا التصور مانجده لدى أحد زعماء المسلمين فى الهند ،
 والذى يرى (٢) " أن هناك جامعة اسلامية حقة صريحة ، ينضم إلى لوائها كل
 مسلم مؤمن مخلص ، أعني بذلك الرابطة الروحانية الوجدانية ، والوحدة الجامعة
 بين أتباع صاحب الرسالة الإسلامية فهذه الوحدة الإسلامية الروحانية التهذيبية
 يجب أن تتعهد فتتمو أبداً ، لأنها عند أتباع النبى (عليه الصلاة والسلام) أس
 الحياة وجوهر النفس " .

من كل هذه الآراء تتجلى لنا الجامعة الإسلامية عند هؤلاء المفكرين
 أنها وحدة فكر ومشاعر وعواطف حية متيقظة نحو إخوانهم المسلمين ، وليست
 وحدة ارتباط سياسية تجمع الشمل وترأب الصدع ، وتحاول أن تجعل من هذا
 العالم الإسلامى الواسع أمة واحدة وقوة متحدة لاتلين حينما يمس طرفاً منها
 ظلم وعدوان ، ورغم أن المشاعر الحية لا يُنكر فضلها فى الترابط والتضامن إلا أنه
 ما أبعد البون بينها وبين وحدة تنضم بها الأمة قوة قائمة ، لاتسمح لأى عدو
 خارجي أن ينال من أطرافها شيئاً إلا لتقف أمامه بكل صلف وإباء .

د) الجامعة الإسلامية تحت الخلافة العظمى :

ليس غريباً أن يكون اجتماع المسلمين ووحدهم تحت مظلة الخلافة
 الكبرى ممثلة فى السلطان العثمانى وتحت قيادة سياسية واحدة أحـد
 تيارات الجامعة الإسلامية وأحد وجوهها التى ظهرت بها ، وإذا كان الأصل
 فى الأمة الإسلامية أن تكون تحت قيادة واحدة - كما سلف بذلك القول فى مفهوم

(١) المؤيد ١٣ أغسطس ١٩٠٧ م

(٢) هو الزعيم المسلم (أغا خان) الذى عاش بين ١٨٧٧-١٩٥٧ م ، حاضر

العالم الإسلامى ١ / ٣٢٠ .

الوحدة الاسلامية - وكانت خلافة المسلمين في تاريخهم تُجسّد حقيقة هذه الوحدة وعظمتها في أذهان المسلمين حتى يومنا هذا .

وقد خامرت هذه الوحدة ألباب كثير من تحمسوا للجامعة الاسلامية، وتمنوها لو تتحقق لأمتهم في واقعها الذي عاشت فيه، وربما يكون حال الأمة الاسلامية المضطرب في مطلع القرن الرابع عشر قد دعاهم الى التلبث كثيرا أمام هذه الفكرة التي تُراود الأذهان .

واذا كان هذا التيار من تيارات الجامعة الاسلامية يلتصق بخليفة المسلمين وهو السلطان العثماني يومئذ، وكان هو السلطان عبدالحميد، وقد رأينا - قبل قليل - أنه أقام بناء الجامعة الاسلامية وشيد أركانها وأضاف إليها كل مطمع وغاية جلية، وظلت دعوته إليها مدة ثلاثين عاما، أفلا تعدّه رأس هذا التيار وباعثه ؟ .

قد يكون هناك شيء من الخيال والأمل الذي قد جال بذهن السلطان عبدالحميد أن يتحقق ذلك أو يقع، ولكن الواقع أن هذا السلطان لم يكن ليطمع في تحقيق ذلك بدعوته إلى الجامعة الاسلامية " فما كان لمثله في حصافته ودهائه أن يطمع في سيادة فعلية على بلاد المسلمين باسم جامعة الإسلام .. فغاية الأمر فيما قصد إليه السلطان عبدالحميد من دعوته إلى الجامعة الاسلامية باسم الخلافة أن يحتمي بعطف العالم الاسلامي في وجه التعصب الاوروبي المطبق عليه من كل جانب، وأن يستمع العالم الاسلامي إليه حين يناديه بتلك الصفة لأنه أكبر ولاية الأمر فيه وأعظمهم مركزاً في مراسم السياسة الدولية، ولم يكن يخفى عليه أن العالم الاسلامي لا يقارع المسلمين سلاحاً بسلاح ولا ثروة بثروة ولا نفوذاً بنفوذ، ولكنه كان يقنع منه بما يستطيعه في كفاح الاستعمار، ويعلم أنه يستطيع الكثير مما يخشاه المستعمرون " (١) .

وقد كان جمال الدين الأفغاني - كما مر قبل قليل - عندما رأى ما حل بالمسلمين من غزو المستعمرين يطمع إلى اتحاد الأمة تحت الخلافة، إذ " يؤخذ من مجمل أحواله أن الغرض الذي كان يصوّب نحوه أعماله، والمحور الذي كانت تدور عليه آماله، توحيد كلمة الاسلام وجمع شتات المسلمين في

سائر أقطار العالم فى حوزة دولة واحدة اسلامية تحت ظل الخلافة العظمى ، وقد بذل فى هذا المسعى جهده ، وانقطع عن العالم من أجله" (١) .

ومما قوى ذلك عنده أنه رأى فى خليفة المسلمين عائقاً لصد أعداء الاسلام حتى قال (٢) : " كنا ولا نزال عليه أن الذات الشاهانية ، وهى الأب الأكبر لعموم المسلمين ، وهى الكافلة للشريعة الحافظة للدين ، هى أجدر الناس بالالتفات إلى حركة الأعداء فى البلاد الاسلامية ، وهى لا تألو جهداً فى تعويق سيرهم وإحباط أعمالهم " ، وبلغ به الإعجاب بالسلطان عبدالحميد - وقد أيقن بحرصه على الأمة ويقضته لأعدائها وحرصه على مصالحها وتطويرها - أن بايعه بالخلافة ورأى ألاّ نجاة للممالك الاسلامية إلاّ بالانضواء تحت راية الخليفة الأعظم (٣) .

لكن الأفغانى الذى بلغ به الأمر الى هذا الحد لا يلبث أن يتراجع عن رأيه ذلك حين رأى أن ما يطمع إليه من الإصلاح وما يبيده من آراء للسلطان لا تبلغ مبلغ التنفيذ ، ومن عجب أنه طلب الاقالة من تلك البيعة وأخذ ينظر للخليفة غير نظرتة الأولى (٤) .

لم يكن الأفغانى وحيداً ، بل كان لهذه الجامعة أنصار وموئيدون كثروا فى أنحاء البلاد العربية والاسلامية ، وبوئيد ذلك كثرة الكتاب والشعراء الذين كانوا يتغنون بهذه الجامعة ويعايشون أحداثها بكل أحاسيسهم وعواطفهم (٥) ، وقد يكون بين من يوالون هذه الجامعة من يعلم نواحي القصور وضعف الخلافة التى كانت تحيط بها فى مطلع العصر الحديث ، لكن هذا لم يجعلهم ينصرفوا عن الخلافة التى كانت قائمة على علّاتها معتقدين أن الخلافة الإسلامية لم تستم شروطها الصحيحة إلاّ فى الخلفاء الراشدين ، وبعد ذلك فالخلافة لم تكن إلاّ ملكاً عضواً قد يوجد فيه المستبدّ العادل والمستبد الغاشم ، وما انقادت الأمة الى هذا الملك

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى ٩٧ ، ٩٨ .

(٢) السابق نفسه .

(٣) خاطرات جمال الدين الأفغانى ٦٧ .

(٤) انظر السابق نفسه ٦٨ .

(٥) انظر : الاتجاه القومى فى الشعر المعاصر - عمر دقامه ٤٠ ، ٤١ .

العضوض المخالف لشروط الخلافة سواء كان من العرب أو من الترك الا خشية
الفتنة فى الداخل والاعتداء على الحوزة من الخارج . (١)

وبذا الموجز يتضح أماننا صورة أخرى من صور الدعوة الى الجامعة
الاسلامية وهى التى تظلها الخلافة الاسلامية .

(٣) الجامعة الاسلامية وأوروبا

لَمَّا كَانَ دِينَ الْإِسْلَامَ بِفَطْرَتِهِ يُوَافِقُ حَاجَةَ النُّفُوسِ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى الْجَمَاعَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ الَّتِي لَا غِنَى لَهَا عَنْهُ، وَلَا يَتَنَكَّرُ لِهَذِهِ الْغَرِيزَةِ، نَجَدَهُ إِلَى جَوَارِ ذَلِكَ يُقَوِّي هَذِهِ الْفِطْرَةَ وَيَشَدُّ عَلَيْهَا حِينَ يَدِينُ النَّاسَ بِهِ، بَلْ وَيَجْعَلُهَا حَقًّا مِنْ حَقُوقِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى بَعْضِهِمْ، وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ الْغَرِيزَةُ ظَاهِرَةً فِي تَعَاظِفِ الْمُسْلِمِينَ نَحْوَ بَعْضِهِمْ عِنْدَ أَى نَازِلَةٍ أَوْ حَدَثٍ مِنْ حَوَادِثِ الدَّهْرِ تَحُلُّ بِأَحَدِهِمْ، فَقَدْ رَأَى أَعْدَاءُ الْإِسْلَامِ أَنَّ يَنْبِزُوهُ بِالْتَعْصَبِ وَيَرْجُمُوهُ بِاطْلَاقٍ بِالْعَنْصَرِيَّةِ أَوْ حُبِّ الْعَدُوِّ .

وَلَمَّا كَانَ الْجِهَادُ مِنْ أَظْهَرِ رِكَائِزِ الْإِيمَانِ الَّتِي يُوْجِبُ الْإِسْلَامُ عَلَى أَتْبَاعِهِ الْإِسْتِعْدَادَ لَهُ وَالتَّضَحِّيَةَ لَهُ ، ظَنَّ خُصُومُ الْإِسْلَامِ الْجَاهِلُونَ بِهِ أَوْ الْحَاقِدُونَ عَلَيْهِ أَنَّ هَذِهِ حَرْبٌ دِينِيَّةٌ مُقَدَّسَةٌ عَلَى شَاكِلَةِ الْحُرُوبِ الَّتِي تَقُومُ الْكَنِيسَةُ بِتَمْوِيلِهَا وَيُبَارِكُ الْبَابَا اسْتِعَالَهَا وَتَوْجِيهَهَا .

وَإِذَا كَانَتِ الْجَامِعَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ تَضَامُنًا وَتَعَاوُنًا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ غَرِيبًا أَنْ يَسْمِيَهَا أَعْدَاءُ الْإِسْلَامِ تَعْصِبًا ، أَوْ يَخَالُوهَا نَعْرَةً قَرِيبَةً مِنَ النُّعْرَاتِ الْقَوْمِيَّةِ الَّتِي قَوِيَتْ عِنْدَ الْغَرْبِ فِي الْقَرْنِ الْتَّاسِعِ عَشَرَ الْمِيلَادِي .

وَالَّذِي يَلْفَتُ الْإِنْتِبَاهَ هُنَا هُوَ الْأَهْمِيَّةُ الْكَبِيرَى لِهَذِهِ الْمَسْأَلَةِ " أَى الْجَامِعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ " عِنْدَ أُمَمِ الْغَرْبِ وَالْحَسَاسِيَّةِ الْمَفْرُطَةِ مِنَ الْقَوْمِ نَحْوَهَا، وَبِجَانِبِ ذَلِكَ وَعُورَةُ مَسَالِكِهَا وَتَعَدُّدُ عَنَاصِرِهَا ، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَا يَعْزِينُنَا تَفْصِيلُ كُلِّ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا لَمَّا وَجَدْنَا النُّثْرَ الْعَرَبِيَّ الْحَدِيثَ حَفْلَ بِجُمْلَةٍ طَيِّبَةٍ مِّنَ الْكُتَابَاتِ حَوْلِهَا كَانَ لَا مَحِيصَ مِنَ التَّعَرُّضِ لَهَا وَتَنْوِيرِ بَعْضِ جَوَانِبِهَا، مُسْتَفِيدَةً هَذِهِ الدَّرَاسَةَ - بِطَبِيعَةِ الْحَالِ - مِنْ نَتَاجِ الْأَدْبَاءِ النُّثْرَى فِي هَذَا الْمَقَامِ .

لَمْ يَكُنْ غَرِيبًا أَنْ يَسْتَحَرَّ عَدَاؤُ الْإِسْلَامِ عِنْدَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَسَوَاهِمَ مِنَ الْمَلَلِ الْآخَرَى حِينَ قَامَتْ لَهُ دَوْلَةٌ تَحْتَ قِيَادَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَبِخِلَافِ الْأَيَّامِ وَتَمَكُّنِ اللَّهِ لِدِينِ الْإِسْلَامِ فِي الْأَرْضِ حَتَّى بَلَغَ الْمَشَارِقَ وَالْمَغَارِبَ كَانَ حَقْدُ مَلَلِ الْكُفْرِ يَزْدَادُ ضَرَاوَةً لِهَذَا الدِّينِ ، وَلَمْ يَنْتَقِلِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ

عليه وسلم الى ربه الا وشوكة النصارى تتألب ببلاد الشام لإطفاء نور الاسلام،
واذ يشاء الله أن يكتسح الإسلام بلاد الشرق إلى حدود الصين بعد زوال كسروية
الفرس بقيت للنصرانية معاقل حصينة في آسيا الوسطى فضلاً عن أوروبا،
وشنت منها حروباً شعواء لمصد جيوش الإسلام، وقد كانت الحروب الصليبية
مما ذاع في التاريخ وسجله في حملاته المتتابعة المتعددة .

وبقيام الدولة العثمانية في الشرق تزداد خصومة النصارى للمسلمين،
إذ تتوالى الفتوح ويتقدم العثمانيون في أوروبا حتى شارقوا على أسوار قسطنطينية.
واذ يبلغ جهاد العثمانيين ذلك تثور الصليبية وتدعو على أهلها
بالويل والثبور، وتستصرخ حكامها وتلوذ بقياصرتها وتحرض بابواتها .

واذ شاخت دولة بني عثمان واعتراها الوهن، انتهت الصليبية لجمع
شملها وبدأت تأخذ بثأرها، واتفقت دول أوروبا على تقسيم بلاد الشرق
الاسلامى بينها، وتعاونت في حربها الصليبية الجديدة حتى أحكمت القبض
على العالم الاسلامى وشدت عليه الوثاق .

واذ قام المفكرون والمصلحون المسلمون مشدوهين لهول الكارثة
يتلمسون النجاة ويتداركون مابقى من بلادهم ومصيرهم، عندئذ نهضت الدعوة
إلى الوحدة الإسلامية - كما سبق -، وعندها قامت قائمة أوروبا المسيحية
لتهويل أممها بهذا الحدث رغم سيطرتها الكبرى على معظم بلاد الإسلام .

والذى يجب وعيه هنا أن أوروبا أرادت أن تشيع بين أممها أن وحدة
المسلمين هي نفس المعنى الذى يفهمه الأوروبيون من الاتحاد الصليبي المقدس
الذى تتحالف فيه دول أوروبا المسيحية لمحاربة المسلمين كما حدث منها فى
الحروب الصليبية فى العصور الوسطى، ورغم تكذيب واقع المسلمين يومئذ
لهذه الشائعة فإن أمر جامعة المسلمين قد أولاه القوم رعاية لا يستهان بها
ولا أدلّ هنا على خوفهم وحذرهم من هذه الجامعة من تلك المتابعة، والوقوف
على الجهود والتحركات التى يبذلها المسلمون فى سبيلها (١) .

وأقوال بعض مفكرى أوروبا خير دليل على تنبيههم لهذه الجامعة

(١) انظر فى تخوف أوروبا من الجامعة الإسلامية : الدولة العثمانية دولة إسلامية
مفتى عليها ٣ / ١٣٠٨ - ١٣١٥ .

وتحذيرهم لقومهم من خطرهما ، فالمستشرق الفرنسي (هاناتو) مستشار وزارة المستعمرات الفرنسية في القرن التاسع عشر بعد أن يعيد إلى الأذهان بواعث الحروب الصليبية محرّضاً على استعادة بيت المقدس من المسلمين البربريين - كما يقول - نجده يرى أن (الخطر كمين في اتحاد المسلمين ضد الأوروبيين ، فديار المسلمين التي تحتلها فرنسا يعتبرها الجزائريون وبقية المسلمين " دار حرب " والخطر في الداخل والخارج (١) . .)

ونجد كاتباً آخر وقد زعم للمسلمين اتفاقاً مع البوذيين والصينيين فلم يبق أمامهم إلا أوروبا فعندئذ يهددونها " وان الشرق ناهض وعلوى الغرب أن يستعدّ لمقابلته في ساحة العراق ، وأمام أوروبا اليوم مسألة هامة هي هذه الجامعة الإسلامية . . . أليس من الحكمة أن تدبرّ ضربة قوية قاضية تخدم هذه الحركة الإسلامية . . أما رأيي أنا فهو اقطفوا البرعم قبل أن يزهر فيثمر " (٢) .

واللورد كرومر مندوب الاستعمار البريطاني في مصر (١٨٨٢-١٩٠٧م) يتتبع حركة الجامعة الإسلامية في مصر، وصوّر في كتابه (مصر الحديثة) سعة انتشارها بين المصريين ، وأكّد على نفوذ الخلافة التركية وما تتمتع به بينهم ، كما تحدث عن تمسك المصريين بعقيدتهم لإسلامية وأنها تتغلب على نفوذ الوطنية بمعناها الإقليمي ، وإيمانهم الكبير بوحدة المسلمين مهما اختلفت أجناسهم ، كما لم ينس وهو يتحدث عن هذه الجامعة أن يصوّر هذه النزعة الدينية مصطبغة بحجاب كثيف من التعصب الذي يقوم بينهم وبين الانجليز (٣)

أوجس الغرب خيفة من الجامعة الإسلامية وقام لحربها بكل قوة ، ورغم تهمة التعصب التي أشاعوها ليلصقوها بها ، فإن صحفهم ومبشريهم لم يكفّوا عن مقاومتها ، وتتجلى هذه الحقيقة عندما عقد مبشرو الغرب مؤتمراً للتبشير في بلاد الإسلام ، وكان موضوع الجامعة الإسلامية وكيفية مقاومتها ومعرفة مقاصدها وطرقها ومحاولة تغيير وجهتها هو موضوع المؤتمر

(١) يوم الاسلام - أحمد أمين ٢١٤ .

(٢) السابق نفسه ٢١٣ .

(٣) انظر: الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ١/ ٢٧ .

الأول ومهمته الكبرى (١) .

ورغم كثرة كتاب أوروبا في الاتحاد الاسلامي واقحامهم للجامعة الاسلامية في النزاع القائم في الغرب ، فلم يكن من الغربيين من نظر اليها خالياً من الأهواء والمآرب السياسية والوطنية أو كان عادلاً منصفاً (٢) .

من كل هذه الكتابات والتخرصات لدى الغرب تتجلى الأهمية والمكانة الخطيرة والعظيمة لاجتماع المسلمين واتحادهم ، والحق أن اتحاد المسلمين كان وما زال وسيكون شبحه في المستقبل يقلق مفكري الغرب وساستهم دائماً ، ولذا لا تعدم سياساتهم - حتى اليوم - رغبة الاطلاع والوقوف على حال التيار الاسلامي (٣) الأصيل ، والذي يسعى لإعادة هذه الجامعة ليحاولوا إجهاض تحركاته إن اراد العودة إليها أو إحيائها .

لم تخف على المسلمين - وبخاصة أنصار الجامعة الاسلامية - هذه الجهود العنيفة في الغرب فما كان لها أن تذهب سدى ، فحمل أرباب الفكر أسنة الهدى ، وشرع الكتاب يحبرون الصفحات في صد تلك الهجمة الأوروبية الضارية ، وكانوا يتلمسون بيان الحق وتوضيحه لقادة الفكر ودهاة السياسة الصليبيين ، ولا عليهم بعد ذلك أن يوقظوا بني قومهم إلى جدوى الاتحاد وينبهوهم إلى مضاعف سلاحه ويحدّثوهم من المكيدة التي سُمّاها الغرب - ليصرفهم عن جامعتهم - تعصبا أو عنصرية دينية ، وإن لم يطلقوا التطرف الذي يشبه هذه المكيدة ويؤكد للإسلام باسمه اليوم .

كان المفكرون والكتاب في البلاد التي سيطر فيها الاستعمار يولون أمر التعصب الذي أتهم به المسلمون عنايتهم ، وسعوا لخلق نزعة التعصب عن اتحاد المسلمين ، إذ ليس مشابها لتعصب أوروبا الديني بأية حال ، هذا مصطفى كامل (٤) زعيم الحركة الوطنية في مصر ، إنما يرى الجامعة الاسلامية هي

(١) عقد هذا المؤتمر في (لكنو) بالهند في (٢١ يناير ١٩١١ م) وانظر تفاصيله

وآراء المؤتمرين وبرنامجه وخطبه وأعماله وتقاريره ومادار فيه : الغارة على العالم الاسلامي - أ. ل . شاتليه ٥١ - ٧٤ .

(٢) انظر : اتحاد المسلمين - جلال نوري ٩ ، ١٠ ترجمة - عبد الرحمن عزام .

(٣) انظر بعض صور من تتبع الغرب المعاصر وعلى رأسه أميركا للتيار الاسلامي

ورصد تحركاته : السلطان عبد الحميد الثاني والخلافة الاسلامية ٣٨٣/٣٨٥ .

(٤) انظر ترجمته في فصل الكتاب المؤيد للوحدة الاسلامية من هذا البحث .

تعاون وتعاطف وتضامن بين المسلمين ولا تصل أبداً إلى التعصب الديني ، جاء في مقالته (إلى الأمة الانجليزية والعالم المتمدن) (١) : " إنني أؤكد بحق أقدم شيء في الدنيا أنه لا وجود للتعصب الديني في مصر ، نعم الإسلام سائد فيها لأنه دين الأغلبية العظمى ، ولكن الإسلام شيء والتعصب شيء آخر ، . . . إن عطفنا على الشعوب الإسلامية لأمر طبيعي ولا تعصب فيه ، وأنه لا يوجد مسلم مستنير واحد يظن لحظة واحدة أنه من الممكن اجتماع الشعوب الإسلامية في عصبة واحدة ضد أوروبا ، والذين يقولون ذلك إما جاهلون أو راغبون في إيجاد هاوية بين العالم الأوروبي والمسلمين " .

وعندما كتبت جريدة (الطان الفرنسية) عن تخوف أوروبا من الجامعة الإسلامية التي تهددها كتب أيضاً يدحض هذه الفرية ويدفع ذلك التخوف قائلاً (٢) : " لقد فسرت كلمة الجامعة الإسلامية في أوروبا تفسيراً لا يتفق ومعناها الحقيقي . . . إنه لا يوجد مسلم متنور يعتقد أن الشعوب الإسلامية يمكنها أن تؤلف عصبة ضد أوروبا ، وإنني أتساءل : من الرجل العاقل السليم الإدراك الذي يصدق إمكان تغلب الشعوب الإسلامية على كافة الدول الأوروبية ؟ إن الحقيقة الساطعة الخالصة من كل شيء هي أن حركة الجامعة الإسلامية بالمعنى المقصود منها في أوروبا لا وجود لها بالمرّة ، لأن المسلمين أدركوا من بعيد أنه يستحيل على أية أمة أن تعيش في معزل عن العالم ، وأن الأمة التي تحاول ذلك تقضي على نفسها بالموت ، أما الشعور الموجود بلا نزاع عند كافة الشعوب الإسلامية فهو شعور انعطافها وحنانها لبعضها البعض ، فكل مسلم يرغب من صميم فؤاده أن يرى أبناء دينه معاملة أحسن من المعاملة الحالية ، ومُعْتَبَرِينَ كجزء حي من الإنسانية ، ومُحْتَرَمِينَ في كل مكان . ومن كل إنسان . وأنه لما كان لتأخر الشعوب الإسلامية أسباباً واحدة ، وأن النهضة لا تصير حقيقة تشاهد بالعيان بفضل أو هام تأليف عصبة إسلامية ضد المسيحية ، بل بالتعليم والنور ، وبما أن الإسلام ليس عقيدة فقط بل قانون

(١) مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية - عبد الرحمن الرافعي ٢١٥ ، ٢١٦

(٢) السابق نفسه ٤٤٨ ، ٤٤٩ . وانظر أيضاً مقال : ياليتنا كنا متعصبين

أدب المقالة الصحفية في مصر - د . عبد اللطيف حمزة ٢٢١ / ٥ - ٢٢٤ .

اجتماعى فان احياء الأفكار ونشر المعارف لا يتمان الا باظهاره على حقيقته ، وان ميل كل مسلم لأبناء دينه أمر طبيعى وشرعى ، ولا يوجد رجل ضعيف ينتقد ذلك الميل " .

ولإذ يُشيع الاستعمار الانجليزى فى المصريين التعصب ويلصقونها بأوامر الدين حتى تفشو فى المجتمع هذه اللفظة ويربطها للناس بكل أمر وحال مكروه ، مما يختلف فيه اثنان ويُدافع عنه أحدهما بحرارة وجرأة ليعدّ هذا الدفاع مكروهاً وتعصباً ، ويتنازب الناس به كأنه علة كل بلاء .

راع ذلك الشيخ محمد عبده فدبّج مقالة تدفع عن هذه الكلمة ما أُلِست من ظلال سيئة فى عصره ، وصوّسعة تداولها فقال (١) " لفظ شغل منطق الناس خصوصاً فى البلاد الشرقية ، تلوكه الألسن وترمي به الأفواه فى المحافل والمجامع حتى صار تكأة للمتكلمين ، يلجأ اليه العبيّ فى تهتهته ، والذملقاني فى تفيقه (٢) ، أخذ هذا اللفظ بمواقع التعبير فقلما تكون عبارة إلا وهو فاتحها أو حشوها أو خاتمها ، يعدّون مسماه على لكل بلاء ومنبع لكل عناء ، ويزعمونه حجاباً كثيفاً وسدّاً بين المتصفين به وبين الفوز والنجاح ، ويجعلونه عنواناً على النقص وعلماً للردائل ، والمتسريلون بسرابيل الإفرنج الذاهبون فى تقليد هم مذاهب الخبط والخلط ، لا يُميّزون بين حق وباطل ، هم أحرص الناس على التشدد بهذا البدع الجديد ، فتراهم بين بيان مفاسد التعصب يهزون الرؤوس ويعبثون باللحى ويبرمون السبال " .

وبعد أن بين أن التعصب وصف كسائر الأوصاف وأن له حد اعتدال وطرفاً إفراط وتفريط يأتى إلى ما أشيع من مفاسد التعصب الدينى - والمراد دين الاسلام - ويعالج هذه القضية وهل الاسلام دين تعصب؟ ويذكر بيان مفاسد التعصب الدينى كما يثيرها الحاقدون ، إذ " ثغث جماعة من متردقة هذه الأوقات فى بيان مفاسد التعصب الدينى ، وزعموا أن حمية أهل الدين لما يؤخذ به إخوانهم من ضيم ، وتضافرهم لدفع ما يلم بدينهم من غاشية الوهن والضعف هو الذى يصدّهم عن السير إلى كمال المدينة ، ويحجبهم عن نور العلم والمعرفة ، ويرمي بهم فى ظلمات الجهل ، ويحملهم على الجور والظلم

(١) العروة الوثقى ٧٩ .

(٢) الذملقاني : السريع الكلام ، التفيهق : التوسع والتنطع فى الكلام .

والعدوان على من يخالفهم في دينهم ، ومن رأي أولئك المثقفين ألاّ سبيل
لدرأ المفسد واستكمال المصالح الا بانحلال العصبية الدينية ومحو آثارها
وتخليص العقول من سلطة العقائد ، وكثيراً ما يرجفون بأهل الدين الاسلامي
ويخوضون في نسبة مذام التعصب إليهم .

وبعد أن يكذب محمد عبده هؤلاء الخراصين ويبين أن دين الاسلام
أرشد أستاذ وأهدأ قائد إلى اكتساب العلوم والمعارف وإشاعة العدل والرحمة
بين البشرية ، وما كان من أمر الاسلام وما أحدثه في العرب ، إذ نقلهم من التوحش
والقسوة وسما بهم إلى أرقى معارج المدنية وفي ذلك خير رد على هؤلاء الخراصين .

ثم يتقدم محمد عبده ليُجَلِّي الأمر، وأنّ التعصب مدفوع عن المسلمين
حيث حوادث التاريخ خير شهود على ذلك ، فمحافظة المسلمين لدينهم لم
تدفعهم إلى إبادة من خالفهم كما فعل الصليبيون في حروبهم والأسبانيون
بمسلمى الأندلس ، والدليل الأقوم على ذلك " هو وجود الملل المختلفة في
ديارهم إلى الآن حافظة لعقائدها وعوائدها من يوم تسلطوا (المسلمون)
عليها وهي في أوهن الضعف ، نعم كان للمسلمين ولع بتوسيع الممالك وامتداد
الفتوحات ، وكانت لهم شدة على من يعارضهم في سلطانهم ، إلا أنّهم مع
ذلك يحفظون حرمة الأديان ويرعون حق الذمة ، ويعرفون لمن خضع لهم من
الملل المختلفة حقه ، ويدفعون عنه غائلة العدوان .

ومن العقائد الراسخة في نفوسهم (أن من رضي بدمّنا فله مالنا
وعليه ما علينا) ولم يعدلوا في معاملتهم غيرهم عن أمر الله في قوله " يا أيها
الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين
والأقربين " اللهم إلا ما لا تخلو عنه الطبائع البشرية ، ومن نشأة المسلمين
إلى اليوم لم يدفعوا أحداً من مخالفيهم عن التقدم إلى ما يستحقه من علو
الرتبة وارتفاع المكانة ولقد سما في دول المسلمين على اختلافها إلى
المراتب العالية كثير من أرباب الأديان المختلفة ، وكان ذلك في شببيتها
وكمال قوتها ، ولم يزل الأمر على ما كان ، وفي الظن أن الأم الغربية لم
تبلغ هذه الدرجة من العدل إلى اليوم (فسحقاً لقوم يظنون أن
المسلمين بتعصبهم يمنعون مخالفيهم حقوقهم) .

ويقرب عبد الله النديم^(١) من فكر الشيخ محمد عبده فى مقال لـه بعنوان (أشتات الشرق وعصبيات أوروبا)^(٢) حيث يحلل واقع الإسلام بـروح وطنية، والشيخ محمد عبده دفاعه يروح دينية بيّنة، فمجد الشرق عند النديم قام لتجرده من الانفعالات النفسية ونبذ جوانب الجنس واللغة والدين والوطن وضم جموعه تحت نظام واحد يعولون عليه، ولذلك لم يضره اختلاف المشارب والمذاهب مع توحيد وجه الملك نظامًا واستيطانًا ودفاعًا. فكان فى مجتمع المسلمين سنة وشيعة ومعتزلة ودروز ويهود ونصارى، وكل من هذه الطوائف يشتمل على مذاهب شتى متعددة، وربما كانت هذه الطوائف فى البلد الواحد وكلّ يجرى فى طريقه الديني، فإذا انتهى عاد إلى مجتمعه وانتظم مع حزبه، فإذا سمع الصيحة الجامعة انضم إلى مجموع العصبيات الشرقية صيانة للوطن ودفاعًا عن الملك.

وإذا يرى النديم أخذ أوروبا لهذا النظام من المسلمين واستفادتها منه وظهور الأحزاب فيها، وتعاون هذه الأحزاب فى تدابير كل مملكة يتمنى لو توجد هذه العصبيات والأحزاب فى البلاد الإسلامية، ولكنه يحترس بمراده من العصبيات والأحزاب أنه ليس لمواجهة أوروبا ويقول^(٣) "لا يفهم غبي من ذكر العصبيات والأحزاب أن المراد عصبيات إفساد أو أحزاب فتن وحروب، فإن ذلك محض الجنون لأننا مُحاطون بدول أوروبا وإن كنا فى قطعة شرقية،... ان افتراق ممالك الشرق واختلاف معظم أهله يقضى عليهم بالعدول عن كل فتنة توقعهم فى حرب أوروبية لا يقدرّون على اقتحام عقباتها لاتفاق ممالك أوروبا عليهم واختلاف ممالكهم الشرقية، مع فقد المعدات والمواد الحربية، وإذا كان ذلك مرسومًا بين أعين العقلاء منا استحال تصور التجمع لفتنة أو

(١) عبد الله النديم (١٢٦١-١٣١٤) : أديب مصرى وصحافى وخطيب،

أصدر جريدة (التنكيك والتبكيك) ثم (الطائف) ولما قامت الثورة العربية كان من أكبر خطبائها ولكن بعد فشلها اختفى عشر سنين ونفى إلى فلسطين ثم عاد لمصر وأصدر بها مجلة الأستاذ (١٣١٠)

ونفاه الانجليز ثانية فاتجه للأستانة وعمل فى الباب العالى حتى توفى ١٨٩٦م، أنظر : زعماء الإصلاح ٢١٨ أحمد أمين، عبد الله النديم خطيب الثورة العربية - نجيب توفيق.

(٢) سلافة النديم - عبد الله النديم ٢ / ١٢٠ جمع شقيقه عبد الفتاح نديم.

(٣) السابق نفسه.

لمعاكسة دولة اوروبية وتعيين فهم مجاراتنا لأوروبا في اتخاذ طرق المدنية" ان مسألة الجامعة الاسلامية وأوروبا رغم كثرة ما دُبِّج وانتظم من الأفكار عند من تناولوها (١) غير من عرضنا له هنا - تُغرى بالمزيد ولكن دراسة مهمة تطرقت لها لامندوحة من الإشارة إليها لنختم بها هذه الفقرة . ذلك أن (رفيق العظم) (٢) تناولها بإفاضة من عدة وجوه ، وأبان عند سبب كتابته لها أنه ارتفع صوت المرجفين المنادين بخطر الجامعة الاسلامية من قادة الأمم الغربية .

واذ يبالغ في تقليل أثر رابطة الدين بين المسلمين وانها لم تجمعهم يوماً ولا على التعاون على دفع الكوارث التي حلت ببلادهم يدفع دعوى القائلين بخطر الجامعة الاسلامية بعدة وجوه (٣) .

- (١) إن الجوامع الجنسية غالبية عند الأمم وخاصة الأمم الاسلامية ، فقد مزقهم الأوروبيون ولم نرهم يمدون يد المعونة لبعض .
- (٢) إن المسلمين لو اجتمعوا باسم الدين لمناهضة أوروبا فلا يكون اجتماعهم خطراً على المدنية كما يذهب اليه سياسيو الغرب ، بل يكون وفاءً بحق القومية ورجوعاً إلى الاعتصام بالرابطة العامة ، وقوانين الاجتماع تقضى على الشعوب للذود عن مجتمعاتها .

(١) انظر لمزيد من ذلك : مجلة الأستاذ لعبد الله النديم - المجلد الأول ١٣١ - مقال : الوطنية ، لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم - شكيب أرسلان ٧٢ ط دار البشير - القاهرة ، مجلة المنهل مجلد ١٨ - ١٣٧٧ مقال : الجامعة الاسلامية والغرب" نشر في خمس حلقات آخرها في الجزء العاشر من نفس المجلد .

الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة الأدبية الحديثة - أنيس المقدسى

٢٩ .

(٢) رفيق بن محمود العظم (١٢٨٤ - ١٣٤٣) عالم باحث من رجال النهضة الفكرية في سوريا في مطلع العصر الحديث ، انتقل الى مصر واستقر بها واشترك في كثير من الأعمال والجمعيات الاصلاحية والسياسية وله عدد من التصانيف أشهرها أشهر مشاهير الاسلام في الحروب والسياسة - أربعة أجزاء .

انظر : آثار رفيق بك العظم - المقدمة - جمعها شقيقه عثمان بك .

(٣) الجامعة الاسلامية وأوروبا - رفيق العظم - ٢٠ - ط سلسلة الثقافة الاسلامية (٤٣) ربيع الاخر ١٣٨٣ .

(٣) ان القول باتحاد المسلمين انما هو من موضوعات السيايين الأوروبيين
لا يغار صدور الأمم على الإسلام، والجامعة الإسلامية . لم ترد في تاريخ
الإسلام وليس لها في الدول الإسلامية شأن غير سياسى أصلاً .

واذ يعجب من تحقق خطر جامعة أوروبا وانتفائه من قبل جامعة
المسلمين وصياحهم بعد بالخوف على مصالحهم إذا دافع المسلمون عن ذمارهم
نجده يبين مفهوم الارتباط الدينى بميزتين (١) :

- الارتباط الأخرى بين المسلمين ارتباط خاص .
- والارتباط الانسانى بين الناس كافة .

ثم ان رابطة التعاون هذه على الخير بالناس دون الشر والعدوان ،
وصريح دعوة الإسلام للاجتماع وعدم التفرق محمول على ما تستدعيه حالة الاجتماع
من لزوم حفظ البيضة وكف المعتدين وهذا ضرورى لكافة المجتمعات .

وإذ يُدَلَّل على أن الإسلام لا يحض أهله على الاجتماع إلا ليكونوا يدا على
من ثأواهم وأن يقسطوا إلى من سواهم - وان افترق عنهم فى الدين - مالم
يبادئهم بالعدوان ويؤرد بهم سوء كما يدل عليه حكم الدين وتاريخ المسلمين ،
نجده يكشف عن سبب تمويه ساسة الغرب بخطر الجامعة الإسلامية (٢) ، وذلك
أن الساسة وأرباب الحَل والعقد ينظر إليهم رجال الحكومات الأوروبية بعين
الحذر عند الإتيان بعمل كبير فى السياسة فى الداخل أو الخارج لأنهم قادة
الأفكار ومالكو أزمة الشعوب ، وذلك ما يدعوا الحكومة الى مغالطتهم وتمويه بعض
المسائل عليهم لكي يُمَهَّدوا لأنفسهم سبيل المَعذرة فى غارتهم على الشعوب
المستضعفة من غير عذر إلا الأناية والطمع .

واذ يستعرض حوادث اعتداء أوروبا على المسلمين - باختصار - طوال
تاريخهم وحتى ضعف الدولة العثمانية وكأنه يعرض بحقد هم القديم يقول (٣) :
" هذا ما فعله الدول الأوروبية بالمسلمين ودولهم منذ أربعة قرون - تارة
مجتمعات وتارة مفترقات ، وهكذا كانت ولا تزال تشاطر ملك الإسلام وتقف لأهله
فى كل مرصد وتسدد فى وجوههم كل منفذ .

(١) الجامعة الإسلامية وأوروبا - رفیق العظم ٢٦ ، ٢٧ .

(٢) السابق نفسه ٣٥ .

(٣) السابق نفسه ٥٩ ، ٦٠ .

... ان مناهضة أوروبا للدولة العثمانية فى الجليل والحقير من شئونها الداخلية كانت ولم تزل تتجدد كل يوم ، ومع هذا كله فان السياسيين من أهل أوروبا لا يخجلون من الحق ولا يستحيون من جميع العالم الإنسانى الشاهد عليهم بالكذب والبهتان ، حيث ينادون بخطر الجامعة الاسلامية واتحاد الاسلام مع أن المسلمين فى كل ناحية من الأرض أسرى الدول الأوروبية وأصبحوا لا حول لهم ولا قوة الا تلك العاطفة الدينية المنبعثة من الشعوب دون العقل الفعال .

وإذ يذكر رفيق العظم كثيرا من البلاد الشاسعة التى اقتطعتها أوروبا من بلاد الاسلام يعزّز بأدلة التاريخ التى تؤكد انحلال رابطة الوحدة الإسلامية عندما طلب كثير من المسلمين النجدة من حكومة العثمانيين وغيرها فى العصر الحديث فلم يجدوا مغيثا فكانوا فريسة لأوروبا قضت عليهم ومحت الإسلام من بعض ممالكهم (١) .

وما يصل إليه الكاتب بعد هذا ، أن تناصر المسلمين وولاءهم فى التاريخ الحديث لا يقاس أو يوازي بتناصر دول أوروبا واتفاقها على اكتساح المسلمين فى كل مكان من الأرض ، أفبعد هذا يجوز للساسة الغرب أن يصوّروا أقواما هذا حالهم فى التخاذل والضعف فى صورة غول إذا تضامنت قواه يلتهم العالم ؟ إنهم أولى بهذا وأحق (٢) .

ويستنبط الكاتب آخر الأمر أن حركة الفكر الاسلامى إنما هى نتيجة تبادل الشعور بما تريده أوروبا من المسلمين من الاستخذاء والتبعية ، ونتيجة الشعور بما بلغته الأمم الأوروبية من قوة السلطان وبسطة الملك .

ان " هذه الحركة إذ ظننها الأوروبيون مقدمة للاتحاد الاسلامى أوعين الاتحاد فأنما هى اتحاد على معرفة الواجب لا للبحث عن مصدر ترقى أوروبا ألا وهو العلم والحرية .

فأما العلم فقد نشطوا له فى كل مكان بقدر ما تساعد الظروف وما ينفذ اليهم من خلال حجب الاستبداد من نور المعرفة .

(١) انظر الجامعة الاسلامية وأوروبا ٦٢ ، ٦٥

(٢) السابق نفسه .

وأما الحرية فهم ينشدونها حيثما وجد الاستعباد لافرق عندهم في ذلك بين الدول المسيحية والإسلامية ، فكما نرى المصريين يُطالبون الانجليز بالحرية نرى الإيرانيين يحاربون حكومتهم الإسلامية من أجلها . ونرى العثمانيين كذلك يبذلون مع حكومتهم ويفقدون بكل نفس ونفيس لأجل الحصول عليها والتخلص من ريقة الظلم والاستبداد .

أليس هذا اتحاداً في الشعور بالحاجة إلى الرقي وإلى مسابقة الأمم المتقدمة ؟

أليس التمدن والرقي ضد الهمجية ؟ فإذا كان المسلمون هم — ج متعصبون — وبهذا يصممهم الأوروبيون — أفليس في طلبهم الرقي وتراميمهم على الدخول في صفوف الأمم الراقية المتقدمة ما يزيل عنهم هذه الوصمة ويسقط حجة أعدائهم في تلك التهمة ؟

بل هذا هو الحق الصراح ، فلي نصف الساسة الغربيون وليرجعوا عما يقولون " (١) .

ثانيا : مظاهر التصور الأدبي للجامعة الاسلامية

أ (مدح السلطان العثماني :

حفل أدب العرب منذ أقدم عصوره بجملة من الأغراض يعدّ المديح من أشهرها و ان لم يختلف عنها كثرة وروعة وجمالاً . وليس المدح عيباً في الأدب العربي حتى يؤخذ عليه ويعدّ لذلك أدب نفاق ورياءً وتزلف كما يخال لمن رموه بذلك، بل إن لهذا الغرض في هذا الادب دلالة واضحة ومغزى شريفا عرفها الأدب العربي في عصر الجاهلية وفي الاسلام بعد ذلك (١) ، ورغم وجود مبررات هذا المدح المألوفة في حياة العرب كما أملت عليها ظروف الحياة وبيئاتها المختلفة إلا أن وفرة هذا اللون الإنساني ودلالته لا تمنع المرء من أن يتصور دوافع أخرى لهذا الغرض الفني غير ذلك ، وربما أعان على ذلك التصور معرفة طبيعة الحياة العربية في عصورها المتقدمة في الحضرة والبادية ، حيث شظف الحياة وكثرة الحرمان ، بيد أن ما كان يتمتع به العربي من حرية وشهامة وأنفة قد تدفعه إلى ذلك الثناء ، والعربي بمدحه إنما كان يلتمس ويبحث عن الكمال الإنساني الذي تطمح اليه النفس ويطمح أن يراه أو يجسده ويجده في ممدوحه الذي يراه أهلاً لذلك .

والسلطان العثماني الذي يعنينا هنا ليس بدعاً أن يزدحم الشعر العربي في تمجيده كما يواكبه النثر الفني ، والذي تلمس الوصول إلى الاعتبار السلطانية .

ذلك أنه سلطان المسلمين وخليفة الأمة ، ومكانته الكبرى في نفوس المسلمين لا لشخصه أو تفوق امتاز به ، وإنما للخلافة العظمى التي جعلته الأمة أمينا عليها .

والمسلمون كما أمرهم الدين الحنيف مطالبون بحفظ خلافتهم وطاعة أولي أمرهم - ما التزموا طاعة الله ورسوله - بغض النظر عن أجناسهم وأصولهم عرباً أو عجماً ، ماداموا قائمين بالأمر على وجه قويم .

(١) انظر: عصر الدول و الامارات (الجزيرة العربية - العراق - ايران)

د . شوقي ضيف - ٣٣٦ .

والذى يدعو الى الحديث عن مدح السلطان أنه فى حقيقة الأمر كان المسلمون لا يرون فى الخليفة العثمانى إلا خليفة المسلمين ، مع يقين شعوب المسلمين أنه تركي صميم (١) ، وكانت الشعوب الاسلامية إلى مطلع العصر الحديث - رغم وجود عدد من الحكام غير العثمانيين - لا يفرقون بين أبناء المسلمين من كل جنس ومن كل مكان واستمر الأمر حتى قامت النعرات المختلفة من قومية ووطنية ودخلت فى المسلمين وأخذ أعداء الاسلام يغذّونها وبياركونها حتى تأصلت فى كثير من المسلمين ، ومن ثم بدأ التحيز والتمييز بين الأجناس التى وحدتها شريعة الله ، ووصل الأمر أن حُشيت الأذهان - مكرراً ومكيدة - فى الأمة العربية أن العثمانيين مستعمرون لهم ومستبدون بأمرهم وحسبهم ما مرّ وليقم كل شعب وجنس بحكم نفسه وقيادة قومه .

لم يكن أدباء العرب يجدون غضاظة فى كيل المدح والثناء على السلطان العثماني إلى أن مرّ عقداً أو ثلاثة من القرن الرابع عشر الهجرى ، بل إنهم يفخرون بذلك ويعدوه ديانة تقربهم الى الله زلفى ، وإذا أضيف لذلك أن عقولهم وأهواءهم لما تخامرها النزعات القومية الجديدة - كما حدث لمن بعدهم - أمكن للمرء أن يدرك عمق الشعور والاخلاص فى أدبهم الذى ساروا فيه على سجيّتهم وما تتخيله عقولهم حين توجهوا به إلى السلطان العثماني خليفة المسلمين .

وإذا كان من نافلة القول إن ازجاء المدائح واطهار الولاء والمودة لا تأتي من فراغ فى الغالب ان لم يكن للممدوح مايزكي ذلك ، فالعثمانيون قد بلغوا فى واقع المسلمين - وفى واقع العالم فى عصرهم - شأواً بعيداً جعل دولتهم فى صف الدول الكبرى إن لم تكن فى بعض الفترات أعظم حكومة على الأرض . لذلك كله ولغيره احتشد أدب العرب فى مطلع العصر الحديث بقلائد من الدرّ منظومة ومنثورة تُوجّج بها الخلفاء وكثير من الولاة والقواد .

ومعظم ماورد من أدب فى هذا الباب تتعاوره صور مختلفة تتلاقى تحت مظلة المديح ، فقد يكون وفادة على السلطان ينعم بها الأديب فيسطرفى كلمة اعجابه وسروره بذات السلطان أو عظمة السلطنة ، وتارة يكون المدح لمناسبة

(١) يروى أن قائد الحملة الفرنسية لما نزل بمصر (١٧٩٨ م) وسأل ولايتها الذين استدعاهم عن أرضهم لمن هى ؟ فأجابوه : انها أرض السلطان ، يريدون الخليفة العثماني : انظر : عجائب الآثار فى التراجم والاخبار

يحتفل بها السلطان والأمة - وهى كثيرة - كعيد الأضحى والفطر أو بعض المناسبات التى كانوا يسمونها دينية ، مما أدخلته الصوفية التى كان لها نفوذ فى الحكم العثمانى وعلى الخصوص فى القرون الأخيرة ، كاحتفال بعيد جلوس السلطان الذى يتكرر كل عام ، والاحتفال بالمولد النبوى وبالهجرة وغيرها من الحفلات الخرافية المبتدعة .

وتارة يكون المدح ازجاءً ثناءً ودعاءً للسلطان من غير حدث يبعث على ذلك ، أمّا الدعوة للالتفاف حول الخليفة والحث على طاعته والتنفيذ من عصيانه فربما كان باعته فى الأغلب بعض الحوادث التى تعترض السلطان أو تنال من الدولة أو رعاياها المنبئين فى فجاج بعيدة مترامية .

هذا محمد توفيق البكرى - شيخ مشايخ الطرق الصوفية فى مصر - يرحل إلى عاصمة الخلافة وقد كان يتطلع الى تلك الزيارة من زمن ، ويحلم بشرف لقاء السلطان واجتماعه به فيصور ذلك الشوق الذى دافع الدهرُ تحققه فقال (١) : " على أنه قضى العمرُ الا الأمل ، وكاد يحول الأجل دون الأمل ، وهو شمل لم يُؤتلف ، وكنز لم يُكتشف " .

واذ يُسعف الزمان ويصل إلى ديار الخليفة ويفد عليه ، يقدم مجلسه ويأنس بحديثه ، ويعرف فضل هذا السلطان ومكانته ، ثم يسجل لنا هذه الوفادة بأسلوب كتاب عصره ، فكيف كان هذا الخليفة عند البكرى ؟

إنّه " أمير المؤمنين . وخليفة رسول رب العالمين . السلطان بين السلطان ، سليل الغرانيق العلا من آل عثمان . فقد دعانى الى حضرته والقرب من سُدّته . وبلغ من حسن اللقيا وكرم المشوى . مالو أُعطيْتُ لَسَنَ النابغة فى النعمان ، وزهير فى هَرَمِ بن سنان . لما قمت فيه بحق الشكران . فأَيّ درّ أنثر وأى مديح أذكر . وقد جَلَّ المقام عن المقال ، وترفعت الحقيقة عن الخيال .

إذا نحن أثنينا عليك بـصالح .. فأنت الذى نُثني وفوق الذى نُثني وان جرت الألفاظُ منا بـمدحٍ .. لغيرك انساناً فأنت الذى نَعني

ولا جرم فقد ورث المجد جدّا عن جد . فى الأسرة الحصداء والعيس الأشد . والمجد كالخمر كلما طالت عليه الأمدُ جاد ، وكالحديث كلما علا فى الاسنادِ ساد

وما بلغت كفى امرئ متناول .. بها المجد الا حيث ما نلت أطول
وما بلغ المهدون فى القول مدحاً .. وإن أطنبوا الا وما فيك أفضل^(١)

وذا مصطفى كامل نجده يدعو لله مخلصاً أن يحفظ الدولة
العثمانية ويؤزرها بحفظ السلطان الذى يقوم على حمايتها " إني أضرع إلى
الله من فؤاد مخلص وقلب صادق أن يهب الدولة العلية القوة الأبدية والنصر
السرمدى ، لعيش العثمانيين والمسلمون مدى الدهر فى سوءدد ورفعته ، وأن
يحفظ للدولة العثمانية حامى حماها ، وللإسلام إمامه وناصره ، جلالته
السلطان الأعظم والخليفة الأكبر الغازى عبد الحميد الثانى .. إن ربي سميع
مجيب " (٢) .

و هو يردف ذلك بتمجيد السلطان مُظهرًا بعض جهوده فى خدمة
الدولة العلية ، وأنه " أعظم سلطان جلس على أريكة ملك آل عثمان ووجه عنايته
لإبطال مساعى الدخلاء وتطهير الدولة من وجودهم هو جلالة السلطان الحالى
فقد تعلم من حرب سنة ١٨٧٧م^(٣) وما جرى فيها أن الدخلاء بلية البلايا فى
الدولة ومصيبة المصائب ، فعمل بحكمته العالية على تبديد قوتهم وتربية الرجال
الذين يرفعون شأن الدولة ويعملون لاعلاء قدرها " (٤) .

واذا أتينا الى عيد الجلوس السلطانى ، وهو مناسبة تولى السلطان
الخلافة والتي يُحتفل بها فى كل عام ، وما كان يصاحب هذا الاحتفال من
مظاهر السرور ، إذ كانت تُقام الأفراح والحفلات وتنظم الزينات فى الأندية
والشوارع وتكثر الاضاء بمختلف الأدوات الى غير ذلك من المظاهر التى تتبارى
الأمّة فى اظهارها ، نجد الكتاب يدنون التهاني ، وتعالن الصحافة بتنميقها
على نحو ما نجده مثلاً عند (الكسندره افرينه) (٥) التى كتبت فى عيد

(١) صهاريج اللؤلؤ - محمد توفيق البكرى ٨٤ ، الغرائق : جمع غرنوق وهو
الشاب الناعم ، السدة : باب الدار ، الحصاد : صفة للدرع اذا كانت
ضيقه الحلق محكمته ، العيص : الشجر الكثير الملتف .

(٢) المسألة الشرقية - مصطفى كامل ، ٤ .

(٣) أى الحرب بين روسيا والدولة العثمانية وقد خسرت فيها الدولة
العثمانية خسائر فادحة ومناطق كبيرة .

(٤) المسألة الشرقية ١٠ .

(٥) الكسندره افرينه (١٢٨٩ - ١٣٤٦) اديبة ولدت ونشأت فى بيروت
وانتقلت الى مصر ، وأصدرت بها مجلتها (انيس الجليس) الشهرية عشرة
أعوام ، لها رحلات الى أوروبا وتركيا وايران ، وكان لها نصيب من ثقافته

الجلوس المأنوس قائلة (١): " تحتفل الأمة العثمانية الكريمة فى هذا اليوم السعيد بأجلّ اعيادها مجدًا وفخرًا ، وأحب الأيام إليها تجددًا وذكرًا ، وتبتهج الممالك المحروسة بيوم تعدل المسرة فيه مسرة أزمان ، وتغتبط بخلافة سلطان ما رأت مثله بنو عثمان ، بل أى أثر من آثار ملكه السعيد لا يزهو بيوم عيده ، وأى حالة من حالات بلاده لا تدعو الى الدعاء بطول بقاءه وتأيينه . فالعدل قد رجع إلى نصابه بأحكامه ، وارتدّ إلى شبابه فى أيّامه ، والعلم فى مدة دولته قد عمّ البلاد ووسع العباد وتناول الجموع والأفراد ، وكفى حتى زاد ، والدولة بحزمه السديد قد طاوت الدول ، وفاخرت بعصره الأعصر الأول " .

والكاتبة تشير إلى جانب طريف اعتنى به السلطان ، ذلك هو تعليم المرأة وتثقيفها ورقبها ، فهل يعنى هنا أن نعهده قد سبق دعاة تحرير المرأة وأنصارها الذين ادّعوا ذلك بحق أو بغير حق ؟ ! إنها تقول " ثم عرف أيّده الله ما للمرأة على جلالته من حق الرعية عليه ، فجعل لها المدرسة بمكان الخباء والقناع . وجمع فى يدها الوشيعة (٢) واليراع ، فصارت تلهو بسواد الحبر على بياض المعاصم ، وتعتصم من أدب العلم بأمنع عاصم ، وكم لجلالته عليها من نوافل ذلك هو اليوم السعيد الذى نذكر به هذه الحسنات وما نحن له بناسين ، ونعد فيه مانستطيعه منها وهى تعجز الحاسنين ، ثم نسأل الله تعالى أن يطيل بقاءه نامية به المكارم ، سامية بأيامه الأعياد والمواسم ، ويبقى دولته العلية وطيدة بأركانه ، سعيدة فى زمانه ، وأن تظل عامرة بمديحه القوائد والأبيات ، كما تعمر أعتابه السنبة بالدعوات والتهنئات ، ويتصل فى مدحه ما مضى بما هوأت " .

وإذا كانت هذه الكاتبة قد أكدت ولاءها للسلطان فان ذلك يلفتنا الى طائفة النصارى الذين يتغيثون فى ظلال السلطان العثمانى بين المسلمين والتذكير بمواقفهم من هذه الدولة التى لا يعتنقون دينها ، والذى كان فى

== الغربية ، ترجمت بها عن الفرنسية وكانت تتصل بالقصور الخديوية كثيرًا وتوفيت فى لندن . انظر: تاريخ الصحافة العربية ٤ / ٣٢٦ ، الاعلام ٢ / ٧

(١) مجلة أنيس الجليس - لمنشئها : الكسندرة افرينوه - السنة الثانية ج ٨

ربيع الثانى ١٣١٧ أغسطس ١٨٩٩ م ص ٣١٥-٣١٧ .

(٢) الوشيعة : لفيفة من غزل وتسمى القصبة وهى التى يجعل النساج فيها

لحمة الثوب للنسج

جملته هو الولاء لهذا السلطان وتقديره والحرص على الدولة وعدم المساس بما يهدمها ، ذلك أن طوائف الملل المتفرقة التي كانت تعيش في الدولة العثمانية لم تتعصب لدينها وتعمل على الكيد للدولة العثمانية في الجملة الا في مطلع العصر الحديث ، اذ بدت الإرساليات وطوائف التبشير المختلفة تدب في الكيان العثماني ، ودول أوروبا ومن ورائها بطوائفها المختلفة تجد وتدأب في التمهيد للتبشير والاستعمار .

وعندما تمكنت هذه المدارس والإرساليات من بث روح التعصب والحقن للدولة بدأت هذه الطوائف داخل الدولة تنمر وتطالب بحقوقها وتتعاون مع الأوروبيين وتمهد لهم ليتدخلوا ويدخلوا في ديار المسلمين كما هو معلوم من أحداث بعض هذه الطوائف الكثيرة في بلاد الشام (١) .

والمأمل في الصحف المسيحية إلى آخر القرن التاسع عشر - بحسب ما أمكن الاطلاع عليه - وما كتبه أدباؤها نجدها لا تخرج عن فكرة الولاء للسلطان العثماني ، ثم تلا ذلك ظهور النعرات والفتن التي كان للاستعمار أكبر الأثر في ظهورها - كما سيأتى فيما بعد - وبشها ليخلوله الطريق في تنفيذ مآربه المتعددة ، وحسبنا من المقال السابق دليلاً لعدد من الكتابات التي تسير في فلكه (٢) .

وأما الالتفاف حول السلطان والدعوة الى الارتباط به فقد قويت اللهجة به عندما بدأت الفتن التي بشها الاستعمار ومدارسه توءتى أكلها ، ففي مصر وقد تبين للانجليز مكانة الخلافة عند المصريين لم يتهجموا على السلطان أو الخلافة مباشرة بل اندفعوا يدعون أنهم يريدون قمع الخارجين على الخلافة والسلطان ، مع ذلك عملوا بشتى الوسائل لايجاد العداوة والفرقة بين مصر وتركيا (٣) ، وجدوا في تحريض أبناء مصر على العثمانيين بحيل خكية، وصوروهم

- (١) انظر : التاريخ الاسلامى - العهد العثمانى - محمود شاكر - ١٣ - ١٥
 (٢) انظر : مجلة أنيس الجليس (الكسندره افرينوه) المجلد الثانى ص ٣٢٥ ،
 والمجلد الثالث منها (١٣١٧ / ١٩٠٠ م) ص ٢٨١ ، مجلة المشرق للأب
 لويس شيخو المجلد الأول العدد الأول (المقدمة) ، المجلد الثالث
 ١٩٠٠ م ص ٧٧ عن تعبير الكاثوليك عن ولائهم للسلطان في عيد جلوسه
 الخامس والعشرين ، جريدة مصر لسليم نقاش ١٨٧٧ م حيث كانت أخبار
 الحرب الروسية العثمانية تتقدم صفحاتها الأولى .
 (٣) انظر : التاريخ الاسلامى - العهد العثمانى ٥٠٥ .

لهم في صورة المستعمرين .

هذا عبد الله النديم وقد أحس هذه المكيدة الخطيرة لتمييق الأمة فماذا يفعل ؟ انه يصرخ في بنى وطنه قائلاً (١) ، " هذه يدي في يد من أضعها ؟ ضعها في يد وطنيك ، واعقد خنصرتك على محبة أمير البلاد ، مرتبطة هذه المحبة بمحبة أمير المؤمنين ، والا فقطعها خير من وضعها في يد أجنبي يستميلك إليه بوعود كاذبة وحيل واهية ، يظهر لك سعيه في صالحك وحبّه لتقدّمك ، ويرهبك بأوهام لا توجد إلا بينك وبينه ، ويغرك بدعوى انفراده بالسلطة عليك ، وبعد الدول عنك ، ويضلك بنسبة أمراك للقصور ، وحكامك للجهل الظلم ، ويصور لك الأباطيل في صورة حق تخدعك به ، ويحول أفكارك الشرقية إلى أفكار غربية تأخذها وتقول بها ، فتكون يده القوية ودعوته الكبرى على ضياع حقوقك واذلال إخوانك ، واسترقاق أهلك وانتزاع سلطة أميرك وسلطانك وأنت لا تشعر بشيء من هذا " .

واند نقف على هذه النماذج في هذه الفقرة نختتمها برسالة مدح واستعطاف إلى السلطان عبد الحميد ، وتمتاز هذه الرسالة بأسلوب متين ساحر وان لم يخرج عن أسلوب التصنع والسجع الذي غلب على الكتاب في مطلع هذا العصر ، ولعل بيانها قد أسهم بنصيب كبير في تحقق الاستعطاف الذي اشتملت عليه ، وقد دبّج الرسالة ابراهيم المويلحي (٢) يطلب فيها السماح من السلطان بالاقامة في تركيا لاحدى أزواج الخديوى اسماعيل - خديوى مصر - لأن الأطباء وصفوا لها علاجاً في إحدى نواحيها ، والرسالة طويلة بدأها قائلاً (٣) : " إلى أمير المؤمنين وإمام المسلمين ، وخليفة رسول رب العالمين ، أطل الله بقاءه ، وجعلنى من كل مكروه فداءه . من عبد اكتنفه حرمان الرضا من ولى نعمته ، ومالك

(١) مجلة الأستاذ نقلاً عن : فى الأدب الحديث - عمرا الدسوقي ١ / ١٣ ط ٤ - ٨ .

(٢) ابراهيم بن عبد الخالق المويلحي (١٢٦٢ - ١٣٢٣) أديب وصحفي مصري لازم الخديوى اسماعيل - خديوى مصر - كثيراً وعمل له وأشهر اعماله مجلته الاسبوعية " مصباح الشرق " وتوفى بمصر - انظر : ادب المقالة الصحفية (ج ٣) د . عبد اللطيف حمزة ، تاريخ الصحافة العربية - طرازي ٢ / ٢٧٥ .

(٣) مجلة الرسالة - السنة السادسة (١٣٥٦ / ١٩٣٨) المجلد الثانى ٦١٩ - ٦٢٠ .

ناصيته ، فساعته شهر وليلته دهر ، وعبرته نهر ، وكذلك جواب دعائه مما يقاسي من غضب أمير المؤمنين .

... وأمر المؤمنين أولي العالمين في الاقتداء بآي الكتاب العزيز وإنني أتضرع إلى مقام خلافتكم العظمى وسلطنتكم الكبرى ، متوسلاً بجناب صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم أن يلحظ ما أعرضه لدى سدّ تكملوكية بعض الرضى ... وإنني أتوسل إلى الله أن يلحق أمير المؤمنين بنزاهته ورحمته وعدله وإيمانه ورعايته مافى يديه من ودائع الله التي هي أرواح المسلمين وأعراضهم .

وصمته : الاستمرار على حرمان هذه المريضة من علاجها الممكن ، فإنها إنما تدخل تحت سطوة السلطنة العظمى وقوة الخلافة الكبرى ، في بلدة صغيرة من ممالك الدولة العثمانية ...

... وأنا واقف على البعد أتلقى أوامركم بفريضة الامثال ، وإن لم يصادف تضرعى ودعائى قبولاً فأنى أخشى أن هذه المريضة وهى فى الاحتضار تمديدها بكتاب الله قائلة : بينى وبين أمير المؤمنين هذا الكتاب العزيز فى الدنيا والآخرة ، والأمر لله من قبل ومن بعد " .

وإذ تُرجمت الرسالة بهذا الأسلوب الاستعطافى المنطقى ، وبهـذا الشاء الذى يفوح بين سطورها ثم عرضت على السلطان عبد الحميد يتأثر بهـا ويجيب طلبها ، فيرسل برقية الى سفيرة فى ايطاليا - حيث تقيم المريضة - بدعوة حرم الخديوى الى تركيا للاستشفاء .

بكل هذه الصور التى تلتقى حول مدح السلطان العثمانى والثناء عليه فى مناسبة أو غير مناسبة ، يظهر الاهتمام الكبير بالاشارة الى السلطان والاحتفاء به وما ذلك الا لأنه يجلس على عرش الخلافة الاسلامية العظمى ، حيث ينظر إليها المسلمون كظل يفيئون إليه عند كل نعمة ، ولواء يجتمعون حوله عند كل نازلة ، ويغدون بذلك أمة معصومة من الفرقة وأسباب الخذلان .

(ب) الدعوة الى الحفاظ على الدولة العثمانية :

رأينا قبل قليل فى هذا الفصل صلة الجامعة الاسلامية بالدولة العثمانية ، وظهور الاتصال الحميم بينهما ، وقد زاد ذلك وضوحاً عندما ظهر

بعد هذه الصلة أن الجامعة العثمانية أحد وجوه الجامعة الإسلامية وصورها التي ظهرت فيها إن لم تكن أظهرها .

وأمر المحافظة على الدولة العثمانية الذي قام على ذلك الأساس ميدانه فسيح في الواقع وأرجاءه رحبة ومتعددة ، ومع ذلك فهو قرين لممدح السلطان والالتفاف حوله ، إذ السلطان في الحقيقة هو المحافظ والقائم على حراسة الدولة وحمايتها ، ولعل في هذا الاقتران ما يشجع على إلحاق فكرة المحافظة على الدولة العثمانية بعد الحديث عن مدح السلطان وولائه وطاعته .

تأخذ هذه المحافظة دعوة إلى الوطنية العثمانية ، وتتخذ السواء لرابطة الخلافة ذريعة إليها ، وتراها تبرز أهمية الارتباط بهذه الدولة ، كما تعرض في بيان مكانة هذه الدولة في العالم وثقلها الدولي ومركزها السياسي وتراها تارة تتخذ الإشادة بماضى العثمانيين المجيد وجهودهم التي أسدوها للأمة الإسلامية ، وعلى رأسها الجهاد الذي يحفظ على الدولة كيانها الكبير . أمّا الخوف على هذه الدولة من الأعراض الكثيرة التي تهددها وتجرحها إلى الضعف والزوال ، أو التشهير بمن خرجوا عليها وناصبوها العداء أو تحالفوا مع أعدائها فطبعي ألا يخرج ذلك عن دائرة المحافظة على الدولة حيث نجد من يسطر فيه من الكتابات الأدبية ما لا يسع إغفاله أو التقليل منه .

ولذا أريد بيان ذلك كله فالنماذج الكثيرة تعين على توضيحه وتجلي جوانب هذه المحافظة التي تدور حولها .

فالوطنية العثمانية وإن تأثرت بالدعوات القومية الحديثة التي دخلت البلاد العثمانية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي على يد بعض من تثقفوا في بلاد الغرب ، إلا أنها كانت تدعو إلى المحافظة على سلامة الدولة وبقائها ، وهي لذلك تدعو سائر أبناء الدولة العثمانية الذين يعيشون في أوطان متعددة ، حيث الدولة واسعة البلاد مترامية الأطراف ، ولكل موطن سمات قد تميز بين أبنائه وتدعوهم إلى الاعتزاز عن غيرهم ، وفي ذلك مكن الداء وأصل البلاء ، هذه الوطنية توجه جميع أبناء البلاد العثمانية بمختلف أجناسهم ألا يميزوا بين هذه الأوطان المتعددة ، ذلك أنها وطن واحد وديار واحدة ، هي بلاد عثمانية ووطن عثمانى واحد ، يقوم عليه حكومة واحدة هي الدولة

العثمانية ، فهي التي تجمع هذه الأوطان وتربطها ببعضها ، فالذي ينشدون الوطنية ويروقههم رفعة بلادهم فإنها إنما تأتي من ارتفاع الدولة العثمانية ورفقيها ، ولا يكون ذلك الا بطاعتها والجّد في مؤازرتها وإعلاء شأنها بين دول العالم التي تطاولها بوطنياتها وعزتها .

هذا سليم تقلا (١) يكتب عن "الوطنية العثمانية" مشيداً بها فيقول في بعض ما أورده (٢) : "ان في ممالكها المحروسة عناصر عديدة بين تركية وعربية وأرمنية ويونانية وغيرها ، وكذلك مذاهب مختلفة ، وهي دون استثناء تخضع لجلالة سلطانها وتصعد بأمره وتنصاع لأحكامه . وهذه الجامعة كانت وتكون الحصن الحصين للرعية دون أطماع الدول ، وما وراء العيث بها إلا الخسران والضياع . واذا تبين هذا وهو الحق الصراح ، كان ابن مصر وابن الحجاز والعراق والشام إخوة لأم هي دولتهم ، وأب هو جلالة السلطان " .

ونجد بجوار هذه المحافظة على هذه الوطنية العثمانية من يدعو إلى الأخذ بالأسباب التي توجد لها حقيقة واقعة ، ولعل مجال التعليم والدراسة من أصلح المجالات لغرسها ، وها هو " فرح أنطون " (٣) يلح على قيام هذه الوطنية ، ويصدر في الاسكندرية (١٨٩٧ م) مجلته " الجامعة العثمانية " والتي يظهر من اسمها الولاء العثماني ، وتجده في عددها الأول يدعو إلى إنشاء مدارس تربّي أبنائها على الوطنية العثمانية والولاء لها ، وقد كانت المدارس الأجنبية التي انتشرت آنذاك في أرجاء البلاد العثمانية مبعث هذا الشعور عنده ، وهذا يعزّز الشك في نوايا تلك المدارس التي سبقت الاستعمار بعشرات السنين .

ويقول فرح أنطون في فاتحة مجلته مشيراً إلى المدارس الأجنبية " فلننشئ أيها العثمانيون بازاء تلك المدارس مدارس جديدة يكون أساس

-
- (١) سليم بن خليل تقلا (١٢٦٥ - ١٣١٠) لبناني مسيحي صاحب جريدة الأهرام المشهورة التي أصدرها في الاسكندرية ١٨٧٥ م وكانت في بدايتها ذات ميول فرنسية واضحة ، ولم تشارك في أحداث الثورة العربية فأحرقها العربيون مما اضطره لإصدارها بعد ذلك بفترة في القاهرة انظر : مصادر الدراسة الأدبية ٢ / ٢٢٠ ، الأعلام ٣ / ١١٧ .
- (٢) الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث ٢١ .
- (٣) انظره : في فصل كتاب التيار المعارض .

تعليمها حب الوطن والأمة وتعليم ما هو الوطن وما هي الأمة. لنؤسس مدارس جديدة ندخل إليها طرق التعليم الحديثة ووسائل التربية الحديثة. وندخل إليها قبل ذلك عناصر الأمة كلها فنربّيها فيها على مقاعد واحدة ونلقنها دروساً واحدة ومبادئ واحدة حتى تكون بعد خروجها من حياة المدرسة إلى حياة الرجولة بقلوب واحدة وأفكار واحدة : فان هذا هو السبيل الى تقوية جدار الوطنية العثمانية ووقايتها من التلم والهدم " (١) .

اذا كانت الوطنية العثمانية تعنى المحافظة على سائر البلاد العثمانية التي تخضع لها وعدم التفريط فيها أو بترها منها فان من يحاول فصل أى جزء من هذه الأوطان عنها إنما يُحطّم هذه الوطنية ويهدم الدولة مهما اتخذ من الأسباب وتوشح به من الأدلة فى دعواه ، ولا غرو أن يجد من يحاول ذلك من يردّ عليه ويفندّ أراءه ويدحضها من أنصار الرابطة العثمانية ، وإن من أجلى الأمثلة على ذلك ما حدث فى مصر ابّان استيلاء الاستعمار البريطانى عليها ، لقد حاول الانجليز أن يُقرّروا فى أذهان المصريين شرعية دخولهم وضرورة مقامهم فى وادى النيل واتخذوا من الأحداث التي صنعوها أو خططوا لها ذريعة فى أحقية بقائهم بمصر .

لقد اتخذ الاستعمار الانجليزى من الكتابة فى الصحف وسيلة لبث الأفكار التي يريد ها والتي يذبذب بها أفكار المصريين ومفاهيمهم ، ولذا فقد استقطب عدداً من الصحف والمجلات التي تؤيده وتدعوه - كما سيأتى فيما بعد - وسعى لكسب الكتاب والمفكرين ليكونوا تحت مظلتهم ، ولا حرج عليه بعد ذلك أن ينشر ما يريد من آراء وما يملئ من أوامر على ذلك الشعب المضطهد، إضافة إلى الحيل الذكية التي كان يلبس بها ما يريد الوصول اليه .

واذ اندفع الكتاب المواليون للانجليز يوءدون شرعيته ينهد الغيورون من انصارا لدولة العثمانية فى مصر لرد هذه المزاعم وتفنيد ها .

فها هو أديب اسحاق (٢) فى ابان حوادث الثورة العربية يكتب عن

-
- (١) مجلة الجامعة العثمانية - المجلد الاول - ١٨٩٧م فاتحة العدد الاول .
 (٢) أديب اسحاق (١٢٦٢ - ١٣٠٢) أديب مسيحي من دمشق ، اشتغل فى بيروت ثم انتقل الى مصر وأصدر بهاء دامن الصحف منها مصر والتجارة وكان قد اشتغل قبلها بالتحريرو فى بعض صحف فى بيروت ، وهو كاتب جيد الانشاء حاد العبارة حين يثور ، وجمعت آثاره فى كتاب سمي (الدرر) .
 انظر : مقدمة : الدرر ، الفنون الادبيه واعلامها ٤١١ .

حال مصر مع الانجليز ويتخير العبارات المثيرة في كتاباته ليحرك الحمية والنخوة في قلوب المصريين ليتحمسوا في الدفاع عن وطنهم ويتيقظوا للخطر الداهم عليهم في استفهام واستنكار عليهم أن يرضوا بذلك ويقول (١) : " إلى متى توقظنا الحوادث ونحن رقاد ؟ و حتام تداهمننا المصائب ونحن قعود ؟ وكيف ينادينا العِرض لنحميه فيجد آذاناً صمّاء ؟ أم كيف يشير إلينا الوطن لنحفظه من غوائل الطمع فيرى أعيناً عمياء ؟ فما للمدافع لا تتدفق ، وما للنفس لا تزهد ؟ ومن للأعراض تحميها اذا دخلنا تحت صخور الحَيْن (٢) ، ومن للوطن يمنع به بحوزته اذا تأخرنا عن نصرته ؟ ما رأينا عِرضاً حُفِظ وصاحبه في غمرات سكرته : وما منعت دارٌ ولا عزٌّ أهلها . . من الناس الا بالقنا والقنابل "

وبعد أن يوضح نوايا الانجليز الاستعمارية وعزمهم على اقتطاع مصر ، وأن مصيرها مصير الهند التي استبدوا بها وسلبوها خيراتها واستذلوا أهلها وساموهم سوء الذل والعار يشير بعد ذلك إلى مزاعم الانجليز التي يتذرعون بها لدخول مصر كما دخلوا غيرها :

" فيا أيها الانجليز ماتريدون منا ، زعمتم أن مرادكم اصلاح حالنا وأنتم أسوأ الناس حالا ، هذه الأمة الإيرلندية تندبها الانسانية وتبكيها الرحمة ، ويتلطف عليها العدل ، ويتحسّر عليها الإنصاف ، قد روت الأرض بعرق جبينها ، وفلحتها بقوة يديها ، ففتحت أبواب النصب عليها ولم تكتسب الا سوء معاملتكم وعظيم تكبركم وبأس تجبركم ، وقد فاضت نفوسهم من عسفكم فقاموا لطلب الحرية التي بذلتهم جهدكم في رياء السير فيها للأرقاء ، فتركتم خروقكم مفتوحة ، وأتيتم إلينا مدّ عين السلم ، ومنادين الأمن وأنتم أحرب من الحرب ، وأخون من الخيانة ، وقد هددتمونا وزعمتم أننا نهددكم :

لا تطمعوا أن تهينونا ونكرمكم . . وأن نكفّ الأذى عنكم وتؤذونا
الله يعلم أننا لا نحبككم . . ولا نلومكم إن لم تحبوننا

وإلى هنا يصل إلى التنبيه إلى مكانة مصر فهي جزء حيوى منها لا غنى عنه لمن يريد الحرمين المقدسين ، كما أنها ولاية عثمانية لها دولة تحميها

(١) أدب المقالة الصحفية - د . عبد اللطيف حمزة ١٦٤ / ٢ - ١٦٧ .

(٢) الحَيْن : الموت .

" أطيعوا فم الشّر عن مصرنا فانها باب الحرمين الذين يبيع كل مسلم روحه فى المدافعة عنها ، سيّما وأن مصر تابعة لدولة لها ذكر بين الدول المعظمة ، فلا يمكن أن تدعكم وشأنكم هذا ، وأيضاً كل مسلم لا يترك لكم الميدان فسيحاً تجولون فيه كيف شئتم . "

أمّا الأعوان الذين اصطنعهم الانجليز لتنفيذ مخططاته وانجاح مقاصده فلم يكن أمرهم خافياً، فهو يخاطب الانجليز " إنّ لكم منا أعواناً اتخذوكم أولياء، وان ولينا الله فنعم المولى ونعم النصير، وحاشى لله أن يكون أعوانكم منا ، وإنما هم أناس ضل سعيهم فى الحياة الدنيا ويحسبون أنهم يحسنون صنعا ، قاتلهم الله أنى يوءفكون . "

وتصدّت صحيفة (البرهان) لمن زعم أن مصر مستعمرة انجليزية لأن الانجليز استولوا عليها ، وناقشت ذلك بمنطق عقلى ينفي حق بريطانيا الشرعي عن مصر، وأنتها ولاية عثمانية مهما أرجف المبطلون ، بل لقد أوضحت الصحيفة مغبة الاستعمار وما يحير الفكر من أمره وتقول (١) : " هو الإنسان المصرى ، بل الرجل الشرقى ، قد اكتنفته الخطوب ، وتوالت عليه الكروب ، وعلمته التجارب ما لم يكن يعلم . " .

اذ أبصر نفسه عرضة للطامع ، وبلاده فريسة فى أنياب المغتال ، فألقى السمع وهو شهيد ، ودار حول الأحوال يتأمل ، ويتدبر الظواهر والخوافى حتى ارتسمت فى مدرسته الحقائق ، وبات وهو عاقل ثم أصبح وقد نبهته الحوادث فحرمته عليه المنام قبل أن يصل إلى فهم خباياها واستنباء مكنوناتها ، وأمسى سريع الشعور يرى دورة الكرة زلزلاً ، وحركة المياه طوفاناً ، فقد جعلته التقلبات إن سار التفت ، واذا رأى غير شىء ظنه رجلاً .

تأمل فى مرآة الكون فشاهد فيها وجود بلاده عدماً ، وهمة قوميه فتوراً ، ثم حول طرفه إلى مصر فرآها تسري على غير طريقه وتدور على غير محور وتنقاد خلف أهواء النزول ووراء غايات من أنكرته هيئة اجتماعها ، فلبث حائراً فى الأمر متردداً فى المقصد ، إلى أن علم أنها معرض عام تأتى إليها الوفود أفواجاً وزمراً ، السابقون السابقون أولئك المقربون . "

(١) البرهان - عدد ٦٨ فى ٢٦ جمادى الآخرة . ١٣٠٠ - ٣ مايو ١٨٨٣ والمقال موقع باسم (سمير) .

وبعد ذلك ترى البرهان أن كل مملكة لا يباشر أمر إصلاحها إلا حكامها والعارفون من أهلها إذ هم أعلم بما يصلحها ، وتتساءل مَنْ مِنْ دول العالم الغربي باشرت الإصلاح في دولة أخرى ؟ فذلك لم يدل عليه تاريخ ولم يعهد وقوعه في زمن من الأزمان . أما مصرفى ولاية عثمانية لا يزال الخطباء ينادون باسم الخليفة على منابرها ، ورغم تدخل الانجليز فيها فإن ذلك لا يغيّر عثمانيتها ، ونسبة انجلترا في مصر لا تزيد عن غيرها من باقى الدول إلا ببعض نفوذ بسبب تدخلها في شئون مصر ، وهذا بخلاف ما لأبناء مصر الذين منحتم الدولة العثمانية استقلالهم الإداري وقررت لها امتيازات أثبتتها (بالفرامين) المقدسة ، فدولة تخول أبناء البلد كل هذه الحقوق تأبى الذمة أن تُقابل بالعقوق والعصيان ، وعلى هذا يقوم الحق لهذه الدولة ولا تُبَخَس حقها وان التيس الأمر على بعض الجاهلين أو المغرضين .

هذا الاتجاه إلى التنبيه بأهمية الارتباط بالدولة العلية والاشادة بمكانتها والسخرية ممن يكيدون لها بأي لون من الكيد والتحذير منهم لئلا يؤولوا من ألوان المحافظة على الدولة العثمانية ، وهاهي صحيفة البرهان أيضاً تحت المسلمين على المحافظة على الارتباط بالدولة العلية ، في وقت قد ظهرت الحاجة إلى قوة الاتحاد وضرورته ، وبرزت أطماع الأمم الأخرى في الأمة الإسلامية العثمانية وتحذروهم من هذا الاتجاه المخيف فتقول (١) : " أى بني الشرق ولا أراكم تجهلون حالكم أو تنسون ما عليكم ، كيف لا تؤذّوكم الأغيار ولا تربيككم الخطوب ، ولا تروعكم النوازل ، وقد تقدم الناس وتأخرتم ، وأفسد الزمان أخلاقكم فأوردكم موارد الذلة والهوان . فإلى متى التنافر وعلام التخاذل والشقاق ؟ لا جرم أن من دقق النظر في أحوال الدولة ومالها من الممالك والولايات لا يرتاب في كون كل واحدة منها جسماً مركباً من عدة أعضاء ، ولا قوام للجسم إلا بسلامة أعضائه وهى فى تلك الولايات كناية عن اتحادها وطرح الدسائس الأجنبية عنها ، ذلك أن الوصول إلى أى أمر كان موقوف على التعاون والوفاق ، وبغير ذلك تسمى القوة ضعفاً ويكون القرب بعداً . . . " .

ولا ريب أن هذا الأسلوب البين قائم على العقل والحجة ليصل إلى التأكيد على حقيقة ما يدعو إليه هو الغالب على من يريدون الدعوة الى حفظ الدولة وإن لم يعدوا البيان العربى فيما يكتبون ، وبالمثل عندما تتحالف

(١) البرهان (عدد ٦١) ٣ جمادى الثانية ١٣٠٠ - ٩ أبريل ١٨٨٣ م مقال : القوة فى الاتحاد - بقلم أحمد سمير .

قبيلة (بنى مروان) باليمن مع خصوم العثمانيين، وتعلن العصيان تشتت الصحيفة (البرهان) فى بيان سوء العاقبة ، وأن هذا الانفصال ناشئ عن الطيش أو عن دسيسة أجنبية خدعت رؤساء هذه القبيلة التى سوف لا تلبث أن تصير العوبة فى أيدي من بثوا فيها روح تلك الفتنة ، علاوة على ما يعقب ذلك من الذل الدائم والفقر المدقع مما لا يحتاج فى إثباته إلى دليل .

وبعد تذكير هذه القبيلة بخضوعها لسلطان العثمانيين منذ بضعة عشرة عاماً مما لا يسوغ لها ذلك العصيان تبين "البرهان" المكانة السامية التى تتمتع بها الدولة العلية فى السياسة الدولية، إذ جعلتها على مكانة كبرى من التأثير فى السياسة العالمية، إن راحة أوروبا متوقفة على قوة الدولة العثمانية ما جعلوها سُلماً يرتقون به إلى الأغراض، إذ من المعلوم أنها هى الحد الفاصل بين الصقالبة وأوروبا ، ولولا ما يخشونه من بأس الدولة لسقطوا على أوروبا سقوط الماء المنهمر فجعلوا عاليها سافلها وبدلوا السكون حركة والهـدوء اضطراباً ، كما حصل منهم فى الأيام الخالية فقد صادموا الممالك المتمدنة فخفضوا من مجدها ما ارتفع، ونكسوا أعلام حضارتها وتمدنها وهذا أمر لا تنكره أوروبا إن سبب سقوط الامبراطورية الرومانية هو هجوم الجرمانيين وغيرهم عليها . . . فاذا افترضنا ان هذا الحاجز ضعفت قواه أو زال من أصله (لا أرانا الله ذلك) فان أوروبا لا تشعر إلا والصقالبة قد فاجأوها بغتة وكذروا من كؤوس السلم ماصفا . . " (١) .

ومكانة الدولة العلية الكبيرة إنما تتبع كما يراها بعض الكتاب (٢) من السياسة التى اختطتها هذه الدولة لنفسها من بين الدول ، كما أن حسن سياسة القائمين بتدبير أمرها على كسب كل ما ينفعها ويعلى شأنها وعلى رأسهم أمير المؤمنين الذى حمى الدولة والدين حتى مالت قلوب الرعية إليه، وانقادت لأوامره السياسية مما كان أكبر عون لأن تنال الدولة مكانتها المرموقة العلية .

وعندما أطلت النزعات العرقية فى أواخر أيام الدولة العثمانية ظهر

(١) البرهان - العدد السابق نفسه .

(٢) انظر : المؤيد (عدد ١١٢) ٢ شعبان ١٣٠٧ - ٥ ابريل ١٨٩٠ م مقال الدولة العلية ومركزها السياسى .

من يطعن في العثمانيين عموماً ويتهمهم بعدد من النقائص والمآخذ ، ويدل على معائبهم وسوء حكمهم وسياستهم ، لم يُرق مثل هذا التعميم الجائر الكتاب المنصفين الذين سبروا حقيقة تاريخ العثمانيين وما أسدوه من أياد بيضاء للإسلام ، وكان شكيب أرسلان (١) من أشهر من تصدى لتلك الكتابات المغرضة لكرامة الدولة العثمانية التي يجب أن يُعرف لها فضلها الكبير على الأمة ، أمّا العلل التي كانت تهوى بالأمة التركية - آنذاك - الى الزوال فانه يرشد الى أن علتها تنبع من سياسة الحكام الأتراك الجدد، وهم الاتحاديون والكماليون .

ولا يرضى شكيب أرسلان قولاً يذكّر الأمة التركية بسوء في أى وقت من الأوقات لأن الحق والعدل يقتضى ألا تؤخذ الأمة التركية بأعمال حكومتها المتأخرة الطائشة ، ذلك أن الأمة التركية تنكر من أعمال هذه الحكومة أكثر مما ينكره غيرهم عليها ، وأما من تقدم من العثمانيين فهو يشيد بجهودهم فى نشر الاسلام وخدمته ويذكر عدداً من علماء الأتراك المسلمين فى التاريخ، اضافة الى العديد من جهود العثمانيين السامقة كانشاء المدارس والمساجد وغيرها (٢) .

ويكاد يشبه ولي الدين يكن (٣) أمير البيان فى ولائه للعثمانيين والحفاظ على سمعتهم وحسن ذكرهم ، فعندما كان بمصر ورأى بعض الجرائد الانكليزية والعربية تتحامل على العنصر التركى وتنزّهه بأطراف من القول ، وهو آنئذ يكره السلطان العثماني وينقم على حكومته التى كان يراها سيئة فى سياستها وحكمها ، لكنه مع ذلك انبرى يدافع عن العثمانيين غير آبه بالأحرار اللاجئين الى مصر خوفاً وكرهاً من السلطان العثماني حتى قال فى حمية وطنية عارمة (٤) : " لوطني منى حياتي وكل ما كان دونها على أن أعيش عثمانياً

(١) انظر فصل : الكتاب المؤيد للوحدة الاسلامية من هذا البحث ص ٢٨٤

(٢) انظر : مجلة الفتح - عدد ١٥ ذوالحجة . ١٣٥ - مقال : لا نرضى أن تقال كلمة سوء بحق الأتراك .

(٣) ولي الدين بن حسن يكن (١٢٩٠ - ١٣٣٩) كاتب وشاعر مجيد من أصل تركى جاء أبوه الى مصر وعاش حياته بها ، مال إلى الأدب والصحافة ، مكث بها وزار الأستانة ١٣١٦ هـ ونفاه السلطان عبد الحميد إلى سيواس وبقي بها حتى أعلن الدستور فعاد إلى مصر الى أن مات بها .

أنظر : المقتطف ٣٧٥ / ٥٨ ، الأعلام ١١٨ / ٨ .

(٤) المعلوم والمجهول - ولي الدين يكن ١٣٩٤ / ١٠٧ / ١ .

وأُمرت عثمانياً .

وإذا كان ماسبق ينطلق من مبدأ المحافظة على الدولة العلية فثمت من يرصد تحركات من يخططون للخروج عليها من بعض أتباعها ، ومن هؤلاء الشيخ عبد العزيز جاویش^(١) الذى يتوجس من بعض التحركات العربية ممن يريدون اخراج العرب عن حوزة العثمانيين ، والذين اتخذوا لذلك وسيلة أطلقوا عليها (مشروع التبشير الاسلامى) ، وإذا كانت الدوافع لأرباب المشروع هى المطامع والشهوات لأنهم حُرِموا من مناصب الدولة العلية - كما يرى الكاتب - فإنه ينبئهم إلى عظيم جرمهم وكبر ما يقتربون من سوء ، إنما يطعنون الإسلام وما يعلمون الدولة التى يكيدونها ناسين أو متجاهلين " أن منارها منار الإسلام القائم ، وذمارها ذماره المهيب ، وحرمة حرمة الممنوع وعلمها علمه المرفوع ، زين لهم أمثالهم من الرجعيين الذين لا وازع لهم من وجدان أو دين أن يسعوا إلى تمزيق شمل الجامعة العثمانية كل مُمزق ، ويتراموا في أحضان الذين لا يريدون بدولة الخلافة الاسلامية خيراً انتقاماً لأنفسهم مما نالهم من الفشل ، ولو علموا أنهم بذلك يحاربون الله ورسوله لما نقلوا لتحقيق مآربهم قدماً ولا أجروا فيه قلماً" (٢) .

أمّا صفة هؤلاء القوم وطريقة مشروعهم فإنها جلية واضحة ، بل هى فتنة وضلالة يجدّون فيها ، "أراد أولئك النفروهم خارجي ورجعي ودعيّ أن يكيدوا للدولة خلف ستار مشروع قُبْح باطنه بقدر ما حسن ظاهره ، وهو مشروع (مدرسة التبشير الاسلامى) .

مرحباً بالغيورين على الدين وهم أضّرّ عليه من أعدائه ! مرحباً بأنصار الدولة وهم ألدّ خصومها ! مرحباً بالذين أدّ نفهم الهوى بالخلافة الاسلامية وهم أعدائها المستترون !

(١) عبد العزيز بن خليل جاویش (١٢٩٣ - ١٣٤٧) كاتب وأديب من رجال الحزب الوطنى والحركة الوطنية فى مصر ، وقد كان لكتاباتة القوية ضد الاستعمار أثرها فى اضطرابه إلى الرحيل إلى الأستانة التى بقى بها إلى ما بعد الحرب الأولى ، ثم عاد إلى مصر وتوفى بها ، انظر : عبد العزيز جاویش من رواد التربية و الصحافة والاجتماع / انور الجندى / سلسلة أعلام العرب .

(٢) مجلة الهداية (عبد العزيز جاویش) السنة الثانية ١٣٢٩ / ١٩١١ م ص ٤٦ - ٥١ مقال : مدرسة التبشير الاسلامى ، وانظر مثله مقال آخر حول خروج محمد على باشا على الدولة العثمانية لرشيد رضا : المنار مجلد ٥ ص ١٥٩ .

لبس أولئك الجماعة لمشروعهم لبوسه ، وظهروا فى مظهرهم يغارون على الاسلام ويعنيهم ألا تقوم للفتنة قائمة ، والله يعلم ونفوسهم عليهم تشهد أنهم دُعاة فرقة وفتنة وضلال " .

واذ تبين أمر القوم وهو سعيهم لإثارة القلوب على دولة الخلافة والتعاون مع الانجليز لتحقيق حلمهم بخلافة عربية ، فلا غرو أن يُحذّر الكاتب الأمة تضليلهم الذى اتخذه .

أمّا دعوة أرباب المشروع للعودة الى الحق والتفكير فى سوء عاقبة ما يذهبون إليه والتحذير من التعاون مع خصوم الملة والدولة الذين يسرهم هذا المشروع فلا غرو أن يبذل لهم الكاتب النصائح ويخاطبون بما يثير مشاعرهم الدينية حتى لا يُصيروا على ما فعلوا وهم يعلمون .

واذا كانت مثل هذه المحاولات للخروج على الدولة مما يقودها إلى الاضمحلال كما هو معلوم فلا ريب أن قيادات الدولة وولاة الأمر عندما لا يحسنون القيام على هذه القيادة وتسوء تصرفاتهم أو تضعف حنكتهم وحكمتهم سيكونون وبالأعلى على الدولة ، وقد ينال الدولة بسببهم من وخيم العواقب ما يعجز عن الحاقه بها أعداؤها المتربصون ، وخير مثال على ذلك أن تسمع ما قاله ولي الدين يكن فى كلام حاد وألفاظ تتقد ناراً وهو يلاحظ الضعف والفساد ينهشان الأمة العثمانية نهشاً عنيفاً ، وكان ذلك بسبب قيادة الاتحاديين الكليّة ، إذ أوردوها موارد الهلاك وزجّوا بها فى هاوية مالها من قرار . لقد هال الكاتب حالُ السوء الذى حاق بأمتة ، كيف لا وهو العثماني الصميم ، فانفجر يسجل ذلك فى مقال يلهب النفوس ويستثير المشاعر جعل وسمه (ما يمنع القلوب أن تطير من الصدور) (١) ، وما ذاك إلا لما بلغ منه الخوف على مصير أمتة العثمانية .

بدأ كلامه بعرض الاضطراب الذى ألحقه بالبلاد بنوها دون سواهم ، وهذا الخلل فاشٍ ومتسع ، " فى أعشاش القرى ومنازل المدن أصوات تتجاوب بالعويل ، وعلى السُرر المتقابلة أجساد أُستخلصت من الموت أو كادت ، التفت حولها العوادم ، وبين هذه القيامة دولة كظل الجام (٢) على المائدة ، لا يراه إلا المثبت . تستجمع قواها لتصول صولة واحدة إما إلى حياة تستمر فيها المغالبة

(١) التجاريب - ولي الدين يكن ٣٦-٣٠٣ .

(٢) الجام : كلمة فارسية معناها الكأس .

واما الى موت تستكنّ فيه الآمال . هذا هو المشهد الذى تتجلّى من مشاهدته
دول أوروبا بنات التمدين عرائس القرن العشرين .

... سليله السبعة الأعصر محتضرة ، وإنّا نراها مختلجة على مرقد ها
لن يضير زوالها إلا العثمانيين ، هم وحدهم أولى الناس بالوجل والجزع . إن
تستتم أنفاسها تقض بسنن الماضيات من الدول ، غير أن ذاك الاسم الكبير
اسم العثمانية ، يبقى خالدًا مشرقًا فى أوله مظلمًا فى آخره ، ويشهد الله
والناس أنه لم تمحه أكف الأعداء بل أكف بنيه . و أنه لم يضعه إفراط الأعداء فى
هجومهم ، بل تفريط الأبناء فى حذرهم .

أمّا الاتحاديون المفرطون الذين لاشأن لهم وقد اتخذتهم الأمة
أوصياء عليها بعد ماتنادوا بالحرية فهاهم ينهبون الأمة ويعطونها المواعيد
التي هى أبعد شىء عن الوفاء ، ها هى صفاتهم وأعمالهم ، لقد أذلّوا الأمة
وضيّعوها " أية أمة تطيق هذا الذل ، خمسة أعوام (١) طوال مضت وأعنت الأمور
بأيدي أناس لا ندري من أين طلّعو . فيهم الجاني والمستبد ، والمتعصب
والسارق والمُتمسّك ، أوزاع وأعناق لا تكوّن سرابًا ولا إقطاعًا ، فكيف تكوّن بناء
مملكه يُراد أن يعاد بناؤها .

تخاطفوا ما ادّخره عبد الحميد ، وتناهبوا ما علّق بأركان الخزان
الفارغة وأنزلوا الويل على رؤوس الأمة حتى استغاثت بالأغيار ، وأوقعوا فى
الناصحين تقتيلًا وتعذيبًا ، وضالوا على أهل الرأي يستخرجونهم من وظائفهم ،
ثم قرطوا سلك الممالك ، فتهاتت مقتابعة من طرابلس الغرب إلى البلقان ، وجاءوا
فى أواخر الدولة ليحرموها الموت فى دعة . أربعون مليونًا وأكثر من أربعين
مليونًا ذهبًا عينا ، لو اشترت الحكومة العثمانية بهذا المال حجارة ترصف
بعضها فوق بعض لحالت دون إيغال المتغلبين فى أرضها .

أين ذهب هذا المال ، وأين بات ذلك الجيش الذى قالوا إنه فى مقدمة
جيوش العالم ، أمّا الجيش الذى كان الأمل فيه أن يُحافظ على الدولة فما
أبعد تصرفاته عن صونها ، لقد ساءت القيادات وكان منظم الجيش يقبع فى
بيته والقائد على فراشه الوثير والناظر لم يبدُ للأعين والقواد والجنود بين موت

(١) يريد الخمس سنوات الأولى التى بدأ فيها حكم الاتحاديين من ١٩٠٩
الى ١٩١٣ م .

وأسر وجروح داميات ، ذلك فضلاً عن تناقص أعداد أفراد الجيوش ، وكأن الأمة لا تعد بالملايين " .

واذ يصل ولى الدين يكن الى هنا فى هذا الوصف الرائع والساخر من هذه الحكومة الخائنة المتهالكة ، يذكر فى سخرية مرة خاتمة هذه الخيانة بالأمة والتأويل الذى يعتذر به الاتحاديون فى تبرير ضياع الممالك والأوطان والأمة ، وهم يسترون جرائمهم باسم الغيرة على الوطن الذى قتلوه وأنهم حماة الساهرون عليه .

" الدولة والأمة تنضخان دمًا وتتقدان ألمًا .

نموت كرامًا أو نعيش كرامًا . ما أجمل الكلام لو قاله غير قائله . وكم من كلام حق يراد به الباطل ، ولا يحتاج الخادع لخدع الأمة إلى أكثر من هذا ، غير أننا واحسرتاه نعيش أذلاء ونموت غدًا أذلاء . وتبقى تلك الأموال المختلسة من خزائن الدولة ينفقها مختلسوها فى سبيل لذاتهم ، لا يحيون الدولة الزائلة بقطرة من دم . مافات مات . وقد قال كثير عزة :

فقلت لها ياعز كل مصيبة . . اذا وطئت يومًا لها النفس ذلت

الآن لما كادت الحرب تطوى شررتها ويدعى الى التقاضى قاتل الأمة وناهبها . يأتى الجانون وأيديهم تقطر دمًا ، وأكياسهم تتفجر ذهبًا يستعيدون المخادعة ليستروا تلك الآثام ثم ينادون بيننا باسم الوطن الذى قتلوه ، ونصدق نحن ما يقولون . إننا اذاً أبعد الناس عن الصواب كلا إن اسم الوطن أرفع من أن تتماضغه تلك الأفواه ، نخشى عليه من حر تلك الأنفاس التى تنفخ فيه بسموم المطامع . على الأمة أن تنظر فى أمرها . لا بد لهذا العيب الثقيل أن يوضع ، فى ساعة الموت نروع بهذه الوجوه . ما يمنع القلوب أن تطير من الصدور " .

والدعوات التى كانت تظهر الولاء للدولة العثمانية وتحث على الالتزام بها والارتباط معها على أى صورة من صور الترابط والاتحاد ، سواء كان فى طاعة سلطانها وولاتها أو مؤازرتها ، وموافقتها فى السياسة الدولية ، أو التعاون معها على من يعتدى عليها ، كل ذلك يُعدّ من صور المحافظة على الدولة العثمانية ، وهذا الولاء فيما يبدو وكثر ظهوره والحديث عنه فى أواخر العهد العثمانى عند

الكتاب كلما استجد مع الأيام مناسبة لظهاره كالأعياد وسواها .

واذا تابع المرء افتتاحيات الصحف والمجلات فى أعدادها الأولى وفى بداية كل عام هجرى يرى كثيراً من ذلك ، ولا ريب أن مصر كانت فى هذا الجانب تفوق غيرها من بلاد العرب نظراً لوقوعها تحت ضغط الاستعمار الانجليزى فضلاً عن انتشار الصحافة بها ، مما أتاح لتلك المشاعر أن تظهر للمتأملين .

هذه مجلة الموسوعات تعرض صورة من صور الولاء للدولة العلية ، إنه متابعة مايكتبه الغرب عن الإسلام وأهله والدولة العلية ومصيرها وما يبيتونه لها . واذ تعجب المجلة من كثرة كتاب الغرب عن الشرق والإسلام بينمّا أهمل المسلمون الغرب ومتابعة أحواله والكتابة عنه مع أنه يتحالف ضدهم ويدرس ويخطط لهم ، وأرباب الفكر من المسلمين مع أمرائهم لا ينظرون إلى ذلك ! أمّا حين تريد المجلة عرض جهدها فى هذا الأمر الخطير فتقول (١) : " إننى مولع بكل مايتعلق بالدولة العلية التى هى سند الإسلام وعضده ، ومركز القوة المحمدية ومحط الآمال الإسلامية ، وقد اطلعت كل ماكتبه كتاب المسيحية عنها وعن مستقبلها ، ولا حظت أن آراءهم وأحكامهم مشوبة بالعداوة والبغضاء ، فلا نجد منهم الا نذيراً بقرب زوال الدولة التركية - حماها الله - وسقوط السلطه السياسية للإسلام ، ولا تقرأ فى كتاباتهم إلا اندارات صريحة لمُلك آل عثمان . وقد كان كتاب النمسا فى صدر كتّاب المسيحية وساستها أعداء الإسلام .

ومن يراجع المراسلات السياسية التى كانت تتبادل بين مديرى السياسة النمساويه وعمالها فى الخارج من قرن مضى يرى أن زوال الدولة العلية كان عندهم من الأمور المقررة والقواعد الثابتة التى لا يصح للعاقل أن يشك فيها ولا يجوز للفظن أن يرتاب فى أمرها " .

أمّا الوسيلة التى عمدوا اليها لتحقيق نواياهم فقد " أسسوا مبدأ الجنسيات فى إيلات البلقان ، وأرسلوا رسل السوء والفساد الى البلغاريين والصربيين والرومانيين ليسمعوهم أن كل جنس مخلوق لأن يكون أمة مستقلة وأن بقاء هذه العناصر المختلفة تحت سلطة الأتراك مظلمة هائلة ، ولم يدر

(١) مجلة الموسوعات - عدد ١٥ - غرة صفر ١٣١٧ / ٩ يونيو ١٨٩٩م الجزء ٢ - مقال : التنازع بين البقاء والفناء .

ساسة النمسا أن يد الله فوق أيديهم وأن هذه السياسة وإن كانت وخيمة العواقب على تركيا فإنها أشد وخامة على النمسا نفسها . . .

أمّا عندما تصل المجلة الى هذه الحقيقة فإنها تدعو المسلمين للاجتماع حول راية دولتهم وخلافتهم التي يخطط الأوروبيون لتمزيقها وفنائها .

والحزب الوطني في مصر يؤيد السياسة العثمانية ويحرص على رابطتها ، ويرى أن مصلحة مصر السياسية في الارتباط بالدولة العلية ، واذ أفصح رئيس الحزب (مصطفى كامل) عن هذه العلاقة الضرورية الحميمة في كثير من أقواله وكتبه ، فحسبنا أن نعرض قوله وهو بصدد الحديث عن عداوة إنجلترا . للدولة العثمانية حيث قال (١) : " واجب العثمانيين والمسلمين أمام عداوة إنجلترا للدولة العلية لا ينكره الا الخونة والخوارج والدخلاء ، فواجب العثمانيين أن يجتمعوا جميعاً حول راية السلطنة السنية ، وأن يُدافعوا عن مُلك بلادهم بكل قواهم ، ولو تفانى الكثير منهم في هذا الغرض الشريف حتى يعيشوا أبداً الدهر سادة لا عبيد .

واجب المسلمين أن يلتفوا أجمعين حول راية الخلافة المقدسة وأن يعززوها بالأموال والأرواح ، ففي حفظها حفظ كرامتهم وشرفهم ، وفي بقائها مجدها ورفعته رفعة العقيدة الاسلامية " .

والشيخ محمد عبده ترك مقولة مشهورة في الدعوة للالتفاف والتكاتف مع دولة الخلافة ، وذلك أبان نفيه إلى بيروت بعد حوادث الثورة العربية حيث قال (٢) : " ان المحافظة على الدولة العثمانية الثالثة العقائد بعد الايمان بالله ورساله ، فإنها الحافظة لسلطان الدين . . .

وكان يرى في سلامتها حفظاً للمسلمين باعتبارها زعيمة للعالم الاسلامي والتي تقف لصد اعتداءات المستعمرين .

ومن صور المحافظة الذكية على هذه الدولة قبل والعظيمة في اظهرار الولاء لها تدوين تاريخها الذي يُذكر بمجدها وسوء دها ، وهذا اللون يمثلها

(١) المسألة الشرقية ٢٣ .

(٢) الأعمال الكاملة للشيخ محمد عبده ١١٣/١ وانظر ص ١٠٩ .

(تاريخ الدولة العلية العثمانية) الذى ألفه محمد فريد (١) خدمة للدولة وتنويعاً بفضلها ، وهو يفصح عن هذه الحقيقة عندما قال (٢) : "على أن الملك العثمانى قد لم من شعث الولايات الاسلامية ، وقطع من تقاطعها مارداً على السيطرة الاسلامية كل السيطرة الشرقية . على أثر ذلك قامت قيامة التعصب الدينى فى الممالك الأوروبية واتفقت على اختلافها وتوحدت على تعددها ، وانسابت على الملك العثمانى فأخذت تحاربه مثنى وثلاث ورباع لتقويض عرشه ورده إلى مهده الأول ، فحال عزمه بينه وبين ما يشتهون . . . فلما كانت هذه الدولة قد وقفت نفسها للذب عن حرية الشرق والذود عن حوضها ، ولما كانت هى الحامية لبيضة الدين الإسلامى فى زمان طويل . . . رأيت من الواجب خدمة للحقيقة ونفعاً لأبناء البلاد أن أدون هذا التاريخ متحريراً فيه صدق الأخبار عن صحيح الروايات " .

بكل هذه المعالم المتعددة التى تدعو إلى حفظ الدولة العثمانية وكثير مما يشابهها كالدعاء للسلطان أو للدولة والتى تتم علاوة على الحرص والرغبة فى بقاء هذه الدولة عن التنبيه والحذر الذى أخذ ينتاب الأمة الاسلامية يومئذ من مكائد الاستعمار وتسلمته على بلاد المسلمين ، اتجه الكتاب والمفكرون إلى إحياء الأمل فى النفوس ، وكدون للأمة القوة والحماية فى دولتهم العظيمة ، فحفظها والوقوف لما زرتها هو الملاذ الذى يصح أن تنهد الأمة الإسلامية لاعلائه ، ومن ثم يتحقق لهم وجودهم وعزهم ولا يستخفهم الأعداء المتربصون .

ج (الحث على الوحدة ونهذ التفريق :

أمر مألوف أن يرد فى هذا البحث عرض لبعض الكتابات التى سطرت فى الدعوة إلى الوحدة الاسلامية بأى فهم يقصده الكتاب بها ، غير أن الدعوة

(١) محمد فريد (١٢٨٤ - ١٣٣٨) من رجال الحزب الوطنى فى مصر وسياسيها المخلصين ، كان مع مصطفى كامل فى الدفاع عن مصر ولما توفى عين رئيساً للحزب ١٩٠٨ م ونفى ١٩١٢ م واستمر فى سياحات كثيرة يدافع فيها عن قضية بلاده حتى مات ببرلين ، أنظر : محمد فريد رمز التضحية والاخلاص - عبد الرحمن الرافعى - أحد أجزاء (تاريخ الحركة القومية فى مصر) .

(٢) تاريخ الدولة العلية العثمانية - محمد فريد - ٤ ، ٥

الى الوحدة قد ظهرت بوادر لها فى جملة من الكتابات السابقة التى مرّت بنا فى هذا الفصل ، ولأن هذه الوحدة محور هذا البحث فانها ستأتى أيضاً وتلوح لنا بصورة مباشرة أو غير مباشرة فيما سيعرض من جوانب البحث التالية بحول الله . لذا فالمرجح هنا الايجاز قدر الامكان على ما يظهر لي تجنباً للاطالة والتكرار .

واذا كانت الدعوة إلى الوحدة الإسلامية قد اتخذت بعد سقوط الدولة العثمانية صوراً مختلفة كالدعوة لحياء الخلافة أو الوحدة العربية ، فانها قد ارتبطت فى جملتها بالدولة العثمانية فى عهد السلطان عبد الحميد على وجه الخصوص ، وقد استمر أيضاً بعد خلعه - وان اعتراه الضعف - إلى الغاء الخلافة الإسلامية .

بلغت هذه الدعوة المرتبطة بالدولة العثمانية فى عهد السلطان عبد الحميد شأواً عظيماً لتبنيه السياسة الإسلامية بصفة عامة وتشبثه بالجامعة الإسلامية بصفة خاصة كما مر بنا ، ولا أدل على ذلك أن نجد كثيراً من الكُتّاب والصحف والمجلات تتخذ من الدعوة الى هذه الوحدة جزءاً من برنامجها أو خطتها التى ستسير عليها ، والناظر فى الأعداد الأولى من المنار ، والهلل والمقتبس وعشرات من الدوريات غيرها يتحقق له ذلك ، بل إن الأمر تعدى الى الصحافة التى لا تحمل ميولاً عثمانية حتى يسمح لها بالدخول فى البلاد العثمانية أو يتلبسوا بذلك حتى لا تظهر نواياهم الأخرى التى يقصدون إليها كما نرى فى المقتطف وسركيس .

فجريدة التقدم فى بيروت مثلاً تكتب مبينة مسلكها الذى تجرى فيه وان كان مسلماً سياسياً ، حيث تشايح الوحدة العثمانية وتوازرها كما تقول^(١) : " فمقصدنا السياسى تأييد الوحدة العثمانية من طريق التأليف بين قلوب العثمانيين ، والمدافعة عن مصالحهم من غير مبالاة باختلاف أحوالهم وما يعتقدون ، ولنا على ذلك حجة بالغة ، وعلى منفعتة دليل صريح " .

أمّا لماذا اختارت هذا الاتجاه ، وما فائدته التى تراها نتيجة هذا التوجه ؟ فهو أن " الوحدة العثمانية واجبة لأنه لا بد للأمة المختلفة الأصول

(١) الدّر - أديب اسحاق ٣٧١ - وانظر أيضاً منهج جريدة (مصر) التى أنشأها أديب اسحاق فى المرجع نفسه ١٠٧ - ١٠٨ .

من وحدة تجتمع الكلمة عليها ، ورابطة تؤلف بين القلوب ، ومركز تنتهى إليه خطوط القوى .

وليس للأمة الداخلة تحت النسبة العثمانية من جامعة ممكنة غير تلك الوحدة المذكورة ، فانها موجوده والموجود لا يُترك للمفقود ، ثم إنها متصلة الحاضر المنظور بتاريخ قديم مذكور وهى صفة لا بد منها ولا غنى عنها فى قيام الدول .

وهذه الوحدة نافعة لما يلزم عنها من بقاء الاستقلال ، والاستقلال حياة الأمم ، ولأنها اذا خلصت على الوجه الذى نتصوره من الصفاء والسواء كانت سبباً قريباً فى زوال الإحسان والعداوات ، وتآلف بين القلوب والأفكار فيقوى بها جانب الدولة ، ولا قوة لها من غير هذا الباب .

واذا اتجهت إلى الكتابات النثرية المتفرقة التى ينهج أهلها الدعوة الى الوحدة مطلباً فهى كثير ، وبكل عصر ومصر ، وفى الجزائر بشمال افريقيا نجد أحد كتابها يهيمن عليه الاهتمام بجمع المسلمين ووحدهم حتى أطلق عليه بعض الدارسين (١) (رائد الدعوة الى التضامن الاسلامى) أى فى الجزائر ، الا وهو عمر بن قُدّور الجزائرى (٢) .

أمّا خلاصة تصوّره لهذا التضامن فقد كانت حال المسلمين الممزقة من أعظم باعث على ذلك ، حيث " إن كل مسلم فى هذا الوقت ليس بمسلم حقيقة . بل هو تركي ، أو عربي ، أو بربرى ، بحسب العناصر ، أو مغربي أو جزائري أو تونسي أو سوري أو مصري ، بحسب الأوطان ، ذلك التنافر أحدثه انحلال الرابطة الاسلامية التى كانت تربط كل مسلم بأخيه ، وان كان احدهما بأقصى الشرق والآخر بأقصى الغرب . . . " (٣)

وبعد أن بين أن سبب ما أصاب الأمة انما هو عبارة عن نسيان لأهمية

(١) انظر : مجلة الأصالة (الجزائر) عدد ٥٨ - ٩ رجب وشعبان ١٣٩٨ -

يوليه ١٩٧٨ م - مقال : رائد الدعوة الى التضامن الاسلامى عمر بن قُدّور الجزائرى - د . محمد ناصر ، وكانت كتابات ابن قُدّور فى مجلة كان يصدرها بالجزائر ١٩١٣ م اسمها (الفاروق) .

(٢) انظر : فصل الكتاب المؤيد للوحدة الاسلامية . ص ٣١٨ .

(٣) مجلة الأصالة (الهامش (١) نفسه ص ٥٥ - ٥٧ .

نفوسهم نتيجة ما أحاط بهم من هول الجهل وتسلط الأجنبي ، يبين دواء المسلمين وأنه فى إصلاح حالتهم الروحية وتنظيم هيئاتهم الاجتماعية ، ثم يدعو إلى ضرورة الوحدة الاسلامية ، ألا وهى أخوة المسلمين قبل كل شىء " تلك الرابطة هى قوة روحية اذا تمكنت من ضمير المرء تجعله يَجَنُّ إلى أخيه حنوًّا (١) لا يرى به عند أخيه عيباً ينكره عليه ، أو شذوذاً يخذله بسببه .

رابطة حث عليها الاسلام قبل أن يحث على الصلاة والصيام ، فأصبح بها أهلوها المعتنون بتنميتها متضافرين ، وقلوبهم صخور مرصوفة إلى بعضها يتألف منها سور ضخ لا تهزّه زوابع الشقاق ولا تمسه أمواج التخاذل .

واذا كان ضعف الحياة الروحية وذبول المسلمين عن أنفسهم مما فتح باب الفرقة بين المسلمين فان مصطفى كامل يرى بنظره البعيد أموراً أخرى أضعفت الوحدة الاسلامية ، فهو يرى عدم توحيد الدين فى الدولة العثمانية وأخذها بالحرية الدينية للشعوب التى تحكمها قد أوقعها فى كثير من الشدائد والأهوال ، أضاعت من أجلها ثمرات فتوحاتها وانتصاراتها الباهرة ، وفوق ذلك فإن مدارس التبشير التى تعجّ بها حواضر الدولة كلها ترمي الى بذر عداوة المسلمين فى قلوب أبناء الملل الأخرى .

واذ يؤكد هذه الحقيقة بنقل أقوال كاتب انجليزى كتب عن (أمريكا فى الأستانة) (٢) إذ " انّ كلية (روبرتس) هى التى أعدت لبلغاريا كبار ثوارها وهى التى ربّت أبناءها على كراهية المسلمين وعرفتهم أساليب الخروج عليهم وأفهمتهم حقوق الصليب وواجباته ضد الهلال " .

فاذا كانت أمريكا تعمل ذلك - وهى أبعد الدول - فلا شك أن غيرها يبذل أضعاف ذلك ، ومن هنا يدعو مصطفى كامل إلى بعض وسائل يراها تُعَدّ مهمة فى تحقيق الوحدة للأمة ، ومن ذلك انشاء مدارس تُربّى فيها ناشئتها وتجلب ناشئة المسيحيين إليها حتى تربيتهم تربية عثمانية ، ولا يكون ذلك إلا اذا كان التعليم بلغتها ، فان نشر اللغة من أنفع الوسائل فى تحقيق أهداف الدولة

(١) حنّ مصدرها حنينا ، وحنام مصدرها حنو ، وقد استعمل الكاتب مصد رحنا مكان مصدر حنّ .

(٢) اللواء ٧ أكتوبر ١٩٠٣ م نقلاً عن : أدب المقالة الصحفية فى مصره / ٢٢١

كما يرى أن على الخلافة أن تجدد في جمع المسلمين ، ولا يتحقق لها ذلك إلا بجعل لغة القرآن في مدارس الدولة أسوة باللغة التركية كما تفعل دول أوروبا .

وبذا يندفع عن المسلمين الاغتراب الذي يحسه المسلم من غير الأتراك عندما يقدم إلى دار الخلافة ، فضلاً عن تلقين الناشئين حقائق الاسلام وأمجاده تاريخ أمتهم ، ومن هنا لا يُضَيَّرُ الأمة العثمانية من يرميهم بالتعصب ان فعلوا ذلك ، "بهذا - لا بسواه - تبلغ الدولة غايتها ، وتحارب أعداءها بالسلاح الذي حاربوها به السنين والأجيال ، وتحقق رغائب المسلمين في الحال والاستقبال ، ولعمري إن الساعة الحاضرة في تاريخ الاسلام ودولة آل عثمان لساعة إنذار وإخطار ، والأمل وطيد في أن القائمين بأمر الدولة يسمعون صوت الزمان والمكان ، ويعدّون للمستقبل ما أهمله السالفون للحال ، ويدركون أن مسألة التربية وتأثيرها على حياة الأم هي أهم الوسائل التي يجب عليهم النظر فيها .

ولنه اذا كانت فرنسا وانجلترا اهتمتا به مرة يتحتم عليهم الاهتمام به ألف مرة ، لكي نبرأ من ذلك الداء العضال ، ويحيى بيننا عصر الآمال والأعمال^(١)"

لا ريب أن تكون قيادات المسلمين وحكوماتهم المتعددة أعظم من يُسأل عن وحدة المسلمين وتعاون شعوبهم ضد ما تدبره الأمم الأخرى لهم من كيد ومكر ، أمّا حين تتقطع السبل بهذه الحكومات والقيادات فلا تعدم أن تجد كاتباً يدعوها إلى التعاون الإسلامي بين العرب وإخوانهم المسلمين^(٢) .

وينهد كاتب آخر ينعى على الأمة الإسلامية قياداتها الرخوة وسياساتها المستكينة وأراداتها المعطلة ، وإذا يخص الكاتب مصر - لوضوح الخلل بها - يذكر بنشاطها السياسي في الشرق ، إنها مع جاراتها في تدابر وخاصة في التمثيل السياسي ، وهو أقل ما تفرضه الروابط الدينية والتاريخية والجنسية من تواصل ومجاملة ، والعجب أن مصر تسخو على تمثيلها في الخارج - آنذاك - وتكاد تنكره في الشرق الاسلامي ، ولقد أدى ذلك إلى عدم إرسال سفراء لتلك الدول في مصر ، وماذا بعد هذا ؟

(١) أدب المقالة الصحفية في مصر ٢٢٤ / ٥ .

(٢) انظر : مقال : التعاون الاسلامي - كتبه حامد صادق - جريدة ام القرى

(مكة) عدد ٦٥٣ سنة ١٣٥٦ / ١٩٣٧ م .

ان الاستعمار يترى بالعالم الاسلامى ليفترسه ، وهو ان لم يكن متعاوناً ومتحداً وقع فى فخه وناله الهوان والخسران (١) .

ان الذى ينبغي ألا يغيب عن أذهاننا فى هذه الوحدة التى يدور القلم حولها أن نعلم أن وحدة الأمة الاسلامية فى أواخر العهد العثمانى تعرضت لهزات عنيفة ترجع فى جملتها الى سوء سياسة الاتحاديين ، ومن جملة تلك السياسة الخرقاء تبنيهم تحريك الشعوب الإسلامية وفرض اللغة التركية فى الولايات العربية ، إلى جانب الأحداث السياسية المؤلمة التى ذهبت بأجزاء من بلاد المسلمين فى فترة حكمهم ، وأنئذ بدأ التناوش بين العرب والترك ، فحميت العنصرية وتعالى العصبية الجاهلية بين القوم ، وقد اضطر ذلك الكتاب المخلص لرأب هذا الصدع واغلاق بابيه وشل عقاربه ، فذا الشيخ مصطفى الغلاييني (٢) من بيروت يتصدى لهذه الزوبعة الهوجاء مراراً ، ليجعل من الأمتين جسماً واحداً ، " إن حياة الأمم حياة أفرادها ، ولا قيام لأمة إلا متى كانت أفرادها متضامنة متكافلة ، حيث يشعر كل فرد بما يشعر به الآخر ، يألّم لألمه ويُسّر لسروره ، هذه هى الحياة الاجتماعية الراقية ، وتلك هى الأمة التى يُرجى لها أن تطول السماكين عزاً وشرفاً (٣) " .

ولذا يُقرر الكاتب هذا المبدأ فى حياة الأمة التى تنشد الرقي يذكر الأمة العثمانية بما كانت تعانيه من عقبات حالت دون تآزر شعوب الأمة وتضامنها ، فقد جاء الدستور ليقطع العوائق ويفتح باب الألفة والإخاء " فأى عذر تعتذرين ؟ وبأية حجة تتمسكين ؟ ماذا يمنعك من ضم أجناسك ولّم شعبتهم ، ماذا يحول بينك وبين التآليف بين عناصرهم والجمع بين متفرقهم ؟ وقد منلت الدستور الذى ساوى بين العناصر وآخى بين الشعوب فهلاً عقدت على

(١) انظر : الرسالة - السنة الثانية ١٣٥٤ / ١٩٣٥ م ج ٢ ص ١٣٨١ مقال : مصر والشرق الاسلامى - أحمد حسن الزيات .

(٢) الشيخ مصطفى بن محمد الغلاييني - كاتب وشاعر وخطيب ومن أعضاء مجمع دمشق اللغوى ، مولده ووفاته ببيروت وقضى معظم حياته فى التعليم ببيروت وغيرها وشارك العثمانيين خطيباً للجيش فى الحرب الاولى وكان آخر حياته رئيساً للمجلس الاسلامى فى بيروت وقاضياً بها ، انظر : مجلة المجمع العلمى العربى ٢٠ / ١٩٠٠ الاعلام ٢٤٤ / ٧ .

(٣) أريج الزهر - مصطفى الغلاييني ٢٢٤ ، وانظر أيضاً مقال : العرب والترك ٢١٤ - ٢١٨ .

النهوض والألفة الخناصر، وربطت على جمع الكلمة الأواصر".

وبعد أن ينبه على دعاة الفتنة وما يريدونه من سوء بالأمة يناشده أفراد الأمة وعقلاءها ألا يصغوا آذانهم لمفرقي العرب عن الترك ، فما بينهم من رابطة الدين قد وضعها الله لهم ، وذلك ما لا يستطيع بلوغه الكائدون "الأمة العثمانية جسم واحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى . وإن من يسعى بتفريق العناصر والأديان فانما يسعى لخراب المملكة واضمحلال الأمة " .

وإذا كان الغلاييني تمتزج أفكاره بالمشاعر الدينية فان ولي الدين يكن حين يتعرض لما أخذ يدب فى المجتمع من الطعن على الأتراك يتفجر وطنية ، ويثور حمية تركية لبنى قومه ، إنه لا يتعصب للدين ولا للجنس ، ولكنه يحب جميع العناصر العثمانية ويكره أن يعتدى أحد على آخر ، أما حين يُنال من قومه فانه يرد مقتدياً بالشاعر القائل :

"مهلاً بنى عمنا مهلاً موالينا . . لا تنبشوا بيننا ما كان مدفوناً
لا تطمعوا أن تهينونا ونكرمكم . . وأن نكف الأذى عنكم وتوء ذونا "

ثم يقول (١) : " شهد الله وكل عثمانى حُرِّقَ لى شيئاً أننى لا أتعصب للدين ولا للجنس . أنا تركي وأبغض عباد الله إليّ تركي يعتدى ، أحب العناصر العثمانية كلها ، وأخذ بناصر المستضعف منها . ثم أحب العرب حباً خالط الروح وجرى مجرى الدم من العروق ، وأنا عربى الأدب والقلم ، عربى النزعة ، ومن أبغض العرب فأنا مبغضه ، أولئك إخوانى الذين أغنيهم فيطربون وأحدّثهم فيقبلون علي بالسمع ، هكذا عهد العرب الكرام بأخيهم هذا غير غير أنى لا أكذبهم أنى لا أحب من لا يحب الترك ولا من يكون لهم عدواً ، وكذلك العرب لا يحبون من لا يحب إخوانهم وإذا جرى بين العرب والترك شر أكون بمعزل عن كليهما ، داعياً عليهما بالفشل جميعاً " .

بكل هذه الحالات التى تدعو الى الوحدة الاسلامية وتنبذ التفرق أو تحاول أن تدعو المسلمين إلى الالتفاف حول الخلافة العثمانية ، تتجلى لنا أهمية هذه الدعوة واسهامها فى مضمار الوحدة التى تسعى لها الأمة الاسلامية رغم ما يعترضها من عقبة كأداء .

(د) وصف دار الخلافة :

يحفل الأدب العربى الحديث بروائع كثيرة مما يمكن أن يُسمى (أدب الرحلات) والتي يراد بها تلك الصورة الأدبية الممتعة التي صوّرها وسجلها كثير من أدباء العصر عندما قاموا برحلات وأسفار إلى نواح من الأرض شتى ، وسجلوا فيها أحاسيسهم ومشاعرهم فضلاً عما يضعونه أمام القارئ من وصف بارع لما استمتعوا بروءيته من معالم وآثار وحضارة فيما مروا به من البلدان .

ومن عَجَب أن هذا اللون الأدبي الرائع لم أجد من اهتم به وخصه بالبحث والدراسة رغم كثرة الدراسات التي تناولت الأدب الحديث ، وهو فى نظرى قمين بدراسة تحييه وتجلى معالمه ، مما يضيف على أدبنا العربى روعة ومتعه بجوار ما تمنحه من ثراء وجمال ربما سدّ به ثغرة يُدفع بها اتهامه بالقصور والرتابة . والذي يبدو لى أن الإهمال الذى لحق هذا اللون الأدبي ربما يرجع الى قلة الدراسات التي تصدّت للنثر العربى الحديث اذا قيسَت بمثيلاتها فى الميدان الشعرى .

ووصف دار الخلافة هذا قد تراه فى شىء من أدب الرحلات ، كما تجده أيضاً مستقلاً عند أى كتابة أخرى ، ولكن الذى يلاحظ هو وفرة الكتابات التي طرقت هذا الوصف - كما سنرى - مما يحدو بالمرء الى الكتابة عنه بعد أن طال العهد بهذه الكتابات دون أن تنال أدنى عناية تستحقها . ومع هذا فيجد ربنا هنا أن نشير اشارة موجزة توميء الى الباعث وراء هذه الكتابات لعل فيها ما يعلمه المسلم المعاصر كم خسرت أمته بعد أن قوّضت دار خلافتها فعاشت شعوبها أوزاعاً لا جامع لها بعدها رغم كل الجهود التي تُبذل لجمع قوى الأمة من يومها إلى الآن : أن دار الخلافة على الرغم من أنها لم تأخذ مكانتها فى الأمة الاسلامية إلا لأن خليفة الأمة يُقيم فيها ويتخذها مقراً لحكومة المسلمين ، غير أن هذه لدار بمرور الزمن ومنذ العهد الأموى فى أواخر النصف الأول من القرن الأول الهجرى بدأت تتخذ طابعاً حضارياً ذا جوانب متعددة بجانب الخليفة ، أخذت فى تكاثر سكانها وكثرة عمرانها وكثرت الاحتكاك والتبادل بينها وبين مواطن التجارة من حولها ، وغدت بعد ذلك دار تجارة وحركة علمية تعجّ بالعلماء والطلاب من مختلف الجهات ، وبمرور الزمن وانفتاح زهره الحياه الدنيا على المسلمين بدأت تأخذ دار الخلافة

بالنظم المخططة لبنائها وموقعها والحرص على التنظيم والعناية بمرافق الحياة الأخرى حتى يتوفر لهذه الدار من الأمن والرفي والرخاء ، ما يضى على الحياة فيها نعمة وحبوراً ، ولا تصل إلى العهد العثمانى إلا ودار الخلافة أعظم ولاية فى الدولة الإسلامية ، وهى أيضاً أفضلها تطوراً حضارياً بجميع جوانب الحضارة من علمية واقتصادية وثقافية ، وكانت فوق ذلك ذات مكانة عسكرية لما تحويه من عساكر أو ما يُقام حولها من ثكنات عسكرية متعددة تكون فى الغالب على استعداد كلما لاح خطر أو ثارت ثائرة تعكر صفو الحياة .

إن دار الخلافة فى تاريخ المسلمين أسدت للأمة خدمات جلى فهى فضلاً عن حمايتها للإسلام باكتنائها لخليفة المسلمين هى التى حفظت كثيراً من تراث الأمة فى الغالب للأجيال المتعاقبة ، أما أفذاذ الرجال وأعلامهم الذين يزهو بأكثرهم تاريخ الأمة فيغلب عليهم أن يكونوا قاطنيها أو ممن تردد عليها ، أما جوانب الحياة المادية التى تنم عن رقى الأمة وأخذها بأسباب الحضارة والمدنية فلا يُنكر ما حفلت به أكثر دور الخلافة منها ، وعلى صفة خاصة حين يكون ثمة خلفاء وأمراء يسرفون فى تعاطي هذه الأسباب ويتباهون فيها ، وحسبنا من مآثر طليطلة واشبيلية وغرناطة فى بلاد الأندلس خير دليل فى هذا المجال .

لكل ذلك ولغيره من المعانى الأخرى غدت دار الخلافة فى ذهن الأمة هى قوة الإسلام وحضارته وسوء دده ، وهى المَعْلَمَة التى تُفاخر بها الأمة حواضر الأمم الأخرى ، ولأنها أول مكان تثار فيه أغلب أمور الدولة وتتجلى به حوادثها وأخبارها فلا غرو أن تبقى فى الأنظار مصدر إشعاع وتوجيه تُتلقى منه الأوامر والأخبار وسواها .

واذا رجعنا إلى القسطنطينية - دار الخلافة التى نريد - فقد كانت على مكانة عظيمة من الأهمية من قديم الزمان . اتخذها البيزنطيون عاصمة لهم أحقاباً عديدة ، والمسلمون غزوها فى وقت مبكر من أواخر القرن الأول (٤٤ هجرية) وتنبهوا لمكانتها العظيمة التى تتمتع بها ، وموقعها الخطير الذى تترجع عليه . ورغم جهادهم الذى كاد لا ينقطع لمحاولات فتحها إلا أن حصانة موقعها أعيتهم قروناً عديدة أن ينالوا منها . واذ جاء السلطان العثمانى الفذ محمد الفاتح ، ويجد بكل ما أوتى لفتحها يمين الله عليه بهذا الفتح

المبين سنة ٨٥٣ / ١٤٥٣ م ، وافتحها تحقّق للمسلمين ما كانوا ينتظرون من نصر الله واعزاز دينه (١) ، وتهيأ للعثمانيين بهذا الموقع الجديد ميداناً جديداً لنشر الاسلام وطريقاً للدخول إلى أوروبا التي استعصى عليها الدخول من شرقها ، ومن هذه العاصمة دوى الاسلام في بلاد لا عهد لها به ، وبلغت عزة الاسلام أن ألجمت دول أوروبا مئات السنين أن تطاول على دولة الإسلام. يقول الأمير شكيب أرسلان مبيناً أهمية تلك المدينة (٢) : " لم يملك الإسلام في الحقيقة بلدة أجلّ منها ، ولا خطة أهم موقعاً ، ولا مدينة أصلب نجعة وأما أهميتها الجغرافية والسياسية فلم تكن لبلدة أخرى في المعمورة ، واقعة بين البحرين الأبيض والأسود ، وواصله بين البرين آسيا وأوروبا ، أمامها بوغاز (خليج) ووراءها بوغاز ، من ملكها فقد تبوأ ملكاً كبيراً وكرسيّاً عالياً منيفاً ، ومن شرقيها البوسفور ومن غربيها بحر مرمرة المنتهي بمضيق الدردنيل وإذا تحصن كلّ منهما كما يجب أصبح العبور منهما في حكم المستحيل " .

والكتابات التي تطرقت لوصف القسطنطينية - دار الخلافة - وان دارت في جملتها حول هذه المدينة الا أن كلاً منها يصوّب وكده تجاه بعض المعالم أو الأجزاء الرائعة التي توجد بها وتحتويها . وما تحويه القسطنطينية من الجوامع والقصور والأبراج والحصون والمدارس والثكنات العسكرية ، وما تزخر به من مناظر خلابة وآثار تاريخية وما تحفظ متاحفها ومعارضها وخزائنها مكتباتها ومشاهدها من الكنوز والروائع والنوادر والنفائس مما لا يحتفظ به غيرها ، ولا يزهو بمثل بعضه كثير من حواضر العالم وأمّهات المدائن (٣) ، وكل ذلك مما يستحق التأمل ويثير الدهشة ويبعث على الاعجاب والاشادة بتلك المآثر الخالدة .

انظر إلى هذه الكاتبة التي تزور القسطنطينية في أوائل القرن

(١) جاء في الحديث الشريف " لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها

ولنعم الجيش ذلك الجيش " رواه السيوطي في الجامع الصغير .

وانظر في حصار المسلمين لقسطنطينية وفتحها : حاضر العالم

الاسلامى ٢١٤ / ١ وما بعدها .

(٢) حاضر العالم الاسلامى ٢١٩ / ١ .

(٣) انظر في ذكر هذه المعالم : حاضر العالم الاسلامى ٢٢١ / ١ وما

بعدها ، مجلة الهلال - جرجى زيدان مجلد ١٨ (١٩٠٩ م) مقال

الأستانة العلية - الصفحات ٣ ، ٦٧ ، ١٣١ .

الرابع عشر الهجرى (١٣١٧ م) وهى (الكسندره افرينوه) بعدما طافت بباريس قرابة شهر ، ورأت من جمال عاصمة الفرنسيين - وهى من أجمل بلاد الممالك الأوروبية - ما خالت ألا ترى بعده أعظم ولا أجمل منه ، ولكنها عندما تصوّب دار الخلافة تتغير الفكرة لديها ، وتعجب مما أخذ بلبّها فى عاصمة العثمانيين ، إنّه تقول وهى تصف حال فراقها لباريس^(١) " ولقد أقمت فى باريز مدة شهر بين مثل هذه الخدم أقضيها (تريد اداءً لحق الخدمة عليها) وبين محاسن آثار وأعمال أمتّع العين فيها ، حتى خرجت منها خروج آدم من الجنان ، وفارقتها مفارقة المتنبي لشعب بؤان ، وجدير بمن لقيت من فضليات باريز وفضلائها ما لقيت أن تُزايّلها على أسف ، ومن شهدت ذلك البلد العظيم ومعرضه الجليل أن تتركها على كهف " .

فماذا عسى أن تكون دار الخلافة بعد هذا الحزن على فراق باريس وأهلها ؟ لقد " هجرتُ باريز إلى الأستانة العلية دار الخلافة العظمى ، وانتقلت من المنزل السامى إلى المنزل الأسمى ، فكان من فارقت غير مُدّمٍ ، وكان من يَمتت خيرُ ميمٍ ، لقد رأيتُ الأستانة العلية ومارأيتُ الا مدينة المجد والسيادة وحلت القسطنطينية وما حلت الا دار السعادة ، واذا كانت الطبيعة قد كست باريز أجمل ما كوّنته يد الصانع الحاذق ، فلقد خلعت على دار السعادة أجمل ما نسجت يد العظيم الخالق . فهناك تتمتع العين بأسنى ما تجلوه الأرض من الزخارف ، وهناك تجر الطبيعة أنفَسَ ما حاكته من البرود - والمطارف ، فاذا شئت ملأت العين من جمال البوسفور بما يملأ النفس من المسرة والابتهاج ، واذا أردت وجدت الجزرَ منتشرة بين تلك الأمواه كأنها قطع الزمرد قد نشرت على أزرق الديباج ، وعلى الجملة فان محاسن الطبيعة هناك مما لا يفيد حصر ، ولقد اشتهرت تلك العاصمة بالجمال وما حُسن الأستانة بسِر " .

ومحمد توفيق البكرى - شيخ مشائخ الطرق الصوفية بمصر - قد كتب عن جملة من معالم دار الخلافة ، فهو فى وفادته إليها بعد أن يصف البحر والسفينة التى حملته إليها تجده يصف خليج البوسفور على طريقة كتاب السجع الأقدمين ومجارة لكتاب عصره مع إيغال كبير فى محسنات البديع فيقول^(٢) :
" برّ حوّ تلاعه ، خضر آكامه وأجراعه ، مُعشِبَ مَحَاجِرِهِ ، مُنبِثُ بالمياه مفاجره ،

(١) مجلة أنيس الجليس - السنة الثالث (١٣١٧ / ١٩٠٠ م) ص ٣٢٦ ، ٣٢٧

(٢) صهاريج اللؤلؤ ٢١ - ٢٣ .

يشق خليج كآته سيفٌ مسلول ، أو سجنجل مصقول ، وعلى شاطئيه قرى ودساكر ،
ورساتيق ومقاصر ، وقصور بيض على الخضراء كالنجوم فى السماء ، أو أشرعة
فلك فى ماء " (١) .

أمّا منظر هذا الخليج حين تميل الشمس للغروب وقد تسلل شعاعها
بين تلك المباني والأشجار على شاطئه وقد عكس الماء صورتها ، عندئذ تخالك
" أبصرت فى الماء قُببًا من ذهب ، وأهلةً من لُهب ، وكُثبان من زمرد ، ووديان
من زبرجد ، وجبالاً وأفياعاً ، وحصوناً وقلاعاً ، وسدراً ودُلاعاً ، وسقوفاً من جوهر
وعمداً من مرمر ، وصرحاً من قوارير وتماثيل وتساوير (٢) ، ودوراً وهوراً ، وناراً ونورا
وحللاً تطوى وتُنشر ، وسيوفاً تُغمد وتُشهر ، وأقماراً تُصاغ وتُكسر ، فكأنمّا
تقرأ فى البر قصيدة من شعر ، وتُنظر فى البحر فانوساً من سحر" .

أمّا الجزء القديم من القسطنطينية فلا يفوته تصويره على حال المدن
القديمة التى لا تنظم فيها ولا تخطيط ، مع وفرة الطرق الضيقة والأطلال الآيلة
للانهيار ، إنها تلوح " كأنها جبل ذو طول وعرض ، أو غمام مطبق على الأرض ،
وكان مآذنها أجمة من القصب والأسل ، بأعلى الجبل ، فإذا دخلتها وجدت لها
واسعة الرقعة ، جديدة البقعة ، فرأيت اختلافاً فى البقاع وتبايناً فى الأوضاع
اذ ترى القصر ذى الشرفات من سنداد ، والجوسق كأنه إرم ذات العماد ،
بينهما دوراً كنافقاء اليربوع ، أو الأطلال البالية فى اليربوع ، ويتخلل المدينة
طرق بعضها كأفاريز البساتين ، والبعض كروءوس الشياطين ، وفيها أسواق كل
سوق أضيّق من حِفاظ وأحفل من عُكاظ ، لا تزال تفهق بطُرف الهنيد ، ومُلح
فارس والسند وتُحف فرنجة والترکمان ، وأفلاذ البحرين وعمان " (٣) .

(١) حو : خضر ، التلاع : جمع تلعة : وهى مسيل الماء من أعلى الوادى
إلى أسفله . الأجرع : جمع أجرع ، وهو الرملة الطيبة المنبت . المحاجر :
الحدائق ، منبتق : متفجر . المفاجر : مواضع انفجار الماء .

(٢) الكُثبان : جمع كُثيب وهو التل من الرمل ، سُمى بذلك لأنه انكُتب ، أي
انصب فى مكان فاجتمع . الأيفاع : جمع يفع ، وهو التل ، الدّلاع : بزنة
الرّمان ضرب من مَحار البحر . الصرح : القصر أو كل بناء عال ، القوارير :
أوان من زجاج فى بياض الفضة .

(٣) الأجمة : الشجر الكثيف الملتف ، الأسل : نبات ، الرقعة : القطعة
من الأرض ومثله البقعة ، القصر ذى الشرفات من سنداد : اسم قصر
بالعذيب وقيل من منازل إياد أسفل سواد الكوفة . الجوسق : القصر =

ان الشيخ البكرى قد تعرض لجوانب أخرى من مدينة القسطنطينية وهو يتفق بعد ذلك مع الشيخ حسن العطار (١) الذى وصف منتزهات القسطنطينية وغيدها الحسان (٢)، واتفاقهما فى الفكرة لا يخرج عنه اتفاقهما على الأسلوب السجعي الذى كان له عندهما مكانة كبرى، تتفق وروح حياتهما العلمية التى درجوا عليها.

وهناك كاتب يقف قلمه على آثار الأستانة، أسوارها ومساجدها وقصور سلاطينها ومدارسها، ولا يفوته أن يمزج وصف هذه الآثار بتاريخها الذى مرّت به، ولا يهمل الآثار البيزنطية ليجلّى الآثار الاسلامية بل يعرض لهما معاً، فهو يقول (٣): " أقف اليوم على عتبة الأستانة بين آثار السلاطين العظام، وتلك الخرائب القديمة التى تمثل عظمة البيزنطيين، فأبصر من بنيانها مرأى يعجز الوصف عنه، ويقع القطع بأنه من أعجب آثار الدنيا، بل أقف (على) تلك القصور الجميلة المشرفة على البوسفور واستقرى الأماكن المشهورة بموعيت عنها من الأنبياء وأحسن ما استظرفت منها. تلك الأسوار الهائلة، وذلك المسجد الأثرى الخالد (أيا صوفيا) وكلاهما له فى التاريخ ذكر مجيد...".

وحسبك وقفه الكاتب مع تلك الأسوار التى شاهدتها بين قائممة ومندثرة، حيث تستولى عليه فكرة الحيطان المنيع فى وسط صحارٍ قفراء، إنها غارات الشعوب العديدة واتقاؤها بهذه الأسوار غائلة المعتدين، وبعد أن

الناققاء: إحدى جحرة اليربوع يكتمها ويظهر غيرهما فإذا أتى من جهة (القاصعاء) الجحرة الظاهر مدخله، ضرب الناققاء برأسه ونفق منها. الأفاريز: جمع إفريز وهو من الحائط طرفه والكلمة فارسية معربة، جحاط: محجر العين، تفهق: تملأ، الطرف: جمع طرفة، وهى الغريب المعجب والمستحسن.

(١) الشيخ حسن العطار (١١٨٠-١٢٥٠) عالم مصرى له إلمام بعلوم كثيرة وخاصة الأدب، عاش فى عصر محمد على باشا وتولى تحرير (الوقائع المصرية) وولى مشيخة الأزهر حتى وفاته. انظر: تاريخ أدب اللغة العربية لجرجى زيدان ٢٢٢/٤، الخطط التوفيقية ٤٨/٤.

(٢) انظر: انشاء العالم حسن العطار ٧٤، ٧٥، وصهاريج اللؤلؤ ٣٣، ٣٧.

(٣) مجلة رمسيس - مجلد ٢ - ج ٧ يونيو ١٩١٣ م ص ٥٥٩ - ٥٦٤ بدون اسم الكاتب.

يذكر طرفاً من جهود البيزنطيين فى إقامة هذه الأسوار المنيعة يعرج على كفاح السلطان محمد الفاتح الذى دك هذه الأسوار التى استعصت على كل من سبقوه، ويذكر بعض عجائب هذا الفتح ثم يقول عن هذه الأسوار: " فى تلك العزلة حول تلك الأسوار يتمثل الانسان تاريخ كفاح الشرق ضد الغرب، فلقد طالما ارتوى ذلك الخندق بدماء الانكشاريين وهو اليوم منبت الأعشاب الخضراء السندسية. وطالما هوجمت تلك الأسوار وغلبت وهى اليوم مسرح الجرازين والحشرات، الخرائب فى كل مكان، والأطلال فى كل صوب، هنا أحجار مكدسة وهناك رسوم مندثرة...".

وإذ أشيع نقل هذه الخرائب وإزالة حجارتها يصرخ الكاتب ويمتعض معارضاً لهذا رأى حتى لا تهتك حرمة هذه الآثار التى يجلبها الكاتب فهو يقول عنها " تلك الحصون مقدسة وليست ملكاً لأمة بل ملكاً للانسانية، وكل أمة قد تركت آثاراً هناك، وكل أمة وطئت ذلك المكان بأقدامها ظافرة أو مغلوبة فما هو إلا مدفن التاريخ وفيه من المجد ما يحول دون جعله هباءً منثوراً.

إنه بحجاراته المتقدمة أكثر حياة من تلك الحوادث التافهة التى تنقلها الينا الصحف كل يوم. وهو تحت الشمس الناشرة عليه أعلامها والباعثة فيه الحياة أثر ماض مقدس لا يدنس ولا يمس.

وأخيراً نجد محمد حسين هيكل^(١) يكتب عن دار الخلافة وقد مرّ بها فى طريقه الى باريس ويعرض ما يظهر من الأستانة لمن يدخلها من خليج البوسفور، ومع ذلك فهو يستوحى عظمة الإسلام حول تلك المدينة ويشيد بحسن المناظر التى تبهر القادم إليها وهو على مقربة من نزوله بها.

أمّا الدردنيل عنده فهو آمن وأما وجهه هادئه بعد ما كان جحيماً تستعري يوم حاول الحلفاء فى الحرب الأولى الوصول إلى دار الخلافة، فأصلاهم الأتراك فيه ناراً حامية حتى رجعوا عنه.

أمّا الأستانة فيقول الكاتب^(٢) " القسطنطينية - بل استغفر الله - أستانبول فذلك هو الاسم الذى قصره الأتراك على هذه المدينة القديمة بعد

(١) انظر: فصل : كتاب التيار المعارض من هذا البحث.

(٢) السياسة الأسبوعية - عدد ٨٢ - أول اكتوبر ١٩٢٧ م.

ظفرهم الأخير، وبعد نقلهم عاصمة ملكهم إلى أنقرة (١) .

أستانبول وماحولها هي مدخل البوسفور. مدخل هذا البوغاز (الخليج) البديع الجمال الفذ من بين ما أبدعت الطبيعة من أمثاله ، فذ بموقعة ، فذ بتاريخه ، فذ بما شهد من تطورات

أما حين تبدت مظاهر الأستانة وقد بهرت الكاتب بجمالها فيقول :
" وقفنا نحدق بظاهر المدينة القديمة العظيمة ، بظاهر العاصمة التي لم تُصبح عاصمة ، بظاهر مدينة قسطنطين التي شهدت حكم الرومان ، وبيزنطية وعظمة النصرانية ، ثم اقتحمها محمد الفاتح فأقرّ فيها حكم المسلمين وجعل من كنيسة أيا صوفيا جامعاً يُسبح الناس فيه بحمد الله ويقدّسونه ويصلون على نبيّه . وجعل خلفاؤه من بنى عثمان منها مستقر خلافة المسلمين حتى أ جلاهم الأتراك عنها وشلّوا عرشهم منها ، وتركوها اليوم مدينة سقط عنها تاج الخلافة واسم العاصمة ، ثم بقي لها برغم ذلك كله جمال الطبيعة وعظمة التاريخ ، ومشهد التطور الاجتماعي من أقوى مظاهره وأجلّها "

بكل هذه الكتابات التي دارت حول دار الخلافة وآثرها تبدولنا الأهمية الكبرى التي كان يوليها الكتاب لهذه الدار، ولاغرو أن ذلك لم يكن وليد الصدفة لولا المكانة العظيمة لها في النفوس، ثم كان لها من معالم الجمال ومفاته نصيب كبير، فاجتمعا وأخرجا ذلك الأدب الذي حاول السمو والتحليق إلى المكانة الرفيعة لعاصمة الاسلام .

(١) أطلق الكماليون على القسطنطينية اسمها القديم (استانبول) في غمرة الثورة التي اعترت القوم على كل ماتزعم أنه قديماً أو بالأصح اسلامياً ومن عجب أن يُهمل الكماليون هذه المدينة التي عاش المسلمون قرونًا متعاقبة وهم يطعمون في فتحها ، يقول الأمير شكيب في هذا التغيير :

" إنه من المؤسف كون حكومة تركيا الجمهورية الحاضرة قد أهملت هذه البلدة الطيبة التي لا نظير لها إهمالاً زائداً . ونقلت مقر الحكم إلى انقره ، فرجعت الاستانة القهقري ، ونزل عدد سكانها من مليون ومائتي ألف إلى سبعمائة وقيل ستمائة ألف ، وأن إهمال الحكومة التركية لمثل الأستانة من الأغلاط السياسية التي لا جدال فيها .
انظر : حاضر العالم الاسلامي ١ / ٢٢١ .

هـ) نبذ الروابط المختلفة سوى الرابطة الدينية :

تطلب التجمعات البشرية على أي صورة كانت من وراء اتحاداتها وتضامنها القوة والعزة ، وتنشد الغلبة والسوءدد والرفعة ، هذا ماسعت إليه كل التجمعات البشرية ، وما تروم أن تصل اليه بذلك الاجتماع سواء كان على عصبية أم على قومية أم على وطنية أم غيرها .

والاسلام وان لم يتنكر لهذه الثمرة التي تعود عليه من الوحدة الاسلامية لم يجعلها غايته وهدفه الأخير ، وانما هي وسيلة الى غاية أكبر وأعظم حتى يكون الدين كله لله ، وحتى تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى .

بيد أن الاسلام وهو يقدّر الوزن الكبير لهذه الوسيلة لا يعدم أن يدل أتباعه على منبعها وطريقها الحقيقي حتى لا تضل عليهم إن صدقوا الاتجاه إليها ، وحتى لا يُغَرَّرَ بهم غيرهم ويدلهم على سواها فيضلوا السبيل ، قال تعالى : " ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون " (١) .

فالمناققون في كل عصر ومصر يلهثون وراء مجد العزة والعظمة والتي قد يحققها لهم التجمع على أي صورة من صوره ، لكن أنى لهم بالعزة الحقيقية . إن (العزة صنو الإيمان في القلب المؤمن ، العزة المستمدة من عزته تعالى . العزة التي لا تهون ولا تهين ، ولا تنحني ولا تلين ، ولا تُزِيل القلب المؤمن في أخرج اللحظات إلا أن يتضعضع فيه الإيمان .

فاذا استقر الإيمان ورسخ فالعزة معه مستقرة وراسخة " ولكـ من المنافقين لا يعلمون " وكيف يعلمون وهم لا يتذوقون هذه العزة ولا يتصلون بمصدرها الأصيل " (٢) .

ولقد أطلق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - كلمة تجسد هذه الحقيقة لتكون معلماً لمن يريد العزة والسوءدد ، وكأنما كان يتوقع عمر وينظر من وراء حُجُب الغيب أن يأتي من يطلبها من غير بابها من دعاة

(١) سورة المنافقين ٨ .

(٢) في ظلال القرآن سيد قطب ٦ / ٣٥٨٠ .

الشعوبية والقومية والنزعات المتفرقة ، لقد قال : نحن قوم أعزنا الله بالاسلام ، فاذا طلبنا العزة من غيره أذلنا الله . وما أروعها من حقيقة لو وعاءها وحافظ عليها المسلمون .

وقد كانت العقيدة الإسلامية هي الرباط والجامعة التي يفخر كل مؤمن بانتمائه اليها حتى مطلع العصر الحديث ، وقبل بزوغ فجر القرن الرابع عشر الهجرى بدأت تدب في العالم الاسلامى وتتوزعه نزعات عديدة ، فالقومية والاقليمية والوطنية وأمثالها بدأت تنشر مبادئها ويظهر دعائها في مجتمع المسلمين يروجون لها ، ويبشرون باتجاهاتها ، متأثرين في ذلك بما سرى إليهم من أوروبا وسواها بمثل هذه الأفكار . وكان حرص أعداء الإسلام من اليهود والنصارى على حرب الإسلام أكبر باعث لبذر هذه النزعات في ديار الإسلام ومراكزه الكبرى ، ثم تنميتها ومباركة جهودها كما سنرى في بواعث التيارات المعارضة من هذا البحث بحول الله .

ورغم حداثة هذه الاتجاهات في البلاد الإسلامية آنذاك إلا أن مآربها البعيدة لم تكن خافية على مفكري الإسلام وأنصار الجامعة الإسلامية .

فالسلطان عبد الحميد كان على وعي تام بهذه الدعوات التي ظهرت متلبسة بدعوة الإصلاح أو الحرية كي تموه حقيقتها حتى لا تنكشف ، ولذا نجده يُعطل الدستور الذى أعلنه فى أول خلافته (١٢٩٨ / ١٨٧٦ م) بعد مضى قرابة عامين (١)

وحين اتجه إلى بعث الدعوة إلى الجامعة الإسلامية وأحيائها لم يكن خافياً عليه ما فى ذلك من خضد لشوكة الدعوات القومية والوطنية وخفوض لدعائها . وقد كان من عظمة هذا السلطان هنا - كما تذكر المصادر التاريخية (٢) - وقد

(١) انظر : حاضر العالم الإسلامى ١ / ٣٠٨

(٢) مذكرات السلطان عبد الحميد نقلاً عن : السلطان عبد الحميد والخلافة الإسلامية ١٨٩ ، والعجب حقاً أن من ينقمون على هذا السلطان يأتون من هذا المدخل ، وحسبه هنا أنه أوقف هذه النزعات المختلفة مدة ثلاث قرن من الزمان ، وعند ما خلعه الاتحاديون الذين تبنوا هذه النزعات وباركوها لم تمض قرابة عشر سنوات إلا والدولة العثمانية إرباً متناثرة ، كل يدعو إلى عنصريته . وكل ذلك يسرتمزيقها واقتراسها للأعداء المستعمرين .

انظر : الادب والقومية فى سورية - سامى الكيالى ١٨٣ .

وقد عرف دعاة هذه النزعات ، وكانوا فى الغالب من الطلبة الذين تعلموا فى أوروبا ويكتبون ضد السلطنة العثمانية ، أنه كان يمدّهم بالمساعدات المادية ويغض الطرف عن إرسالها من داخل الدولة العثمانية لأنه كان يشجع المعارضة الشريفة ولا يريد دفع المعارضين له أن يميلوا إلى الغرب بدافع الحاجة ، فضلاً عن منعه نشر الأفكار الهدامة والمبادئ المستوردة داخل حكومته .

وجمال الدين الأفغانى وتياره المشهور فى الجامعة الإسلامية مع أنه كان لا يعارض قيام كل بلد باستقلاله الذاتى عن الدولة العثمانية إذا تأهل لذلك كان يجعل الدين الإسلامى والعقيدة الإسلامية هى الأصل الذى يجتمعون عليه ويتضامنون وإن كانوا دولاً متعددة ، وجعل ذلك بديلاً للنعرات الجديدة التى لم تكن خافية عليه . ولذا فقد كانت العروة الوثقى رغم تقدّم صدورها (١٣٠١ / ١٨٨٣ م) حافلة بالموضوعات التى تناقض تلك النزعات ، ويقتضى لكل مامن شأنه أن يوضح الرأي السديد فى ذلك ، و" الجنسية والديانة الإسلامية" من أول مقالاتها (١) ، وإذا ذكرت (العروة الوثقى) وجودَ رابطة الجنس التى توجد بين سائر البشر تُذكر المسلمين أن الإسلام قد أغنى اتباعه عنها برابطة الإسلام ، وذلك هو السرفى لإعراض المسلمين على اختلاف أقطارهم من اعتبار الجنسيات ، ورفضهم لأنواع العصبية ماعدا عصبية المعتقد عصبية الإسلام وكل رابطة سوى رابطة لشريعة الحققة فهى مقبوتة على لسان الشارع ، والمسلمون لا يعتدّون برابطة الشعوب وعصبية الأجناس وإنما ينظرون إلى جامعة الدين .

وحين تصف العروة الوثقى حال الأمة تجدها تذكر من يدعون إلى تلك النعرات بهزء وسخرية ، فمنهم ممن درس على النمط الجديد أو ابتعثوا إلى البلاد الغربية ، وكان منتظرٌ منهم أن يحملوا لأمتهم ماتحتاجه من العلوم والمعارف وطرق التمدن ، ولكنهم " أفراد يتفهبون بألفاظ الحرية والوطنية والجنسية وماشاكلها ويصوغونها فى عبارات متقطعة بتراء لا تعرف غايتها ولا تعلم بدايتها ، وسموا أنفسهم زعماء الحرية (٢) . . . " .

أمّا دعوة العروة الوثقى بعد ذلك إلى الوحدة الإسلامية (٣) فذلك

(١) انظر العروة الوثقى ٤٩ .

(٢) السابق نفسه ٥٩ .

(٣) انظر: العروة الوثقى - فاتحة الجريدة - ٤٦ .

معلوم وواضح لا خفاء فيه .

وقد نافع محمد عبده عن رابطة الدين التي لا تقوم مقامها رابطة الجنس ولا ترقى إليها ، ويردّ بذلك على دعاة الأفكار الغربية خصوم رابطة الإسلام ، ذلك أن الدين أقدم الروابط إذ أنه " كما يطمس رسوم الاختلاف بين أشخاص وآحاد متعددة ، ويصل ما بينهم في المقاصد والعزائم والأعمال كذلك يمحو أثر المناظرة والمنافرة بين القبائل والعشائر ، بل الأجناس المتخالفة في المنابت واللغات والعادات ، بل المتباعدة في الصور والأشكال ، ويحوّل أهواءها المتضاربة إلى قصد واحد ، وهو تأصيل المجد وتأييد الشرف وتخليد الذكر . . . وهذا الأثر الجليل عهد لقوة التعصب الديني ، شهد عليه التاريخ بعدما أرشد إليه العقل الصحيح ، وما كانت رابطة الجنس لتقوى على شيء منه . . . " (١)

وإذ قد يدخل الغلو في التعصب الجنسي فيفضي إلى الجور والطغيان فذلك الأمر في التعصب الديني ، وإن كان من المعلوم أن تعصب أجيال المسلمين لا يبلغ تعصب أمم الغرب عندما فتكت بمن خالفها في الدين كما فعلوا بمسلمي الأندلس على سبيل المثال لذا فليس من الإنصاف أن يرمى بالتعصب والتحيز كل من حرص على الاعتدال في الأخذ والتمسك برابطة الدين ، وعلى هذا نجد محمد عبده يقرّ جهل من يرمون بالتعصب من التزم برابطة الدين ونبذ ماعداها " هل لعاقل لم يصب برزنيّة في عقله أن الاعتدال من التعصب الديني نقيصة ؟ وهل يوجد فرق بينه وبين التعصب الجنسي إلا بما يكون التعصب الديني أقدم وأطهر وأعم فائدة ؟ لانخال عاقلًا يرتاب في صحة ماقررناه .

فما لأولئك القوم يهذرون بما لا يدرون ؟ أي أصل من أصول العقل يستندون إليه في المفاخرة والمباهاة بالتعصب الجنسي فقط ، واعتقاده فضيلة من أشرف الفضائل ويعبرون عنه بمحبة الوطن ؟ ، وأي قاعدة من قواعد العمران البشرى في التهانن بالتعصب الديني المعتدل وحسابه نقيصة يجب الترفع عنها ؟ " (٢) .

(١) العروة الوثقى ٨٢

(٢) تاريخ الاستاذ الامام محمد عبده ٢٥٥ / ٢

وعندما سئل محمد عبده بآخرة من عمره عن الجنسية فى الاسلام أكد أنه لا جنسية فى الإسلام ، و" الجنسية ليست معروفة عند المسلمين ، ولألها أحكام تجري عليهم ، لا فى خاصتهم ولاعامتهم ، وإنما الجنسية عند الأمم الأوروبية تشبه ما كان يسمى عند العرب عصبية . جاء الاسلام فألغى تلك العصبية ، فالجنسية لا أثر لها عند المسلمين قاطبة . . . لا جنسية فى الاسلام . . " (١) .

لا بدع أن يُهاجم أنصار الجامعة الاسلامية فكرة القومية ويتوجسون منها مكر السوء ووسيلة المخادعة ، وحين ذهبت الخلافة وتشتت الأمة وضعف أمر الوحدة فى واقع المسلمين وتجلّى عوار النعرات القومية والوطنية ، وأنها كانت باب الشر الذى فتح على أمة الاسلام أعظم الرزايا وأسوأ المحن ، وأنها لم تصل إلى ما وصلت إليه الجامعة الإسلامية من تأليف المجتمعات فضلاً عن أن تطاولها ، لذا لا نعدم من يحملون على القومية ويحذرون من الاغترار بها أو الركون إليها والاعتصام بها (٢) :

وأخيراً فإن رابطة الدين وجامعة الإسلام هى رابطة يؤيدها القلب ويحرسها الضمير ، وتقف مدعورة كاسفة قبل أن تحلّها إن رامت اليه ، ذلك أن الشعور الديني والرقابة الالهية تغذيها وتحول دون ضعفها أو انقسامها وكل هذا لا وجود لشيء منه فى الروابط القومية والوطنية ، حيث تتوزعها السياسة وتهمين على أهلها الأهواء ، وكان المنفلوطى يصوّر ذلك ببرايعه وبيان العذب حين قال (٣) : " من لا خير له فى دينه لا خير له فى وطنه ، لأنه إن كان ينقضه عهد الوطنية غادراً فاجراً فهو ينقضه عهد الله وميثاقه أغدر وأفجر ، وأن الفضيلة للإنسان أفضل الأوطان ، فمن لم يحرص عليها فأحرى به ألا يحرص على وطن السقوف والجدران " .

بكل هذه المعانى والاشارات المقتضية يتجلّى لنا البعد المستكن وراء النعرات القومية والوطنية وما شابها من دعوات ، حيث أنها كانت تقصد

-
- (١) الأعمال الكاملة لمحمد عبده ٢٥٤ / ٦ ، ٢٥٥ .
 (٢) انظر مقال : الأخوة الاسلامية - عبد الحميد الخطيب - صحيفة (أم القرى) عدد ٦٤٦ - السنة ١٣٥٦ - ١٣٥٧ م .
 (٣) النظرات - مصطفى لطفى المنفلوطى ١٧٦ / ٣ .

الى صرف المسلمين عن جامعتهم الاسلامية وفضّهم عنها ، وحين يتحقق ذلك
 سيتّجهون إلى تلك العصبيات والنعرات الأخرى التي لا يصح اجتماعهم عليها،
 لذا كان التأكيد على التمسك بالجامعة الإسلامية والتنفير من تلك النعرات
 أمراً لا معدى عنه لانصار الوحدة الاسلامية وكتّابها .

الفصل الثاني

الخلافة الإسلامية

أولاً :

الخلافة الإسلامية والواقع التاريخي

ثانياً :

الخلافة الإسلامية والرؤية الأدبية

أولا : الخلافة الاسلامية و الواقع التاريخي

أ (مفهوم الخلافة وأهميتها :

شاءت ارادة الله أن يخلق أبا البشرية آدم - عليه السلام - ليجعله وذريته خلفاء في الأرض منذ اللحظة التي هبط فيها آدم على هذه المعمورة ولقد أكد القرآن هذه الحقيقة في عدد من آياته البيّنات حسبنا منها قوله سبحانه (١) : " واذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة " .

والذي يجب ألا يغيب عن البال - ونحن بصدد الحديث عن الخلافة الاسلامية - أن هذه الآية ومثيلاتها من آيات الكتاب العزيز تدل بوضوح وتبين بجلاء معنى الخلافة التي يقصدها القرآن ، وهي نفس الخلافة التي يطلبها الله من الناس وهم في هذه الأرض ، كما أنّها هي الخلافة التي يجب أن تقوم الأمة الإسلامية لتحقيقها ووجودها ، حتى وإن عاشت الأمة في بعض فتراتها على غير هديها أو بادعائها والعمل على خلافتها .

إن معنى الخلافة يظهر من مدلول هذه اللفظة اللغوية إذ هي " نيابة عن الغير إما لغيبة المنوب عنه وإما لموته وإما لعجزه وإما لتشريف المستخلف . . . وعلى هذا الوجه الأخير استخلف الله أولياءه في الأرض " (٢) ، ومع ذلك فقد عرفها علماء الاسلام تحت معانٍ متقاربة كالإمامة أو الإمارة فضلا عن الخلافة ، وحسبك بتعريف ابن خلدون عن غيره وإن أوردتها تحت مسمى الإمامة إذ يقول (٣) : " هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها ، إذ أحوال الدنيا ترجع كلّها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة ، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به " ، ويزيد هذا التعريف إيضاحا تعليق أحد الباحثين عليه (٤) " أنه في قوله - أي ابن خلدون - (حمل الكافة) يخرج به ولايات الأمراء والقضاة وغيرهم ، لأن لكل منهم حدوده الخاصة به وصلاحياته

(١) سورة البقرة ج. ٣ .

(٢) المفردات للراغب الأصبهاني : ١٥٦ ، وانظرتاج العروس " خلف "

(٣) مقدمة ابن خلدون : ١٣١ .

(٤) الإمامة العظمى عند أهل السنة والجماعة ص ٢٩ ، ٣٠ .

المقيدة ، وفي قوله : (وعلى مقتضى النظر الشرعى) قيد لسلطته ، فالإمام يجب أن تكون سلطاته مقيدة بموافقة الشريعة الاسلاميه ، وفيه أيضا وجوب ربط سياسة الدنيا بالدين لا بالأهواء والشهوات والمصالح الفردية ، وهذا القيد يخرج به الملك ، وفي قوله : (فى مصالحهم الأخروية والدينية) تبين لشمول مسئولية الإمام لمصالح الدين والدنيا لا الاقتصار على طرف دون الآخر .

على هذا فالخلافة حكم فى الأرض يعتمد على تطبيق شريعة الله وأحكامه المنزلة فى مختلف شئون مناحي الحياة المتعددة ، وهي بذلك تُغيّر الملك وسائر الأنظمة التى قامت قديما وحديثا لحكم الناس^(١) ، وإذا أردنا زيادة فى التوضيح أمكن القول : إن الخلافة التى تُقصد هنا - التى هي الأصل فى الحكم الاسلامي - هي مثل تلك الخلافة الاسلامية التى قامت فى القرن الأول بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم والتى تُعرف بالخلافة الراشدة ، والقائمون عليها هم الخلفاء الراشدون رضى الله عنهم ، ولا غرو أن في سيرة هؤلاء الخلفاء وسياستهم التى أخذوا بها الأمة ما يوضح جوانب هذه الخلافة المتعددة ، كاختيار الخليفة وأعماله وصلاحياته ومن يعاونه وكيف يتم حكمه ، إلى غير ذلك من الشئون المتعددة المنوطة بها .

هذه الخلافة الراشدة التى هي الأصل فى حكم المسلمين كما يأمرهم بها دينهم - وإن تركتها الأمة الاسلامية فى بعض فترات من حكمها - هى التى تظهر في الحقيقة أهمية هذه الخلافة وصلاحياتها لأن تسوس البشرية فى هذه الحياة .

وفضلا أن اجتماع أي طائفة من الناس حول رئيس أو عميد لهم أمر فطري في النفوس البشرية وحاجة اجتماعية تستوجبها ظروف الحياة ، فإن الفوائد العظيمة التى تحققها الخلافة التى تسدّ هذه الحاجة الفطرية أكبر دليل على فائدتها وأهميتها . وتتجلى هذه الأهمية في إقامة الخلافة للمنهج الربّانى وتطبيق احكام شرعه فى الحياة البشرية ، ذلك أن هذا المنهج والحكم الربّانى هو أصلح نظام لحكم البشرية على الاطلاق ، إذ أنّه

(١) انظر الفصل الشيق الذى كتبه شكيب أرسلان عن : الفرق بين الخلافة والملك : حاضر العالم الاسلامي ١ / ٢٤٠ - ٢٥٨ ، الاسلام فى مواجهة التحديات المعاصرة فصل " حقيقة الخلافة " ص ٢٠٧ - ٢١٥ ، أبو الأعلى المودودي .

قد راعى جميع جوانب النفس الإنسانية وحاجاتها الفطرية حتى تعيش فى توازن واطمئنان وسعادة ، ومن ثمَّ تتفجر طاقاتها فى سائر مجالات الحياة عاملقة منتجة مستغلة ما سخر الله لها فى هذا الكون الكبير ، وصلاحيه الخلافة المطلقة تنبع من كونها النظام الذى ارتضاه الله سبحانه وتعالى أن يعيش فى الأرض ، فهو نظام خالق الخلق وأحكم الحاكمين، وانه سبحانه أعلم بما يصلح لخلقه " الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير " (١) ، ولذا فان الأنظمة الأخرى بجوارحه تتلاشى وتتجلى غيوبها ومواطن النقص فيها ، لدرجة أن هذه الأنظمة تصلح فى فترة محدّدة وتَقْصُر عن الفترات الأخرى ، فضلا أن ما تأخذ به أمة من الأمم من تنظيم لا يصلح بتاتا أن تأخذ به بعض الأمم الأخرى إن لم تسخر منه ومن واضعيه و جدواه فى واقع الحياة ، وبذا يظل نظام الخلافة الاسلامية شامخا لا يطاولة أيّ نظام آخر أو يقترب منه مما يؤكّد صلاحيته وحيويته ومرونته ، إذ هو نظام صالح لكل زمان ومكان .

والذى يُظهر أهمية الخلافة الاسلامية أيضا بعد أن تُقيم حكم الله فى الأرض هو شمول وعموم هذا النظام لكل متطلبات الحياة وشئونها المختلفة ، فتقيمها على هدى من شرع الله ونور حكمه ، فهو نظام صالح للبشرية جمعاء حتى قيام الساعة ، أخبر القرآن عن شموله وأكد كماله " اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا " (٢) ، ويقول تعالى : " ما فرطنا فى الكتاب من شيء . . . " (٣) أمّا احتواءه لتفصيل كل ما يحدث فقد حوى الأصول العامة التى يُقاس عليها كل ما يُستجد من الحوادث والأمر " ونزلنا عليك الكتاب تبينا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين " (٤) .

إذا تبين أن الخلافة نظام يسعى لقيادة الحياة البشرية بشريعة الله تجلت لنا ثمار هذا الحكم بنظام الخلافة (٥) ، وإن أظهر هذه الثمار التى تحققها الخلافة توحيد الأمة وجمع شملها ونبذ عناصر الفرقة والشتات عنها ، ولا يتيسر ذلك إلا لقيادة واحدة وأمة متكاتفه مترابطه ، وهذا بلا ريب

(١) سورة الملك : ١٤ .

(٢) سورة المائدة ج : ٣ .

(٣) سورة الانعام : ٣٨ .

(٤) سورة النحل : ٨٩ .

(٥) انظر : الامامة العظمى عند أهل السنة والجماعة . فصل (مقاصد الامامة) .

من أعظم عوامل قوة الأمة وبقائها وضمودها أمام أعدائها المترصين بها .
ولقد تحقق ذلك للأمة الاسلامية على امتداد تاريخها عندما كانت تحت
خلافة واحدة - فى الغالب - ولم تنل منها هجمات أعدائها ووحشيات
الأمم التى تسلطت عليها لإفترات انتابتها ثم استفاقت إلى أنها أمة
لن تزول ، فعادت لقوتها أمة واحدة عزيزة الجانب موفورة الحقوق .

والخلافة فضلا عن ثمرة اتحاد الأمة التى تعيننا بصفة خاصة هنا
فانها تهدف إلى تحقيق المآرب المتعددة التى يسعى كل نظام لايجادها
- وإن لم تدانيها فى ذلك - ولعل إقامة العدل ودفع الظلم من أعظم هذه
الأهداف، وذلك هو الذى جاءت كل رسالة به ودعت الناس اليه " لقــــد
أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط . . . (١)
كما أن عمارة الارض واستغلال خيراتها بما يحقق الحياة الكريمة والمتطلبات
اللازمة وما يسهم فى رقي الأمة وتقويتها مما تحققه هذه الخلافة ، والتى يقول
دستورها الكريم " هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من
رزقه وإليه النشور " (٢) .

إن خير ما يدل على أهمية الخلافة وجدارتها لتنظيم شئون البشرية
مع صلاحها لكل مكان وزمان أن يتذكر المرء ما حققته هذه الخلافة الراشدة
فى قرون هذه الأمة المفضلة يوم طُبِّقَتْ تطبيقاً حياً فى دنيا الواقع ولم تكن
خيالات أو أوهاما تُراود النفوس كما يتصور من يكتبون عن المدن الفاضلة .

لقد قلبت قيم الحياة وموازينها وأخرجت الناس من عبادة العباد إلى
عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن ظلم الأديان الى عدل
الاسلام (٣) ، وأخرجت من أولئك الأعراب الجفاة المتقاتلين فيما بينهم زعماء
وقادة سادوا الأرض وجاسوا خلال الديار، وحسبك أن أعظم قوة كانت فى
زمانهم تعيش بها دولتان لهما الغلبة يومئذ على الارض، الفرس فى الشرق
والروم فى الغرب، ومع كل هذا ففي نصف قرن تقريبا قُوِّضَتْ هاتان القوتان،
ودالت دولتاها وبلغ الاسلام بلاد الهند فى الشرق وشمال افريقيا فى الغرب

(١) سورة الحديد : ٢٥ .

(٢) سورة الملك : ١٥ .

(٣) هذه المقولة المشهورة للصحابي الجليل ربيع بن عامر رضى الله عنه قالها
لكسرى عند ما بعثه المسلمون ليتفاوض معه قبل معركة القادسية ويدعوه
الى الاسلام .

ودخل أوروبا عن طريق الأندلس التي بلغ فيها المسلمون شأوا عظيما من المجد والحضارة ، يوم كانت أوروبا تغط في ظلمات قرونها الوسطى ، وإذا كانت عظمة الأمم وحضارتها لا تقاس بقوتها وفتوحاتها البطولية فقط بل لابد من النظر إلى الجوانب الأخرى ، فإن أمة تلك الخلافة الراشدة حين يُنظر إليها في ظروف عصرها وما حقته في جوانبها العلمية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية وسواها من الجوانب الأخرى ، يجدها قد بلغت من ذلك شأوا عظيما ومكانا عاليا يوهلها بلا ريب لأن تُعدّ في أعظم الأمم وأفضلها ، والتاريخ حافل بكل ذلك صادق أمين لم ينس شيئا أبدا .

(ب) سيرتها :

لما كانت الخلافة على هذه المكانة العظيمة والأهمية الواضحة كما جسدها الخلفاء الراشدون وميزوها عن الملوك العضوض الذي جاء بعدهم فليس بدعا أن تحقق في تاريخ البشرية تلك الأمجاد السامقة وذلك الذكر الجميل في العالمين ، ولو لم تكن خلافة حقيقية لما تحققت تلك الإنجازات التي عجزت عن تحقيق معشارها - في الميدان العسكري فقط - أقوى الأمم في التاريخ ، وذا وحده كاف لتفوق هذا النظام على سائر الأنظمة التي حكمت البشرية حتى اليوم ، والأمة الإسلامية هي أعظم من يدرك حقيقة هذا النظام ويدعو إليه ، ولذا ما برحت الأمة المسلمة تحرص عليه وتأخذ به في عصورها المتعاقبة - وإن ابتعدت أو اقتربت قليلا أو كثيرا عن روح هذا النظام - مما يحدونا إلى الإشارة الموجزة عن تاريخ هذه الخلافة في الأمة الإسلامية لعل فيه ما يعين على فهم ما يرد في ثنايا هذه الدراسة .

قامت الخلافة عندما أقام المسلمون أبا بكر الصديق - رضى الله عنه - خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأطلقوا عليه خليفة رسول الله وخليفة المسلمين ، وسار بالأمة على هدي ما كان يأخذها به المصطفى عليه الصلاة والسلام ، واستمر على ذلك حتى فارق الدنيا وقد أوضح الطريق الذي يأخذ به من ولي أمر الأمة المسلمة حتى قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه فيه : " لقد أتعب من أتى بعده " أى فى التمسك " بهدى الخلافة الراشدة ، وهكذا سار عمر من بعده حتى أطبق تاريخ عدله وحسن سياسته وحنكته تاريخ الأمة

الى اليوم ، وكان رضى الله عنه مضرب المثل للخليفة الراشد الذى يجب أن يقوم على أمر المسلمين وحكومتهم ، ثم سار على هديه عثمان وعلي رضى الله عنهما ، إلا أن باب الفتنة قد أطل على الأمة الاسلامية بقتل عثمان رضى الله عنه فكانت الفترة الأخيرة من خلافة علي ممزوجة ببعض الأحداث والفتن التى لم تستطع - على الرغم من آثارها السيئة - أن تحجب عن الخلافة الاسلامية هيبتها ومكانتها في الأمة .

وإذا تقوم الدولة الأموية بعد هؤلاء الراشدين تتزعزع خلافة الأمة الاسلامية ، ويتسمى حكامها بالخلفاء وان ابتعدوا إلى حد ما عن روح الخلافة الحقيقية - سوى بعضهم كعمر بن عبد العزيز الذى تحرى هدي الراشدين - تجد الخلافة مؤئل الأمة ومركزها الذى أناطت به أمرها وقيادتها .

وبقضاء العباسيين على بنى أمية يتحرون انتقال الخلافة إليهم فيحرصون على قتل مروان بن محمد الذى طاردوه حتى قتلوه فى مصر ومن ثم يعلنون خلافتهم فى العراق ، وتستمر الخلافة فى الدولة العباسية وتبقى فيها قوية شامخة فى عهد خلفائها العظماء فى العصر العباسى الأول الذى يستمر الى عام ٢٣٢ هـ منتهيا بوفاة الواثق ابن المعتصم ، أما العصر العباسى الثانى الذى يبدأ بهذه السنة فقد اعترى الضعف والخلل جسم الدولة العباسية نظرا لاتساع خط الانحراف عن هدى الخلافة الراشدة بأكبر مما كان فى عصر بنى أمية ، ومن ثم بدأت الانقسامات وبدأت تظهر الدويلات فى داخل هذه الدولة فى شرقها وغربها ، وقد بلغ من قوة بعض هذه الدويلات كالأمويين فى الاندلس ومن جرأة بعضها كالعبيديين (الفاطميين) (١) فى مصر أن يدعوا لأنفسهم الخلافة ، مما يسبغ على هذه الدول الشرعية فى نظر الأمة

(١) يعتبر كثير من العلماء والمؤرخين المسلمين أن الفاطميين ليسوا من الخلفاء المسلمين ، فالإمام السيوطى فى (تاريخ الخلفاء ص ٤ ، ٥ ، ط ١٣٧١ ، تحقيق محى الدين عبد الحميد) .
لم يذكرهم من خلفاء المسلمين لأنه يعد إمامتهم غير صحيحة لأمر :
- منها أنهم غير قرشيين ، وإنما سمّتهم بالفاطميين جهلة العوام والا فجد هم مجوسي .

- ومنها أن أكثرهم زنادقة خارجون عن الإسلام .
وانظر العواصم من القواصم ص ١٩٩ للقاضى أبى بكر بن العربي ، تحقيق : محب الدين الخطيب .

من جهة كما يدل على العظمة والمكانة الكبرى التي يفهمها كل مسلم من مدلول الخلافة ، وعندئذ ظهرت في بلاد الاسلام ثلاث حكومات تتسمى بالخلافة في كل من بغداد والقاهرة وقرطبة .

وعندما دثر المغول بغداد وقضوا على الخلافة كان للمماليك في مصر فضل إحياء منارة الخلافة الإسلامية ، فهذا هو الظاهر بيبرس يستقدم أحد سلاسل بني العباس ويُقيمه خليفة ويلقبه بالمستنصر، ويتسلم منه الخلع ثم يرسله إلى بغداد مع قوة مكنت له من دخولها ، ثم عاد فقرّر نقل مركز الخلافة إلى القاهرة حذرا من وقوع الخليفة تحت سلطان آخر غير سلطانه، وتستمر هذه الخلافة العباسية بمصر حتى يتمكن السلطان سليم العثماني من فتح مصر، ثم تسلّم الخلافة بنفسه من الخليفة العباسي سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م) حيث قضى على آخر سلاطين المماليك (قانصوة الغوري) وأدخل مصر في حوزة الدولة العثمانية ونقل الخلافة إلى الاستانة العلية مقر سلاطين آل عثمان آنذاك ، ومع أن سلاطين العثمانيين قبل السلطان سليم لم يتسموا بالخليفة أو يدعواها إلا أنهم بعد ذلك أسبغوا على الخلافة هيبتها وقدسيتها واحترامها بل جعلوا لها من المراسم والتقاليد، وخاصة عند توليها، ما يضاف عليها الطابع الديني والأثر المقدس (١) .

مضت الخلافة في سلاطين العثمانيين مرعية الجانب محفوظة المكانة حتى تم القضاء على هذه الدولة وبانقضائها كان انقضاء الخلافة لاحقا لها بيد أن الذى يبدو أن ثمت محاولات مبكرة كانت تهدف إلى النيل من نظام الخلافة قبل أن تعصف بالدولة العثمانية تلك المحن التي تتابعت عليها في الخمسين سنة الأخيرة من حكمها، حيث قادتها بسرعة شديدة إلى السقوط والزوال ، فمن الباحثين (٢) من يرى أن المحاولات الأولى لإلغاء الخلافة كانت بالدعوة إلى الدستور الذى ينتهى وفق الدساتير الأوروبية إلى الحكم البرلماني وإخلاء الخليفة من السلطة سنة ١٢٥٥ / ١٨٣٩ م في عهد السلطان عبد المجيد الاول (١٢٥٥ / ١٢٧٧) . والواقع أن هذا موافق لحركة الدستور التي ظهرت واستمرت وكان دعائها بعدئذ يحلمون بتقييد سلطة الخليفة

(١) انظر: الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ١ / ٦٤ إذ يشير إلى جملة من تلك التقاليد .

(٢) السلطان عبد الحميد والخلافة الاسلامية : ٢٦٣ .

وتغيير أنظمة الدولة بما يكاد يشابه ما عند أم أوروبا ، وهذا ما تحقق بالفعل عندما طُبِّق الدستور على نحو ما أراده دعاة المستغربين ، بيد أن الخلافة مع استمراريتها بجانب هذه الحركة لم تضعف منزلتها في نفوس أبناء الأمة سوى نفر قليل ممن كانت ثقافتهم ثقافه غربية .

وقد أحس السلطان عبد الحميد (١) - الذي تضخمت في عهده الدعوة إلى الدستور في الربع الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي - بخطورة الأمر فأضطر لإعلان الدستور في مطلع حكمه وقد بيت الغاء عما قريب ، ففكر في هذا الأمر وهداه فكره إلى الدعوة إلى الجامعة الإسلامية - كما سبق أن اوضحت في الفصل الخاص بها - ورغم أنه أراد بفكرته هذه تحقيق العديد من أهدافه السياسية التي وُفق فيها - إلى حد طيب - فقد كانت الخلافة من أعظم ما قامت عليه هذه الفكرة ، حيث عمل على احيائها في الأمة الإسلامية وأنها خلافة المسلمين التي يجب عليهم أن يلتفوا حولها وأن لا ينظروا إلى جنسياتهم وقومياتهم، فهو خليفتهم جميعا وأنهم بذلك إنما يتحدون للدفاع عن دينهم ووطنهم ، واستكمالا لهذه السياسة عندما قامت الحرب بين روسيا والدولة العثمانية (١٢٩٣ / ١٨٧٧ م) ألغى الدستور الذي سبق أن أعلنه، وجَدَّ ليعيد للخلافة مكانتها وحضورها في العالم الإسلامي ، ونظرا للحالة السيئة والظروف الصعبة التي كانت تعيشها الدولة في عهد توليه خلافتها ، إذ تكالبت عليها أمم الكفر من جميع الاتجاهات، وكانت المؤامرات للقضاء على هذه الدولة واقتسام اجزائها مما اتفقت عليه دول أوروبا وروسيا ، وكثرت الثورات والفتن التي أشعلها خصوم الدولة حتى إنهم لم يعطوها الفرصة لأن تُصلح ولو جانباً واحداً من جوانب حياتها المتدهورة آنذاك ، وبتأمر من الصهيونية التي خيَّب هذا السلطان ظنها عندما رفض عروضها المغرية للسماح لليهود باقامة مستوطنة صغيرة لهم في فلسطين ، تكالبت كل هذه الطوائف لإبعاد هذا السلطان بأي وسيلة تكون ، وقد تحقق لها ذلك عندما تمكن رجال حزب الاتحاد والترقي الذي كان يعمل في الخفاء مع كل هؤلاء المتآمرين أن يخلع هذا السلطان من منصب الخلافة سنة ١٣٢٦ / ١٩٠٩ م ، وفي الواقع أن هذا الحدث وقبله بعام (١٩٠٨ م) عندما اضطر السلطان عبد الحميد لإعلان

(١) لمزيد من تفاصيل تاريخ الخلافة في عهد السلطان عبد الحميد وما بعده

انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية - محمد فريد - تحقيق احسان

الدستور بدأ الأبول الحقيقي للخلافة^(١) وقام من بعده خلفاء لا يملكون من السلطة شيئاً ، والسلطة الفعلية هي بيد رجال الاتحاد والترقي الذين أخذوا زمام السلطة بعد ما خلعوا السلطان عبد الحميد ، وعقدوا النية على رفض الخلافة وإن اضطرتهم الظروف السياسية إلى ابقائها لأجل محدود ، ولا أدل على ضعف الخليفة في هذه الفترة وذهاب السلطة والأمر من يده أنه عندما أقام الاتحاديون السلطان محمد رشاد خليفه بعد ما خلعوا السلطان عبد الحميد ، وبعد ما أقحموا الدولة العثمانية في الحرب العالمية الاولى مناصرة لألمانيا لم يكن للسلطان محمد رشاد ولا الصدر الأعظم علم ولا خبر بذلك ، فلما أخبر بذلك لم يكن بيده حيلة لما وقع فاضطر مكرها لإعلان الجهاد المقدس ضد الحلفاء ، غير أن المسلمين لم يتجاوبوا مع هذه الدعوة إذ كانت الشكوك تساورهم في كثير من الأمور التي لا يعلمون حقيقتها وعلى رأسها نوايا الاتحاديين وهدفهم من دخول الحرب ، ولم يقف الأمر إلى هذا الحد بل تعداه فيما بعد ، حين أكمل الخطة عملاء الحلفاء بعد الحرب العالمية الاولى استغل الحلفاء وبخاصة بريطانيا^(٢) ضعف الدولة وكثرة مشاكلها بعد

(١) انظر فصل (حكم الاتحاديين) من التاريخ الاسلامي (العهد العثماني) محمود شاكر لمتابعة حالة الخلافة في هذه الفترة حتى الغائها .

(٢) لقد بذلت كل من روسيا وفرنسا وإيطاليا جهودا جبارة لالغاء الخلافة ولكنها لا تقاس مع جهود بريطانيا التي تم على يديها بالفعل إلغاء الخلافة ، وقد استغلت لذلك كل العناصر التي تخدم هدفها هذا فاستخدمت الماسونية والصهيونية والدونمة والكمالية ، ويوضح هذا التدبير البريطاني أنها زرعت في مصر أن العثمانيين ظلمة ومستعمرون لمصر ، كما سعت مع الشعوب العربية ابان الحرب الاولى لتبعث فيها الخلافة العربية ، وحقت ذلك بمؤازرتها لجهود الشريف حسين وابناءه في الثورة على الخلافة ، وأخيرا فان رجال مخابراتها وقادتها العسكريين وبخاصة (ارمسترونج) قد تسللوا في أعماق قيادات رجال الاتحاد الكماليين وكان عمل (ارمسترونج) في تركيا مشابه لعمل لورنس في بلاد العرب مع ثورة الشريف حسين وابناءه . ولم تقف عند هذا الحد بل كانت هي الدرع الحصين الذي كان وراء قيام اسرائيل في فلسطين المسلمة ، وكل ذلك وكثير من الجهود التي تبذلها بريطانيا لحرب الاسلام من عهد الحروب الصليبية إلى هذه الجهود الوريثة ينسى المسلمون - وبخاصة كثير من قادتهم - كل ذلك ويشق في صداقة هذه الأمة وأوهامها التي تزعمها لحب الشعوب الاسلامية

خروجها مهزومة فى الحرب العالمية الأولى للقضاء ايضا على الخلافة فيعد أن برز فى الساحة التركية مصطفى كمال (١) حيث خططت له بريطانيا كثيرا من البطولات والأجاد المصطنعه حتى تثق الأمة التركية فى ولايته لأموها - وببريطانيا تحقق بعد ذلك أهدافها مباشرة - وقامت فى تركيا مايشبهه حكومتين فى انقره واستانبول ودُعيتا إلى مؤتمرات لوزان (١٣٤٠ - ١٩٢٢ م) وجرى انقلاب فى استانبول عزلت على اثره حكومة السلطان ، فاعتزل السلطان محمد وحيد الدين (١٣٣٦ - ١٣٤٠) هذه الخلافة التى تقررنزع السلطة من يده ثم رحل إلى مالطه فنُودي بالسلطان عبد المجيد الثانى بن عبد العزيز

== انظر فى جهود بريطانيا لالغاء الخلافة : السلطان عبد الحميد والخلافة الاسلامية فصل : بريطانيا والحلفاء والكمالية "ارمسترونج والمخابرات وراء اتاتورك" فى باب : الصليبية الجديدة ودورها فى الغاء الخلافة ، المسألة الشرقية - مصطفى كامل ١٩ ، ٢٢ .

(١) مصطفى كمال : (١٨٧٩ - ١٩٣٨ م) ولد فى سلانيك من أصل مشكوك فيه ودرس بالكلية الحربية باستانبول ، وعُيّن ضابطا فى الجيش لكنه لم يكن منتظما حيث نُفي ونُقل عدة مرات حيث كان على خلاف مع جمعية الاتحاد والترقى ، واشترك فى عدد من الحروب لم يكن له فيها شأن كبير ، وفى عهد السلطان وحيد الدين انسحب أمام الانجليز أثناء تقدمهم فى الشام فى اواخر الحرب العالمية الاولى ، فاتصل به الانجليز بقيادة (ارمسترونج) وحرصوه على القيام بالثورة على الخلافة على أن يدعموه فوافق على ذلك ، وكان هذا خافيا على السلطان الذى كان يضع فيه ثقته ، وبعد الحرب أخذ يعمل لالغاء الخلافة وطرد السلطان حتى تمكن من ذلك ، وكان كما يصفه معاصروه منصرفا إلى الخمر والنساء ، يأخذ ذلك جل وقته ، وهو على كره شديد وعداء للاسلام ، وذو ميل شديد للزعامة ، فكانت صلتها بالانجليز هى التى حققت له ذلك حيث رفعوه إلى الزعامة التى كان مستميتا لها .

انظر فى ترجمته : الرجل الصنم - ألفه ضابط تركى وترجمه إلى العربية عبد الله عبد الرحمن ، مصطفى كمال - آرمسترونج - ترجمة : حلمى مراد ، (سلسلة اقرأ) .

(١٣٤٠ - ١٣٤١) خليفه مكانه لاسلطة له . وبعد ثلاثة أيام من توليه لها عُقد مؤتمرات لوزان مرة ثانية وحضره وفد أنقرة فقط ووضع رئيس الوفد الإنجليزي (كرزون) شروط الاعتراف باستقلال تركيا وأولها إلغاء الخلافة الاسلامية ، ثم طرد الخليفة العثماني - وهو السلطان - خارج البلاد ومصادرة أموال وأموال آل عثمان وإعلان تركيا دولة علمانية لادينية ، ووافق المؤتمرون على ذلك وكان ذلك آخر مسماريديق في نعش الخلافة الاسلامية ليصبح جاهزا يحملها إلى مدفن لا تطيق فيه حراكا ولا تستطيع الخروج منه .

وما هي إلا فترة وجيزة حتى أعلن مصطفى كمال الجمهورية برئاسته ثم أعلن إلغاء الخلافة مع كثير من التغييرات التي تتجه مباشرة إلى محو الغاء الاسلام ، وما يدل على روحه من عباداته وآثاره ، وطويت بذلك الخلافة الاسلامية سنة (١٣٤١ - ١٩٢٤ م) بعد تاريخ حافل يشهد لها بالامجاد ، وآثار عزيزة تستلهمها الأجيال في تلك القيادة الراشدة ، حيث كانت العزة والرفعة ، والريادة والسيادة منذ فجر الاسلام إلى مطلع هذا العصر السدي أودى بخلافة الاسلام .

وبالغائها قضى مصطفى كمال على امبراطورية عظيمة كانت ملء عين الزمان وسمعه ، وقتل أمجادا وقضى على ثقافة ، ونحر أقواما طالما ازهقوا أرواحهم في صدق وإخلاص في خدمة هذه الدولة ، وأراقوا دماء زكية في سبيل إعلاء نور الاسلام في فجاج المعمورة .

ثانيا : الخلافة الاسلامية والرواية الأدبية

أ) تيارات تعصف بالخلافة :

ليس عجيبا أن يواكب الأدب مسيرة الخلافة وتطوراتها فقد أغرم الأدب العربي في كثير من أحواله أن يزدهر حول الخلفاء والأمراء والولاة ، وبلغ الأمر أن رأى جمهور دارسي تاريخ الأدب العربي أن أيسر طريقة يسهّل تناوله بها أن يُقسم وفق العصور والتواريخ السياسية للأمة، وإذا تذكر المرء ما اجتمع من الأدباء على أبواب بنى مروان فى الدولة الأموية وما حفل به بلاط الرشيد والمأمون من جمعهم وما كان لهم من حضور فى مجتمع الحمدانيين وعند صاحب بن عباد وأمرئى بن بويه، إضافة إلى عبد الرحمن الناصر والمعتمد ابن عباد فى الأندلس وكثير غيرهم أدرك فى يُسر ما كانت تحظى به الخلافة من حذب أدباء الإسلام عليها والتفافهم حولها والإلمام بما يحيط بها أو يدور فى بلاطها من الوقائع والأخبار.

وهذه الظاهرة فى تقديرى لم تكن وصمة نقص يُتهم بها الأدب العربى لشيوعها فيه ، ولا يمكن أن نبرر بها أو على حسابها ما يرى من قصور الأدب فى معالجة بعض الأغراض أو الموضوعات أو الأجناس الأدبية الأخرى إن كان ثمة قصور فيها (١) ، ولذا أراها نزعة أصيلة المحتد فى هذا الأدب لانشاز فى خروجها عنه ، وإذا علمنا أن الأديب يستلهم من أمجاد أمته كما يستلهم من بيئة عصره كثيرا من الصور التى يظهر بها إبداعه الأدبي لسهل فهم تعلق الأدباء بالخلافة فى مطلع العصر الحديث، فالأمجاد التى حققتها الخلافة الإسلامية ماثلة فى الأذهان، وبخاصة ماتم فى صدر الأمة الإسلامية وقرونها الأولى ، أي عهد الراشدين وعصر بنى أمية وبنى العباس، والبيئة كما تعلم بيئة إسلامية تدعو إلى الالتفاف حول ولاة الأمر ما التزموا شريعة الله ودينه، كما تحث على طاعتهم فى المعروف - اذ لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق -

(١) هذا الاتهام حرص سلامة موسى على رمي الأدب العربى به وبخاصة فى كتابه الأدب للشعب .

انظر: النثر الفنى المصرى فى العصر الحديث - عبد الباسط احمد على حموده - ٤٨١ رسالة دكتوراه - كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر - اشراف د . عبد السلام سرحان .

وتحذّر من الحياة بلا انتماء إلى جماعة المسلمين ، وتحرم الخروج عليهم — والشذوذ عنهم ^(١) أو البغي على ولي أمرهم بدون حق .

غير أن الذى لا يقره المرء ولا يستقيم مع الطبع السوي فى ظاهرة الالتفاف حول الولاة والخلفاء عندما تنقلب هذه الكوكبة من الأدباء ثمجد الرذيلة وتحارب الحق يوم تلف حول وليّ جاهل أو سفيه ، أو عندما تخنع لأمر ظالم باغ أو أيّ وال لا يتحرى الحق والعدل ، بل يتخبط كيفما تُزبن لــــه شياطينه الإنسية والجنية ، إذ تتحول هذه الكوكبة فى هذه الحالة إلى بؤرة شر ومصدر ضلال تدعو إلى الشر والسوء وتنافح عنه كما قد حدث فى بعض الأحيان ، ولا ريب أن الأدب بهذا المعنى يؤول إلى مطية سوء وسلاح هادم فتاك ، وما ذلك هو المنشود والمرجو من الأدب فى أية أمة قويمة فضلا عن أمة هي خير أمة أخرجت للناس .

وإذا صوّب المرء ناظره تجاه الخلافة التى تقع فى فترة هذه الدراسة فإنّ السلطان عبد الحميد أول من تلقى على عرشها ، وإذا كان من قدّر هذا السلطان أن تُسند إليه الخلافة والخلل الكبير قد دب فى جسم الدولة وكانت فترته عصيبة الأيام متلاطمة بالفتن ، إذ قد تم التآمر العالمى على حكمه وإبادة دولته ، إلا أنه برغم ذلك واجه هذه العقبات بصبر وأخذ أمره بحنكة وحزم ، وصمد أمام تلك الكرب المدلّمة ثلث قرن من الزمان يصارعها بكل ما أُوتى من حذر وحيلة ودهاء ، مما يعكس الحقيقة التى يجب أن يعقب بعير مجدّها تاريخ هذه السلطان ^(٢) إذا ما نظرنا إليه فى مواجهة التآمرات التى كان ينازلها فقط ، فضلا عن كثير من الحسنات التى يغمطها من يغضون عن حسناته لينعتوه بما شاءوا من الزور والبهتان ، ومع ذلك فقد كانت الأمواج التى تعصف من حول هذا الخليفة أكبر من أن تُغالب أو تدافع ، حتى استطاعت أن تنزع الخلافة منه لتفرض عليه العيش وحيدا معزولا حتى الممات .

(١) جاء فى الحديث النبوى " من مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية " رواه مسلم فى كتاب الامارة .

وفى حديث آخر " من أتاكم وأمركم جميع على رجل منكم يريدان يشق عصاكم فاقتلوه " رواه مسلم فى كتاب الامارة ، وانظر لمزيد من ذلك كتاب الامارة عند البخارى ومسلم .

(٢) انظر : المراجع التى كتبت عن هذا السلطان فى الفصل الاول من هذا البحث . ص ٨٥ .

فى خلافة السلطان عبدالحميد كان ثمة من ينقم على الخلافة العثمانية، بل كان ثمة من يغلى حقداً على هذا الخليفة - كما سنرى فى قسم التيارات المعارضة باذن الله - ويدعو إلى الخروج عليه، وقد ساعد على مثل هذه الأفكار تلك القلاقل التى حاقت بالدولة يومئذ وجعلتها مسرحاً للقلاقل والاضطرابات، وقد كان الشيخ محمد رشيد رضا يعلم كثيراً من هذا الحقد على السلطان فكتب مقالة عن الخلافة والخلفاء^(١) أنكر فيها على من يدعون نقص شروط الخلافة فى بنى عثمان، إذ أن بيان شروطها وانطباقها على القائم بالخلافة فى ذلك العهد أو عدم انطباقها "إنما يأتيها أرباب الأغراض الدنيوية بل الامراض الروحية"، الذين يثيرون رواكد الأوهام، ويسيرونها فى دياجير الظلام،... إن من يحاول اشراب الافهام وجوب نزعة الإمامة من بنى عثمان فهو عامل على الاجهاز على السلطة الاسلامية ومحوها من لوح الوجود، وما لهؤلاء النوكى^(٢) من تكأة يتكئون عليها لإقوالهم "الخلافة فى قریش" وغفلوا أو أغفلوا الشروط المهمة التى لا توجد اليوم فى قرشي كالعدالة على شروطها الجامعة، والعلم المؤدى إلى الاجتهاد فى النوازل والاحكام، والرأى الصحيح المفضى إلى سياسة الرعية وتدبير المصالح وجمع الكلمة، وكل الذين توسوس لهم أمانيتهم بالخلافة وتطريهم جرائمهم باستحقاقهم لها عراة من هذه الصفات التى هى أركان بناء الخلافة".

واذ يُقرّ الكاتب شرعية خلافة آل عثمان لا يمنعه ذلك أن يُلمع إلى بعض الأمور التى خرجت فيها هذه الخلافة عن مقصدها ووظيفتها وإلى أن السكوت على أخطاء الأئمة وعدم النصح لهم منكر وباطل لا يصح اقرارهم وتركهم عليه، كيف وقد حذر القرآن من هذا المسلك؟ الذى سيؤدى بأصحابه فى طاعتهم العمياء إلى أسوأ مصير، وما ينفعهم يومئذ أن يقولوا (ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا)^(٣).

وعندما خلع السلطان كان لهذا الحدث رنة فى الأدب العربى وبخاصة فى الشعر، وهى لا تقل فى جملتها عما أحدثه إعلان الدستور فى

(١) المنار - فاتحة العدد الثالث والثلاثين - ١٦ جمادى الآخرة ١٣١٦

المجلد الاول ٦٢٨.

(٢) الأنوك : جمعه نوكى، ونوك وهو الأحمق.

(٣) سورة الاحزاب : ٦٧.

العام الذى قبله ، وما كان لهذا الحدث من أدب غزير دوى فى سائر بلاد الدولة العثمانية ، وقد كانت عواطف أدباء العرب إزاء هذا الخلع على طرفين متضادين كما أكد أحد الباحثين المعاصرين للحدث (١) ، عواطف الفرح والسخرية والشماتة وقد شاعت فى أوساط أدباء العراق والاقطار السورية والمهاجر ، وعواطف الشفقة والعطف وكانت فى مصر وإن لم تخل من بعض الشامتين ، ولا غرو فظروف مصر التى كانت تُعانى منها وهى سلطة الاستعمار الانجليزى الذى جثم عليها كان يُملئ عليها ذلك ، فضلا عن أن النزعة الإسلامية كانت تُملئ على المصريين حبهم وتعلقهم بالسلطان العثمانى ، ورغم أن انجلترا قد أعلنت الحماية على مصر فى سنة ١٣٣٣ / ١٩١٤ م ملغية بذلك السيادة العثمانية من مصر فقد استقر الولاء والعطف على الخلافة بعد خلع السلطان عبد الحميد وفى سني الحرب العالمية الأولى التى أعقبتها رغم انقطاع مابين مصر وتركيا من صلات ، كما أكدت ذلك كثير من الحوادث التى وقعت (٢) كمظاهر السخط على السلطان حسين كامل (١٩١٤-١٩١٧) الذى عينه الإنجليز لحكم مصر و الاعتداء عليه ، وكاضطهاد الشعب المصرى للأرمن والطلليان واليونان المقيمين بمصر ، وقد تعدى الحزن لخلع السلطان عبد الحميد البلاد العربية إلى بعض البلاد الإسلامية ، فقد كتبت بعض الصحف عن هذا الانقلاب مظهرة حزنها الشديد لهذا الأمر ، وسماه بعضهم " الانقلاب المشؤم فى الدولة العلية " كما أشير إلى فضل هذا الخليفة وحسن حنكته مما دفع أوروبا أن تتحد لمقاومته والا خلال بتدابيره وخططه . (٣) .

وحسبك أن تقرأ ماكتبه المنفلوطي (٤) الذى آلمه هذا المصاب الجلل فوقف مند هشا يسائل قصر (يلدز) الذى سكنه السلطان ثم يسائل السجن الذى خلف القصر ثم يسائل الدهر كيف يجمع بين النقائص والتقلبات العجيبة .

أمّا القصر فأين تلك الحياة التى كانت فيه يضيئها وجود الخليفة وتزينها وفود العظمة من كل مكان لتظهر الطاعة لرب القصر ، وأين تلك الحركة التى كانت تنصاع لذلك الصوت بالسعد أو النحس من جنات ذلك القصر ، لقد

(١) الاتجاهات الأدبية فى العالم العربى الحديث : ٥٢ ، ٥٥ .

(٢) انظر : الاتجاهات الوطنية فى الادب المعاصر ٢ / ١٠ ، ٢٣ ، ٢٤ .

(٣) انظر : المنار مجلد ١٢ ص ٢٩٧ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ .

(٤) النظرات ٢ / ١٩ - ٢١ .

سلب الدهر كل ذلك رغم كثرة الحجب والحراس والأبواب .

" أيها القصر :

أين الكوكب الزاهر الذى كان يتنقل فى أبراجك ؟ أين النسر الطائر الذى كان يُحَلِّق فى أجوائك ؟ أين الملك القادر الذى كان يطلع شمسا فى صباحك ويدرا فى مساءك ؟ أين الأعلام والبنود تخفق من شرفاتك ؟ والقواد والجنود تخطر فى عرصاتك ؟ أين الشفاه التى كانت تلثم ترابك ؟ والأفواه التى كانت تُقَبِّلُ أعتابك ؟ والرؤس التى كانت تطرق لهيبتك والقلوب التى كانت تخفق لروعتك ؟ أين الصوت الذى كان يُجَلجل فيقرع أذن الجوزاء ؟ ويهدر فتلتفت عيون السماء ؟ أين الفلك الذى كان يدور بالسعد والنحس ، والنعيم والبؤس ، والرفع والخفض ، والابرار والنقض ؟

... أين كانت أسوارك وأبوابك ، وحرّاسك وحجابتك ؟ وكيف عجزت أن تمتنع على القضاء ؟ وتصدّ عن نفسك عادية البلاء ؟

ولم أر مثل القصر اذ ربيع سريره .. وإذ دُعرت أطلأؤه وجأذره
تحمل عنه ساكنوه وهتكت .. على عجل أستاره وستاءره

أمّا السجن فيطلب منه الرحمة الشديدة بنازله الذى من عجب أن يحيط به بعد أن كانت الدولة الشاسعه ملكا له ، فيخاطب السجن قائلا :

" حل بأرجائك اليوم ملك تضيق به الدنيا ، فكيف وسعته ؟ وتعجز عن احتمال قُلُ الجبال الرواسي فكيف احتملته ؟ رفقا به لا تُزعجه ، ولا تُخرج صدره ، وضمّ جانحتيك عليه كما تضم على القلب حنايا الضلوع ، واعطف عليه عطف المرضعات على الرضيع ، وارحم هذا الجلال الذاهب والعزّ الزائل ، والرأس الذى بيّضته حوادث الدهور ، والظهر الذى قوسته أيدي المقدور " .

وبعد أن يُسائل الدهر عن هذه الاعمال المتناقضة من اعطاء وسلب ، وكيف أنه لا يعطى الانسان كأس السرور خالصة يشد على صبر الخليفة أن يحيا ، ويواسيه بأن ما حصل له إلا وديعة أرجعت لأهلها وعسى فى ذلك خير كثير .

" ايها الرجل المودّع :

كان ارتفاعك عظيما فوجب ان يكون سقوطك عظيما .

إنك ذقت حلاوة الحياة خالصة ، فلما ذقت مرارتها جزعت وقطبت كما
يجزع ويقطب كل من ذاق من الشراب مالا عهد له به ، ولا قيل له باحتماله
لا تأسى على مافاتك فانما كان وديعة من ودائع الدهر ، أعاركها برهة من
الزمان ثم استردها ، إنك لا تدري لعل الله أراد بك خيرا

من بات بعدك فى مُلك يُسرِّه . . . فإنما بات بالاحلام مغرورا "

ليس غريبا أن تتغير وجهة الدولة العلية حين وقعت سلطتها بيد
جماعة لم يرضها أن تكون الخلافة هى محور قيادة الأمة (١) ، ولذا فالأحداث
تجرى بسرعة والتطورات أخذت تظهر فجأة ، ويصحو الاتحاديون سنة
(١٣٣٠ / ١٩١٣ م) وإذا بمؤتمر يُعقد فى باريس جميع أعضاء من العرب
يطالبون بكثير من الإصلاحات التى ترجع فى جملتها إلى اعتبار حقوق العرب
فى المملكة العثمانية ، ولا سيما الحقوق السياسية من غير خروج على الدولة (٢) .

(١) يذكر المؤرخ والمفكر المعاصر محمد جلال فى كتابه (الحل الاسلامى)
ط ١٩٨١ م المطبعة الفنية القاهرة ص ٤٤٤ وهو بصدد حديثه عن
الحملة الصليبية التى قامت بها أوروبا فى أواخر عهد السلطان
عبد الحميد ثم حكم الاتحاديين فيقول " كان الاتجاه الطبيعى (أى
للأمة الاسلامية فى هذا الوقت) هو الالتفاف حول دولة الخلافة فى
معركتها الأخيرة من أجل الإسلام . ولكن فى نفس الوقت كانت
المعلومات والشواهد والوقائع تتجمع على أن هذه العصاة التى تحكم
تركيا (يقصد الاتحاديين) هى الخصم الألد للإسلام ، والتى على
يديها - كما قيل - سينزل بالاسلام وبالذلة العثمانية فى عشر سنوات
ماعجزت صليبية أوروبا عن تحقيقه فى أربعة قرون .

قال سهرمارك سايكس (وزير خارجية إنجلترا قبل الحرب الاولى) الذى
وُصف بأنه مَيَّال للترك فى وصفه الحكومة الانقلابية بعد زيارة قام بها
لاسطنبول عام ١٩١٣ (١٣٣١ هـ) إن السلطة الجديدة علّمت الطبقة
العليا شرب الخمر ، والجندى العثماني ، الذى اشتهر باخلاصه علمته
العصيان ، أما الدين الاسلامى فقد أصبح عرضة للسخرية والإهانة . إن
هؤلاء الثوار الذين كانوا فى المنافى قد حملوا معهم إلى تركيا كل
ما تقمّموه من مزايل ومجارى أوروبا من أفكار وقيم مسلكيه ، وطبخوا من
كل هذه السلبات مزيجا غريبا أحلوه محل قوة الخلافة التى سقطت .

(٢) انظر عن هذا المؤتمر : يقظة العرب - جورج أنطونيوس ١٩١١ ، كتاب :
المؤتمر العربى الاول ط ١٩١٣ م مطبعة البسفور - القاهرة ، وهو
سجل لكل ماتم فى المؤتمر ، وقد كتب محمد رشيد رضا تقديم
الكتاب .

ومع أن هذا المؤتمر لم يمس دون أن يجد من ينتقده ويهاجم أربابه ويعترض على فكرته، غير أن الاتحاديين لم يستفيدوا من أبعاد مثل هذا المؤتمر رغم ما أبدوا من موافقة وإرضاء لمطالب المؤتمرين حين عُرضت عليهم .

(١) وماهى إلا بُرْهة حتى يُعلن الشريف حسين فى (عام ١٣٣٤ / ١٩١٦) ثورته على العثمانيين الأتراك منطلقا من مكة بعد أن أعدَّ وأبناؤه كثيرا من الخطط التى نسجتها لهم نسجا مموءها السياسة الإنجليزیه ، ويجهر بانفصال العرب عن سلطة الترك ويأشر ضرب قواتهم فى الحجاز مثبتا سلطته العربیة وقيام حكومته ، وإذا تكشف الأيام بسرعة الأصابع الخفيه وراء هذه الثورة ، وإذا بالشريف دمية فى يد الإنجليز ، هنا تجد من يقف ضد هذه الثورة من الموالين للجامعة الاسلامیة ، اذ هى حركة تشق عصا الأمة الواحدة ، والوضع المحیق بالأمة يُظهر مسیس الحاجة الى التآزر لا التنابد ، ولذا تصدى مجموعة من الكتاب والشعراء بل والعسكريين الذين لهم المام بحقیقة الثورة وخطورة الموقف ضدها منفرین منها ومعارضین ، وقد كان بدر الدين الغسانى ورشید رضا والأمیر شکیب أرسلان من أشهرهم (٢) ، فرشید رضا لم یقبل أن یبیت الدعاية للإنجليز لموافقة سیاستهم التى تنوى فصل العرب عن الترك ، كما رفض أن یدعو للشريف بل نصحه بالحد من الإنجليز (٣) ، وأما شکیب أرسلان فقد " وقف ضد بني قومه من أحرار العرب فى استانبول حين دعوا إلى الانسلاخ عن العثمانيين ، واعترف أنه سيكون فى الصف المقاوم للحسين بن علي ، وأنه ينتقد سياسة الخروج على الخلافة " (٤) ، ولقد كان استنكار أدباء مصر لثورة الشريف التى عرفت بالثورة العربیة فى التاريخ المعاصر أظهر من غیرهم من الأدباء (٥) ، اذ قد عدّوا ذلك تحالفا مع الإنجليز مستعمري مصر، فهو تحالف

(١) انظر عن حوادث ثورة الشريف حسين كتاب : اسرار ثورة العرب الكبرى أمين سعيد .

(٢) انظر ما أتى عنهم فى فصل : كتاب التيار الموءید من هذا البحث .

(٣) انظر : السيد رشید رضا أو إخاء اربعین سنة - شکیب أرسلان ٢٠٣ ، ٣٢٥ ، المنار مجلد ٢٩ - مارس ١٩٢٨ م - فاتحة الجزء الاول .

(٤) محاضرات عن الامیر شکیب أرسلان : سامی الدهان ١٦ ، ١٥ .

(٥) انظر : الاتجاه القومى فى الشعر المعاصر : ٤٣ ، ٤٤ .

لأمة غربية ، كما رأوا أن الامر تقويض لأركان الجامعة الاسلامية .

من هذه الصور المحدودة التي تقف بنا إلى منافحة الأدباء عن الخليفة والخلافة الاسلامية حتى قيام الحرب الأولى ، إضافة الى ما سبق أن رأيناه من مدح السلطان في الفصل الأول ، نرى - من كل ذلك - حفاوة الأدباء الكبرى بالخلافة وحبهم الشديد عليها حتى خمود نار هذه الحرب العظمى فماذا كان الحال بعدها ؟ ذلك ما نأتى اليه .

(ب) الخلافة بعد الحرب الأولى :

انتهت الحرب الأولى بانتصار الحلفاء على العثمانيين الذين حالفوا ألمانيا ، وقد كان من أثر ذلك أن وقعت القسطنطينية عاصمة الدولة تحت قبضة الحلفاء وسيطروا عليها ، وأرغموا العثمانيين على الموافقة على معاهدة " سيفر " ^(١) (١٣٣٨ / ١٩٢٠ م) والتي أباحت المضائق المائية التركية وجعلتها تحت الرقابة لحرية مرور السفن فيها ، عندئذ دب الحزن والذعر في الأمة من هذا المصاب العظيم ، كيف وقد وقعت دار الخلافة فريسة للصليبيين يدبرون بها ما يريدون ، والذي زاد من عظم البلاء غلبة الشعـور اليائس واستبعاد أى محاولة لطرد هؤلاء الحلفاء ، غير أن الأمر فجأة يتغير ، ففي غمرة هذا اليأس تتوالى الأنباء بتمرد الاتراك على الحلفاء فى الأناضول بقيادة (مصطفى كمال) وتتوالى الانتصارات حتى تمكن هذا الجيش من طرد اليونان من الأناضول نهائيا فى (١٣٤٠ / ١٩٢٢) .

حينئذ تدب الحماسة والفرح في الشعوب الإسلامية ويتبارى الشعراء والكتاب فى إطراء هذا الجيش وقائده ، إنه هو الذى أعاد حياة الدولة وسيرد مجد الخلافة ، وحين تقرأ ماكتبه فكرى أباطة فى ابتهاج المسلمين بهذا النصر تشعر بقوة العاطفة الاسلامية التى مازالت ترتبط بالخلافة ، فمن سخريته بهؤلاء المتحالفين يقول : ^(٢)

(١) انظر شروط معاهدة سيفر فى : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى - عليها ٢٤٥ / ١ وما بعدها .

(٢) اللواء ١٨ سبتمبر ١٩٢٢ م - عن الاتجاهات الوطنية ٢ / ٢٨ ، ٢٩ .
وانظر مقال اخر مثله يمجّد انتصارات الكماليين هذه فى المنار - مجلد ٢٣ - ج ٩ - ٣٠ ربيع الاول ١٣٤١ - ١٩ نوفمبر ١٩٢٢ م .

" خير لكم أيها الأروام أن تهجروا من اليوم ميادين الحروب إلى براميل المشروب ، وان تستعوضوا عن بلاد الأبطال المغاوير بفتح الخمامير وتربية أسمن الخنازير ، وان تسدُّوا نفقات الصليب الأحمر من بيع البصل الأحمر وأن تعودوا كما كنتم جرسونات من أن تعيشوا جنرالات بدون أليات .

أنتم أيها الأروام في العدو أسرع من الخيول ، فقد سابقتم الأتراك في مسافة أربع مائة ميل ، فوصلتم أزمير قبلهم ، وقفزتم من الشاطئ الأسوي إلى جزر الأرخبيل ، فقد متم الدليل القاطع على أنكم أبطال الألعاب الأولمبية ، وأنكم النوابغ المُبرِّزون في الجري والنط والقفز وسائر الألعاب أيها الأحاب .

وبعد أن يُمعن في السخرية باليونان التي منّتها بريطانيا بأجزاء من بلاد العثمانيين ، ويحذر قادة مصر من تسرب اليونان إلى مصر يختم مقاله بالترحيب الحار بهذا الجيش الظافر :

" حياكم الله أيها الأبطال . أنتم أبناء الموت وبنو الكريهة وخواضوا الغمرات ! انتم أبناء الحقائق ، وأبأة الذل ، وحملة الصارم اليتار .

يُمينا لاتعيدوا السيف الى قرايه ، حتى تعيدوا كل وطن مغتصب الى أصحابه وطلابه ، أيها الأعداء ، ان تركيا لم تمت ، وان تركيا لن تموت" .

ومع ذلك فقد وجدنا الكماليين بعد هذا النصر يسيطرون على القسطنطينية ويعلنون عزل السلطة عن الخليفة (وحيد الدين ١٩١٨ م) الذي طلب الحماية الانجليزية لكي يطالب بحقه في السلطة فيما بعد ، ثم يعلن " مصطفى كمال" فصل الدين عن الدولة ويُعين السلطان "عبد المجيد" خليفة في الدولة - لاسلطان له - ويذيع قيام الجمهورية ، ويجعل أنقرة عاصمة للجمهورية الحاكمة بدلا من القسطنطينية .

ولذلك كانت هذه التغييرات - التغريبات - والتقلبات الجديدة موضع استغراب واستهجان في الأمة الاسلامية يومئذ ، لكن الانتصارات التي سبقتها جعلت كثيرا من الكتاب والمفكرين يغيضون الطرف عنها ولا يطعنون فيها ولقد ساعد على هذا السكون مقت الأمة يومئذ على السلطان وحيد الدين الذي اهدر دم " مصطفى كمال" الذي ظهر في تلك الانتصارات في صورة البطل المنقذ للأمة مما نزل بها ، بينما الخليفة راضخ في القسطنطينية لما أملاه

الحلفاء ، وزاد من هوان هذا الخليفة أنه طلب الحماية فى بارجة بريطانية عندما أحس بأنه خليفة لا سلطان له عندما نُزعت السلطة منه .

وازاء هذه المواقف تباينت الآراء فى هذه التغيرات لكن أكثرها مالت إلى تأييد مصطفى كمال الذى يُقاوم الحلفاء المتآمرين عليه وعلى الأمة فكان ثمة من يُبرّر أعماله بهذه الظروف الصعبة وإن رأى بعض الكتاب ألا يتعجلوا الحكم عليه حتى تتبين الأمور ، والتى كانت الحرب تحد د اتجاهها والطريق الذى تسير فيه (١) .

وفى مصر تحدثت المعركة حول هذه التغيرات عندما قدم الشيخ (مصطفى صبرى) (٢) شيخ الاسلام فى الدولة العثمانية فارا من الكماليين (٣) - وأخذ ينبه المصريين الى ما يضره الكماليون من سوء نية وفساد للإسلام والمسلمين بهذه التغيرات ، واذ يعجب الشيخ من كثرة ما يرى فى مصر من الكيل الوافى والثناء على الكماليين بلا تحفظ بينما دعاة الحق وأنصاره لا يقولون الحق إلا همسا ثم لا يجدون من يصغي اليهم ، تراه يعرض مكان الخلافة من الحكم الاسلامي الصحيح داعيا إلى إقامتها ، ثم يتساءل لماذا اختص الكماليون بالسلطة ورفضوا الخلافة لأنها - اى الخلافة - هى التى

(١) راجع مقالا فى المنار مجلد ٢٣ - ج ٩ - ٣٠ ربيع الاول ١٣٤١ - ١٩ نوفمبر ١٩٢٢م بعد ان يمجّد الكماليين فى انتصاراتهم ينكر عليهم ما ابتدعه فى امر الخلافة المجردة من السلطة ، ولكنه يدعو المسلمين إلى تأييد الكماليين فى موقفهم العام أمام الحلفاء الذين سيتفاوضون معهم فى (لوزان) ويرى مناقشة هذه الأمور بعد أن تستقر الأمور .

(٢) مصطفى صبرى - عالم وفقه تركي ولد ١٢٨٦ ، تولى مشيخة الإسلام فى الدولة العثمانية وقاوم حركة العلمانية التغريبية التى نفذها مصطفى كمال ، وهاجر بسببها إلى مصر . ٣٤ وكان له ردود ومعارك مع كثير من المفكرين المصريين الذين كان فى آرائهم جنوح عن الحق وأكثرها فى كتابه (موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين) مطبوع فى اربعة اجزاء وتوفى بالقاهرة ١٣٧٣ / ١٩٥٤ م . انظر مقدمة الكتاب المذكور ط ٢ - ١٤٠١ / ١٩٨١ م) دار احياء التراث العربى - بيروت ، الاعلام - خير الدين الزركلى ٢٣٦ / ٧ .

(٣) انظر الاتجاهات الوطنية فى الادب المعاصر ٣٣ / ٢ - ٣٦ .

تصبغ السلطة بصفة دينية ، ولذا يرى الشيخ أن هذا كاف لجلاء حقيقتها —
التي تريد السلطة المادية وتعرض عن الخلافة الدينية .

ثم يضيف تساؤلاً آخر : عن معرفة أسباب وحاجة هذا الفصل بين
السلطتين ، كما أنه كان المتصور أن يترتب على انتصار الكماليين عللاً لكلمة
الله أن كانوا جنده كما يدعى لهم كثير من كتاب مصر ، ثم يقول (١) :
" أرونى حكومة إسلامية تمكنت من الجمع بين السلطة والخلافة ،
وأقرها عامة شعب المسلمين عليه . . فردته تلك الحكومة نفسها وأبعدته عنها
كما صنعتها الفقه الكمالية ؟ فما رامت هذه إلا التخلص من ربقة الخلافة والتباعد
عنها " .

ومع خبرة الشيخ " مصطفى صبرى " بحقيقة الأمر لأنه من أهله فقد
قوبل بكتابات عنيفة ساخرة لاتليق بمثله ، وكُتبت ردود عليه مناصرة للكماليين ،
ظنا أنهم حماة للاسلام الذين سيقومون بنصره ، وحسبك أن تقرأ وجهة نظر
هؤلاء المعارضين للشيخ فى مقال طويل كتبه الشيخ محمد شاكر (٢) يبدأه
بالثناء على أبطال الشرق (الكماليين) ورجال المجلس الوطنى الكبير
وحماة الاسلام فى أنقره ، ثم يهاجم السلطان وحيد الدين الذى احتسمى
بالانجليز ، ويبين مافعله الانجليز من كيد للمسلمين فى تلك الحرب ، إذ جهزت
مصر تحت ضغطهم جيشاً جرّاراً حاربت به الخليفة فى العراق وسوريا
وفلسطين وغيرها حتى أوقفوهم فى وجه خليفتهم ، واذ يصل الكاتب من ذلك إلى
تبين جرم وخيانة هذا السلطان يشير إلى منشور السلطان وحيد الدين الذى
أذاعه قبل مغادرته القسطنطينية ، ودعا فيه المسلمين لمناهضة الكماليين

(١) الا هرام ٢ ديسمبر ١٩٢٢ عن الاتجاهات الوطنيه ٣ / ٣٤
وانظر لمزيد من آراء هذا الشيخ عن فصل الدين عن السياسه فى كتابه
موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين ج ٤
" الباب الرابع " .

(٢) الشيخ محمد شاكر قاض وعالم مصرى ولد ١٢٨٢ بمصر وكان من أعضاء
هيئة كبار العلماء بها ووكيلاً للازهر ومن أعضاء الجمعية التشريعية
وكان بجانب ذلك كاتباً فى شئون السياسة المصرية ومناصراً للحركة
الوطنية وتوفى بالقاهرة ١٣٥٨ / ١٩٣٦ م .
انظر : مجلة الكتاب ٢ / ٤٢٣ ، الأعلام ٦ / ١٥٦ .

ويقول (١) :

" . . . يذيع هذا المنشور فى الاستانة وحيد الدين بن عبد المجيد عامله الله بما يستحقه ، وهو على أهبة السفر مغادرا ملك آبائه وأجداده ملتجئاً الى الدولة البريطانية ، معلناً أنه بصفته خليفة للمسلمين يطلب الحماية الأنكليزية ، ولا يستحي من الله ورسوله ، ولا من الشعب الذى وجه إليه هذا النداء ولا من الأمم الإسلامية التى يزعم أنه يتكلم باسمها كخليفة للرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم ، ولا يشفق على تاريخ آبائه وأجداده ، ولا على التاج الذى دنسه بالالتجاء إلى وضعه تحت الحماية الأجنبية ، فسحقاً لمدنسي شرف الإسلام وعز الأوطان حيث كانوا ، ثم سحقاً سحقاً . "

واذ يتساءل عن نظام السلطة العثمانى " أفلا يجد رب المسلمين بعد هذا أن يفكروا فى قلب هذا النظام العتيق رأساً على عقب ، حتى يُنقذوا الاسلام والمسلمين من هذه الكوارث ، وحتى يضعوا حداً لتصرفات البلاط الشاهانى والباب العالى فى الشؤون الإسلامية العامة ؟ " .

ثم يمضى يُذكر المسلمين بمآلهم تحت سياسة الخلفاء هؤلاء اذ خسروا عواصمهم التى حفلت بتاريخ مجد هم كبغداد ودمشق وبيت المقدس والقاهرة ، وكادوا أن يخسروا " عاصمة العواصم الإسلامية على ضفاف البوسفور والدرديل وهى البقية الباقية للإسلام من دور الخلافة العظمى والعواصم الكبرى ، بعد ما خسر الإسلام عواصم تونس والجزائر ومراكش وطرابلس ، وعواصم أخرى لا تُعد ولا تحصى فى مشارق الأرض ومغاربها " .

واذ يعزوا للكماليين انقاذ الاستانة مُقرأً لها بالزعامة ولآل عثمان بالخلافة لا يريد فرد الخليفة يتحكم فى مقدّرات الأمة " فمنبع الحركة والسكون هو العالم الاسلامي ، والخليفة مظهر لهذه الإرادة لا منبعها ، وفى اعتقادى أن رجال المجلس الوطنى الكبير فى انقره انما قصدوا إلى تحقيق هذه الغاية الشريفة حينما خلعوا السلطان محمد وحيد الدين ، وقرروا انتخاب ولى عهده عبد المجيد بن عبد العزيز خليفة للمسلمين ، فبايعوه بالخلافة ، وبايعه

(١) الأهرام عدد ٥ ديسمبر ١٩٢٢م - ١٦ ربيع الثانى ١٣٤١ عن الاتجاهات الوطنية ٣٤ / ٢ ، ٣٥ .

المسلمون في مشارق الارض ومغاربها (وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله) . . . " .

وإذا كان الرأيان السابقان متباينين في فصل الخلافة عن الدولة فان ثمة بعض الآراء التي تميل إلى الاعتدال بين الرأيين السابقين ، فهي إذ ترى أن الأصل في الخلافة عند المسلمين أنها منصب ديني وسياسي معا ، وما قامت به تركيا الكمالية من فصل بين السلطتين يجعل من غير الضروري أن تدبى البلاد الاسلامية للخلافة التركية ، وفي هذه الحالة ليس هناك ما يمنع أن يكون الأمر شورى بين المسلمين لا انتخاب خليفة لهم ، وفي ذلك موافقة لحقيقة الاسلام في تنصيب الخليفة بعدما مضت بها قوة الملوك وعصبياتهم الى التوارث فيهم^(١) . ولعل هذا الرأي الأخير جاء بعد أن خفت حدة المناقشة بين الرأيين قبله فتناولها في نقاش هادئ وحياد في الرأي لا يميل إلى طرف أو يتحامل على الآخر .

ج (كارثة سقوط الخلافة :

لم تنته المناقشات في الأعمال البدعية الكمالية بعد ولذا بالقارعة تدوي بازعاج شديد يقرع أسماع الأمة ، ويفجأهم بما لم يكونوا يحتسبون ، ففي سنة ١٣٤١ - مارس ١٩٢٤ م حين مكن لمصطفى كمال في رئاسة تركيا يعلن إلغاء الخلافة الإسلامية نهائيا ويطرد الخليفة (عبد المجيد بن عبد العزيز) وآله وأسرتهم إلى خارج تركيا ويستولى على أموال آل عثمان وممتلكاتهم كما يأمر بإلغاء الوظائف الدينية وامتلاك الدولة لكافة الأوقاف^(٢) .

وبذا يكشف مصطفى كمال عن حقيقته ويعرض - بعد شك وجدل حوله - صفحته الشوهاء ونواياه القبيحة السوداء .

وفي هذا الجو المكفهر والوقت العصيب من تاريخ أمة الاسلام ، وقد

(١) هذا ملخص رأى د . طه حسين في مقال له بعنوان (مسألة الخلافة) انظره في : السياسه ٥ نوفمبر ١٩٢٢ م .

(٢) انظر : تاريخ الدولة العلية العثمانية محمد فريد - تحقيق : احسان حقى ٧٥٥ .

فات الأوان وبلغ الكتاب أجله ولم تجد الأمة من يرفع الكرب أو يسكن روع المصاب قامت النوادب وتعالى العويل وأطبق الحزن بجلاله الكئيب على النفوس، ولم يجد الكتاب والشعراء صبرا يكافى عظم الخطب وفداحة الرزء ، فانطلقوا يبيكون الخلافة بدموع سخينة وأنفاس مكظومة ، تندب ذلك الراحل العزيز كما تندب الأم وحيدها ، إذ كيف يُمكن أن تزول هذه الخلافة التي لم تعهد الأمة - على امتداد تاريخها - سقوطها وإلغائها ، ثم أخذوا بالسنة حداد فى قذف هؤلاء البغاة أعظم مجرمى التاريخ ، والكشف عن مخططاتهم التي أصبحت ماثلة للعيان ، وتبيين مسلك هؤلاء المارقين فى مسخ الأمة ومحاربة كل ما يتصل بدينها ، وما يقودونها فيه من سبيل التغريب والتضليل والضياع وكان من هذا الانقلاب الخطير أدب غزير يسامقه ويرسم مناحي النفوس التي هزها بخطورته وأهميته هذا عنيفا (١)

فذا كاتب يناقش فى تعقل وشفقة هذا الحادث الجلل (٢) ، ومادفعه إلى ذلك الأسلوب إلا إقناع من لا يرون ما يذهب إليه صوابا إن لم يسخروا منه ويعدون هذا الأمر أحد أعمال النهضة فى تركيا ، وإذ يبدأ الكاتب بإقرار الرابطة الاسلامية بين العرب والترك العثمانيين أيام الخلافة قائمة، حيث المشاعر واحدة ، والأحاسيس متقاربة ومتيقظة ، يفرحون لفرحهم ويأسون لمصائبهم ، لكن ماذا يكون الحال حين وقعت هذه الكارثة ؟ لقد تغير الحال كما يرى الكاتب " فخابت من الناس الظنون ، وتحطمت الآمال ، وتصدعت القلوب ، ووقفوا وقفة من أصيبت آماله فى أخ صميم أو صديق حميم ، يراه قد ركب رأسه ، واشتط فى هواه يقطع أواصر الأخوة ويصرم حبال المودة . . . " .

أمّا ما يقال عن صحة الخلافة وجدواها أو ضررها على الدولة فمنها " يَفْتَنُ المجالدين فى تبيان ما جلبت على الدولة من مصائب ورمتها به من عداوة أوروبا ، فلا ريب عندي أن الخلافة ما أضرت بالدولة العثمانية قط بل نفعتها أحيانا ، ما حاربت أوروبا العثمانيين بما كانوا دولة الخلافة ، بل بأنهم دولة مسلمة شرقية " فلم تكن الحروب نتيجة الخلافة بل الخلافة نتيجة

(١) انظر جملة من هذه الكتابات فى : الاتجاهات الوطنية فى الادب المعاصر ٢ / ٤١-٤٧ ، جريدة الاهرام أعداد شهر مارس ١٩٢٤ م .
(٢) عبد الوهاب عزام - الرسالة : السنة الثالثة - ج ١ ص ٩٤-٩٤٣ - مقال : النهضة التركية الأخيرة .

الحروب وهذا ما جعل العثمانيين يحرصون على ادّعائها في العصور الأخيرة ولو كانت غارات أوروبا عليهم لأجل الخلافة فلماذا قضاوا على دول إسلامية كالتيمورية في الهند والسعديين في المغرب ووالوا الغزو على المسلمين شرقاً وغرباً ؟ .

كانت الخلافة على ضعفها تُهدّد قوى الاستعمار وترهبه فهي على وهنها في ذلك الزمن كانت " علماً ينظر إليه المسلمون إن لم ينحازوا إليه ، وتنضوي إليه آمالهم إن لم تنله أيديهم ، وتعتربه نفوسهم وترى في خفقانه ذكرى الماضي العظيم ، وتباشير المستقبل العزيز " .

أمّا إلغاء الخلافة في تلك الخطوب المكفّرة فهو " كحل رباط حزمة من القصب في ريح عاصف بلغت من المسلمين أسوأ مبلغ ، وبلغت أعداءهم أبعد غاية . لا ينكر هذا إلا جاهل بطبائع الأمم أو غبي عن تاريخ المسلمين وأحسب أن الانجليز - مثلاً - كان يهون عليهم أن يبذلوا ملايين الجنيهات ليلغوا الغاية التي بلغّهم إياها الكماليون بغير بذل ولا كدّ .

ولا ريب أن الترك حين دفعتهم نشوة الظفر على اليونان إلى إلغاء خلافة الإسلام قد أخروا دولتهم عن صف الدول العظيمة إلى صف الدول الصغيرة ، فهم اليوم في صف دول البلقان ، وأن دول العالم العظيمة كانت تتمنى أن تشتري مكانة الترك بين المسلمين بالجهد الطويل والمال الوفير ، طيبة نفوسهم بما بذلوا وما نالوا . . . ذلك شرّ أصاب المسلمين لا محالة ، وإن عجز عن إدراكه الثائرون في غبار الثورة فقد أدركه البعيدون يقيناً ، وبكوا من أجله طويلاً " .

وتخرج الأهرام (١) على الناس بمقال عنيف يُندّد بضخامة ما اقترفته الكماليون وأنه " ما رمي الإسلام بسهم أو هي لجلده وأوهن لعضده وأدمى لكبده ، من هذا السهم الذي رماه به الكماليون ، أحنى ما كان وأشدّ ما كان سكينه واسترسالاً إليهم ، وما استطاع أعداء الإسلام أشدّ ما كانوا به ائتماراً وأعدى ما كانوا عليه عدواناً ، وأصدق ما كانوا رغبة في الكيد له والنكاية فيه أن يبلغوا منه ما بلغه هؤلاء الكماليون على مرأى ومسمع من المسلمين جميعاً

(١) عدد ١٤ مارس ١٩٣٤ م مقال " يا غربة الإسلام في موطنه " بدون ذكر كاتبه .

فإقدام الكمالين على إلغاء الخلافة أكبر جريمة فى عهد هذه الدولة على الدولة ، وأشنع جريمة فى تاريخ الإسلام على الإسلام .

فأي شرّ يحسب هؤلاء الملاحدة أنهم بإلغاء الخلافة يدفعونه وأي خير يظنون أنهم للدولة بذلك يجلبونه ؟ .

لقد نقضوا موثقاً أخذته عليهم ثمانية قرون وبعض قرن ، واطرحوا أمانة حملوها كل ذلك العهد العهد ، وخرجوا للمسلمين من تبعة لم يخرجهم منها أحد ، وحاولوا عبثاً أن يحلوا بيعة بعنق كل مسلم فى الأرض معقودة . لقد جردوا أمير المؤمنين من القوة التي تقوم بها إمارته بدعوى الفصل بين السلطتين ، وما أرادوا إلا الفصل بين عهدين ، عهد الدين الذي استدبروه وعهد الإلحاد الذي استقبلوه ، ثم صرح الشرع محضه ، وتكشفت النية عن خبثها ، فإذا هم يلغون الخلافة برأيهم ، ويخرجون بالخليفة من مقر خلافته فى جنح الليل ، كأنهم استحيوا أن يواجهوا بجريمتهم وضوح النهار ، وودّوا لو استطاعوا أن يخفوا جريمتهم عن مسلمي الأمصار .

لم يكتف مصطفى كمال بحل الخلافة الإسلامية بل أتبعه بخطوات أخرى جريئة فى سبيل التغريب والتضليل والبعد بالأمة عن ميراثها الإسلامى والدفع بها فى التشبه بالغرب واللاحق به ، ولقد أسرف الكمالين فى هذا الاتجاه ليطمسوا معالم الإسلام مما لفت الأنظار إلى هذا الأمر ، فسجل بعض الكتاب الغيورين هذه الأعمال كاشفين المغزى الكبير من وراءها ، فهذا الزيات يكتب فى استفهام وسخرية عن هذه الموجة المضللة العنيفة ، ويصور الكمالين وهم يغذّون السيروى يستحثون الخطى فى هذا الطريق التغريبى ويتساءل الكاتب كأنه لا يعرفهم (١) : " من السائرون فى شجوب الأصيل على حدود المغرب ، يسرعون الخطى كأنهم هاربون من النهار ، ولا يلتفتون إلى الخلف كأنهم ناجون من سدوم ؟ ! من السائرون بين النور والظلام على درب الخادع المبهم ، يخفقون كأطياف المساء على حواشى الطفل ، ويطمسون الطريق من وراء حتى لا يرجعوا إلى الأهل .

إنها أمة من صميم الشرق نشأت فى نوره ، وطُبعت على شعوره ،

وتنفست فى عطوره ، ألفت زمامها الأقدار الغالبة فى يد عصبة من أبنائها ، رُبّوا فى غير أحضانها فنشأوا على غير منشئها ، وجروا على خلاف مبدئها ، فقطعوها بالكره عن مشرق الشمس ومبعث الروح ومنبت العاطفة ومنشأ الدين ، وخرجوا بها متعسفين إلى طريق مشتبه ، وغاية مريبة ، ودنيا مجهولة ، ثم قالوا لأنفسها إنسلخي عن شرقيك بأمر القانون ، ولقلوبها إعتقدي غيير عقيدتك بحكم القوة ، ولألسنتها أنطقي غير لهجتك بإرادة الحاكم ، ولحاضرها انقطع عن الماضى بسطوة الجمهورية ، ولأرضها وبيئتها وطبيعتها انفصلن عن آسيا باذن الحكومة ! كأنما الأمم تُصاغ بالقوانين ، والطبائع تُغَيَّر بالأوامر !! .

مهلا ساقطة الظعن وهداة القافلة !! ! سترحلون عن وطن إلى غربة ، وعن ولاء إلى عداوة ، وعن إخوة إلى سادة . ماذا نقمتم من الشرق مهد الإنسان ومهبط الأديان ومنبع الإلهام ومسرح الأحلام ومبدأ النشأة ؟ ألم يخلق اليابان اليوم كما خلق الصين والهند وبابل والفرس والعبران والعرب بالأس ؟ .

وبعد أن يأمل الكاتب للشرق نهوضا فى مستقبل الأيام كما لاحت بشائره يذكر تلك الأعمال القبيحة التى أقدم عليها الكماليون لسلخ الأمة عن جنسها الإسلامى وطبعها الشرقى كإلغاء الكتابة بالعربية وتغيير الأعياد ونزع الطربوش وغيرها ، غير أن أكبر الأخطاء هى حين علّوا أخطاءهم وأسباب نكباتهم بسبب الخلافة فنفوها من الأرض وتحيفوا ما يلبسها من شريعة وعروبة ودين .

وأخيرا يناقش مصطفى كمال فيما يظنه التعمير وهو تدبير ، وما نتائج هذه الأعاصير الهوجاء ، إنه سيسجل عليه الرقيب " إنك أحييت دولة وأمت أمة ، وبنيت دستورا وهدمت عقيدة ، وبعثت لغة ودفنت ثقافة !

ما جريزة العرب على الترك وقد استخلفوهم على الدين واستأنوهم على الرسالة ، وما جريمة الإسلام على الترك وقد نعشهم من الخمول وأجارهم من الجهالة ؟ وماذا يبقى من لغة الترك وثقافة الترك إذا محوت أثر العروبة ودينها من كل ذلك ؟ .

إن العرب ليسوا أقل شأنا من الطليان والجرمان ، والإسلام ليس

بأضعف فى رفع الشعوب من وثنية اليابان ، ولكنها موجة من المادية الطاغية غشت على الأبصار وطغت على البصائر، ستتحسر غمرتها عن مجالي الفضيلة والحق ولو بعد حين !"

ويكتب مصطفى الرافعى فى تصوير بارع عن انحراف أتاتورك متخذا أسلوب الرمز حيث سماه بالطاغية مبينا سيرته التي بدأها متظاهرا بتأييد الإسلام ليجمع حوله الأمة، حيث أمر بعمارة المساجد والمدارس وأحضر له علماء ليفقهوه فى الدين ، بيد أن النزعة اليهودية عند هذا الطاغية لا تلبث أن تغلب عليه لأنه يريد الربح من أى سبيل كان ، فعندئذ تتغير حاله وينقلب أمره فيهدم كل ما بناه ، وعندها يودي بحياة كثير من الرجال والصناديد بالشنق والتعذيب ، ويوغل فى عصبية التركي حتى يكاد يجن لمحو كل ما يصل الترك بالعرب ، ويرى أن دين الإسلام خرافة وشعوذة على النفس ، ومما جاء من الصور التي تدل على رعونة هذا الطاغية وطيشه كما صور الرافعى (١) أن " سخر منه المصريون بنكتة من ظرفهم البديع ، وجاءوه من غريزته ، فصنعوا امرأة من الورق الذى يشبه الجلد ، وألبسوها خُفًا وإزارها ، حتى لا يشك من رآها أنها آدمية ، ثم وضعوا فى يدها قصة وأقاموها فى طريقه ، فلما رآها عدل إليها وأخذ من يدها القصة وقرأها ، فإذا فيها سب له ولآبائه ، وسخرية من جنونه ورعونه المضحكة ، فغضب وأمر بقتل المرأة ، فكانت هذه السخرية أخرى حين تحقق أنها من الورق " .

أما عن سعيه لهدم كل ما ورثه الأبناء عن الآباء من دين وأخلاق وأعراف فيقول الرافعى عنه " يزعم الطاغية أنه يعز قومه وما أراه يعزهم ، ولكنه يمتحن ذلهم وضعفهم وهوانهم على الأمم ، يتجرأ شيئاً فشيئاً ، متنظراً ما يتسهل ، مترقباً ما يمكن ، وهو يرى أن أخلاقنا الإسلامية هى أمواتنا دفنوا أنفسهم فينا ، فمن ذلك يهدم الأخلاق ويظن عند نفسه أنه يهدم قلوباً لا أخلاقاً . . . يزعم الطاغية أنه سيهدم كل قديم ، وإنني لأخشى والله أن يأمر الناس فى بعض سطوات جنونه أن كل من كان له أم أو أب بلغ الستين فليقتله . لتخلص الأمة من قديمها الإنسانى ! ، كأنه لا يعرف أنه إنما يتسلط على أيام معاصريه لا على التاريخ ، ويحكم على طاعة قومه وعصيانهم لا على قلوبهم

وطبائعهم وميراثهم من الأسلاف، فما هو إلا أن يهلك حتى ينبعث في الدنيا
شيئان : تن رمته في بطن الأرض ، وتن أعماله على ظهر الأرض . إن هذا
الرجل المسلط كالغبار المستطار لا يُكس إلا بعد أن يقع " .

وبمثل هذا النهج الرمزي أيضا صاغ الرافعي مقالته " كفر الذبابة " ^(١)
لمعالجة فكرة الطغيان والتسلط الكامل، وإن كان قد اتخذ من " كليله ودمنه " ^(٢)
والحوار فيما بينهما أسلوبا لمقالته .

ويخاطب على الطنطاوي ^(٢) أيا صوفيا الذي عمد الكمالين إلى
جعله متحفا، ولكنه يبدأ بمناقشة حكومة الكمالين التي " عمدت إلى بيت من
بيوت الله ، تقام فيه شعائر الله ، فجعلته بيتا للأصنام ومثابة للوثنية ، أمتت
فيه التوحيد ، وأحيت فيه الشرك ، وطمست منه آي القرآن ، وأظهرت فيه الصور
والأوثان ، لم تضق بها الأرض حتى ماتجد مكانا لمتحفها هذا إلا المسجد
الجامع ، ولكن النفوس الموحدة ضاقت بهذا المسجد ، وأحس أصحابها كأن
هذه المآذن في عيونهم ، وكأن هذه القبة على ظهورهم ، وغشيت أبصارهم
من نور الله ، فأرادوا ليطفئوه بأفواههم ، ويمنعوا مساجد الله أن يذكر فيها اسمه
فعُطّلت الصلاة في أيا صوفيا فلا تقام فيها بعد اليوم ، وسكت الموءذن فلا
يدعو في مآذنها إلى الله ، ولا يصدع بالتهليل والتكبير ، ونأى عنها الموءنون
فلا يدخلوها إلا مستعبرين باكين ، يندبون فيها مجد الإسلام وعظمة الخلافة
وجلالة السلطان " .

ليست أيا صوفيا شيئا تافها حتى تُمحي بكل هذه السهولة ، وإنها
أمجاد أمة وعظمة تاريخ وميراث عز ، ولذا يقول الكاتب عنها " أيا صوفيا التي
تشهد كل حجرة فيها ، وتشهد أرضها وسماؤها ، وتشهد قبتها المشمخة
وتشهد مآذنها السامقة ، ويشهد الناس ، ويشهد الله وملائكته ، أنها بيت من
بيوت الله ، وحصن من حصون التوحيد ، ودار من دور العبادة .

(١) انظر : وحى القلم ٢ / ٢٢١ .

(٢) الرسالة - السنة الثالثة - المجلد الاول ص ٨١٢ ، مقال : أيا صوفيا
وانظر أيضا : المجلد نفسه ص ٥٤ مقال : حرب منظمه يشهرها
الكمالين على الاسلام - لمحمد عبد الله عنان .

أيا صوفيا تعود للحِبت والطاغوت ، وتحمل الصور والأصنام ،
ويخسرها الإسلام والشرق ، ليربحها الكفر والغرب ؟ .

لقد أريقت حول أيا صوفيا دماء زكية ، وزُهِقت في سبيل أيا صوفيا
أرواح طاهرة ، من لدن معاوية إلى عهد الفاتح ، إلى عهد الحميد ،
أفراحت الدماء هدرا ، وذهبت النفوس ضياعا ، وعادت أيا صوفيا بعد سبع
وشمانين وأربعمئة سنة وكأنما لم يذكر فيها الله ، ولم يتل فيها القرآن ، ولم تقم
فيها الأئمة ، ولم تتجاوب مآذنها بالآذان ؟

لقد بنى المسلمون هذا المجد على جماجمهم ، وسقوه بدمائهم ، وحموه
بسيوفهم ، ثم وقفوه على الإسلام ، أفيأتى في ذيل الزمان من يعيث بالوقف
ويهزأ بالدماء ، ويلعب بالجماجم ، ثم لا يردعه رادع ، ولا يعظه واعظ ؟ "

أما تعصب الكمالين لعنصريتهم الطورانية فيسخر منها الكاتب في
استفهام إنكارى قائلا : " ومن هم الأتراك لولا الإسلام ؟ على أي حسب
يتكلمون ، وبأي نسب يفخرون ، وبأي ماض يعترفون ، وبأي مجد يباهون ؟ أجمد
رعاة البقر في تركستان ، أم بمجد أرطغرل بك ، وقد جاء من مشرق الشمس
بدويا جافيا فقيرا لا يملك إلا أعنة ركائبه ، وطنب خيامه ، يفتش الغبراء
ويلتحف السماء ، فصار أحفاده بالإسلام سادة القارات الثلاث ؟ أفأريت من
ينطح برأسه الصخر ، ويشرب بفيه البحر ، ذلك هو التركي حين ينكر الإسلام
ويسعى لإيذائه ، إنه لا يحطم الصخر ولا يجفف البحر ، ولكن يمشي على رأسه
إلى القبر ، وإن الإسلام إلا يكن بالترك يكن بغيرهم ، ولكن الترك إلا يكونوا
بالإسلام والله لا يكونوا بغيره أبدا . . . " .

رغم الحزن الذي انتاب الأمة لسقوط الخلافة وماتلأه من أعمال المسخ
والتغريب والبعد بالأمة عن كل مقوماتها الإسلامية التي بأشترتها عصبنة
الكمالين فإن لهذا الحدث آثارا أخر ظهرت في تلك الكتابات التي
كانت تعتذر بحرارة ، وتأسف لما دبّجته من بيان لنصرة مصطفى كمال قبل أن
يكشف قناعه ، وهي في الجملة تهاجمه وتذم صنيعه ، وتتم عن خطورة ما أقدم
عليه وضرره المحقق . بالأمة ، وبجانب ذلك كانت ثمة كتابات أخرى ترثي لحال
خليفة المسلمين ولماله الحزين ، وتريد أن تُعرّف الأمة بأخباره وأسرته

وأحوال المطرودين من آل عثمان ، ودعوتهم للنزول إلى بلاد المسلمين أنى يريدون منها (١) ، وكأنما هؤلاء يريدون إعادة الكرة وتخطيط الأمر من جديد لمحاولة إعادة هذا الخليفة وأسرتهم إن أسعف الزمان ، ولكن الأمر كان أعظم مما يتصورون ، إذ قد نُفي الخليفة إلى أوروبا ليعيش مغزولا عن المسلمين ، لتضرب عليه الذلة ولا يستطيع هناك أن يبتغى نفقا في الأرض أو سلما في السماء .

د (ما بعد سقوط الخلافة :

رغم القضاء المبرم الذى حلّ بخلافة المسلمين ليمحوها من الوجود تجد الأمة الإسلامية - مع فداحة الخطب - لم تقطع العهد بالخلافة أو تياس منها استسلاما للواقع أو رضى به ، فقد قامت المطالبة بإحيائها وإعادة تها فور تأكد سقوطها ، مما يدل على المكانة العظيمة التي توليها الأمة لهذا النظام في الحكم وتعلقها به ، وإذا كانت الكتابات الأدبية والفكرية - وهي التي تُقصد هنا - قد أسهمت بنصيبها في هذا المجال فإن ثمة بعض الجهود العسكرية التي قاومت أعداء الخلافة متوخية بعثها لا تغطم في ما بذلته في هذا الميدان (٢) .

ولقد كانت مصر آنذاك هي التي ترعمت بحث مسألة الخلافة ، وطرحت مسائلها المتعددة على صفحات صحفها واحتدم النقاش حولها (٣) ، وبرغم المكانة التي كانت لمصر آنذاك وكما كان يتصورها دعاة الخلافة في زعمهم أنها أولى البلاد بها فقد كانت السياسة الخديوية للملك فؤاد (١٢٨٤-١٣٥٥) من

(١) انظر : الإتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ٢ / ٤١ ، ٤٢ .

(٢) قامت ثورة الطائفة النقشبندية في قبائل الأكراد بزعامة الشيخ سعيّد النورسى الكردي شيخ الطريقة النقشبندية في ديار بكر عام ١٩٢٥م للمطالبة بعودة الخلافة وإسقاط الجمهورية وامتد لهيبها إلى أنقرة فجرد لها مصطفى كمال حملة كبيرة استطاع بها أن يقضي على الثورة وعلى رئيسها ، وعمل على ترحيل قبائل الأكراد تفاديا لأي مقاومة أخرى .
انظر : السلطان عبد الحميد والخلافة الإسلامية ص ١٨٩ .

(٣) انظر التفاصيل : الإتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر : ٢ / ٤٧-٥٥

وراء ذلك (١) ، حيث كان الميل والطمع في حيازة عرش الخلافة الكبرى .

ورغم الجهود التي كان للأزهر ورجاله فيها أكبر النصيب فقد كان هناك حزبان مختلفان في الرأي : الأول الذي يتزعمه شيخ الأزهر وعلماءه الرسميون ، والآخر : تمثله جماعة الخلافة الإسلامية والتي ترى أن مصر لا تصلح للخلافة وتعارض ذلك .

أما الحزب الأول فهو الذي كان من ورائه الخديوى يشجعه ويسهل أموره ، فنشطت الدعوة لعقد مؤتمر إسلامي للخلافة غي داخل مصر ، وأصدر مجلة باسم المؤتمر العام للخلافة ، خرج عدد ها الأول في ربيع الأول سنة ١٣٤٣ (أكتوبر ١٩٢٤ م) ، تصدره مقال للشيخ محمد رشيد رضا أبان فيه أهمية المؤتمر ومطلوبه (٢) " فهذا أول مؤتمر إسلامي عام يشترك فيه علماء الدين و الدنيا من أكبر الشعوب الإسلامية وأوسعها علما وثروة ، وأشد ها بأسا وقوة ، والمطلوب الأول منه وضع نظام للإمامة العظمى يدخل في بابين (أحدهما) قواعد حكومة إسلامية مدنية يظهر بها علو التشريع الإسلامي على جميع ما اشترعه البشر في العدل والمساواة والجمع بين السياسة والفضيلة التي خلا منها اشتراع القوانين المادية ، (وثانيهما) قواعد للتربية والتعليم الجامعين بين هداية الدين ومصالح الدنيا وتوثيق روابط الأخوة الدينية بين المسلمين على اختلاف شعوبهم ومذاهبهم وتعدد حكوماتهم . . . وأما المطلوب الثاني فهو اختيار خليفة وإمام للمسلمين . . . " .

ويقول كاتب آخر بعد أن بين شرعية الخلافة وحاجة المسلمين إليها (٣) : " فإذا قامت مصر بالدعوة إلى عقد المؤتمر وتعميم الدعاية بإنشاء مجلة خاصة وإرسال الرسائل للتخاطب مع أهل الاختيار في البلاد الإسلامية فإنها بذلك قد قامت عن المسلمين كافة في أمر فرضه الدين ودعت إليه حاجة العمران ولعل المسلمين يتخذون من ماضي تاريخهم ومن الحوادث الحاضرة وأزعا يدفعهم إلى النهوض متفقين لا متفرقين . . . تحت راية خليفه واحد يحمي

(١) انظر مايوكد ذلك في : الاسلام واصول الحكم - على عبد الرزاق -

دراسة ووثائق - محمد عمارة ٨-١٤، ١٦ .

(٢) مجلة المؤتمر الاسلامي العام للخلافة (العدد الاول) ص ١٣ .

(٣) مجلة المؤتمر العام للخلافة ص ١٨٧ و الكاتب : محمد فراج المنياوى .

دينهم ويسوس دنياهم .

إن مسألة الخلافة من أمّهات المسائل باعتبار أنها قضية دينية، فالتخاذل فيها تخاذل في الدين تخاذل في أمور الدنيا ، فلننهض بأكبر مسألة حتى لا نجعل التاريخ يحكم علينا بأحكام قاسية مهينة لكرامتنا وسمعتنا في عصر العلم والنهوض، عصر العمل والتجدد والتعارف والتفاهم .

وعندما نشطت الدعوة إلى المؤتمر وحُدّد شهر شعبان ١٣٤٣ (مارس ١٩٢٥م) لعقده أجلّ عدة مرات ليتم انعقاده في ذى القعدة ١٣٤٤ (مايو ١٩٢٦م) وتجتمع الوفود المشاركة وتحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ، والنوايا غير مخلصة ولا واضحة ، وكلّ يريد أن يتجه الأمر إليه ، فانتهى المؤتمر بالفشل وخرج بلا ثمرة تُرجى ، وقد ساعد على نجاح هذا الفشل تلك التدابير التي سعت لتجعل فؤاد مصر خليفة ، واتضح أطماع ملك الأفغان (أمان الله خان) أيضا فضلا عن التدابير التي كانت تريد إحباط هذه النوايا ، إضافة إلى أن الملك حسين قد أعلن الخلافة لنفسه فور سقوطها في تركيا ، وهكذا تخرج كل هذه الجهود التي تروم الخلافة وإحيائها بلا جدوى ، وتلك سنة الله في أمة ابتعدت عن منهج الله القويم أن لا يُمكن لها حتى تعود إلى الأخذ بحقيقة دينها وتقيم حياتها على هديه " وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا " (١) .

في غمرة هذه الجهود لإحياء الخلافة كانت الكتابات لاتنقطع هي الأخرى حتى قامت الحرب العالمية الثانية ، فهذا الزعيم التونسي (عبد العزيز الثعالبي) (٢) يكتب عن داء الشرق الإسلامي ودوائه (٣) ، ويرجع الكاتب

(١) سورة النور : ٥٥ .

(٢) عبد العزيز بن ابراهيم الثعالبي زعيم تونسي خطيب وكاتب قاوم الفرنسيين في احتلالهم لبلاده فأنشأ بعض احزاب سياسية وأصدر مجلة وشارك في الاحداث السياسية فسجنه الفرنسيون ونفوه ، غادر بلاده متنقلا بين مصر وسوريا والعراق والهند شارك في حركاتها الوطنية ضد الاستعمار وعاد إلى تونس في آخر حياته وتوفي بها ١٣٦٣ . انظر : الادب التونسي ١٣٦/١ ، الحركة الادبية والفكرية في تونس ١٢١ .

(٣) مجلة المعرفة - السنة الاولى (١٩٣١م) ص ٢٧٢ ، ٥٣٤ .

(بزعمه) هذا الداء إلى عدم وجود العناية الكاملة في وضع الدعامات الثابتة لإقامة نظام ثابت للاجتهاد والخلافة والتشريع عند المسلمين كسي يجعلوا لها شروطا وقيودا تتطور بحسب حاجات العصر، كما يدعو إلى فصل الدين عن الدولة حتى تبقى وحدة الأمة الإسلامية غير معرضة للأخطار.

أمّا الدواء فهو عقد اجتماع لا يكون بجهود الأفراد ولا بجهود موضعيّه يستبدّ بها فريق عن فريق ، بل لابد لذلك من عقد اجتماع يتألف من عابرة المسلمين وفطاحلهم وزعمائهم ، ومن هؤلاء ينعقد مؤتمر يضع مناهج لتربية المسلمين وتعليمهم ، ويؤلفون اللجان الدائمة لتنشيط علمائهم واستثمار جهودهم ، وتسوقهم لإيجاد مقومات اجتماعهم ورسم الخطط الكافلة لتقدّمهم ودرء الأخطار الأجنبية عنهم ، وبشرط أن يُشرف هذا المؤتمر على أعمال هذه اللجان وينعقد دوريا ليضع الأساليب التي تجعل تلك القرارات تأخذ بالتنفيذ .

وعلى مقربة من انعقاد مؤتمر الخلافة تجد كاتبنا يتخذ طريق الرمز ويكتب عن " أول مؤتمر في الاسلام وماذا أثمر " (١) ويظهر لي أن الكاتب يتوخى من التذكير بمؤتمر " سقيفة بني ساعدة " تنبيه أعضاء المؤتمر الذي سينعقد في أمر الخلافة ، وليعلم المؤتمر أن الخلافة يجب أن تنأى عن الأهواء وتخلو من الریب والمحابة ، ويلزم فيها التجرد والإخلاص ، وأن يكون الهدف حفظ الأمة وصيانة الملة ، واستبعاد الأهواء السياسية والنزعات النفسية والميول الشخصية ، وليرغبوا في النصح لله ورسوله ولأمة الإسلام ، مقتدين باخلاص الصحابة في اجتماع سقيفة بني ساعدة في صدق التفاهم والمشورة مع الحرص على البعد عن الفرقة والشقاق .

وهذا الشيخ طنطاوى جوهرى (٢) يكتب في الخلافة الإسلامية (٣) ،

(١) مجلة المعرفة - السنة الثانية (١٩٣٢ م) ص ٤٤٨ ، كتبه : عبد الرحمن أبولين من دمشق - كلية الحقوق - الجامعة السورية .

(٢) طنطاوى جوهرى : عالم مصرى له اشتغال بالتفسير والعلوم الحديثه للتوفيق بينهما ، مارس التعليم في عدد من المدارس وألقى محاضرات في الجامعة المصرية وله عدة تأليف أشهرها تفسيره (الجواهر في تفسير القرآن الكريم) وتوفي بالقاهرة ١٣٥٨ ، انظر : الاعلام ٢٣٠ / ٣ ، مباحث في علوم القرآن - مناع القطان ٣٧١ .

(٣) مجلة المعرفة السنة الاولى (١٩٣١ م) ص ١٠٦٤ ، مقال : الخلافة الإسلامية .

وبعد أن يعرض وظيفة الخلافة في الاسلام مع شذرة من تاريخها ثم خروجها عما جاء به الاسلام يذكر رأيه في انتخاب خليفة للمسلمين ، وخلاصة رأيه أن يجتمع أمراء الإسلام المفوضون من أممهم في أمر الخلافة لينتخبوا أميرا منهم شريطة ألا يُبَرِّم الخليفة أمرا من صلح أو حرب أو غيرها إلا بمشورتهم ، ثم يحددوا مدة خلافته فإذا انقضت أعيد بالانتخاب بالشورى مع مراعاة أن يكون جيش الخليفة أقوى الجيوش ، وأن يكون أهل مملكته أعلم من سائر الأمصار .

وحين أشاع بعض الكتاب أن قيام الخلافة غير ممكن آنذاك لأن تركيا والمغرب لا تعترف بها ، ردّ عليه كاتب مغربي يبطل هذا الزعم^(١) ، وأن هذه الشائعة ربما وصلت عن طريق الصحف الاستعمارية أو تصريحات الرجال الرسميين ، والقول في الخلافة ليس من حق هؤلاء ولا أولئك إنما هو لإرادة الشعب المغربي الذي لن يُعارض مطلقا كل فكرة يستمد منها الإسلام والعرب القوة والمجد ، ويُنكر الكاتب عدم مساهمة المغرب في أمر الخلافة نظرا لوقوع المغرب تحت الحماية الفرنسية ، ويدحض الكاتب مقارنة المغرب بتركيا التي أخذت تتنصل من الإسلام ولكن المغرب يمسك على دينه بأيدي حديد ويريد إقامة شريعة الإسلام كما جاءت من عند الله .

وقبيل بزوغ الحرب العالمية الثانية نجد عباس العقاد يُناقش قيام الخلافة في مصر^(٢) حيث قد قامت الدعوة فيها أقوى وأكبر من أي بلد آخر بعدما أذكي الخديوي أمرها ، فينظر إليها من وجهة تكاد تكون سياسية ليخلص إلى أن الخلافة التي يلح المطالبون بها على مصر أن تقبلها فلن تقبلها مصر إلا إذا كانت معروضة عليها من الدول الإسلامية وكانت مفيدة لها ولهذه الدول التي تعرضها ، ولكن الأمر في مسألة الخلافة - عنده - على خلاف ذلك بل نقيضه ، فمن ثم فإن هذه الخلافة (عبء يضاف إلى تبعاتنا ولا يفيدنا نحن ولا البلاد المشمولة بها ، وأنه مامن مزية مفروضة للخلافة إلا ونحن قادرون على تحصيلها في حالتنا الحاضرة عن طريق التعاون والمساعدة الأدبية التي لا إلزام فيها لنا ولا غضاظة فيها على غيرنا ، ففي وسعنا اليوم أن نخدم إخواننا المسلمين وجيراننا الشرقيين بالوساطة الحسنة . . . دون أن يُفهم

(١) الرسالة - السنة السابعة - ج ٢ ص ١٨٠ ، والكاتب : أبو الوفاء من فاس بالمغرب كما في المجلة .

(٢) الهلال - مارس ١٩٣٩ مقال : مصر والخلافة .

من وساطتنا معنى سيادة أو ولاية أو افتيات على دولة من الدول الأجنبية ، وفى وسعنا أن نتبادل الرأي والمشورة كلما سنحت الفرصة الملائمة ، وأن نصبح قبلة للقاصدين ، مادنا قادرين على الإفادة والخدمة فإذا عجزنا فليس لنا ولا للأمم الأخرى مصلحة فى اتجاه الأنظار إلينا ، وهكذا نحقق الخير الذى فى الخلافة ولا نجرّ على أنفسنا ولا على العالم الإسلامى شيئاً من تبعاتها وشقائها " .

وهكذا فى كل ما تقدم وما يماثله من ضروب البيان التى احتدمت حول أمر الخلافة يتجلى هذا الاهتمام البالغ بها ، وذلك الحرص الشديد على إقامتها واستمرارها ، ولا غرو أن لا تخرج هذه الروح المؤازرة والتأييد الواضح للخلافة ولدولتها إلا من مشاعر إسلامية أصيلة ، تعد الخلافة جزءاً أساسياً من الدين وهدفاً رئيسياً من أهدافه ، وتوئ من أنها هى النظام الإسلامى للحكم الذى لا يصح تغييره أو الخروج عليه (١) ولا يعارض هذا معارضة الخليفة أو تغييره أو تعديل أحكامه عند الحاجة ، لكن الواجب أن تظل الخلافة جامعة شاملة تضم المسلمين وتوحد هم فى جميع أنحاء الأرض .

خرج عن الغاء الخلافة الإسلامية فضلاً عن الكتابات السابقة عديد من الكتب التى دارت فى جوهرها حول نظام الخلافة وأصول الحكم فى الإسلام ، ولا ريب أن إلغاء الخلافة هو الباعث الرئيسى وراء هذه الكتب ، إلا أن هذه الكتب وإن اصطبغت بروح البحوث الدينية كما يُملى عليها موضوعها ، إلا أنها مع ذلك لم تكن لتخلو من القوة فى الرأي والجودة فى العبارة ونصاعة الأسلوب فى بعضها ، وقد كانت على قسمين : أحدها يؤيد الخلافة ويدعو إلى الأخذ فى الحكم بها ويناصرها ، والثانى يعارض ذلك ويرى فى الخلافة نظاماً عتيقاً لا يصح إجبار الناس عليه وحكم الأمة به فى العصر الحاضر ، بل لها أن تأخذ ماتراه يصلح لها فى هذا المجال .

وأشهر هذه الكتب أربعة دارت حول قضية الخلافة اثنان منها يؤيدان الخلافة وهما : (الخلافة أو الإمامة العظمى) لمحمد رشيد رضا ، و (النكير على منكرى النعمة من الدين والخلافة والأمة) لمصطفى صبرى ، والاثنان

(١) انظر : الخلافة أو الإمامة العظمى - محمد رشيد رضا ص ٢٠-٢٦ ، ٩٠

الاخران يوءيدان مصطفى كمال فى الغاء الخلافة وفصل الدين عن الدولة وهما :
 (الخلافة وسلطة الأمة) وضعه بعض الأتراك بإشارة من الكماليين وترجمة
 (عبد الغنى سني) إلى العربية ، وكتاب (الاسلام وأصول الحكم) لعلي
 عبد الرازق .

ونظرا لاستيفاء أحد الباحثين (١) عرض هذه الكتب وكشف مضامينها
 فحسبنا هنا أن نذكر أن كتاب (الخلافة أو الإمامة العظمى) (٢) قد اتجه الى
 معالجة مسألة الخلافة من عدد من النواحي أهمها ناحيتان : تكلم فى الأولى
 منها عن الخلافة من الناحية الفقهية والشرعية وكل مايتصل بها من المسائل
 الدينية التى تتعلق بها ، وتكلم فى الثانية عن معالجة الخلافة فى ضوء الواقع
 والاحداث المعاصرة لها كأعمال الكماليين وتطلعات العرب إلى الخلافة بقيادة
 الشريف حسين ، وقد ركز المؤلف على أهمية الخلافة ومكانتها من الدين
 الاسلامى وما تقوم به من حفظ الشريعة وانتظام شئون الامة ومصالحتها واعتبرها
 ركن ركين منه ، ومن الدعائم الكبرى التى لاغنى للمسلمين عنها ، متطرقا إلى
 بيان فضل شرع الله وأسراره وعلوه عن قصور القوانين والأنظمة البشرية ، وإلى
 فضل الشريعة الإسلامية على التشريعات الغربية .

وأما كتاب (النكير على منكرى النعمة من الدين والخلافة والأمة) (٣)
 فهو لم يركز على المسائل الفقهية والشرعية التى تتعلق بالخلافة والإمامة
 وما يتفرع عنها بل ترد فى ثناياه من دون تفصيل ، أما ما اتجه اليه وركز عليه
 وجعله وكده فهو التصدى لمهاجمة الكماليين والاتحاديين وبيان فساد وجهتهم
 ودينهم وسوء نياتهم التى يبيتونها لمحاربة الاسلام والقضاء عليه ، وهو لتوضيح
 ذلك والتدليل عليه يذكر أعمالهم ويورد أقوالهم وآراءهم ويناقشها ، ومن ذلك
 استخفافهم بدين الاسلام ومحاربة مظاهره ، وتشبثهم بالعصبية للجنس التركى
 ومحاربتهم للعصبية الاسلامية ، وكذلك ما كان لهم من صلات وروابط باليهود
 فى داخل حكومتهم مع تواطئهم مع الحكومة الانجليزية وكلاهما يكيّدون
 المؤامرات لحرب الاسلام .

(١) الدكتور محمد محمد حسين فى كتابه : الاتجاهات الوطنية ٢ / ٥٥ - ٩٧

(٢) ظهرت طبعته الاولى ١٣٤١ وكان قد نشر قبل ذلك فى ست حلقات بمجلة
 المنار .

(٣) ظهرت طبعته الاولى ١٣٤٢ فى مصر .

ويكشف المؤلف عن خطتهم في تجريد الخلافة من السلطة لينزعوا عن الحكومة التركيبة لباسها الديني ، ذلك لأن الحكومة هي القوة العاملة ، والخلافة هي اتصاف تلك الحكومة بصفة دينية ، فأخراج الحكومة عن الخلافة إخراج لها عن الدين ، كما رد المؤلف في هذا الكتاب على كثير من الحجج التي كان يبثها الكماليون ويدافع بها أنصارهم عنهم ، وقد كشف فسادها وردّ على كثير من الشبهات التي كان يثيرها المتفرنجون في تركيا وفي مصر ، وفي كل هذا يريد المؤلف أن يؤكد - بما لا يدع الشك - فساد حكومة الكماليين وعداؤها للإسلام حتى يحذر المسلمون في مصر وفي كل مكان منهم ومن خطرهم وان لا ينخدعوا بالاضاليل التي تُروّج لمدحهم في الشرق أو الغرب وما هم إلا أكبر عدو قام لحرب الاسلام آنذاك .

أما الكتابان المعارضان للخلافة فاننا سنشير اليهما فيما يأتي مستقبلا بحول الله (١) .

بكل هذه الكتابات الأدبية الحيّة ، والتي اهتمت بالخلافة وواكبت الأحداث المدلّهة التي حاقت بها في مطلع هذا العصر حتى عصفت بها ، يتجلى لنا كيف كانت الخلافة على تلك الأهمية والمكانة الكبرى في كيان المجتمع الاسلامي ، كما يظهر لنا بوضوح شديد تلك الحفاوة الكبيرة التي أولاها الكتاب لخلافة الأمة وسلطانها ، وما حفزته في نفوسهم من مشاعر وأحاسيس نحوها ، مما كان له صدى كبيرا في ميدان الأدب شعره ونثره على حد سواء ، حيث جعل الكتاب والشعراء يسهمون بأرائهم ويعبرون عن رأى الأمة ووجهتها ازاء هذه الخلافة التي هزّت أحداثها النفوس هذا عنيفا .

وبعد . . فان كل ما دار من آراء وأحداث وحفاوة ، بموضوع الخلافة ما هو إلا حلقة متصله ومتراصة بحلقة الجامعة الإسلامية التي سبقتها بما تخللها من حوادث متعددة ، وهاتان الحلقتان تكوّنان الجزء الأكبر من سلسلة الوحدة الإسلامية التي تحتشد لها هذه الدراسة في فترتها المعلومة ، أمّا ما تبقى من هذه السلسلة بعد ذلك فسيأتي تحت مسمى الوحدة العربية من هذا البحث كما سنرى بحول الله .

(١) انظر: فصل مظاهرها لمعارضة للوحدة الإسلامية (الطعن في الخلافة) من

الفصل الثالث

حوادث العالم الإسلامي وارتباطها
بالوحدة الإسلامية في المنظور الأدبي :

- تمهيد في بيان ارتباط حوادث العالم

الإسلامية بالوحدة الإسلامية

- أثر حوادث العالم الإسلامي في النثر

الأدبي

تمهيد :

شاءت حكمة المولى - جل وعلا - فى خلقه أن يجعلهم شعوباً وأجناساً متعددة ، كما نفذت إرادته أن يكونوا شيعاً فى دينهم وعبادتهم رغم دعوته لهم جميعاً إلى الدخول فى عبوديته والخضوع لسلطانه فى كل زمان ومكان .

ولعل فى قوله سبحانه " ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين " (١) وقوله سبحانه أيضاً " ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم أفأنت تكفر الناس حتى يكونوا موءمنين . وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون " (٢) .

لعل فى هذه الآيات ومثيلاتها الأخرى فى ثنايا الكتاب العزيز ما ينبه إلى سر هذه المشيئة العظيمة التى تغيب وراء اختلاف الناس فى الأرض طرائق ومذاهب شتى ، فإذا كانت الآيات السابقة تدل على أن الإيمان بالله وطاعته إنما هو فضل من الله يمن به على من يشاء من عباده ويصرف عنه آخريين بحكمته ، وأن ما يحدث من ذلك إنما هو بفضل ورحمة ، متى علم فى عباده خيراً وعقلاً يقودهم إلى الحق ، وأن المصير فى الآخرة مبني على هذا الإيمان أو عدمه كما يفهم من هذه الآيات ، فإن هناك بعض المعالم قد تستشف من وراء هذا التباين فى الناس ، وأن لكل منهم شرعة ومنهاجاً ، ومع أن المسلم به فى معرفة أسرار الحكمة الإلهية فى أى أمر من الأمور أن حقيقتها لا يعلمها ولا يقدرها إلا الله سبحانه وتعالى ، وأن الإنسان أعجز من أن يقف على جوهر هذه الحقيقة ، وليس له إلا الإيمان بها وتصديق ما أخبر به عنها ، مع ذلك فيمكن القول : إن هذا الاختلاف ناموس من نواميس هذه الحياة ، إذ أن قيام أُمم مختلفة يدعو كل أمة إلى الأخذ بأسباب القوة والعزة والظهور حتى لا تفنى أمام الأمم الأخرى ، وهى فى سبيل ذلك تسعى وتبذل من الجهود فى استغلال طاقاتها وخيرات أرضها ومواردها ما يحقق لها ذلك ، ولا شك أن ذلك يفضى إلى عمارة الأرض وحياتها وتطورها وازدهارها .

(١) سورة هود : ١١٨ ، ١١٩ .

(٢) سورة يونس : ٩٩ ، ١٠٠ .

ويظهر هذا التنافس بصورة أكبر حين يقوم الصراع بين هذه الأمم المختلفة ، وهو قائم بلا ريب بين الأمة التي تعبد الله وبين الأمم التي تتخذ غيره آلهة أخرى .

والصراع الذى يقوم بين أمة مسلمة وأخرى كافرة هو صراع بين الحق والباطل ، وقد تخفى على الناس حقيقة كل منهما فى خضم الصراع ، مع ادعاء كل طرف منهما بأنه الذى على الحق ، لكن الأمر لا يلبث أن ينكشف فى نهاية الأمر ويتميز الحق من الباطل ، ويظهر الحق جلياً للعيان ، وذلك مامثل به القرآن الكريم لا صطراع الحق والباطل فى قوله تعالى " أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما يُوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل ، فأما الزبد فيذهب جفاً وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال " (١)

وإذا استصحبنا هذه السنة الربانية فى صراع الحق مع الباطل لنرى من خلالها حوادث العالم الإسلامى فى هذا الموضوع فاننا نجد أن هذه الحوادث التى تقع فى الفترة التى تعيننا تأتى فى تيار حملة أوروبا الصليبية على العالم الإسلامى والتى سبقت هذه الفترة بأكثر من قرن من الزمان ، ذلك أن أوروبا التى قادت عدداً من الحملات الصليبية فى القرون الوسطى لحرب الإسلام ، ولكنها لم تستطع أن توقف مد الإسلام أو تسترد بعض المواضع المهمة فى نظرها ، ومع اكتساح الإسلام بقوة العثمانيين أوروبا وتوغله فى شرقها ووسطها حتى ضرب أسوار فيينا عام ١٠٩٥ / ١٦٨٣ م ، آنئذ قامت قائمة أوروبا ، وبدأت تتنادى بالوحدة تحت راية الصليب لدفع هذه القوة الداهية ، ومع ظهور عوامل الضعف التى أخذت تنخر فى كيان الدولة العثمانية وبدء التفتح العلمى والحضارى فى أوروبا نجد التغيير يظهر فى ميزان القوى ، وما إن ينتهى القرن الثامن عشر الميلادى إلا وأوروبا أخذت ترعى بديار الإسلام فى كثير من الجهات لتبدأ فى تمزيقه واحتلاله بلداً بعد آخر ، وقيل أن ينتهى القرن التاسع عشر الميلادى كانت أوروبا قد اقتسمت بلاداً شاسعة من العالم الإسلامى ، فاستولت إنجلترا على الهند ومصر ، وعبرت روسيا القوقاز وبسطت سلطانها على أواسط آسيا ، وأخذت فرنسا شمال أفريقيا ، فضلاً عن دول أخرى أوروبية لها نصيب آخر من بلاد

العالم الاسلامي في أفريقيا وجنوب شرق آسيا ، وكانت قمة هذه الحملة الجائرة على العالم الاسلامي هي الحرب العالمية الأولى التي قُضي بها على دولة الخلافة، ليزحف الاستعمار على البقية الباقية من العالم العربي حتى لا نكاد نجد آنئذ قطراً إسلامياً إلا وللاستعمار فيه سلطان أو سبيل يحقق به مطامعه وأهدافه الكبرى، ويحاول تهديده لئلا يسير في طريقه الذي يريد أن يقوده فيه (١) .

إنّ هذه الحملة الاستعمارية التي اتقدت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر واستمرت أيضاً في القرن العشرين، مع ماصحباها من إذلال وشراسة وقهر للعالم الإسلامي لم تكن لتصل إلى كل هذه البلاد الشاسعة وتذل كل هذه الأمم الكثيرة وتفعّل بها الأفاعيل لو لم يتوافر لها أمران - لامناص من ذكرهما - كانا وراء كل هذه الحوادث العظيمة :

أما أولهما ، فهو الحقد الذي تكنه أوروبا للإسلام، ومع أنه داء قديم زادت به علاقة أوروبا وصراعها مع الإسلام بمرور الأزمان قوة وحدّة ، فهذا الداء حقيقة لا يمكن نسيانه أو التقليل من شأنه ، كيف وقد أكدّ القرآن الكريم هذه الحقيقة بكل جلاء " ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبّع ملتهم " (٢) ، ويقول تعالى مقررّاً هذا الداء في صورة الحسد " ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق " (٣) فهذا الداء أصيل في نفوس أعداء الإسلام قبل أن يكون للإسلام معهم شأن ، وقبل أن ينطلق أو تظهر دولته وتعلو شوكته .

أما الأمر الثاني - فالطمع في استعمار البلاد الإسلامية واستغلال خيراتها واستغلال ثرواتها الكبيرة في وقت تكتشف فيه للقوم ماتحتوي عليه هذه البلاد من كنوز ، وما ستُدّرّه عليهم من أرباح، علاوة على المصالح الأخرى التي تأتي من موقع هذه البلاد الجغرافي الممتاز على سطح الأرض، لذا عقدت أوروبا (٤) الاتحاد والتحالف، وجهزت التعبئة لحرب الإسلام .

(١) أنظر حاضر العالم الاسلامي ١ / ١٩ - ٢٢ .

(٢) سورة البقرة : ١٢٠ .

(٣) سورة البقرة : ١٠٩ .

(٤) ليس المراد بأوروبا هنا في أغلب ما ترد فيه القارة المعروفة بل كل أعداء الإسلام منها ومن خارجها .

وهذا التحالف والاتحاد لحرب الاسلام وإن كان قد عُرف قبل هذا الغزو الاستعماري في مطلع العصر الحديث بفترات متقدمة إلا أن الدول النصرانية بعد أن عرفت طريق النهضة اتفقت كلها على حرب الدولة العثمانية التي كانت تمثل الإسلام ، ومن ثم اقتسام اجزائها بينهم بعد أن أطلقوا عليها عبارتهم المشهورة باسم " الرجل المريض " ، والتي ربما نعتوا قضيتهم معها باسم " المسألة الشرقية " ويعنون به الدولة العثمانية التي تقف أمامهم في الشرق من أوروبا ، وقد كان هذا التحالف يظهر تارة ويختفي أخرى وكانت علّة ذلك ترجع إلى اختلافات هذه الدول المتحالفة حول مصالحها ، وتنافسها لاحتواء أكبر جزء من هذه الفريسة التي أقدموا على ابتلاعها ، ولاغرو فأوروبا انحازة على الاسلام لم تكن أحداثها المتفرقة بين دولها وصراعاتها فيما بينها ، واختلاف دولها في اضطهاد المسلمين بين سياسة اللين والمراوغة أو العنف والغلظة ، ما كانت لتدل على نقاء الدول الأخرى ، وليس ما بينهم من إحسن ليدل على اختلاف نظرهم وحقد هم على المسلمين ، كلاً ، فمنهم مختلفون في كل شيء فيما بينهم إلا في عداوة الاسلام (١) .

إنّ حقد دول أوروبا واتحادها وتعبئتها لحرب الاسلام قد أديا بطبيعة الحال إلى صبغ حروبها للإسلام في مطلع القرن الحديث بصبغة التعصب الذي يحاولون زوراً أن يصموا المسلمين به ويدفعوه عن أنفسهم كما سبق أن أشرت الى ذلك في الفصل الأول من هذا البحث (٢) ، ومن ناحية أخرى فقد كانت الروح الصليبية هي الطاغية على هذه الحروب ، وذلك الاستعمار وإن تشدق كتابهم وساستهم بإنكار ذلك ودفعه عنهم ، بيد أن مباركة البابا لهذه الحروب وما استخدمه الاستعمار من وسائل مختلفة لانجاح مخططاته من غزو عسكري سافر وحملات تبشيرية بقيادة القسيسين والمبشرين ، فضلاً عن الدراسات والأساليب الكثيرة التي بذلها كتاب أوروبا وقادتهم لتسهيل مهمة هذا الغزو ، إضافة إلى ما قامت به كثير من دول أوروبا من جهود جبارة تهدف مباشرة الى إضعاف الإسلام والقضاء عليه في أكثر بلادها التي احتلها ، كل ذلك وغيره

(١) انظر: تاريخ الدولة العثمانية ص ٥٢ ، والاسلام على مفترق الطرق ، محمد

أسد ص ٥٢ - ٥٨ ترجمة عمر فروخ .

(٢) انظر فقررة : الجامعة الاسلامية وأوروبا ، وانظر حاضر العالم

الاسلامي ١ / ٢٣٨ .

كثير يدحض قول من يزعم خلو روح الصليب عن هذا الغزو الأوروبي ويؤكد تأكيداً قاطعاً غلبتها وهيمنتها ، عليه وبروزها في مختلف طرقه ووسائله (١) .

(١) ينقل الأستاذ أحمد أمين في " يوم الاسلام " ص ١٠٩ عن مجلة العالم الاسلامي الفرنسية (مارس ١٩١٣ م أنه جاء في أحد مقالاتها " الروح الصليبية كامنة في صدور النصارى كمن النار في الرماد ، وروح التعصب لم تنفك حية معتلجة في قلوبهم حتى اليوم كما كانت في قلوب بطرس الناسك من قبل ، فالنصرانية لم يزل التعصب مستقراً في عناصرها متغلغلاً في أحشائها متمشياً في كل عرق من عروقها ، وهي أبداً ناظرة إلى الاسلام نظرة العداوة والحقد والتعصب الديني الممقوت . . . " . أما النشيد الصليبي الذي كان يردده الايطاليون في حرب طرابلس فمنه قولهم :

أمّاه صلي ولا تبكي .
بل اضحكي وتألمي
ألا تعلمين أن ايطاليا تدعوني
أنا ذاهب إلى طرابلس
فرحاً مسروراً لأبذل دمي
في سبيل سحق الأمة الملعونة
ولأحارب الديانة (الضلالة) الإسلامية
التي تميز البنات الأبقار للسلطان
سأقاتل بكل قوتي لمحو القرآن
ليس بأهل للمجد
من لم يمت لايطاليا حقاً
إن سألك أحد
عن عدم حداذك علي فأجيبه :
لأنه مات في محاربة الإسلام
الطيب يقرع يا أمّاه . . .

ويروى حافظ وهبه :
أنه لما اتحدت أساطيل أوروبا لمواجهة الأسطول العثماني في
(ليبانة) أعلن البابا أن (دون جوان دوتريش) قائد الأساطيل الأوروبية
هو الذي عناه الإنجيل عندما تحدث عن مجي رجل من قبل الله يدعى
يوحنا .

وعندما أطبق الجيش الفرنسي على دمشق قال قائده " غورو " عند قبر
صلاح الدين : هانحن عدنا فقم يا صلاح الدين ، أمّا للنبي قائد جيوش
الانجليز التي استولت على فلسطين فقد قال : الآن انتهت الحروب
الصليبية .

لعل في هذه الاشارات ما يكفي للدلالة على تأصل الشروح الصليبية في
أوروبا على غزوها للعالم الإسلامي في مطلع العصر الحديث .

ولذا كانت هذه الروح الصليبية وذلك الحقد على الإسلام أكبر باعث لغارة أوروبا على العالم الإسلامي (١) فإن مما لا يُنكر أن هناك أموراً أخرى مساعدة آزرت الباعث الأكبر، والاتجاه الاقتصادي الذي يهدف إلى ابتزاز موارد الثروة لانعاش اقتصادها وازعاف قوة المسلمين في آن واحد - كما سبق على رأسها ، كما أن التنافس الذي كان بين دول الاستعمار وميدان المصالح والقوى دفع بهم إلى ارتياد مناطق نائية ومجهولة بالنسبة لهم حتى يعلم أندادهم أن لهم فيه وجوداً أو قوة تحول دون طمع أحد فيهم أو الاعتداء عليهم .

ومع هذه الدوافع فقد لجأ الاستعمار إلى اصطناع الحيل واختلاق المبررات الكثيرة (٢) والذكية للتمويه عن الهدف الحقيقي عند أهل كل بلد نزله أو يريدون السيطرة عليه ، كادعائهم أن الممالك الإسلامية تعاني من الانحطاط وانها لا تستطيع أن تكون قواماً على شئونها ، وكتذرعهم بإصلاح حال هذه الأمم وقيادتها إلى التطور والمدنية رغم أنهم هم الذين وقفوا في وجه كل عمل يحاول به المسلمون تحقيق صلاحهم وقيام نهضتهم ، أمّا حماية الأقليات النصرانية الذين ينعمون بين ظهرائي المسلمين ، وحماية المصالح التي يختلقون ما يقلقهم عليها ، فما تركها الغرب في تلك الأونة كلما أمكنته الفرصة لاحتواء بلد عقدوا النية على أخذه منذ آماذ طويلة .

إذا كان قد تبين لنا الآن الدوافع الحقيقية والمصطنعة لغارة أوروبا على العالم الإسلامي فيجب ألا ننسى هنا أسباب انتصار الغرب في هذه الغارة على المسلمين وبخاصة العثمانيين ، وعلة سقوطهم ووقوعهم فريسة في يد أعدائهم الألداء .

(١) هذا لا يعني أن الحقد الصليبي مبعثه بالضرورة تدبّر أوروبا بالنصرانية ، إذ الواقع أن أوروبا في مطلع هذا العصر الحديث قد وصلت إلى مرحلة هجرت فيها دينها ولم يعد له رصيد في حكم شيء من حياتها ، ولكن السبب الأساسي لهذا الحقد هو وجود المسلمين في أمة لا تنتمي إلى ملتهم ولا تنضوي تحت لوائهم . انظر: واقعنا المعاصر ص ١٩١-١٩٤ محمد قطب .

(٢) انظر يوم الإسلام ص ١٠٩-١١٠ ، ولمزيد من هذه الحيل انظر : الغارة على العالم الإسلامي ص ٩١-٩٢ فصل " مقاصد المبشرين وآمالهم في المستقبل " .

إنَّ أكبر باعث لهذه الهزيمة - فى رأيي - هو ضعف الوحدة الاسلامية وضعف الترابط الأخوى بين قيادات المسلمين ، وهذا لا يعنى نفي هذه الوحدة فى جملتها، إلا أنه يؤكد ضعف تطبيقها والأخذ بها للوقوف أمام ذلك الزحف الاستعماري قوة واحدة ، تصدم زحفه ولا تسمح له بالتدخل فى بعض أجزائها .

وإذا أسعف المسلمون أوروبا بهذا المنفذ الخطر لضرب شوكتهم فقد كان هناك التقدم الحربى عند الأوروبيين ، وهذا التقدم لا يُنكر أثره فى إحراز الانتصارات ودحر الأعداء ، وهذا التقدم واحد من جملة نتائج النهضة والتطور العلمى والحضارى الذى قد دب فى جسم أوروبا آنذاك ، ويضاف إلى هذا انتقال ميدان الصراع إلى البحار وتطور حركة الكشوف الجغرافية التى لم تخرج عن هدفها الصليبي^(١) ، مما أتاح للاستعمار الالتفاف حول العالم الاسلامى وتطويقه ومعرفة المنافذ التى يستطيع العبور منها ، واختيار البلاد التى تتوافر فيها الموارد الاقتصادية أو المواقع المهمة التى لاغنى عن استخدامها فى مختلف الشؤون والأهداف .

إنَّ هجوم أوروبا على العالم الاسلامى فى مطلع العصر الحديث وتسلبها المطبق عليه كما أشرت فى بدء هذا الفصل هو ما أعنيه بحوادث العالم الاسلامى هنا، وإن كان ثمة أمور أخرى قد تلحقها ككوارث الأمراض والجوع بيد أن هذا القول المجل من حقيقة هذه الغارة وطبيعتها - كما يقتضيه المقام فى رأيي - لا مندوحة من اعتباره مدخلاً وتمهيداً للحديث عن هذه الحوادث المتعددة - ذلك أن هذه الحوادث والحروب وإن لم تخرج فى جملتها عن الغارة الأوروبية على بلاد الإسلام، إلا أن هناك أحداثاً بارزة ومدوية تظهر واضحة فى جملة هذه الغارة العامة ، ونظراً لخطورة هذه الأحداث الذائعة وأهميتها نجد القول يتجه إليها عند دارسى التاريخ ومؤرخى هذه الحقبة ، وهو أيضاً ما نلاحظه فى الواقع الأدبى شعراً ونثراً، حيث كان اهتمام الكتاب والشعراء بهذه الأحداث الكبرى اهتماماً بارزاً .

ولا ريب أن أعظم هذه الحوادث التى تعيننا فى هذا البحث، وهى

(١) انظر: الشرق الاسلامى فى العصر الحديث ص ٣٧ - ٤٠ ، حيث ينقل عن المستشرق "باركر" تصريحه بعدم خروج الكشوف الجغرافية الحديثة عن هدفها الدينى الصليبي .

وانظر ص ٤١ - ٤٥ عن لقاء المسلمين بأساطيل البرتغال وانهزامهم أمامها .

أكبرها قوة وأبعدها فى نتائجها وأهوالها بالنسبة للعالم الاسلامى الحرب الروسية العثمانية التى شبت فى مطلع حكم السلطان عبد الحميد الثانى (١٢٩٤ م) ١٨٧٧ م) واحتلال فرنسا للجزائر (١٨٣٠ / ١٣٤٧ م) وانجلترا مصر (١٨٨٢ / ١٨٩٩ م) والحرب اليونانية العثمانية (١٨٩٧ / ١٣١٥ م) وحرب طرابلس بين ايطاليا والعثمانيين (١٩١١ / ١٣٢٩ م) ثم حرب البلقان على الدولة العثمانية (١٩١٣ / ١٣٣١ م) والحرب العالمية الأولى وسقوط الخلافة الاسلامية (١٩٢٤ / ١٣٤١) ، مع ملاحظة إيثارى لإيراد مايتعلق بحوادث الكماليين وسقوط الخلافة فى فصل الخلافة لأنه - فى تقديرى ألصق بها ، ويضاف إلى هذه الحوادث ما قام به الاستعمار من أحداث فى بعض البلاد العربية بعد سقوط الخلافة كما سنرى فى أحداث فلسطين وفشاح الفرنسين فى الجزائر وغيرها إلى انفجار بركان الحرب العالمية الثانية التى لا تدخل فى نطاق البحث .

إن الذى لا مناص من الإشارة إليه قبل أن يتجه القول إلى هذه الحوادث كل على حدة أن هذه الحروب والقتال التى أوهنت قوى العالم الاسلامى ، وسعت إلى ابادته وتمزيقه وفرقه كان لها أعظم الأثر فى بعث واثقاد عواطف شعوب العالم الاسلامى ببعضها إلى بعض ، ومناداتها باتحادها وتعاونها لدفع الهول الذى نزل بها ، وليس هذا الشعور الأخوى غريباً ، فالمسلمون كالجسد الواحد ، اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر^(١) ، كما أن المسلم أخو المسلم ، لا يسلم أخاه لأعدائه ولا يتخاذل عن دفع الاعتداء عنه ونصرته ، فالعدو واحد والرزء رزء الجميع ، وجماعة المسلمين هم كما وصفهم القرآن الكريم " أشداء على الكفار رحماء بينهم"^(٢) وعلى هذا الترابط الأخوى نرى الكتابات عن هذه العواطف تكثر حين يكثُر الطغيان الاستعماري ، وتسير موازيه له فى الغالب ، وراصده لأعماله الاجرامية منددة بها .

بيد أن دارس الأدب فى ضوء هذه الأحداث يلحظ ظاهرتين من المناسب أن نشير إليهما قبل الدخول فى غمار تلك الحوادث ، هاتان

(١) من حديث صحيح رواه البخارى ومسلم ونصه : مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد . . .

(٢) سورة الفتح ٢٩ .

الظاهرتان هما :

- (١) كثرة الشكوى من سوء الأحوال والاضطراب والضعف الذى حلّ بالأمة وما للاستعمار فى إيجاد هذا الخلل والتخلف من جهد غير منكور .
- (٢) كثرة هذه الحوادث والحروب ووحشية كثير منها حتى تعالست الصيحات بتقبيح الحروب والتنفير منها .

أما الظاهرة الأولى :

فمع أن العالم الإسلامى إبان هذه الحوادث وقبلها لم يكن خلواً من مظاهر الضعف والتخلف الذى أورثه اتساع شقة الانحراف عن منهج الله ، وبخاصة فى العصور الأخيرة ، إلا أن هذا السبب مهما بُولغ فيه - كما نجد عند بعض الكتّاب - (١) لا يساوى معشار ما كان لأعداء المسلمين من إسهام فى إضعاف الأمة الإسلامية واضطرابها وتخلفها وتمزيقها .

ومع أن الحديث عن هذه الحروب البارزة - كما سيأتى - يؤكّد ذلك فحسب المرء هنا أن ينظر إلى الدولة العثمانية التى هي أعظم دولة إسلامية يومئذ - إن لم نقل هي دولة الإسلام - فرغم شعورها بالحاجة إلى الإصلاح ، لو نظرنا لما عانت من حروب وصراعات منذ مطلع القرن التاسع عشر الميلادى إلى مطلع خلافة السلطان عبد الحميد فى الربع الأخير منه (٢) مثلاً ، نجد أن هذا القرن قد أهدى وقد تقدمت روسيا حتى أطلت على البحر الأسود ولا تزال آخذة فى التقدم حتى احتلت بلاد القرم ١٨٥٤م ، وتقدم مرة أخرى حتى تستولي على أدنة أكبر معاقل العثمانيين فى أوروبا ، وكانت فرنسا آنئذ فى قوة من أمرها وجابهت العثمانيين حتى احتل نابليون بونابرت مصر كما حاول الاستيلاء على الشام ، ورغم خروجها من مصر مكرهة فإنها تعود لتدبر الأمر لاحتلال الجزائر (١٢٤٧ / ١٨٣٠م) ، ولم تقف فرنسا عند ذلك بل كانت وراء أكثر حوادث الفتن الطائفية فى الشام ولبنان ، وتثور اليونان على العثمانيين حوالى (١٢٣٧ / ١٨٢٠م) فترسل لهم محمد علي باشا ، وهذا الباشا رغم ما أسداه للدولة من أعمال جليلة ، إلا أنه كان يهدف إلى أن يستقل له كيان بدولة

(١) أنظر : أم القرى ، ط المطبعة العصرية حلب ص ١٠ ، ١١ ، ١٥٨ ، ذكرى وعبرة

أو الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده ١٨ ، ٢٤ ، ٢٧ .

(٢) أنظر فى هذا الحروب : تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ١٨ وما بعدها .

كبيرة فكان ذلك الصراع الطويل بينه وبين العثمانيين حتى استقل بحكم مصر، أما الأحداث والصراع بين الدولة السعودية في نجد والعثمانيين الذين أوكلوا ذلك إلى محمد علي باشا فقد كانت عظيمة الأثر، حيث أثارت قلق العثمانيين على الديار المقدسة وخوفهم أن تزول من أيديهم .

كل هذه الأحداث الهائلة وغيرها لم تكن هي كل ماواجه العثمانيين من صراع مع خصومهم الأوروبيين الذين كانوا في الجملة وراء كل هذه الثورات والحروب عدا ما كان في الحجاز واليمن قبل استفحال الغزو الأوروبي ، ولهذا فكيف يتحقق النهوض والتطور مع هذا الاتساع وتعدد شعوب العثمانيين ؟ وهناك أيضاً القلاقل الداخلية التي لا تكاد تنقطع ، من غير أن ننسى أن العثمانيين يجابهون دولاً عظمى متقدمة عليهم في أغلب الميادين ومتآمرة عليهم .

وإذا كان هذا حال الاستعمار مع الدول التي لم يتمكن من السيطرة عليها ، حيث والى عليها الأحداث التي تُضعفها وتعوقها عن الأخذ بأسباب النهوض والقوة ، وقد تركها تعاني القلاقل والمحن، ولم تفرغ لإصلاح أمرها والقيام على شئونها العامة ، وقطعها عن الأخذ بأسباب القوة ، فإن حاله مع البلاد التي وقعت في قبضته أدهى وأمرّ، بل أشد خطورة وأمضى سلاحاً ، لبقاء المسلمين فترات أطول يعانون من علل الضعف والتخلف والفرقة، ومن أوضح الأمثلة على ذلك ما قام به الفرنسيون في الجزائر، وما نفّذه الانجليز في مصر والهند ، حيث كان الغزو الفكري يُنفذ في تخطيط ماكر للقضاء على الإسلام - مصدر القوة وباعث طرد المعتدين - وبقاء البلاد في ضعف واضطراب وفتن تحول بينها وبين الإصلاح والرقى الشامل ، مما لا تزال مصر والجزائر تعاني من آثاره ووخيم عواقبه حتى يومنا هذا ، على الرغم من رحيل الاستعمار عنهما منذ أمد غير قصير (١)

(١) إن تصوير الفساد الذي عمّ مصر في مطلع القرن العشرين وما كان للأجانب من أثر كبير في خلقه ونشره بين الطبقات العامة ومثلت ذلك الفساد كثير من الكتابات الاجتماعية التي كانت تنزع إلى الإصلاح وفي الجانب الأدبي صور هذا الفساد قصص ومسرحيات فرح انطون وقصص سعيد البستاني (كذات الخدر) و (سمير الأمير) وقصص لبيبه هاشم ، وكتاب (حديث عيسى بن هشام) للمويلحي ، وفرح أنطون =

وهذا أديب استحقاق على سبيل المثال يبين بمرّ الشكوى سوء حال الشرق الذى هو أمته، وكيف تسلط عليه أعداؤه بحجج واهيه^(١) " قضى على الشرق جهل عامته واستبداد خاصته ، وخيانة زعمائه ، وتعصب رؤسائه أن يهبط بعد الارتفاع، ويذل بعد الامتناع ، ويكون هدفاً لسهام المطامع والمطالب ، تعبث به أيدي الأجانب من كل جانب ، فمنهم من يغير عليه بحجة الغيرة على الإنسانية ، ومنهم من يتطرق إليه بدعوى إقامة أمر المدينة ، ولم نر منهم من صدق فى دعواه ، بل كل منهم تابع قصده وهوواه " .

ولا أدل على ذلك عند الكاتب من انجلترا التى استولت على كثير من البلاد الاسلامية وتدخلت فى شئونها ، إن انجلترا " لم تؤيد فى جميع

فى مسرحيته (مصر الجديدة ومصر القديمة) ١٩١٣ م ، جزء من المسرحية يدور حول (الست المز) نابغة فن الغناء : وهى مبنية على تاريخ ابنة العيلة وابنة المدرسة التى سقطت لغلو أفكارها فى طلب الحرية وأرادت النهوض فى سبيل الحب ، وجزء منها يدور حول (خريستو الهائل) صاحب أعظم كازينو فى مصر ، وهى مبنية على حوادث الرقيق الأبيض واغراء البنات بالفساد والسكر والقمار والاستقراض الهائل بربا هائل يذهب بالمال والأطيان والعقار ، وقهاوى الرقص والخمارات والملاهى السرية التى تأكل الثروة العمومية .

وقد مثل أنطون للأجانب (بخريستو) صاحب الكازينو وقال عنه على لسان أحد الشخصيات : (ليس له صناعة ويشغل بجميع الصنائع ، وهو صاحب أعظم وأكبر كازينو فى مصر كلها ، بل فى الشرق كله ، ولهذا الكازينو دوائر وأقسام ، فقسم للغناء العربى ، ولقد احتكر أشهر مغنية عربية عندنا وهى الست (المز) واتخذها خليفة له ضماناً للاحتكار ، وقسم للمغامرة يجتمع فيه أشهر المقامرين وأغناهم ، وقسم للبار ، وفيه الساقيات الجميلات بين شرقيات وفرنجيات ، وقسم مشرف على الشارع جعله مجتمعاً أدبياً لمن لا يهوى الأقسام الأخرى وهو فضلاً عن ذلك يسلف نقوداً بناءً على رهن أطيان أو عقار ، ويشترى قطناً ويتجر بالمصوغات القديمة ويصدر إلى الخارج سمكاً مملحاً من دمياط ، وأرزاً من رشيد ، ويستورد الخمر والساقيات الجميلات . . . وفضلاً عن هذا وذاك يتوسط فى تسوية المشاكل والقضايا ، ويشغل بالسمرة فى كل شىء . . انظر المسرحية فى الأدب العربى الحديث ٤١١

(١) أديب اسحاق : الكتابات السياسية والاجتماعية ص ١٨٩ ، ١٩٠ ، وانظر المرجع نفسه أيضاً : مقال الاستقلال والتابعة ص ٩٤ ، تأمل ص ٨٢ ، الإصلاح ص ١٢٨ .

تلك البلاد بغير الخشونة والاستبداد ، استبقاء لاهلها على حال يسهل معها أخذ أوطانهم واستخدام أبدانهم ، بما فُطرت عليه من الأثرة ، تحملها على كراهية الفضل إلا لبنيتها ، وبغض السعادة الا لذويها ، بل بما تقررفى أذهان أهلها من أن الخارج عن جزائرها الثلاث ، منحط عن درجة الإنسانية لم يوجد الا لخدمة الذين ألقته الطبيعة لخشونة طباعهم على صخور منقطعة عن اليابسة ، محرومة من لطيفات محجوبة الشمس والنجوم ، مستمرة الضباب والغيوم " .

وبالمثل نرى عبد الله النديم يصيح من هول المآسي الكثيرة التى زرعها انجلترا فى مصر وهي كثيرة تبعث على الأسى المرير والحسرة البالغة ، إذ هي قاضية على الأمة إن لم توقفها وتتنبه لخطرها ، لذا يقف الكاتب عند أهمها مبرزاً خطورة كل منها ، وكيف أخذ الانجليز فى بعثها من أعمال معجبة ، وحال محيرة مدهشة ، بلغ من حيلة انجلترا أن خفى على المصريين ما وراء تلك الأعمال .

فاذا عرّجنا نحو الصحافة والمطبوعات التى هي مبعث الأفكار وموجهة الأمة ، نجد انجلترا التى استخدمت صحافتها لكل هدف نبيل ، ومعلمة للآداب والعلوم النافعة تتخذ الصحافة بالنسبة للأمة الاسلامية كما يقول النديم (١) " خادعة للشرقيين لاعبة بأفكار رجالهم ، خاتلة لعظمائهم ، مقبحة لما هم عليه من دين وسير ومعيشة وانتماء وصناعة وتجارة وزراعة ، منادية بينهم أن الغرب محل التشريع ومنبع العلم ومرجع الفضائل ، لا حياة للأمم إلا بما تأخذه عنه ، ولا مجد لمن لم ينتم إليه ، ولا فضل لمن لم يتعلم فيه ولا شرف لمن لم يتكلم بلسانه ويتعبد بعبادته " .

أما فى مصر فقد أطلق الانجليز حرية المطبوعات والأفكار ففرح بذلك المصريون وافتخر الانجليز ، لكن ما تحقق من هذه الحرية هو ماتريده انجلترا من الفرقه وإشغال الناس عن المحتل حتى يسلس لها القياد ، هكذا تفرقت الآراء كما قال النديم (٢) ، " هذه تقول أنا وطنية أنادي بأن خير البلاد صلاحها موقوف على جعل الأعمال بيد المصريين تحوطهم عناية الحضرة الخديوية تحت مراقبة بريطانيا . . . وهذه تقول مصلحة البلاد موقوفة على

(١) سلافة النديم ٦٥ / ٢ .

(٢) المصدر السابق ٧٠ / ٢ - ٧١ .

زيادة نفوذ الانكليز ووضع الادارات تحت أيديهم بمساعدة النزلاء وحتى يتهيا المصريون لاستلام أعمالهم . . . وهذه تقول إن فرنسا هي الدولة الوحيدة في المحافظة على مصر وحقوق السلطان فيها وتأييد الخديوى ولا يضرها إلا وجود الانجليز فيها ، وهذه مذبذبة لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، وهذه علمية تهذب النفوس ، وهذه تورد لهم من مصادرات الأديان مايوقعهم فى الشك والتردد ، وهذه دينية وهذه حقوقية وهذه طبية ثم تركت المصريين يغدون ويروحون بين هذه المتناقضات وهم يتناظرون ويتجادلون ولا رقيب عليهم ولا جاسوس . . .

والدين والعادات التى هى من أهم مايتحقق به تغير الأمة ، لا تفتأ انجلترا بعد أن أعلنت عند بدء دخولها أنها لا تتعرض للدين ولا للعادات أن تأخذ فى تغييرها بتجربة بسيطة ومتواضعة ، فاذا مرت التجربة دون معارضة ولا إحباط فقد نجحت وانتشرت ، وان وجدت من يوقفها ، ويردها أولتها بما تريد ، فما الحيلة لمسح هذا الدين والعادات فى مصر ؟ يجيب النديم (١) : " قالت أوروبا إن وقوفكم عند عاداتكم الشرقية وتخلقكم بأخلاق آبائكم بقاء على الهمجية والتوحش ، فلا بد من مجاراتنا فى حركاتنا المدنية لتساوونا فى الرتبة وفتحت لنا البير والخمائر والمقامر وأباححت الزنا والربا ، ووسعت دائرة اللهو والخسران ، فغفل الشرقيون عما وراء ذلك من ضياع الدين والملك والمجد والشرف ، وانكب الأغبياء والمغفلون على الخمر فساءت أخلاقهم وضعفت عقولهم وفسدت عقائدهم ، وتحولوا إلى المومسات فارتكبوا الاثم بارتكاب المحرم والعار باتخاذهم الوطنية آلة للفحش وجعلها عرضة للأجنى بعدم غيرتهم عليها فهم فى رتبة القواد (٢) بل هم هم ، ومال فريق إلى القمار فباع الغيظ والدار واضطر لبيع حلي زوجته برضاها أو بسرقة منها ، والكل عطف على المرابين يقترض ويصرف فى الملاهى ومتلفات العقل والجسم والمك حتى أسكن الأوروبي مكانه ، وصار له خادماً بعد أن كان عظيماً محترماً " .

وهكذا يمضى النديم فى مقاله الطويل على هذا النسق التهكمى والتساؤل الإنكارى ، فى أسلوب شيق وحوار لا يخلو من الجدال ، يتابع بحرارة المشفق وصادق النصح أساليب انجلترا الهدامة التى نسميها " الغزو الفكرى "

(١) سلافة النديم ٢ / ٧٠ ، ٧١ .

(٢) يريد الذين يدلون على البغاء من أراده .

لا ذلال شعب ومسح معالم الاسلام فيه ، واذ أقدمت انجلترا على مسح الدين والعادات ، واستغلت الصحافة ومنابر الفكر لتضليل المفاهيم فإن الكاتب يذكر أمته بأمور أخرى لا تقل عن سابقتها خطورة وأهمية ، ومن تلك الأمور محاربة الاستعمار للنهضة الزراعية والتجارية لضعاف الاقتصاد وإنزال الفقر ومحو القوة ، وإشغال الصحف والمفكرين بالمطالبة بالدستور والحياة النيابية وصرف القادة والسياسيين عن الخوض في الدين والسياسة ، كما يكشف الخطورة البالغة في المدارس الأجنبية ونظام التعليم الذي سيريبي النشء الجديد ، أما ما حققه الاستعمار من فُرقة وخلاف ليصرف المصريين عن أعماله ومقاومته كفتنة الأقباط ونزاع الشوام النازلين بمصر فانه يطيل القول فيها ليكشف خطورة هذين المقتلين وضررهما البالغ على الجميع ثم يدعوهـم إلى الاتحاد والتعاون بعد أن جلى افتعال هذا الخصام الذي لا حقيقة لـه في الواقع .

أما الظاهرة الأخرى :

فهي التي تُعنى بتقبيح الحرب والتنفير منها ، فلا شك أن الحرب ممقوتة ومشئومة عند جميع الأمم ، وما نتائجها التي تهلك الحرث والنسل بخافية على أحد وان كان لاغنى للأمم عنها في صراعاتها المختلفة ، لكن مع ذلك فلا يُنكر أن هذه الحوادث والحروب التي تمر في هذه الدراسة تقع في جملة تلك الحروب والصراعات الكثيرة التي شبتها أوروبا منذ القرن الثامن عشر الميلادي ، واستمرت إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية في القرن العشرين ، وإذا تذكرنا كثرة هذه الحروب كما سبق أن أُشير إليها في القرن التاسع عشر الميلادي - عدا ريعه الأخير - فان هذه الحروب في الربع الأخير من هذا القرن قد ازدادت ضراوة وقوة ، حيث كان التآمر الأوروبي على العالم الاسلامي على أشده ومضت أوروبا في تدفق عارم حتى أطبقت على جميع انحاء العالم الاسلامي عدا مواضع في جزيرة العرب (١) .

من كل هذا تتجلى هذه الكثرة الكاثرة لهذه الحروب ، وليس غريباً عندئذ أن يُخيم هول شبحها على الأنفس فيبعث على الرعب والفرع كما يدعو إلى القلق والحذر والنفور .

(١) انظر تاريخ الدولة العلية العثمانية ٣٣٥ وما بعدها .

يضاف الى هذه الكثرة ما كان يقع فى أكثر هذه الحروب من الأعمال الوحشية والمآسى الأليمة ، حيث الظلم و القهر والبغي والتعذيب الشديد والإبادة الجماعية وغيرها ، ذلك شأن أوروبا فى حروبها وتحقيق أطماعها كما حصل فى أكثر بلاد الإسلام التى وقعت تحت سيطرتها (١)، وإن ما قام به الفرنسيون فى شمال أفريقيا المسلمة ، وإيطاليا فى طرابلس وغيره من أجزاء القطر الليبي من وحشية وهمجية وعدوان - كما سنرى - لأوضح دليل على تلك النزعة العدوانية،والتي تشابه مثيلاتها فى أقطار الإسلام التى جثم عليها هذا العدوان الصليبي الحقود .

هذه مجلة " أنيس الجليس " تنفج قراءها بطريف المقالات عن شؤم الحرب، معذرة عن الخوض فى خطط القواد وآراء الساسة وأحاديث الحرب فى مجلة نسائية ، لكن كثرة الأحاديث عن الحروب فى تلك الأيام قد ملأت كل سمع ، ومصائب القتال قد نزلت بكل صقع، فكتبت لهم عن ذلك (ليعلموا مصائب الحروب ونفقاتها ، وماتجره إلى الناس من رزاياها وويلاتها ، ويتيقنوا أن هذا العالم المتمدن كلما زاده العلم رقة زاده الطبع قساوة ، وكلما أمعن أهله فى الحضارة أمعنت أخلاقهم فى البداوة .

فلقد ذكروا أنه لم تبلغ الدنيا منذ التاريخ مابلغته فى هذا العهد من شدة التحفز للقتال، وكثرة الانفاق فى سبيله، ووفور من ماتوا من أجله ، بل انه لو حسبت ديون أوروبا كلها لتبين أن تسعة أعشارها كان بسبب الحروب وأن العشر الباقي فقط قد أنفق على سائر الشؤون التى أوصلت المدنية الى هذا الحد" (٢) .

وقبل أن تُنبه المجلة على شؤم تلك الحرب وضررها واستعدادات أوروبا الهائلة لها تراها تنفر من الحرب، وتجعل الانسان بها فى درجة الوحوش الضارية ، وتخرج به بعيداً عن انسانيته وطبيعته لتقول عنها " هي

-
- (١) انظر صور من هذه الأعمال فى : يوم الإسلام ص ١١١-١١٣ .
 (٢) مجلة أنيس الجليس (الكسندره افرينوه) السنة الأولى (١٣١٥ / ١٨٩٨) ص ١٠٠-١٠٣ ولم تذكر اسم الكاتب و، وانظر مقالات فى نفس المجلة ويلات الحروب ، المجلد الثانى (١٣١٦ / ١٨٩٩ م) ص ٣٩٧
 حرب السلام - المجلد الثالث (١٣١٧ / ١٩٠٠) ص ٤١٠ .
 وفى مجلة الزهور (أنطون الجميل) مقال : الحرب، السنة الثالثة (١٩١٢ م) ص ٤٧٢-٤٧٤ .

الخلق الذميمة الذى نشأ عليه الانسان منذ البدء حتى لقد يتغير كيانها ولا يتغير، والطبع القبيح الذى كلما زادت مصائبه زاد وتكرر، أو هي الخلق الوحش الذى تستعير له هذه الصفة من الوحش والانسان بها أليق، والميزة التى تفصل الحيوان عننا بالضرر لا بالنطق إذ هو بعد منها أنطق. بل هي السيف مسلول فوق الرقاب أبداً والموت الثانى منتشر على البرايا اذا أمهل الأول أحدًا لم يمهل هذا أحدًا، والعيب الفاضح تحمله المدنية ولكنها تستتره بستار الشرف، والحياة الوهمية تسوقها الانسانية حقيقة حسية اسمها الموت والتلف".

هذه الحرب التى تتنافس فيها الأمم لا تورث إلا الدمار والخراب، وهي ظلم لألوف النفوس البريئة، وها هي نتيجة هذه الحروب كما يصورها نفس المقال " ألا إنها لأنفس بريئة قد ظلمها من الناس واحد وهي لم تسيء من الناس إلى أحد، ومجموع عظيم كان قبل الحرب بلا عدد فأصبح بعد الحرب وهو فى الحقيقة بلا عدد، وإنها لأجسام لم تصر قادرة على تحمل السلاح الا بعد أن تحملت مصائب الدهر لتدفع يد الدهر، وأبدان قد غالبت قوى الطبيعة بقواها لتعيش إلى نهاية العمر فعاجلتها المنية فى طريق العمر. بل إنها أبناء أمهات قد سهرن على أبنائهن الليل الطويل فكان جزاؤهن البكاء الطويل، وأمانى آباء كانوا يسعون لتحقيقها فى كل سبيل فاذا هي أمانى الموت فى هذا السبيل. بل قل إنها جهد أمهات فقيرات مدة دهر مديد وقد أضاعته الحرب فى لحظة، وتهذيب مدارس كثيرة قد أفسدته مدرسة الحرب فى لفظة، وقلن قضى بذلك القلم الواضح الذى يسمى بالعدل، وذلك القول المأثور القاضى بأن القتل أنفى للقتل، والأمر لله من بعد ومن قبل".

إذا كانت الحرب هذه نهايتها فما أخرى البشرية بالحرص على السلم الذى يكفل لهم الحياة الرخية، هذا ما نجده عند كاتب آخر يقارن بين الحرب والسلم، ويضدها تتميز الأشياء.

أما السلم فانه الحياة الطبيعية فى جمالها وأنسها وهنائها، لا تكدير ولا فزع، يقول الكاتب واصفا السلم^(١) "للهما أبهاك أيها السلام، وما أجملك وأجمل خطوتك فى الأودية الخضراء التى ألقت عليها الطبيعة حلّة

رضاها . . . ها الدخان يتصاعد من بين الأشجار الباسقة ينبىء عن أناس يعيشون فى أكواخ بين تلك الأشجار . هناك فلاح لا يُبالي بقدوم الشتاء ولا برعده القاصف . هناك سلام سائد وسرور دائم . هناك بيوت بيضاء بعيدة تظهر من وراء التلال وتقول " سلام سلام " هناك قطعان رابضة بجانب ينابيع المياه الباردة على غاية الطمأنينة والأمان ، وبیت راعيها قد حجبته زهور الياسمين والنسرین التى أريجها يُعطر ماحولها من الأرجاء . هناك أولاد يلعبون بالتراب الناعم ويتقلبون عليه من شدة الفرح و السرور "

وهكذا تكون الحياة فى السلم . سرور ولعب للأطفال ، وأحاديث شهية بين الرجال والشيخوخ عن جمال الطبيعة وحكمة المولى القدير ، ونساء فى البيوت قد ألبسهن النعيم نضرة وبهاءً . أما العدل فرايته مرفوعة وشريعته نافذة فى أمن وطمأنينة حتى لم يخرج السيف من غمده ، ولا سئل عن البارود الذى أفسده البلل من طول مكثه ، هذا السلم فكيف الحرب عند هذا الكاتب ؟

" هبت الجندُ هبوب العاصف وماجت كجيش الجراد ، وها الدمار قد وقعت على الأرض كشلال من الماء فصبغتها بلون أحمر قانى ، حتى اختفى تصاعد الدخان الآن من بين الأشجار واختفت أعلام السلام وانطفأت نار ذلك الراعى وصعد مكانه دخان القرى التى لعبت فيها ألسنة اللهب ، وبينها دخان بيت ذلك المسكين الذى سكب ماء الحياة فى بنائه ، ها البقر قد تاهت فى البراري وخوارها ملأ الفضاء لا أكل لها ولا شراب لها ، لأن الأرض قد أصبحت قطعة سواد من النار ، وها الفلاح قد ضم يديه إلى صدره وأصعد زفرات الحزن على مزروعاته التى ذهبت ضحية النار . . . الشرعية والقانون أصبحتا فى زاوية النسيان ، وسقط عليها جدار الظلام فحطمها ، النهب والجور ، وقد فكت قيودهما ، رجال الهيئة الاجتماعية يصيحون صياح الويل ، صراخ الشقاء وولولة الضعيف يخمدان نيران غضب الغضوب ، أنين الجرحى فى المستشفيات أوقف نغمات الطيور ووصل إلى معابر الطرق ، الأعشاش والأنسجة الموجودة فى البيت لا تكفى لتضميد جراح الأب والابن وتمسح دموعهما المنسكبة من عيونهما الدامية . .

. . هذه هي أعمالك أيها الانسان كلها أعمال ظلم تفعلها تحت أعين النهار ، وتدفن الموت تحت الهواء لا تحت التراب ، فيالهول الحـرب ويا لشدة شقاء الانسان " .

بهذه الصورة الدقيقة لأهوال الحرب، والتي يضعها الكاتب مقابلة لتلك الصورة الجميلة للسلم في جزئياتها وتفصيلها، يلتقى هذا المقال مع سابقه في جملة الكتابات التي اتجهت لتقبيح الحرب والتنفير منها، وهي كما نلاحظ صوراً أخاذة وتصوير دقيق يأخذ بالألباب ويحرك كوامن النفوس ويشير في القارئ مشاعر عديدة، تجعله يستشعر الفروق الهائلة بين الحرب والسلام وبين الخوف والأمن، وتدفع به دفعاً إلى الحفاظ على السلم وأن يسعى جاهداً في ترسيخ أهدافه وحياطته بكل ما يستطيع من إمكانات .

أثر حوادث العالم الاسلامى فى النثر الأدبى

أ (احتلال الانجليز لمصر :

لم يكن احتلال انجلترا لمصر فى فجر القرن الرابع عشر الهجرى (١٣٠٠ / ١٨٨٢ م) أول حوادث الاستعمار الأوروبى على هذا القطر الإسلامى ، بل لقد سبقته محاولات لا تُعد قليلة فى تاريخ الاستعمار الذى بيت النية من آماذ بعيدة لهذا الاحتلال ، ويدل على ذلك أن الحملة العسكرية الفرنسية التى جاء بها نابليون بونابارت فى مطلع القرن الثالث عشر الهجرى (١٢١٣ / ١٧٩٨ م) واحتل بها مصر تسبق هذا الاحتلال بقرابة قرن من الزمان ، وبعد خروج هذا الاستعمار الفرنسى والذى لم يتمكن من البقاء بعد محاولة استمرت خمسة أعوام للسيطرة ، اتجهت انجلترا فى محاولة يائسة إلى احتلال مصر فى غزوة بحرية عند رشيد (١٢٢٢ / ١٨٠٧ م) تكبدت فيها هزيمة أعقبتها موليةً الأدبار . ومع فشل هذه الهجمة الشرسة على رشيد فإن الاستعمار قد اتجه إلى الأخذ بالأسباب الخفية الكثيرة التى تمكنه من احتلال مصر ومنها استغلال ظروف الدولة العثمانية آنذاك حيث أخذت انجلترا تضغط عليها لكي تسمح لها بالتدخل فى بعض شئون مصر ، وفى الوقت ذاته عززت انجلترا ذلك بكثرة البعث والمدارس والإرساليات وانشاء الشركات والمؤسسات المختلفة وازدياد عدد رعاياها واتباع حكامها فى الاستدانة منها إلى غير ذلك من الوسائل التى فتحت بها طريق السيطرة والتحكم وخاصة فى عهد الخديوى اسماعيل (١٨٦٢ / ١٨٧٩ م) ، الذى كان حريصاً على أن يجعل من مصر دولة أوروبية ، ومهما تكن البواعث وراء هذا الاحتلال فلا يخفى أن احتلال انجلترا لمصر لا يخرج فى جملته عن الغارة الاستعمارية التى تواطأت الدول الاستعمارية عليها لحرب الاسلام وتمزيقه وامتصاص خيرات بلاده ، كما أن موقع مصر الجغرافى الرائع لم يكن خافياً على المستعمرين حين تنافسوا عليها ، وعندما أخفقت الثورة العربية وتمكن الانجليز من الاجهاز عليها والاستيلاء على مصر (١) أخذوا فى تثبيت أقدامهم وإحكام قبضتهم ، وقد سارعوا إلى تنفيذ مخططاتهم واتخاذ الأساليب التى

(١) أنظر : التفاصيل التاريخية لهذا الاحتلال ، الثورة العربية والاقتلال الانجليزى - عبدالرحمن الرافعى .

تحقق مآربهم وهي كثيرة وشائكة لا يتسع لها مقام هذه الدراسة وإن كانت لا تخرج عما يخدم المستعمر ويحقق طموحاته ومآربه .

أنعذ تشرع الأعلام أسنتها إزاء هذا الخطب، والذي أصاب المصريين في مقتلهم، ويبدو لى أن "كتابات صحيفة العروة الوثقى" كانت من أوائل الكتابات التى تناولت هذا الحدث المير ، فقد كانت "تعمل على إنهاء الدول الإسلامية من ضعفها وتنبيهها للقيام على شئونها ، ويدخل فى هذا تنكيس دولة بريطانيا فى الأقطار الشرقية وتقليص ظلها عن رؤوس الطوائف الإسلامية " (١) لذا أمرت سلطات الاستعمار بمصر أن تعلن عن غرامة مالية نكالا بمن توجد عنده العروة الوثقى بعد أن أمرت بعدم السماح لدخولها . (٢)

وهذا جمال الدين الأفغانى ينقم على الاحتلال الانجليزى عدوانه ويلح فى كتاباته على إعادة الروح القومية إلى المصريين الذين سرى فيهم اليأس واستسلموا للخضوع ، فها هو يثير الشعب على الاحتلال فيقول (٣) "كأن المصريين نسوا ما كان بينهم ، وأن الانجليز ما دخلوا بلادهم إلا بمعونتهم ، هذا هو الوهم العجيب ، إن الذين كانوا مدة سنتين سببا فى قلب العساكر الانجليزية وحلولها فى وادى النيل وأنهم لولا هم ما استقر لهم قدم فيهم ، يظنون الآن أن تلك العساكر قادرة على قهر الأهالى عموما واخضاعهم لحكومة بريطانيا ، وبهذا الظن الباطل يستسلمون لأعدائهم كرها ، ويجارونهم فى أهوائهم نفاقا . هلا ينظر المصريون نظرة متأمل إلى القوة الانجليزية ليعلموا أن ليس فى طاقة بريطانيا لو أفرغت جهدها أن تبعث إلى مصر والسودان أزود من عشرين الف جندي . . .

إذا كان الأهالي فى داخل البلاد يناوئونهم وليس لهم من القوة العسكرية البرية ما يقهرهم على الطاعة . ليس فى الأمر شىء سوى الوهم ، هذا الوهم تمزقت حجبه عن بصائر الغربيين فعلموا من هم الانجليز . . . ضعيف يسطو على حقوق الأقوياء ، صوت عال وشيخ بال ، قامت الدول على معارضتهم لعلمهما أن الانجليز صاروا للأمم كالوددة الوحيدة على ضعفها تفسد الصحة

(١) العروة الوثقى ٢٤ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٢١ .

(٣) المرجع السابق ص ١٨١ .

وتدمر البنية . لكن بقي أن يزول هذا الوهم عن الشرقيين حتى يستفيدوا من هذه الحركات ويستقلوا بأمورهم " .

والسودان التي يجب ألا يفوت التذكير بما أنزله الاستعمار بها،^(١) والتي تُلحق في هذه الدراسة باحتلال الانجليز لمصر، كانت يومئذ تابعة للحكومة المصرية، وقد طمع فيها الاحتلال الانجليزي حين أنس من نفسه القدرة لا احتلالها، وحين كان الانجليز يثيرون الشكوك ويبثون الشائعات بين السودانيين لزعة الثقة في الثورة المهدية التي عانوا منها العنت ومرّ البلاء . تحذّر " العروة الوثقى " من الاستماع لهذه الوشائيات، وتتخذ شرعية حماية الوطن حجة كافية لمقاومة الانجليز لأنهم محتلون، ولا يحتاجون في الانبعاث للمقاومة إلى أمر سلطاني، فالشرعية الإلهية والنواميس الطبيعية في كل ملة وكل قطر تطالب كل شخص بصيانة وطنه والذود عنه، والموت دونه، والمدافع عن الوطن هو الذي يرسم له تلك الصورة الجميلة المحلاة بالفضائل في ذاكرة التاريخ، ويعرف بضد ذلك من يقصدون الوطن ويخونونه، وهو ما تحذر منه " العروة الوثقى " وتجلّيه^(٢) " لسنا نعني بالخائن من يبيع بلاده بالنقد ويسلمها للعدو ويثمن بخس أو بغير بخس (وكل ثمن تباع به البلاد فهو بخس) بل خائن الوطن من يكون سبباً في خطوة يخطوها العدو في أرض الوطن، بل من يدع قدماً لعدو وتستقر على تراب الوطن وهو قادر على زلزلتها، ذلك هو الخائن في أي لباس ظهر وعلى أي وجه انقلب القادر على فكريديده، أو تدبير يأتيه لتعطيل حركات الأعداء ثم يقصر فيه فهو الخائن. من سوف عمل اليوم إلى الغد، وتوانى في تضليل كيد الأعداء بقول أو فعل، فقد ارتكب خطيئة الخيانة، وكل خائن لوطنه أو ملته فهو ملعون على ألسنة الأنبياء والمرسلين، وممقوت في نظر العالم أجمعين، ما أعظم جريمة الخيانة، يأتي الزمان بطوله على كل شيء فيمحو أثره ويطمس رسمه إلا وصمة الخيانة فلا تطويها الأدهار ولا يخفيها تطاول الأعصار. محيت أسماء العظماء والملوك والسلاطين ولكن لم تمح أسماء الخائنين . لوث على

(١) انظر في احتلال الانجليز للسودان : مصر والسودان في أوائل عهد

الاحتلال " عبد الرحمن الراجعي .

(٢) العروة الوثقى ١٨٨، وانظر أيضاً المقالات التالية بها : زلزال الانكليز في

السودان ، الانكليز في السودان ، عودة إلى خرطوم ، وانظر : أدب

المقالة الصحفية ج ٣ ص ٨٦-٨٨، ١٦٨

وجه الزمان ودون فى صفحة الامكان مكتنفة باللعة محفوفة بالمقت الى أبـد
الآبدىن " .

مضى الاستعمار الانجليزى لمصر فى سنواته الأولى لتثبيت قدمه
وبسط سيطرته الحربية والادارية . والمالية على البلاد ، فألغى الجيش الوطنى
ليحل محله جيشاً جديداً هزلاً خلواً من القوة المادية والمعنوية ، تحت
تصرف ضباط انجليز ، كما وضع يده على الأمن الداخلى وألغى قوانين
الاصلاحات العسكرية ، كما ألغى البحرية المصرية ، وسيطر على المالية ووضع
قواعد الحماية المقننة التى تقوم على بقاء جيش الاحتلال والزام الحكومة
المصرية ، باتباع أوامره (١) ، ومضت انجلترا بخطوات واسعة فى تحقيق أغراضها
الاستعمارية فكان لذلك أثره السبىء على الشعب المصرى فى جميع النواحي ،
فى نظام الحكم ، وفى حالة البلاد الاقتصادية والاجتماعية وفى الروح الوطنية
وروح المعارضة وفى التعليم وغير ذلك (٢) .

إن هذه الروح الاستعمارية التى تسلطت على كل شىء خليقة ببعث
الحقد والكراهية الشديدة عليها ، فليس عجباً أن تظهر المقاومة المختلفة
لصدّها والحدّ من سطوتها ، ومن ثم تجد زمر الكتاب يتلو بعضهم بعضاً
يسطرون هذه السياسة ويتابعون صغيرها وكبيرها ، وتضطّرهم إلى الجري
معها فى ميادين متعددة ومحيطات واسعة ، فالاتجاهات السياسية والقضايا
الدينية ، والمسائل الاجتماعية ، كل ذلك عالجه الكتاب وخاضوا فيه ، ومع
ذلك فلا يخرج ذلك عن مقاطعة الاستعمار ومكافحة آفاته ونزع عقاريه (٣) .

واذا تذكرنا كثرة الكتاب والأدباء الذين ازدهرت بهم مصر فى عهد
الاحتلال وما كان لأحداث الاحتلال من أثر فى نتائجهم الفنى واهتمام كل
منهم بالكتابة عنها ، أمكن للمرء أن يتذكر ذلك السيل الهائل ، وتلك الكثرة
مما يمكن أن نسميه " أدب المقاومة " فى الأدب العربى الحديث فى مصر .

والواقع أن هذه الكثرة التى يمكن تلمسها عند أى كاتب لاسبيل إلى

(١) انظر التفاصيل فى " مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال " الفصل
الأول " عبد الرحمن الرافعى .

(٢) المرجع السابق " الفصل الثانى عشر " النتائج العامة للاحتلال الأجنبى

(٣) انظر أدب المقالة الصحفية فى مصر ج ٣ ص ١٣ .

تتبع جوانبها والالمام بأطرافها ، فذلك يستحق دراسة كاملة توضحه ويضطر مقام هذه الدراسة هنا إلى الاكتفاء بنماذج محدودة حسبها تعضيد ماذهب اليه مع ماسلف من أمثالها .

هذا ابراهيم المويلحي يكتب في تصوير رائع كيف يتدخل الانجليز في شئون مصر، وكيف تنطوى حيل القوم على المصريين ، مع أن المصري كما يقول الكاتب (١) " من بين جمهور الشرقيين أوسعهم خيالاً وأحدّهم ذهنًا، وأوقدهم ذكاءً وهو أكثرهم تشعبًا في الفكر ، وأطوعهم انقيادًا للوهم ، وأسهلهم عن المقدمات وأسبقهم إلى النتائج وأسرعهم في الحكم ، فلو تكلمت مع مصري مثلاً على عمل يعمل له لربح يربحه لا خترق بفكره الثاقب جميع مقدمات العمل، واحدة إثر أخرى ولننفذ فكره منها كما تنفذ الكهرباء إلى الأجسام لشغفه بالوصول إلى النتيجة ، فيأخذ في تعداد وجوه الانفاق من ذلك الربح الموهوم، قبل الشروع في العمل . . . " .

أما الانجليزى فيصفه بقلة الذكاء وقصر النظر" تراه بطيء التصور بطيء القياس ، قادراً بذلك على التأمل والتثبت ، والتروي والامعان فإن عمد إلى أمر انصرف بجميعه أولاً إلى النظر في المقدمات وأخذ يقلبها بطنًا لظهر فلا ينثني حتى يقتلها علماً ، ثم ينبرى للقياس فلا يخطيء إلا بمعاكسة الحدثان وصروف الزمان التي لم تكن في قدرته أن يحيط بها وله من تلك الأناة وذلك الإمعان مايسهل عليه الوقوف على علاقات الأعمال بعضها ببعض على قدر الطاقة البشرية " .

واذ يستمر الكاتب في المقارنة بين الحالتين ، ويصف التدرج الذى يتداخل به المحتلون ، وابتدأهم بالصغير لينتهوا منه إلى الكبير ليؤكد أن ذلك مكن الداء الذى اضطرب فيه المصري ونجح في تجاوزه الانجليز "ومازال المحتلون ينتفعون بصوابهم وخطئنا معاً ، وينالون أغراضهم باغفالنا الحزم فى أمورنا . وأنتباههم وتبصرهم فى أمورهم ، حتى تمكنوا من التدخل فى ادارات الحكومة المصرية ، ولم يبق لهم من ادارة سالمة من تداخلهم الا ادارة الأوقاف التى دبروا مادبروا لوقوعها فى أيديهم" (٢)

(١) مصباح الشرق - عدد ١٩ - السنة الأولى ٢٥ أغسطس ١٨٩٨ م عن أدب

المقالة الصحفية ج ٣ ص ١٧٣ .

(٢) المرجع السابق ص ١٧٥ .

وذا الشيخ على يوسف يتخذ من حادثة " دنشواى " (١) سبباً يمهّد به لاستقبال " كرومر " الذى كان فى انجلترا وعاد إلى مصر (٢) ويقول " يوم الأربعاء القادم يعود جناب اللورد كرومر إلى القطر المصرى وقد نقص عدد سكان البلاد أربعة من الرجال قضا فى (دنشواى) شنقاً ، وكانوا حتى يوم سفر اللورد إلى انجلترا أحياء يُرزقون ، لكن السياسة لاقب لها ، وجناب اللورد سياسى محنك مشهود له فهو لا يشعر بهذا النقص التافه الذى طرأ على أمة يربو عددها على اثنى عشر مليوناً .

إلا أن السياسة التى لاقب ولا حنان لها فى الوقت نفسه قلب يتأثر بالفشل والخسارة ، ومن هذا القبيل ينتظر أن يتأثر جناب اللورد عند وصوله لأنه سيجد فى البلاد نقصاً كبيراً من هذه الوجهة " واذ يذكر الشيخ على يوسف ظهور الظلم فى هذه الحادثة ينتقد ذلك النظام الذى وضعه الانجليز سنة (١٨٩٥ م) لنشر العدل فاذا هو نظام لاضمان له من الرجال " من حادثة دنشواى " تجلت قوة الانسان وضعف النظام بأكمل وجوههما ، فظهرت صورة القوي مطلقاً لنفسه العنان فى الانتقام ، وظهرت صورة الضعف شوهاء متلاشية . . . فعلام توجد هذه المحكمة المخصوصة بل " الدائرة المخصوصة " (٣) ، لأنها دائرة الدوائر التى تدور على المصرى ، وفى البلاد محاكم منظّمة يحاكم فيها كل وطنى اعتدى على أحد ، حتى على مقام ولي الأمر ؟ " (٤) .

لم يخف على الاستعمار الانجليزى استخدام الوسائل التى تُحقق له

(١) دنشواى من قرى المنوفية ، وقد خرج ضابط انجليزى مع رفقاء له لصيد الحمام فى هذه القرية (١٩٠٦ م) فتعرض لهم أهل القرية واحتدموا بهم ففر منهم هارباً فى حرارة النهار فمات فى الطريق ، الا ان " كرومر " اتخذ من هذه الحادثة ذريعة لاتهام المصريين بالتوحش والتعصب الدينى وقد اتخذ الكتاب من هذه الحادثة دليلاً كبيراً على جريمة الانجليز وفضحهم مما كان له أثر فى عزل كرومر بعد ذلك لأنه أمر بشنق أربعة رجال من أهل القرية ، انظر : مصطفى كامى - عبد الرحمن الرافعى .

(٢) أدب المقالة الصحفية ج ٤ ص ١٥٠

(٣) هى محكمة مخصصة بحادثة دنشواى أصدر قرار تشكيلها بطرس غالى حين كان وزيراً للعدل بالنيابة .

(٤) أدب المقالة لصحفية ج ٤ ص ١٥٤ .

له مأربه وخططه ، وقد كانت الصحافة من أعظم هذه الوسائل ، فاتخذ له من الصحافة مايثبت فيه أخباره وأوامره ، كما كان يدافع فيها عن كل مايفهم فيه من تصرفاته وأقواله ، كما كانت من أنجع الوسائل فى إشغال الرأى العام عنه بأي أمر حتى يصرف الشعب عنه ليسير فى سياسته ويحقق أهدافه . ورغم سياسته التى اتخذها لضعاف الصحافة التى تعارضه وتطبيق نظام الرقابة عليها متى يشاء فإن الصحف التى سارت فى فلكه وهادنته أخذت عنها سياسته . كانت تجد الكتابات الكثيرة التى تُهاجم مسلكها من الصحافة الشعبية ، والتى تدلّها على سوء ماخذعت به ، كقول أحدهم (١) " إن الجرائد العربية المصرية المتعصبة للإدارة العاملة بما فطرت عليه من كراهية الهيئة الوطنية ، والصحف المداجية لها (مراعاة لأحوال الزمان والمكان) تضرب طبول المدح لهاته الإدارة . . فيرقص المغرورون على نغمات تمليقها رقصاً يذكر بعضهم بأيامه السالفة فينشدد بعد احتجاب النهار بسحابة الدّجى :

إِذَا تَذَكَّرْتُ أَيَّامًا بِهِ سَلَفْتُ . . أقول بالله يا أَيَّامنا عودى

فهل خفى على تلك الصحف أن ليس من شفقة الصياد على الطير القاؤه الحب بين يديها . . . إن الجرائد المصرية لاتجهل حقيقة الأمر ، ولكنها لاتستطيع التصريح علماً بأن اللص العازم على سرقة الحقوق الوطنية يكره النور . فاذا حاولت الجرائد باظهاره سارع الى إطفائه بتعطيلها والغائها ، وإن الأمة المصرية لاتؤخذ بهذه الوسائل ولا تصاد بتلك الحبائل . . . " .

ومما لا يفوتنا فى هذا الاتجاه التذكير بتلك الصيحات التى تتعالى فى كتابات كثيرة ، هذه الصيحات تجسّد الضعف والخلل ، وتظهر الفساد وسوء الأحوال التى تشكو منها الأمة (٢) ، وما كل هذه الآثار السيئة إلا من قبل ذلك الاستعمار ، ومباركته لكل مايققق مصالحه وإن أودى بالأمة المصرية إلى الهاوية وسوء المصير ، هذا عبد الله النديم يحذّر كثيراً من هذه النتائج التى أوصل الاستعمار الشعب اليها على شاكلة قوله (٣) " أم هم " متسائلًا " الانجليز " الذين أعطوا الالتزامات الواپوريه والأرضية ووسّعوا نطاق

(١) أديب اسحاق ، الدّرس ٣٠٣ ، ٢٠٤ وأنظر مجلة الفتح فى مقال تهاجم

فيه الصحف التى تكيد للإسلام ، عدد ٢٤ نوفمبر ١٩٢٧ م .

(٢) انظر : الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ١ / ٢٣٥ .

(٣) سلافة النديم ٢ / ٧٦ .

المعدات الى أن ضيقوا كل عمل مصرى ، أم هم الذين منعوا المصريين من زراعة الدخان والحشيش لتروج مزارع أوروبا بخراب بيوت هوء لاء الضعفاء أم هم الذين باعوا مهماتهم وآلاتهم بغير ثمن وربما أعطوا من أخذها شيئاً يستعين به ، على نقلها حتى تركموا البلاد محتاجة لمن يحرسها بالعصا أو النبوت (١) أم هم الذين أبعدوا المصريين عن الخدمة وحشروا الغرباء فى المصالح حتى أصبح ألوف من المصريين لا يجدون القوت ولا يعرفون لاستخدامهم مرة ثانية سبيلاً أم هم الذين قللوا من تلامذة المصريين فى مدارسهم وأكثروا من استخدام الأجانب فيها وتدرجوا لإماتة لغتهم الوطنية بغرض المكافآت لمن ينبغ فى الانجليزية لتُنسى لغة القرآن فيُنسى بها الدين الواقف عقبة أمام أوروبا .

إن كثرة ما دبحه الكتاب فى محاربة الاستعمار وفضح ألاعيبه ومخططاته لاسبيل إلى حصره أو متابعته فى هذه الدراسة هنا - كما سبق القول بذلك - بيد أن هناك ثلاثة أحداث تفرض نفسها على دارسى هذه الفترة مما أجدني فى حاجة إلى التذكير بها ونحن بصدد انهاء الحديث عن الاستعمار الانجليزى لمصر .

(١) أول هذه الحوادث هى الفتنة الطائفية التى احتدمت بين المسلمين والأقباط (٢) ، وقد بلغت هذه الفتنة قمته حين بدأ الأقباط يدعون الى مؤتمر قبضى لبحث حالتهم ومطالبهم فى المساواة فى الحقوق العامة ، وكان مقتل " بطرس غالى " رئيس الوزارة فى سنة ١٣٢٨ (فبراير ١٩١٠ م) مما زاد فى خطورة الأمر وتفاقم الخلاف ، ومضى الأقباط الى اتهام جيرانهم المسلمين وبخاصة الحزب الوطنى ورجاله ، وتم انعقاد المؤتمر القبطى فى أسيوط فى (١٣٢٩ / مارس ١٩١١ م) وكان لهذا المؤتمر صداه فى الحكومة المصرية التى خافت من انصداع الأمة بأحياء الفتنة مما حدا بها لدعوة الفريقين إلى مؤتمر سُمي بالمؤتمر المصرى " لينظر فى شئون الطائفتين ويحسم الخلاف الناجم ، مع مطالبة الجميع أن تكون مصلحة الوطن نصب أعينهم ، ومعنى هذا المؤتمر الذى انعقد فى (١٣٢٩ / أبريل ١٩١١ م) الى غايته متوخياً التوفيق بين العناصر التى تجمع الوحدة المصرية فكان له أعظم الأثر

(١) النبوت : كلمة عامية فى اللهجة المصرية وهى العصا .
(٢) انظر تفاصيل الفتنة الطائفية فى مصر : محمد فريد رمز الاخلاص والتضحية ، عبد الرحمن الرافعى ص ٢٩٢ ، الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ١ / ١٢٥ - ١٥١ .

فى إطفاء هذه الفتنة والتغام الفريقين بعد ذلك فى الوقوف ضد الاستعمار عدو الجميع .

كانت هذه الفتنة مبعث كثير من الكتابات^(١) والاتهامات وسوء الظنون التى طفحت بها الصحف القبطية والوطنية ، وزاد من قوة الكتابات ووفرتها ميل بعض الصحف القبطية إلى الاستعمار والاستعانة به والشكاية إليه ، ولهذا فليس غريباً أن تنال الصحافة الوطنية من القبط وتتصدر صفحاتها بكتابات قوية عنيفة ، تنذر وتهدد وترمى الاستعمار والأقباط بالسنة حداد لا تقل عن السنان قوة ومضاء .

(٢) والحادث الثانى : هو اعلان الحماية على مصر فى سنة ١٣٣٣ نوفمبر ٩١٤ م^(٢) وذلك لكي يقطعوا آخر علاقة لتركيا بمصر ، متذرعين بانضمام تركيا إلى ألمانيا والنمسا فى الحرب الأولى ضد إنجلترا وحلفائها ، وبهذه الحادثة كُفِّت الأفواه وقُيدت الحريات وفُرضت الأحكام العرفية على الشعب المصرى ، وأخذ الاستعمار الحكم والسيطرة بيد من حديد ، وأجهز على السلطة فخلع الخديوى عباس الثانى عن العرش وولى مكانه السلطان حسين كامل .

ومن العجب أن كل هذه الضغوط والمآسي التى أنزلها الاحتلال بمصر فى هذا العهد الجديد لا يوجد لها صدى فى الأدب المصرى كما قال أحد الباحثين^(٣) " يأسف التاريخ المصرى الحديث حين لا يجد لهذه الحركة الهائلة - وهى حركة انتقال العرش على يد الانجليز من فرد إلى آخر من أفراد أسرة محمد على - وحركة اعلان الحماية - من صدى حقيقى لاحتجاج المصريين على هذه التصرفات التى بدت من جانب الانكليز لانكاد نستثنى من ذلك الا صدى واحد فقط هو احتجاج " جريدة الشعب " التى كان يحررها الأستاذ أمين الرافعى^(٤) عن الصدور منذ قال فى عدد أصدره فى ٢٧ نوفمبر

(١) أنظر جملة من هذه الكتابات : الاتجاهات الوطنية فى الأدب

المعاصر ١٢٨/١ - ١٣٨ .

(٢) ادب المقالة الصحفيه ج ٣٧/٨ .

(٣) المرجع السابق ص ٣٧ .

(٤) أمين الرافعى (١٣٠٣ / ١٣٤٦) كاتب وصحفى سياسى مصرى ولد ومات بها تخرج من مدرسة الحقوق وناصر الحزب الوطنى فى عهد مصطفى كامل وكان من كتاب صحفه كاللواء والعلم . انظر تفاصيل ترجمة ادب المقالة الصحفيه . د . عبد اللطيف حمزة ج ٧ .

سنة ١٩١٤م " انه سيحتجب عن قراءة منذ ذلك اليوم ، وان الغرض من ذلك هو ألا تُنشر صحيفة الشعب إعلان الحماية المشؤم ، أو تنشر البلاغات التي تستتبعها الحماية " ، وهكذا أُطبق الاستعمار على الصحافة والأهالي وسار بعد ذلك فى مخططه يضطهد ويصادر وينفي كما يريد ولا أحد يطيق الجهر بهذه الجرائم كأنما خيم السكون وساد الوجوم على أرجاء مصر .

(١)
(٣) ثالث هذه الحوادث هي الثورة المصرية عام (١٣٣٨ / ١٩١٩م)
رغم أن كبت الحريات والتضييق الشديد على الآراء والأفكار إضافة إلى تسلط الاحتلال على حكم مصر وشؤونها العامة من أكبر بواعث هذه الثورة ، ورغم المظاهر السياسية والدينية والقومية التي ظهرت فيها ، فالذى يهم دارس الأدب أن لهذه الثورة أثر لا يمكن تجاهل مداه فى الحياة الأدبية والهامة بل لقد ظاهرها " الأدب لا من حيث مسابرة للثورة والتعبير عنها ولكن فى الارهاص لها " (٢) .

ورغم الكبت الشديد الذى فرض أيام الثورة والرقابة الصارمة على الصحف (٣) فإن الدلائل على أدب ألهبته هذه الثورة ، وما أُخرج مما كان حبيسا فى إبان احتدامها ، فضلاً عن الخطابة التى عجت بها الثورة قوة وحماساً ، وما كان للنشرات والصحافة السرية (٤) ليؤكد بلا مرأى الأثر الأدبي الذى وافق هذه الثورة ومكانته منها .

من خلال هذه الأحداث الثلاثة فضلاً عما سبقها يتجلى لنا كم كان الأدب الذى ألهمه احتلال الانجليز لمصر غزيراً وواسعاً ، وكيف كان متابعاً لمجرى الحوادث وراصداً لها ، فضلاً عما له من أهمية فى إيقاظ النفوس والهمم لمقاومة الغاصب ودحره وتطهير أرض النيل من جورهِ وعدوانه وشططه .

(١) انظر تفاصيلها فى كتاب : ثورة سنة ١٩١٩م - عبد الرحمن الرافعى .

(٢) الصحافة الأدبية بمصر والاتجاهات القومية ٧٥ / ١ .

(٣) انظر فى الأدب الحديث ٧٦ / ٢ - ٧٩ .

(٤) انظر نماذج منه فى : الصحافة الأدبية بمصر والاتجاهات القومية

٧٦ / ١ وما بعدها ، ثورة سنة ١٩١٩م ج ١ ص ٢٠٢ - ٢٠٥ ، ج ٢

ص ٤٤ ، الخطابة السياسية فى مصر - عبد الصبور مرزوق .

ب) الحرب اليونانية :

لا تخرج هذه الحرب عن دائرة التآمر الأوروبي العام ضد الاسلام فى مطلع هذا العصر، فاليونان فى الحقيقة لم تكن لتجروء على محاربة العثمانيين لولا إيعاز دول أوروبا اليها ومعونتهم لها (١)، وعندما نشبت هذه الحرب سنة (١٣١٥/١٨٩٧م) نجد الاهتمام الشديد بها فى مصر، فالشيخ على يوسف الذى كان عثمانى الهوى آنذاك، يدافع عن العثمانيين، وكانت أخبار الحرب تحتل الصفحات الأولى من المؤيد، وكان يهاجم انكلترا التى لها نصيب وافر فى بعث تلك الحرب، ويعتبر نصرها نصراً لمصر، ويطالب بتدعيم روابط الولاء بين الدولة العلية ومصر ويقول (٢) " يعلم المصريون كافة أن فى سلامة الدولة العلية سلامة مصر، وفى المحافظة على حياتها صيانة مستقبل بلادنا المحبوبة... ويعلم الناس كافة أن انكلترا أشد أعداء الخلافة... وعملوا ويعملون لتقويض أركان السلطة العثمانية وأنهم ما أشهروا عداؤهم لها الا من يوم توثيق العلائق بينها وبين مصر...".

واذ يقوم النزاع بين اليونان والدولة العثمانية حول جزيرة "كريت" ويتجه العثمانيون إلى تقوية أسطولهم البحرى ودعوة المسلمين جميعاً للمساهمة، يتحمس الشيخ على يوسف لذلك، ويقود الدعوات لهذا الاكتتاب، وينشر يومياً المتبرعين والمبالغ التى تبرعوا بها دعماً للأسطول ليشجع غيرهم على التبرع، وقال مشيداً بهذه المعونات (٣) " لقد برهنت الأمة المصرية باقبالها الشديد على مشروع الاكتتاب الوطنى لاعانة العسكرية الشاهانية أنها تعرف مصلحتها الحقيقية المتوقفة على حفظ الدولة العلية وجامعة الخلافة الكبرى".

وعندما عاد الزعيم الوطنى مصطفى كامل من باريس يونيو (١٨٩٧/١) ألقى

خطبة فى الاسكندرية كان مما فيها أن نفى الخطيب تهمة التعصب الدينى

(١) انظر الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ١٩٢٩/٤، وما بعدها.

(٢) المؤيد ٢٣ مايو ١٨٩٧م نقلاً عن السلطان عبد الحميد والخلافة الاسلامية ص ١٣٣.

(٣) المؤيد عشرين مارس ١٨٩٧م عن السلطان عبد الحميد والخلافة الاسلامية ص ١٣٣.

الذى نسبته خصوم مصر الى المصريين بسبب اكتابهم فى مساعدة الجيش العثمانى فى هذه الحرب العثمانية اليونانية وقد سوَّغ موقف مصر قائلاً (١) " إن مظاهره الأمة المصرية نحو الدولة العلية هي مظاهره قوية ضد الاحتلال الانجليزى ، واشترك أفراد الأمة على اختلافهم فى الاكتاب للجيش العثمانى هو اقتراح عام ضد الانجليز فى مصر . . .

نحن نسأل الذين ينتقدون اكتابنا للدولة العلية لماذا غير الانجليز سياستهم نحو تركيا من سنة ١٨٩٣ ، لماذا قاموا من ذلك الحين ضدها بعد أن كانوا يعلنون للملأ كله أنهم إصدقاؤها وأحباؤها السلطان ؟ أليس ذلك لأن السلطان لم يرض العمل معهم ضد مصر وضد أميرها ؟ أليس لأنه قدّر آمال المصريين ورغائبهم حق قدرها ؟ " وتمضي الخطبة تبين أنه لو لم تكن بين مصر والدولة العلية أية علاقة ، أليس من الجميل والواجب أن تعترف مصر لدولة رفضت القضاء عليها ولم تساعد أعداء مصر عليها ، ثم ضرب مثلاً بصدقة الأمة المجرية للأتراك وحبها إياهم لمجرد ايواء الأتراك لأحرار المجر فى بلادها .

ونظراً للنصر الذى حققه العثمانيون على خصومهم فقد كانت هذه الحرب مبعث أمل واستبشار لنهضة الدولة العثمانية دولة الاسلام ، واستعادة قوتها كما يظهر فى صدى الحروب (٢) الذى ألهمته أحداث هذه الحرب اليونانية .

ج (حرب طرابلس الليبية (٣) :

عندما بلغ الاستعمار الأوروبى ذروة تسلطه ونهمه فى آخر القرن الرابع عشر الهجرى واحتوائه لكثير من البلاد الاسلامية لم يكن لاطاليا شىء منها ، ولذا أخذت تعد العدة لأخذ نصيبها أسوة بالدول الاستعمارية الأخرى ، وليس هناك أقرب وأسرع لاطاليا من البلاد الليبية ، وقد أعدت بالطبع لذلك الغزو ما يسبقه من شراء أراضى وإرسال بعثات تبشير وشركات عاملة وخلاف ذلك ،

(١) مصطفى كامل للرافعى ص ٩٩ .

(٢) انظر الشوقيات ١ / ٤٢ - ٥٨ .

(٣) انظر فى تاريخها : حاضر العالم الاسلامى ٢ / ٦٤ - ١٢٨ .

مما يمهّد الطريق ويدرس الوضع ، ثم تقدم إيطاليا في (١٢٣٨ / ١٩١١ م) بضرب السواحل الليبية وإنزال قواتها واحتلال طرابلس وبنغازي وغيرها ، والذي يبدو من الدراسات التاريخية أن الطليان كانوا يتوقعون احتلال المناطق الليبية في يسر وسهولة دون عناء كبير ، ولكن المشيئة خيبت ظن القوم وُصِّدوا صَدًّا عَنِيفًا وانكسروا في مواقع متعددة رغم البعن الشاسع بين قوة الطرفين ، والتي تجعل من قوة الطرابلسيين الضئيلة خيالاً أمام قوة جيش الفاشستية العاتية ، لذلك ولغيره بدأ الطليان في استعمال القوة بكل ما أوتوا ، وانها الواعلى أهل البلاد بكل قسوة ووحشية ، لا يتورعون عن أفبح الأعمال وأفسد الأخلاق في ما يتصل بالحرب وما لا يتصل بها ، بل إن المتأمل في جرائم هذه الحرب التي هي صفحة مجللة بالخزي والعار لأوروبا كلها على مدار تاريخها ليقول : إن هذه إبادة ووحشية وليست غزواً حربياً ، وإن كل تلك العدوانية لتدل على الحقد المرير والرغبة الأكيدة في محق أهل برقة وطرابلس وما حولها من الوجود ، وتعود بالذهن ليضيفها إلى حملات الهجوم والتخريب كما مثلها المغول والتتار في ديار الاسلام بقيادة الطغاة هولاءكو وتيمور لك وسواها ، ولا أدل على هذه الحقيقة من قول من عايش أحداثها ورأى بأم عينيه أهوالها لمن يتسائلون أو يشكون فيها (١) : " ان الناس يبحثون عن أخبار الأندلس وكيف أجرى الأسبانيون بالمسلمين هناك ، ومالهم وللأندلس ولأموال جرت في القرون الوسطى ، فأمام أعينهم طرابلس الغرب فليذهبوا ويشاهدوا بأعينهم في هذه الأيام فظائع لا تقل عما جرى بالأندلس " .

واذا كان هذا الحقد وهذه الشراسة الحربية إنما ترجع إلى الروح الصليبية التي كانت واضحة في ذلك النشيد الحماسي الذي كان يرددّه الطليان في هذه الحرب كما أشير اليه فيما سبق ، ليبيدوا الأمة الملعونة - كما يزعمون - فلا داعي لتلمس الدوافع وقد قطعت جبهة قول كل خطيب ؟ .

هذا المنفلوطي يصور بشعوره الرقيق مآسي أهل طرابلس في تلك الأقاليم القاحلة والصحراء المحرقة لا يملكون حولا ولا قوة (٢) وارحمته لجماعة المسلمين في طرابلس ، إتهم عاجزون عن أن يعدّوا لعدوهم الزاحف عليهم بقنابله وقذائفه غير أجسام ستصبح عما قليل أشلاء مبعثرة تحت كل كوكب ،

(١) هذا من مقال كتبه الأستاذ : عبد الرحمن عزام : حاضر العالم الاسلامي ٦٥ / ٢ وكان عزام يدرس في أوروبا فعند ما قامت الحرب الطرابلسية تبرك الدراسة وانخرط مع المجاهدين في هذه الحرب .

(٢) النظرات ١٥٣ / ٢ - ١٥٦ .

وقلوب لا تزال تنبض حتى تسمع طلقات المدافع والبنادق فتسكن ، وأرواح ستطير
فى آفاق السماء طيران ذلك الدخان فى أجواء الفضاء .

وارحمته لهم ، إنهم يستغيثون فلا يجدون مغيثاً ، ويستصرخون
فلا يسمعون مجيئاً ، وقد تقطعت بهم الأسباب وأعوزتهم الوسائل وسدت فى
وجوههم السبل فلم يبق لهم منها إلا سبيل الموت .

أما الكوارث والوحشية التى أنزلها بأهل طرابلس أولئك الأوغاد فهذه
نتائجها ، وتلك عاقبتها الأليمة (١) " هناك تنوح النائحات ، وتبكي الباقيات ،
وتطير النفوس ، وتصعق القلوب وترن المنازل والدور بالنحيب والتعداد ، وهناك
ترى المرأة المسلمة المخبأة التى لم ترفى حياتها وجه الشمس الا من كوة بيتها
برزة الوجه ، عارية الرأس ، حيرى مولمة هائمة فى الطرق والمذاهب ، تسائل
الغادين والرائحين ما فعل الله بولدها أو زوجها أو أخيها . . . " .

وهناك ترى الشيوخ الكبار والأطفال الصغار ، والعاجزين والضعفاء
لائذين بالتلال والآكام ، يحاولون أن يتقوا بها صواعق الحرب وشهبها ،
فلا تقيهم ، أو عائذين بالمضايق والشعاب يفرون إليها من وجوه الخييل
وسناكبها فلا تحميهم . . . " .

وبينما يستمر المنفلوطى يثير الكوامن ويبعث الشفقة لحال أولئك
المنكوبين تجد ولى الدين يكن يتساءل فى إنكار تغافل قومه عن استعداد
الطلبان للحرب ، ويذكر بجرائم القوم وشراسة حربهم وانتزاع الانسانية من
قلوبهم (٢) : " أكتأ نرجى أن تأخذ عدونا رحمة بنا . أم كنا نحسب أن سيقف
أماننا ويحيينا بالورد والأس ، إنا اذن مجانبين .

قوم عبأوا فيالقهم واستجثوا سابحاتهم وجاءوا يمطروننا قنابل ويصلوننا
ناراً طمعاً فى أرض لا تربتها خصبة ولا ماؤها عذب ، نهباً واغتصاباً . يطأون
الخدور المعفرة ويمشون على العظام النخرة . لم تسترجعهم آداب القرن
العشرين ، ولا نفذت إلى قلوبهم صيحات الساخطين من أبنائه . يستنيمون إذا
عجزوا ويفتكون إذا قدروا . قد استحلوا بلاداً أغاروا عليها لأن أهلها عرب
ولأن حكماها ترك ، فكانوا فيها أشد خشونة من أهل القرون البائدة " .

(١) النظرات ٢/ ١٥٣-١٥٦ .

(٢) التجارب ٦٤-٦٥ .

واذ تتراعى انباء هذا الاستعمار القذر الى بلاد الاسلام تتعالى الصيحات وتتجاوب النداءات غضباً وحمية وإشفاقاً ، وتكثر الأحاديث والكتابات فى مصر لقربها وسرعة وصول الأخبار إليها ، وتأخذ هذه الحرب فى الصحافة المصرية مكاناً بارزاً مدوياً ، ويظهر الدفاع المجيد عن أهـل طرابلس ، وتخرج الدعوات لجمع التبرعات التى تُرسل إلى المجاهدين عن طريق الهلال الأحمر وسواه (١) ، ويظهر الميل إلى مؤازرة الدولة العثمانية فى هذه الحرب ، كما تجد الاستنكار الشديد والسخط الحاد ينزله بعض الكتاب على من كانوا يهاجمون مساعدي العثمانيين فى هذه الحرب ، وهذا الشـيـخ عبد العزيز جاويز يقول لأحد هم (٢) : " أي عدوّ الإسلام نقتم منا أن ندعو المسلمين لنجدة المسلمين ، نستنفر الموحدين لإغاثة الموحدين فماذا كنت تريد ؟ أردت منا أن نتقدم إلى البابا بيد مبسوفة وروءوس خاشعة وأبصار مغموضة وأدعية ضارعة أن يدفع عنا بلاء أمة تدين بصليبه وتدين بمذهبه . إذن لقد ضل عقلك وخطل رأيك فقد نشر أمام النصرانية (يعنى البابا) ذلك المنشور الذى بارك فيه الحملة الإيطالية على طرابلس ثم دعا فيه أهل المسيح باسم المسيح وشفاعة المسيح - أن يستبيحوا المحارم وألا يكون فيهم غير ظالم . "

واذ تتجلى الدعوات للنجدة فى هذه الحرب تؤازرها الصيحات بالاستعداد للمقاومة والدفاع ، ومن هذه السبل الحيلة والحذر لتصرفات الطليان ، فهم حين دعوا للصلح ، حين اضطرتهم الحرب العالمية الأولى لذلك تجد التحذير من مكر هذا الصلح مغبة أن يتخذ الطليان أداة للتوغـل والاستيلاء ، هذا كاتب يسخر ممن لا يعرفون من الصلح إلا مصلحته البسيطة الظاهرة ويدش لكثرة الانشغال به ليقول (٣) " إنه اعجوبة بكل معانى الكلمة

(١) انظر المقالة الصحفية ٧ / ٤ - ١ ، ٨ / ٣٣ حيث تجد الإشارة لبعض الكتاب

كأمين الرافعى وعبد القادر حمزة ممن اهتموا بهذه الحرب فى جريدتى العلم والأهالى ، وانظر أيضاً : مجلة الهلال مجلد ٢٠ ص ١٨٨ (١٩١١) ، (١٩١٢) مقال نهضة العثمانية على أثر التعديت الإيطالية .

(٢) صحيفة العلم - ٣١ أكتوبر ١٩١١ م عن السلطان عبد الحميد والخلافة الاسلامية ص ١٤٩ ، والمخاطب فى المقال هولطفى السيد الذى هاجم فى " الجريدة " الذين يدعون لهذه المساعدة .

(٣) الكاتب بن قدور الجزائرى من مقال نشره فى جريدة " الحضارة بالاستانة " (١٣٢٩ / ١٩١١ م) عن مجلة الثقافة الجزائرية - العدد الاول محرم

١٣٩١ ومارس ١٩٧١ ص ٨٥ - ٨٩ .

ألا وهو الصلح ، الذى لم اختلقه ولكن جئت بها عن بينة ، لأن التهاون النذى انشال على المدارك انشياً من هذه الآوبة الصعبة جرنى إلى الاتيان بهذه التذكرة إننى آسى أن تتشوف البصائر إلى الصلح ولا تتذكر أن الصلح عقده عار ، وامضاه بوار ونتجته اندعار ، وحاصله وبال واند حار ، وكيف لا ؟ والعدو لم يتمكن من شير خارج منطقة حماية أسطوله ، والبراهين تتراءى منذ عام على شدة خموله وجموده ، وعلاوة على ذلك هل يعقل أن القوم ينصفوننا ؟ ومن يعقل ذلك فليأت برهانه إن كان من الصادقين

أما الدكتور طه حسين الذى يرى أن ايطاليا لم تطمع فى طرابلس الا حين رأت فرصة سانحة وسبلاً ممهدة وأيقنت بحسن الظفر وسلامة العاقبة فانه يلقي بكلمات مرة تنفذ إلى القلوب ينعى فيها ضعف الأمة وتخلفها وفتور عزيمتها واستسلامها للحوادث ، حتى أصبح المسلمون نهباً مقسماً بين أمم الغرب الحية التى مدت الأسباب والوسائل إلى القوة المادية والأدبية ويقول (١) : " ليس لهذا السقوط مصدر الا تعطلت النفوس من العلم وامتلأ الروءوس بالأوهام والاضعف الدين واضطراب اليقين وما كان من تساند المسلمين بعضهم على بعض لا يعرفون لأنفسهم قيمة ولا يحسنون عليها اعتماداً . . . فخلق بنا إن أحببنا أن نحيا حياة صالحة أن ننهض لاستقبال هذا العدو بعزم كعزمه وقوة كقوته . ألا وإن الغرب قلما يعتمد على السيف وانما اعتماده كله على سلاح أحد وأمضى منه و هو العلم والأخلاق والاقتصاد ، فلنحاربه بمثل سلاحه وإلا فلنعتقد أننا لم نخلق إلا للقبور " .

رغم قوة جيوش الفاشيست الجبارة ، وأساطيلها الماخرة بقوة النار ، ورغم قلة العدد والعدة مع مجاهدى طرابلس وأخواتها ، فقد كان من الأعاجيب والخوارق أن تُزلزل هذه القلة تلك الجيوش الجرارة وتذيقها النكال الشديد ، فلقد أبدت قطاعات جيش العثمانيين وجماعات المجاهدين والمتطوعين شجاعة وبسالة فاقت كل تصور وأذهلت سائر الناظرين والخارجيين ، آنئذ يقوم الكتاب يستحثون الهمم ويحثون المجاهدين على الصبر والثبات ، يحيون أولئك الأبطال ويقارنون بين مصيرهم وسوء مآل عدوهم ، تظهر هذه الكتابات حماسية كخطب الحرب ، دعوة إلى الجهاد وبث للحماس فى النفوس لخوضه

إنهم يطلبون الحياة وتطلبون الموت ، ويطلبون القوت وتطلبون الشرف ، ويطلبون غنيمة يملأون بها فراغ بطونهم وتطلبون جنة عرضها السماوات والأرض ، فلا تجزعوا من لقاءهم ، فالموت لا يكون مرّ المذاق في أفواه المؤمنين . . . "

بمثل هذه الأساليب الحماسية كانت تسيل الأقلام حثاً على الصبر والجهاد في هذه الحرب، وتجد من يضيف إلى ذلك التذكير بمقاطعة الطليان^(٢) باعثي هذه الحرب والباغين فيها ، وليس ذلك بكثير في جانب

(٢) انظر: مقال : مقاطعة الطليان ، مجلة الزهور ، أنطون الجميل ، السنة الثانية ١٩١١م وكاتب المقال رمز لاسمه بكلمة " حاصد " .

هذه الحرب العاتية الغشوم ، والتي بلغ مداها الآفاق ، واحتشد لتسجيل أهوالها الكتاب والشعراء وُصِّفت فيها التآليف .

(د) الحرب العالمية الأولى :

رغم أن هذه الحرب في واقعها كانت بين ألمانيا والنمسا من جهة والحلفاء (إنجلترا وفرنسا وإيطاليا) من جهة أخرى ، ولا علاقة للدولة العثمانية بها مباشرة ، إلا أن محاولات الطرفين السابقين إلى اجتذاب العثمانيين إليهم أدت إلى ولوج العثمانيين في هذه الحرب التي كانوا هم الضحية فيها ، لقد جرّ الاتحاديون الدولة العثمانية بجانب ألمانيا رغم رفض كثير من الوزراء والقواد بل والخليفة (السلطان محمد رشاد) من الدخول في حرب لا مصلحة للدولة فيها ، واضطّر السلطان تحت الضغط والقبول بالأمر الواقع على الموافقة وإعلان الجهاد المقدس ضد الحلفاء ، ونظرا لأن ألمانيا التي تحالفها الدولة هي من دول النصرانية علاوة على ضعف المسلمين وتشككهم في حقيقة ما يدور، إذ أن اتجاه رجال الاتحاديين للدفاع عن الاسلام كانت تدور حوله الظنون ، فقد ذهب إعلان الجهاد أدراج الرياح ولم يكن له صدى يُذكر في العالم الإسلامي آنذاك .

وعلى كل حال لقد أوجس العرب من سياسة الاتحاديين عدم الصدق معهم منذ سنواتها الأولى، ونظرا لظهور روح القومية الذي ظهر قبل خلع السلطان عبد الحميد، والتي كانت سياسة الاتحاديين السيئة مما أذكى روحها فقد كثرت الجمعيات والمنتديات السرية التي تطالب بحقوق العرب في الدولة العثمانية كما سنرى في الباب الثاني بحول الله - وعندئذ شرع الاتحاديون يولون هذه الجمعيات والتحركات عنايتهم بل وقمعهم خوفا من أخطارها على الدولة ، ونظرا لمكانة العرب في الدولة العثمانية سعى الاتحاديون لاستمالتهم ولإظهار المودة لهم قبيل هذه الحرب ، ففي الشام عمد الاتحاديون " إلى الإيهام والتضليل . . وظهروا بمظهر من يُقرّ للعرب بكافة حقوقهم وبأنهم شركاء في إدارة دفة المملكة .

وخطوا الخطوة الأولى في هذا المضمار - والحرب في بدايتها - فعيّنوا الفريق زكي باشا الحلبي^(١) وهو من كبار ضباط العرب قائدا على الجيوش

(١) لم اقف على ترجمته .

التي كانت مرابطة في سورية ، وجعلوا معظم أعوانه ومساعديه والجنود التي يقودها من أبناء العرب ، وعاملوا السوريين والعراقيين أحسن معاملة ، فقلدوهم المناصب وتظاهروا بالاخلاص لهم وقالوا إنهم سيعملون معهم يداً واحدة للدفاع عن كيان الدولة المشتركة بينهم .

صدّق العرب هذه الأكاذيب واندفعوا بعامل الوطنية إلى شـدّ أزر الاتحاديين وأجمعوا على وجوب تأييدهم وبذل كل غال ونفيس في سبيلهم ، فخاض جنودهم غمار المعارك في معظم ميادين القتال ، وأبلوا بلاءً حسناً في القوقاز والعراق والدرديل وألغوا جمعياتهم وأحزابهم السياسية ، وتناسوا كل المنازعات الداخلية ، ودفعوا في سبعة أشهر من الضرائب والاعانات الحربية أضعاف ما ضرب على الأمة التركية . . . " (١) .

وفي العراق مثلاً تجد الدعوة إلى القومية والوطنية تكبت أثناء هذه الحرب إكراماً للدولة العثمانية المسلمة ، وتأثراً بالجامعة الإسلامية حتى أوقف الشعراء والأدباء أديبهم للدفاع عن هذه الدولة حامية الدين ، معلنين على صفحات الجرائد صيحاتهم للجهاد (٢) ، بل إن من أدبائها من لم يكتف بالصحف بل آزرها بكتابين في إبان هذه الحرب (٣) ، وسم الأول (بحبل الاعتصام) والثاني (بجنايات الانكليز) وهو في الكتابين يحرض الناس على حرب بريطانيا التي يرى أنها ألد أعداء الخلافة ، كما يؤكد على ضرورة اتحاد العرب بالترك في تلك الازمة ، كما أنه في الكتاب الثاني يرى أن جنائيات الانجليز عمّت البشرية جميعاً ، ثم يعدد مثالبهم وخبثهم تجاه أمته ، وأنهم يرمون إصابة كبد الهلال العثماني والقرآن المجيد .

أما مصر التي أعلنت بريطانيا في مطلع هذه الحرب الحماية عليها وإزالة السيادة التركية عنها (١٣٣٢ - ١٩١٤ م) كما لوحظ في الحديث قريباً عن احتلال مصر ، ليس غريباً آنئذ ألا يظهر شيء من الأدب يُمجّد تركياً ويؤيد يدها في هذه الحرب ، رغم وجود المشاعر الكبيرة التي تحنو عليها .

(١) الادب والقومية في سورية ١٢٩ ، ١٣٠ .

(٢) الصحافة العراقية واتجاهاتها السياسية والاجتماعية والثقافية ص ٢٣٤ .

(٣) الكاتب هو الشاعر العراقي محمد حبيب العبيدي ، انظر : الشعراء العراقي الحديث وأثر التيارات السياسية والاجتماعية فيه - د . يوسف

وفى ضوء ما تقدم نجد الأدب الذى كان صدى لتيار الرابطة الايمانية فى ظل الخلافة ، فذا كاتب فى صحافة العراق يعد مهاجم الانجليز أعداء الخلافة يتجه إلى الإشادة بالاتحاديين وعدلهم وحريتهم رغم جبروتهم وسوء سياستهم ، ويقول : (١)

" يوم مبارك هو العاشر من تمّوز ، فيه انتقل الحكم من الفرد إلى الجماعة . . أس حطّما أغلال الاستبداد الحميدي ، واليوم تقوّض أركان الاستعمار الاوروبي . دوت كلمة أميرالمؤمنين بإعلان الجهاد فدوت لها أرجاء الكون ، واهتزت لها العروش والتيجان ، لبّاه المسلمون فى أقطار الكرة شيوخا وشبانا ورجالا ونساء . . ثمانية أعوام بين صوت الحرية وبين صوت النفير إلى الجهاد . . فتباركت أمة هذه جلائل أعمالها ، وعاشت رجالات يعملون باخلاص وأمانة فى اعلاء شأن الوطن " .

بمثل هذه الروح التى تتخذ من الجامعة الاسلامية وسيلة لبيث آرائها مع التنديد بالحلفاء وخداعهم وظلمهم اصطبغت صحافة العراق فى هذه الحرب ، وقد غدّى هذه النزعة تلك الفتاوى التى كان يذيعها أجلة العلماء فى التحريض للثورة على أعداء الاسلام (٢) .

إن خير ما يُمثل به على روح الأدب فى هذه الحرب تلك المجموعة من الخطب والمقالات . والقصائد التى ضمها كتاب " البعثة العلمية إلى دار الخلافة الاسلامية " (٣) وهذا الأدب بلا ريب أدب سياسي قد لا يكون للعواطف الحقيقية حريتها فى تصويره ، إلا أنه لا مناص من الإفادة منه لما له من دلالة على ملبساته .

هذا أحد الخطباء يقول فى حضرة وزير الداخلية العثمانى (٤) :

- (١) جريدة صدى الاسلام - العدد الاول ٢٣ تموز ١٩١٥ م عن : اساليب المقالة وتطورها فى الادب العراقى الحديث والصحافة العراقية ، د . منير بكر التكريتى ص ٢٣ .
- (٢) أنظر : السابق نفسه ص ٢٤ .
- (٣) هذا الكتاب فى الأصل تدوين لرحلة وفد تكون من أكثر ثلاثين رجلا يمثلون سوريا ولبنان وفلسطين ، نظمه وبعثه قائد الجيش العثمانى فى سوريا أحمد جمال باشا وأرسله إلى دار الخلافة لعرض إخلاص أهل البلاد التى يمثلها الوفد نحو الخلافة ولبت عواطف الأخوة نحو إخوانهم المجاهدين فى الحرب الاولى التى شبت نارها آنذاك .
- (٤) البعثة العلمية الى دار الخلافة الاسلامية ص ٤٦ ، ٤٧ .

" ان الانقلابات التي وقعت منذ نشرتم واخوانكم أحرارالعثمانيين القانون الأساسي في السلطنة قد علّمت الناس وولاة أمورهم تعاليم كثيرة فتعلمنا من الحرب البلقانية والحرب الطرابلسية كيف نجمع شملنا ونسير في داخلينا وخارجيتنا ، حتى إذا نشبت الحرب العامة أثبتنا أننا أمة لا تزال حية .

كان أناس قليلون في ديار الشام يهيمسون في سرهم في أوائل النفي العام بقولهم : مالنا وللحرب؟ إن الحياد أبقى علينا وأسلم لكياننا ، ولم تكن الأمدّة قليلة حتى عرف الخاص والعام بأن الحرب مع دول الاستعمار كانت مُقررةً لحياتنا السياسية و المالية .

كانوا يقولون إنّ في الحرب خراب البلاد ولكن حربنا الحاضرة لله قد عمرت بلادنا ومحصّت الناس فتبين الخائن المائن من الوطني المخلص والخامل من العامل والجاهل من العالم . . .

والكتاب لا يخلو من الوصف الأدبي لبعض ما رآه الوفد من عظمة دولتهم وقوة بأسها ، وفي كتابة عن أجمل مشاهد الوفد كتب أحدهم (١) " أجمل ما رأت العين في دار الخلافة هذه الآونة معامل الأسلحة ومصانع الأسطول ، زرنا الطوبخانة وريتون بروني ومعامل البحرية فتمثلت لنا عظمة الدولة الحقيقية وأطمأنت نفوسنا على مستقبلها . ابتهجنا ابتهاجا يتعاصى على الورق تسطيره لأننا رأينا فوق ما أملنا . رأينا دولتنا دخلت في طور الجد حقيقة ومعامل أسلحتها ومدافعها وبارودها وسفنها وقذائفها ، وقنابلها وكل ما وصل إليه العلم الحربي والبحري قد أصبح على أتمه كما هو عند أرقى الدول إلا قليلا .

ألف من العملة تعمل النهار كله ومنها ما يعمل في الليل أيضا تخرج لنا بأحدث الآلات كل ما نحتاجه للدفاع عن أرضنا وديارنا ، كل ذلك كان طي الكتمان بحيث توسط العدو فأقدم على ضرب (جناق قلعه) وهو يظن أن ذخائرنا وأسلحتنا ومدافعنا تنضب في أيام قليلة فخاب ظنه وقد رأى أن معين قوتنا لم ينضب بعد أشهر ولن ينضب في أيام ولو دامّت الحرب سنين " ، ومع هذا السرور بعظمة صناعة السلاح تجد التحذير من الاتكال على الأمم الأخرى في كل ما يهيم الأمة وما العيب إلا التخوف دون أخذ بالأسباب وظن بعض الأمور والمخترعات من المستحيل وما هو منه بسبيل حين

تجدد الأمة ولا تتكل على الأجانب الذين لا يريدون لهم صلاح تجارة ولا تقدم صناعة واختراع .

أما غاية الكتاب التي يفصح عنها فتتجلى في خطبة أحد أعضائه وهو أحد الموفودين لدار الخلافة أمام وزير الداخلية العثمانى قائلًا: (١) يا صاحب الدولة ، إن قدوم هذا الوفد العلمى المنتخب من خيرة علماء الدين إلى دار الخلافة الإسلامية الكبرى وإمامة العظمى لأداء فروض العبودية وواجب الإخلاص لعرش الخلافة الإسلامية المقدس وإهداء سلام الشعب السورى إلى الأبطال المجاهدين فى (جناق قلعه) وساحات القتال وإظهار ما يمكنه الشعب من عظيم الشكر لأولئك الأبطال الذين دافعوا عن حوزة الخلافة وحياض الدين دفاعا مجيدا خلده التاريخ لهم بأحرف من نور . . هو أنصع برهان على السعي وراء تلك الغاية الشريفة ، وتمكين عرى الرابطة المحمدية وتوطيد دعائم الجامعة العثمانية تحت ظلال الهلال المظفر الذى سيخفق إن شاء الله بفضل جهادكم المشكور عن قريب فى ربوع قفقاسيا وفوق وادى النيل " .

وإذا كان كتاب " البعثة العلمية إلى دار الخلافة " قد صور السؤالا وإلا خلاص إلى حكومة السلطان وخلافة الأمة بما ظهر فى ثنايا الأدب الذى احتوى عليه ، فالكتاب بعد هذا يصلح - فى تقديرى - أن يُعد فى زمرة أدب الرحلات ، ذلك أن ما اشتمل عليه من مقالات وخطب وقصائد ، وبما تضمنه من وصف شيق لعدد من المواضع والمناظر فضلا عما اصطبغ به ذلك الوصف من أحاسيس ومشاعر فياضة ، كل ذلك يجعل من الكتاب رحلة أدبية يستشعر خلالها المرء راحة ولذة ومتعة ، وهو يمضى فى ثنايا أوراقه التى تدنو من ثلاثمائة صفحة .

(هـ) أحداث أخرى فى الوطن العربى :

لا يخفى على دارس الأدب العربى فى العصر الحديث أن بعض البلاد العربية وقعت قبل الحرب الأولى تحت سيطرة الاستعمار الذى أطبق على أرجائها ، كما تسلط بعد ذلك على أهل البلاد الباقية وتحكم فى توجيههم

(١) البعثة العلمية إلى دار الخلافة الإسلامية . ٥٠ ، ٥١

واستغلال بلادهم وممارسة شتى الضغوط عليهم . واذ أخذ الاستعمار يمعن في غيه ويأخذ في تحقيق مآربه الاستعمارية الصليبية ويستخدم القوة والعنف البالغين ، ولا يتورع عن الوحشية والهمجية لتحقيق مآربه ، عند ذلك كان العالم الاسلامي يضطرب لكل هذه الحوادث ويندد بالاستعمار في خارج الاوطان التي ينزل كيده بها .

وحوادث العالم العربي التي نأتي إليها الآن تُعد من أشهر ما يذكر في بلاد العرب في العصر الحديث من غير أن ننسى أن هناك حوادث أخرى متعددة ليس من وكد هذا البحث متابعة كل منها ، وقد سبق أن اوردنا جزءاً منها أعنى احتلال الانجليز لمصر ، وحرب الطليان في إيطاليا ، وسُلح بها ما يتعلق بقضية فلسطين التي اتخذت بُعداً آخر يجعل من المناسب أن تُفرد باشارة خاصة .

في شمال افريقية :

اتجهت فرنسا إلى وضع كل مامن شأنه تثبيت أقدامها ورسوخ قوتها حتى تأخذ أكبر فترة ممكنة للسيطرة على افريقيا ، وقد كان التبشير بوسائله العديدة وصوره المختلفه خير ما يحقق لها هدفها هذا ، وقد نبه أحد كتاب صحيفه (السياسة) على سياسة فرنسا هذه " التي تجرى على فصل البربر عن العرب وإخراجهم من العالم الاسلامي والشريعه الاسلاميه ، وردّهم إلى ما تسميه " العرف البربري " وهي التي ألغت تدريس الدين واللغة العربية في مناطق هذه القبائل ، وأخذت تشجع البعثات التبشيرية في كل مكان وتُخصّص لإعانتهم من ميزانيتها مبالغ طائلة بحجة نشر الثقافة الفرنسية . . . " (١) .

وعند إثارة فرنسا لهذه الحملة على اللغة العربية والاسلام ، لتصرف المسلمين عنهما لأنّهما وسيلتي ترابطهما ووحدتهما ، يذيع شيخ الجامع الأزهر بياناً (٢) يناشد فيه فرنسا معاملة المسلمين والبربر بالتسامح والحسنى ويُسائلها عن أعمالها الأخرى ، من إرسال ألف راهب الى تلك النواحي للتبشير ،

(١) ملحق السياسة الأدبي عدد ٢٤ شوال ١٣٥٠ / ٢٦ فبراير ١٩٣٢ م والكاتب هو الاستاذ محمد عبد الله عنان .

(٢) شيخ الجامع الأزهر الشيخ محمد الاحمدى الطواهرى ، والبيان في مجلة نور الاسلام : المجلد الاول ص ٣٤٢ سنة ١٣٤٩ ، وانظر ص ٤٤٢ مقال قضية البربر بالمغرب الاقصى - محمد الخضر الحسين .

وما قيل من الغاء المكاتب القرآنية والمحاكم الشرعية وغير ذلك .

وتنشر مجلة " الرابطة الشرقية " مقالا خطابيا إلى العالم الإسلامي عن قضية البربر هذه ، ولقد تبسط سوء حال المسلمين في مراكش تُنبّه إلى مكيدة الفرنسيين وسوء نواياهم ، ومما جاء فيه ^(١) أيها المسلمون هل يرضيكم أن يُمحي دينكم من أرض المغرب ، الأرض التي أنجبت رجالا عظاما وعلماء وقوادا وملوكا مخلصين ، الأرض التي سار أبناؤها مع طارق بن زياد وعبد الرحمن الغافقي ، ففتحوا الأمصار ونشروا دعوة الإسلام ، الأرض التي انتصر أبناؤها للأندلس في أيام محنتها وأزمان بكائها .

أيها المسلمون يقول الله تعالى : " إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يُعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا إذا أبدا " ، وإذا نجح الفرنسيون في هذه التجربة فسيفتح العالم الإسلامي فتحا دينيا لهم ، وهو أقبح وأنكى ممن فتحهم الاقتصادي والسياسي ، وإذا سدّوا علينا طريق الدنيا بهذا الفتح فسيسدون علينا طريق الآخرة بذلك . وما بقي للمسلمين في هذه الدنيا غير إيمانهم ورجائهم ، فخذوا حذركم أيها المسلمون ، وتبصروا ، واغضبوا لله ولدينكم ، وانصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ، والسلام عليكم أجمعين ممن أخوانكم المغاربة المسلمين .

كان للاستعمار الفرنسي عملاء في مصرينا فحون عن جرائمه ، وقد كانت جريدة " الأهرام " تتهم المصريين الذين أخذوا في معارضة أعمال فرنسا في المغرب متذرة بأن هؤلاء المعارضين لفرنسا إنما يريدون إشغال مصر عن قضيتها الحقيقية (أي الاستعمار الانجليزي) ولذا قامت الكتابات التي تحمل على " الأهرام " ومثيلاتها من الصحف التي تكيد للإسلام معتبرة ذلك ولاء للفرنسيين وعونا لشوكة الاستعمار .

في الجزائر :

أما الجزائر التي احتلتها فرنسا مبكرا (١٢٤٦ / ١٨٣٠ م) وبقيت فيها أكثر من قرن من الزمان فقد مكّنها ذلك من السير في تنفيذ مآربها المتعددة

(١) مجلة الرابطة الشرقية - السنة الثالثة - العدد الثاني - جمادى الثانية

واذا كان التبشير الذى عمدت إليه فى المغرب هو من أفضل ما رأته من وسائلها الناجعة فلا غرو أن تكون الجزائر هي موضع التجربة الأولى التى شجعت فرنسا على مواصلة العمل به فى شمال افريقيا ، والذى يؤكده مؤرخو هذا الاستعمار أن سياسة الفرنسيين فى الجزائر من أولها إلى آخرها هي ملاشاة التعليم الإسلامى وطمس معالم الشريعة التى يظنونها وحدها موقدا للحمية الأهلية ، ومنزعا للتخلص من الحكم الأجنبى ، وسياسة تساهل فى الظاهر ، مع التحامل فى الباطن " (١) .

من هذا المبدأ الحقيقى ندرك كل جرائم هذا الاستعمار بمسلمى الجزائر ، فالحروب الطاحنة التى ساج بها الفرنسيون فى أرجاء الجزائر — وما خلفته من ضعف وتخلف ودمار ، أكثر من مائتى ألف جزائرى قتلوا فى الحرب الأولى فداءً لفرنسا التى ادعت الاستعانة بهم مع أمان كاذب — بالاستقلال ، هذا فضلا عن وسائل التنصير وهدم المساجد وسواها مما شهد به كتاب فرنسا وأوروبا (٢) .

واذ تدفع شراسة هذا الاستعمار بعض مسلمى الجزائر إلى الهجرة فرارا بدينهم تجد أحدهم يكتب فى عطف وحنين إلى وطنه الذى يكابد الشوق إليه ، ويناجيه مستهما به فيقول (٣) تحت عنوان (الجزائر) : " كلمة بذكرها تسيل الدموع ، وتهلع القلوب ، وتضطرم فى الصدور نار الانتقام . وطن لا يذكره جزائرى غيور إلا ويشعر بالآلام معنوية لا تزول إلا باستخلاصه من كل مخالف للذل الذى هو فيه .

مواطني ؟ هناك فى تلك السهول كنوز من عظام أجدادك ، وعلى تلك الصخور آيات المجد والشرف مرسومة بدماء آبائك . أما عار علينا بأن نكون نسلهم ولا نفعل ما فعلوه ولا نظهر ما أظهروه من شجاعة وشهامة " .

(١) حاضر العالم الإسلامى ١٢ / ١٧٨ .

(٢) انظر أخبار هذا الاستعمار وجرائمه : حاضر العالم الإسلامى ١٦٦ / ٢ - ١٨٧ .

(٣) مجلة الثقافة الجزائرية ، العدد الخامس ، رمضان ١٣٩١ - ١٩٧١ م ص ١١٩ - ١٢٠ . نقلا عن جريدة المهاجر التى كان يصدرها بعض الجزائريين فى دمشق ، كما يشير الكاتب الذى أورد عدة نقول عنها وقد رمز الكاتب الذى نقلت عنه لاسمه بالحرفين (ح . م) .

ثم يتجه الكاتب الى أهل الجزائر ليطالب منهم النهوض لمقاومة الاستعمار ولا يتراجعوا في ذلك المرام العزيز رغم ضخامة التبعات "مواطني؟ لا تظن أنك طلبت مستحيلا إذا نهضت لاسترجاع ما هضمه الأجنبي غاصب بلادنا فالتاريخ يظهر لنا وللعالم بأسره أن ما يرى اليوم مستحيلا سوف يكون غدا هيئا ، والا اختراعات الأخيرة لإثبات كاف لما نقوله . . فكم من بلاد عُصبت ثم استرجعت بجهد واجتهاد وتضامن أبنائها .

واعلم أن الأمة التي تخضع للذل والاستعباد ولا تفكر في النهوض هي الأمة المعدودة في أسفل الخلق . . . "

وعندما مرقن من الزمان لاحتلال فرنسا للجزائر (١٣٤٨ / ١٩٣٠ م) تقوم سلطات الاستعمار الفرنسي باحتفال كبير لهذه المناسبة ، ولقد تفتتح الأبواب للأجانب وتعلن على صفحات الجرائد والمجلات داعية ومرغبة في الحضور للاحتفال ، ويتبجح الاستعمار فيطالب الشعب الجزائري بالاحتفال معه أيضا حتى يظهر المستعمرون للوافدين كأنهم ليسوا محتلين بل أصدقاء متحابين ، ولا شك ان هذا الاحتفال باعث أسى وحزن لكل مسلم ، وحين يزيّد الاستعمار في التمويه لذلك الحفل تجد من الكتاب من يثور كمدا ليقول (١) " أما وقد أرادوا أن يكون احتفالهم بهاته الصفة وعلى هذه الطريقة ولهذا المقصد فإنّ ضمائرنا أوجبت علينا ان نقول كلمتنا ، وتاريخ مجدنا قضى أن لانسود وجهه بالسكوت . . ألا فليعلم سكان المعمورة : أن الجزائري مهضوم الحقوق مداس الشعائر في وطنه ، مرموق بعين السخط والازدراء ، مستعبد في بلده الذي وهبته له الطبيعة وهو مسئول عنه أمام الله والناس والايال والتاريخ يريزح تحت أعباء الجور والعسف ، ويتكبد ضروبا من الإرهاق وشدة الخناق ويذوق ألوانا من العذاب والهوان ، ليس لبشر كائن من كان يتحملها والعيش معها يدان " .

وبعد أن يعرض الكاتب مقاصد فرنسا التي لا تخرج سياستها عنها من تجريد الأهالي من سائر أنواع القوى المادية والمعنوية وإقصائهم إلى تخوم الصحراء ، وجلب أخلاط من المسيحيين ومنحهم الاراضى الخصبة ، يُذكر المقال بشراسة استعمار فرنسا ، كما يبين حقيقة الجزائريين مع هذا الاحتفال:

" الا فليعلم أبناء القرن العشرين المتشيعون ديمقراطية : أن فرنسا تُحاكم
الجزائري بمحاكم لا يفي مقال مسهب بوصف مافيها من فظاعة ووحشية وجور
وحيف ، يتربع على أرائكها أعضاء الثلاث منهم لم تمسهم يد الثقافة وليس
لهم بالتعليم قريب عهد ولا بعيد . . وأنى لهم ؟ وهم من الخليط المجلوب
وجلّه بل كلّ من أوباش الأسبان والطلّيان والمالطيين ، وهم هم ! الذين
لفظتهم أوطانهم وأقصتهم محاكمهم . . والثالث الباقي وإن كان متعلما إلا أنّه
يدين بقول السياسى الفرنسى المحفوظ : (الرأفة التى يجب أن يُعامل بها
المسلمون هي السيف والنار) .

وأخيرا ، ألا فليوقن هؤلاء كلّهم : أن يوم الاحتفال القرنى يوم
حداد لدى الجزائريين قضّهم وقضيضهم ، وأنّ فرنسا بسياستها الخرقاء ،
وسلوكتها المعوج لا يمكنها أن تُسّطر فى دفترها اسم واحد من المائة ألف
يوليها ودا صحيحا . . وأنها لو أوتيت علم ماتكنّ الأفئدة ، وتجن السرائر لبالها
منظر قلوب تسوط سوط القدر حقدا ومقتا ، ولأدهشتها نار تضطرم من
أكيد العروبة والبربر حنقا وسخطا " .

إنّ عدوان الفرنسيين فى الجزائر وتونس جعل الكتاب المسلمين
ينهدون لمقارعة هذا البغي الآثم ، ويفنّدون دعاوى فرنسا الواهية لتبرير
هذا الظلم ، وأنه ليس لها من هدف إلا التوسع والجشع ، هذا أحد
الكتاب يقول : (ان لها (فرنسا) ممالك فى أوروبا هي بالنسبة لتلك البسيطة
الفيحاء لا تطفئ غلة ، ولا تشفى غلة ، ثم إنها كبقية البلاد الأوروبية نهارها
ليل ، وليلها ويل ، ومزنها سيل ، وصيفها شتاء وشتاؤها شقاء ، وجميع لياليها
كليلة من جمادى ذات أندية ، لا يبصر الكلب فى أرجائها طنبا ، فرمقت فرنسا
ذلك السرّ المصون ، وجعلت تلك القارة نصب عينيها ومطمح أنظارها ، فوجّهت
لها سياستها ولوعا بتقليد انجلترا فى الهند ، وكانت ولاية الجزائر هي فاتحة
الباب الذى كان مغلقا . . ولم تلبث أن أعقبت تلك الولاية بمملكة أخرى تماثلها
أو تفوقها ، ألا وهي المملكة التونسية التى لم يُرزا العرب . . بأعظم منها
مصايبا نعبا به الناعب " (١) .

ويمثل هذه الكلمات والكتابات عن أبناء الجزائر المدنفين بوطنهم أو

(١) البرهان عدد ٣٤ فى ٢٢ صفر ١٢٩٩ - مقال : الهندا لفرنساوى للشيخ
حمزة فتح الله .

غيرهم من أبناء أمتهم الاسلامية تطالعنا تلك الأصوات لترجم عن كراهيتها وحقد ها لذلك الاستعمار البغيض وأعوانه ، ممن شايعوه وناصروه .

ومن العجب العجاب أن فرنسا التي قامت بتلك الأفاعيل النكراء للنكاية بالمسلمين ومحو الإسلام في شمال أفريقيا وغيرها تجد من أبناء الأمة العربية من يرحم مصابها، ويتأثر لما نزل بها حين أنزل بها الألمان هزيمة وساموها خسفًا، فقد زعم دعاة الرحمة هؤلاء أن هناك فرقًا بين فرنسا السياسية وفرنسا الأدبية والروحية، إلا أن هذا الاتجاه المداهن لم تقبله الأمة التي عرفت حضارة فرنسا وروحها ، من خلال مسلكها معها وما فعلته فيها، فتطالعنا مجلة الرسالة بمقال ساخر يتعجب ممن يترحمون على فرنسا ، وتكتب بصراحة عن " مقتول بيكي على قاتله وفي غير الحب " (٢) واذ يبدأ المقال بتذكير محبي فرنسا أن في موروث أمتنا الروحي والأدبي ثروة ثمينة تستحق الإبقاء والاحتفاء بها ، ثم الإشارة الى جرائم فرنسا في كل ديار الإسلام التي وقعت تحت سلطانها يقول " الأدب والفلسفة والفن في فرنسا زور وبهتان وهذيان ، لأنه لم يرفع النفس الفرنسية إلى درجة الوصاية الرشيدة ، على ميراث الفضائل الانسانية ، ولم يجعلها نفساً رحيمة سمحة مع من اغتصبت حرياتهم وحقوقهم ، بل لم يجعلها نفساً سمحة مع ذاتها هي ، وأكبر دليل على ذلك تلك الأسس الاقتصادية الفاسدة والبراكين الداخلية والانحلال والتفكك الذي انتهى بها إلى نهايتها العجيبة " .

أمّا الذين ينافحون عما وقع بفرنسا فيقول لهم " ليس لنا أن نقول: إنّ لهم روحاً تُحب وسياسة تُكره ، لأن التفريق بين الفضيلة والسياسة إلى هذا الحد الفاحش لا يستقيم في معرض انتحال الأعذار وتلقّس المنادح إلا إذا حرفنا القلب الانساني عن موضعه الإلهي . ليس لنا أن نقول فيهم غير نتيجة أعمالهم " .

بهذا الحوار والتحليل الدامغ بالحجة والبرهان يمضي الكاتب في غير شماتة ولا صوفية بلهاء في حب الوطنية والجنسية ، بل ان ذلك منطق المزاج الصحيح ، الخالي من التدليس والخداع ، أما عالم الفن والأدب فإذا

(١) في مطلع الحرب العالمية الثانية .

(٢) الرسالة - السنة الثامنة - المجلد الثاني ص ١٢٨٣-١٢٨٤ ، كتبه عبد المنعم خلاف .

لم يوءثر في النفوس ويدفعها الى الخير والبناء فلا غرو أن يكون فناً فاسداً
يجب تصحيحه وعدم الدفاع عنه .

في بلاد الهلال الخصيب :

العراق : وإذا تركنا شمال أفريقيا إلى بلاد الهلال الخصيب،

فإنّ المأساة تتكرر في وجود الاستعمار، ومن ثم اتجاهاه إلى ما يثبت به أقدامه
وتمكن مقامه واستقراره .

فبلاد العراق التي كانت ولاية عثمانية يحتل الانجليز منها البصرة في
مطلع الحرب الأولى، وبعد انتهائها (١٣٣٦-١٩١٨ م) يطبقون على بغداد
وسائر الأجزاء الأخرى، ثم عمد الانجليز كما هي سياستهم إلى استمالة الناس
نحوهم، وتظاهروا بانقاذ العراق من بغي الأتراك الذين فُتحت الأبواب لقذفهم
بكل نقيصة ورميهم بكل منكر وزور، لكن الأيام تكشف الحق جلياً، فما المستعمرون
أصدقاء، ولا يجتمع سيفان في قرن، وبذا يجد أهل العراق في التخلص من
الاحتلال، وكانت ثورة العشرين (١٩٢٠ م) (١) كما يسمونها ضد الانجليز،
ولا غرو أن يكون الأدب سباقاً لهذه الثورة في بث المفاهيم وتهيئة الأذهان
وإذ كاء روح الحماس والدفاع عن الوطن، فها أحد كتاب العراق يبيّن أسباب
هذه الثورة فيقول: (٢) "الثورة العراقية . . . فجّر بركانها الضغط وأضرم
نارها الاستبداد ووسّعها القضاء على الحرية . . . فضّمت الآذان عن سماع
الحق، وسّدت المحاكم أبوابها وأصبح الحق للقوة . . . وردت الأمة العادلة
وظهرت ميول الفتح والانتقام" .

وهكذا يمضي العديد من كتاب العراق في كفاح الاحتلال وبث الشكوى
منه وإظهار ظلمه واستبداده علاوة على مباركة تلك الثورة المناضلة وموازرتها (٣)،
ولا تلبث أحداث هذا الاحتلال أن تجد من المشاعر في البلاد العربية الأخرى
ما يوحى بالتبرم من هذا الاحتلال ويظهر السخط والنقد على

(١) انظر في تاريخها: يقظة العرب، جورج أنطوينوس ص ٢٩٤، القومية

العربية - الأمير مصطفى الشهابي ص ١٩٣ .

(٢) جريدة الفرات - العدد الثاني ١٩٢٠ م نقلاً عن أساليب المقالة

وتطورها في الأدب العراقي الحديث والصحافة العراقية ص ٣٠ .

(٣) انظر: أساليب المقالة وتطورها في الأدب العراقي الحديث والصحافة

العراقية ص ٢٨-٣١ .

ما أقدم عليه (١) ، وفى ذلك بلا ريب أصدق مظاهراً لإخاء والتعاطف ، وأظهر للمشاعر الألم والبغضاء لما نزل بقطر من أقطار العالم الاسلامى والتى هى كالقطر الواحد فى حقيقة الأمر .

فى الشام :

وفى بلاد الشام التى أقام فيها الانجليز حكومة فى سورية تحت حكم فيصل بن الحسين (٢) لم تستقر بعد هذه الحكومة حتى أقدم الفرنسيون بجيشهم متغلبين على كل قوة أمامهم حتى احتلوا دمشق (٣) (١٣٣٨ - ١٩٢٠ م) ومن ثم أقدم الفرنسيون على أخذ الناس بقوة ووحشية لم يرحموا فيها أحداً ، بل الضعفاء قد امتدت يدُ البطش إليهم ، ولم يتورعوا عن قذف المدن والقرى بحمم النار التى تطلقها الطائرات لتحرق الحرث والنسل ، ومن كل جرائم هـذا الاستعمار ومن المقاومات البطولية التى أبداها شعب سوريا وقواده كان صدى هذه الحوادث قد دَوَّى فى الأفاق ، واشتغلت به بلاد العرب ، وأهتم بَنُوها بملاحظة أخباره ، وقامت الكتابات تصب حممها على هذا الاستعمار مشجعة أبطال سورية على المضى فى صده ومقاومته ، بل لقد كانت طائفة من الكتاب تجمع التبرعات وترسل المعونات إلى ضحايا هذا العدوان من جهات شتى (٤) .

أمّا روح الجهاد والتضحية التى بعثها هذا الاحتلال فحسبنا أن نرى منشور الثورة العارمة التى سُعِّرت لكبح جماح هذا الاستعمار ، وأوقدت الوهاد والأنجاد ناراً على الطغاة والطامعين البغاة (٥) " باسم الوطن السوري المقدس ، وباسم استقلاله المبارك أحييكم وأجي فيكم العروبة الصادقة ،

-
- (١) أنظر - المنار - المجلد العشرون ص ١٦٦ ، ٢٠٦ .
 (٢) هو ابن الشريف حسين بن على قائد الثورة العربية الكبرى على العثمانيين ، حُكِّم ملكاً على سوريا بضعة شهور ١٣٣٨ ثم احتلها الفرنسيون ، وبقي فترة ثم عينه الانجليز بعد هـا ملكاً على العراق ١٣٣٩ هـ وبقي يحكمها إلى وفاته ١٣٥٢ ، انظر سيرته - كتاب : فيصل الأول لأمين الريحانى .
 (٣) أنظر التفاصيل : يقظة العرب " جورج أنطونيوس ، ص ٢٣٤ جيل الفداء قد رى قلعبى ص ٣٨٣ .
 (٤) انظر الشعر والوطنية لبنان والبلاد العربية ص ٨٧ ، الشوقيات ٧٤ / ٢
 (٥) منشور الثورة التى قادها سلطان الأطرش زعيم ثورة الدروز ضد الفرنسيين فى صيف عام (١٣٤٧ / ١٩٢٥ م) نقلًا عن النشر الأدبى الحديث فى سوريا د . نشأة طبيان ص ١٠٩ - ١١٠ .

والأنفة القومية ، واستصرخ منكم أمة عربية ، مشت على مناكب الدهر محمية الذمار
ما حملت عاراً ولا كان بحماها شنار ، واستنصركم بحومة الجهاد الوطني
يا خير من حمى الوطن ، وكنتم ذادة أبطالاً ، ونفرتم إلى مواطن الشرف القومي
خفافاً وثقالاً ، وأنا ديكمن معاقل الجبل المنيع ، وهو داركم ، وسلاحكم
وجرزكم ، وملاذكم ، أن هبوا للمنافحة عن أوطانكم ، وأوطان آبائكم وأجدادكم
وحطموا أغلال الاستعمار فى دياركم فقد هبت رياحكم فاغتنموها ، ودرت ضرور
أيامكم فاحتلبوها " .

جزيرة العرب :

أما جزيرة العرب فان من الضرورى الإشارة إلى أهم ماتعرضت له من
الحوادث الكثيرة ، والصراعات المتعددة التى احتدمت فيها قبل انهاء
حديثى عما تعرّض له الوطن العربى من صراعات بها ، فاذا تذكرنا القيادات
والحكومات التى كانت تصطرع فيها فان ذلك يعكس أمامنا ما كان من الفتن
والحروب التى اشتعلت فيها ، (١) فاذا تذكرنا أن الدولة العثمانية كان لها
سلطان على الحجاز تحت حكم الأشراف ، وتمثلها حكومة ابن رشيد فى نجد
وما كان من صراع بين هذا السلطان فى نجد وبين ابن سعود الذى خلّص نجد
والاحساء بعد صراع طويل لتخضع لحكمه ، ثم ما كان من صراع فى الحجاز بين
الأشراف وبين العثمانيين عندما أعلن الشريف " حسين بن على " الثورة العربية
على الأتراك (١٣٣٤ / ١٩١٦ م) ثم الصراع الذى قام به بعد ذلك بين
السلطان ابن سعود (سلطان نجد) وبين الأشراف حتى أجلاهم عن الحجاز
واذا تذكرنا أن الأدارة فى عسير وأمة اليمن فى صنعاء كانت لهم أيضاً صراعات
مع كل من العثمانيين والأشراف وابن سعود ، ذلك فضلاً عن التحرشات
والمؤامرات التى كان الاستعمار الانجليزى يحيكها من وراء قواته التى كانت
تتمركز فى منطقة الخليج العربى وخليج عدن ، مما كان له أسوأ الأثر على
اتساع هذه الخلافات واستمرار النزاع ونشوب الخلاف ، كل ذلك أنهك أهل
الجزيرة وأهدر كفاهم وقعد بهم عن العناية بشئونهم المختلفة ، مما مكّن
الاستعمار من أن ييسط سلطانه فى الاستيلاء على كثير من الممالك الأخرى ،
ويعيث فى ديار الاسلام طغيانا وفسادا .

(١) انظر فى تفاصيل أحداث الجزيرة العربية : جزيرة العرب فى القرن
العشرين حافظ وهبة .

هذه الحوادث الكثيرة التي يمكن تلصص صداها في صحافة الحجاز التي واكبت كثيرًا منها تجد رجعًا لها - على سبيل المثال - في ذلك الخوف الذي أبدته حوادث الحجاز بين الأشراف وابن سعود عندما فتح الحجاز ولم يبق أمامه إلا (جدة) التي طال مكث المفاوضات حولها وحال دون فتحها ، ولذلك فطن بعض الكتاب وتوجس في الأمر دسيسة انجليزية (١) ، وقد كان الانجليز وراء المفاوضات وتوجيه الأحداث من جهة الأشراف ، وليس عجبًا أن يظهر هذا الخوف على الحجاز ، كيف وهو أرض الحرمين وقبلة المسلمين فما الداهية الدهماء التي ستقع لو قُدِّر للانجليز سلطان على منافذ هذه الديار ؟ ! ،

وقد كان الشيخ حمزة فتح الله يراقب الأحداث التي تُحدث في جزيرة العرب ويتألم لنزول الانجليز في ساحل عدن جنوب الجزيرة" لأن هذا الحادث من شأنه أن يثير الخواطر الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها ، لكونه مما يهيم عموم المسلمين بسبب شرف تلك الجزيرة ، لما تحتوى عليه من الأماكن المقدسة لاسيما وأن تلك النازلة ليست أول صالح عبثت به أيدي ساسة انجلترا في ضواحي تلك الجزيرة " (٢) ، ثم يضطرب الشيخ ويهدر لهذا الأمر بنشيج حار لأن الصبر لم يعد له مكانًا ، ولا إهانة مُنزلة أكبر مما وصلت إليه فيصيح قائلًا " فيا حماة السلم ويانصرء الأمن ، ويا أحزاب الحرية ، هل تأمنون غائلة المغلوب إذا أثخنه الجراح ، وأعنته الاقراح أن يفضى به الحال إلى أن يتخذ القنوط شعارًا ، واليأس دثارًا ، وأن يقتدح ذلك التعسف من فؤاده زند الضغينة ، والأحقاد الكمينية ، فيهب من رقدته ، ويفيق من نومته ، ويصحو من سكرته ، ويشب وثبة يعم ضررها ويتعاضم خطرها ، ويستطير في عموم البسيطة شررها ، تكون لِماله فيعيش سليماً ، وإما عليه فيعيش كريماً" .

أما حين استولى ابن سعود (سلطان نجد آنذاك) على الأحساء (١٣٣١ هـ) وكانت تابعة لولاية العثمانيين فقد آلم ذلك العراق التي لم تنزل آنئذ تحت السيادة العثمانية ، وهذه مجلة (لغة العرب) تنعى هذه الهزيمة بأسف ظاهر وتقول : (٣)

(١) انظر : المنار - مجلد ٢٩ ص ٤-٧

(٢) البرهان عدد ٢٣ في ١٣ ذي القعدة ١٢٩٨ - مقال انجلترا والباب العالي في جزيرة العرب .

(٣) لغة العرب (١٣٣١ - عدد يوليو ١٩١٣ م)

" ان عبد العزيز استولى على مدينة الاحساء والقطيف ، ننشر هذه الأخبار آسفين على أن العلم العثماني قد طوى من الخليج ولم يبق للدولة العثمانية مقدار شبر من الأرض على ضفافه ولا حول ولا قوة إلا بالله ، من حق مجلة العرب أن تكفك دموعها فإن هذه الاحساء التي سقطت عنها الراية العثمانية ظلت وحدها المنطقة المستقلة التي ترفرف عليها راية مسلمة على الشاطئ العربي للخليج " .

وان تمضي هذه الأحداث إلى هنا في بلاد العرب لا تكتمل معالمها الا بالحدث العظيم الذي لا تزال الأمة تعاشه - مع الأسف إلى اليوم - تلك فلسطين التي خيم عليها الاحتلال ، وتلك أحداثها في جملة الحوادث التي مضت ، وأحداثها التي لحقت فلننمى الوجهة إليها .

(و) حوادث فلسطين :

لم تكن قضية فلسطين المسلمة التي نعيش مأساتها اليوم جديدة أو غريبة على العالم الاسلامي ، ورغم أن هذا - بطبيعة الحال - يفرض الحيطة والحذر نحو كل ما يُدبر حولها ، فمن عجب أن يتمكن أعداء الاسلام في مطلع هذا القرن بعد محاولات شتى أن يُسلموها لعصابة من اليهود الذين هم أشد الناس عداوة للمسلمين .

لقد برزت قضية فلسطين عندما أعلن وزير خارجية بريطانيا (بلفور) سنة (١٣٣٥ / ١٩١٧ م) أن حكومة بلاده تنظر بعين الرحمة الموافقة لإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين (١) ، بيد أن الاعلان قد سبقته الحركة الصهيونية بالجد والعمل لإنشاء وطن لها بأكثر من قرن من الزمان ، ولما يأت هذا الإعلان الا لليهود وجود ومصالح في فلسطين لا تُنكر (٢) .

ورغم المهمة الكبرى التي قامت بها بريطانيا لزراعة جذم اليهود في فلسطين ، فقد كان أظهر صراع بدأ عندما نشب القتال بين عرب فلسطين واليهود حول حوادث البراق " حائط المبكى " (١٣٤٧ / ١٩٢٩ م) فحينئذ حمى الأمر وارتفع نداء الجهاد وتعالى الصيحات لهذه الكارثة الكبرى ، وحسب المرء أن يرى

(١) انظر في تفاصيل حوادث فلسطين : الدولة العربية المتحدة - أمين سعيد ١٨ / ٣ هـ وما بعدها .

(٢) انظر مقال الحركة الصهيونية - مجلة الزهور - السنة الرابعة ص ٢٤١ -

موقف مجلة " الفتح " (١) التي كانت فى طليعة الصحف التي احتشدت لهذا الحدث " اذ جعلت من صحائفها سجلاً أدبياً للجهد ، ومقاومة الخطر الصهيونى ، سواء بما كتبه صاحبها " محب الدين الخطيب " الذى توجت مقالاته صدر الفتح ، تثبت الحمية فى الصدور ، وتروى للقراء غدر اليهود والانجليز ، وتبارك الدماء العربية المراقبة ، أو بما نظم شعراء الفتح وكتابها . . . أو شكت كلمات الفتح فى هذه السنين تقطرداً ، تبعث الأسى ، وتطلب الغوث . . " (٢) .

هذا أحد مقالات " الفتح " يحيى أبطال الصراع مع اليهود ، وتتطلع الخير والعز وراء تلك الأنفس الشهيدة والدماء الزكية وتقول مخاطبة لها (٣) : " التحقت أرواح أصحابها بالملأ الأعلى ما لو وزناه بالتبر والدُّرُوكَل ثمين ، لرجح بقيمته وبثمرته على كل ثمين نزيلان أحدهما وراثه قوة الدنيا وسياستها والثانى من وراثه أقوال الدنيا ودعايتها " يريد الانجليز واليهود " ينزلان بين ظهراى عرب فلسطين ، فيجد عرب فلسطين من وقتهم متسعاً للتنافس على منصب ، والتعادى من أجل وظيفة ، ويتنكر بعضهم لبعض تراحماً على صغيرة من صفائر هذه الدنيا التي لا تساوى عند الله جناح بعوضة ، ويظلون سادريين فى هذه الغفلة ، محولين وجوههم عن مواطن الخطر ، إلى أن سُفكت هذه الدماء المباركة فغسلت مافى قلوبهم من عداوة ، وأزالت ما على عيونهم من غشاوة وعادت بهم إلى ما كانوا عليه من وحدة الصفوف ووحدة المطمح ، هنالك لاح على وجوه عدوهم معنى احترامهم ، وهنالك جعل الأغيار يذكر بعضهم بعضاً بحقوقهم ، وهنالك أيقن الطامع فى ازدراء اللقمة أن فى اللقمة حسكاً ، وأن فيها سمّاً قاتلاً وأن الأمر ليس بالمنزلة التي كان يظنها . . .

ألا بارك الله بدماء عاد بها اليهودى الكاذب فى عداوته صديقاً صادقاً فى صداقته ، وما كان هذا الانقلاب ليتم ببلاغة أبلغ البلغاء ، ولا بنصيحة أخلص النصحاء ، ولكن تمت مشيئة الله بتحقيقه فوق هذه الدماء المراقبة من جسم الامة ، فكانت أبلغ من كل بليغ ، وأخلص من كل ناصح . . .

(١) أصدرها الشيخ محب الدين الخطيب فى القاهرة ١٤٤٨ / ١٩٢٦ م

(٢) الصحافة الأدبية فى مصر ١ / ٢٥٦ ، ٢٥٧ .

(٣) الفتح عدد (١٦٧) ٢٠ ربيع الثانى ١٣٤٨ - ١٣ أكتوبر ١٩٢٩ - مقال :

الدماء المباركة فى فلسطين وانظر أيضاً الأعداد (٥٢٢ ، ٥٣٤) مقال :

يوم العروبة فى لندن ، مقال : مستقبل اليهود فى فلسطين .

ورغم دوى هذا الحدث فى مصر التى تأججت بها المشاعر بالحسرة والألم لحال الأخوة فى فلسطين كانت ثم أصوات ناشزة تنفى على المصريين تعاطفهم مع إخوانهم وتبدى التنصل من هذا العمل الذى تعاديه ، ولا تخجل أن تستشير الوزارة المصرية لكبته والحيلولة دون ظهوره ، وكان ذلك مدعاة لردود عنيفة واستهجان لهذا الاتجاه الذى انبرى لنقض أزاليله بعض الكتاب الغيورين (١) .

لقد احتفى الكتاب الغيرون برصد تطورات قضية فلسطين (٢) منذ أن كانت أحلاماً تعيش فى خيالات قادة صهيون ورجالاتها ، فكانت الانذارات المبكرة من شر وجود اليهود فى فلسطين تسيل على أسلات الأقلام ، وتكشف عن المستقبل الذى يخططه اليهود لإخراج السكان من فلسطين ، وكانت المناقشات الحادة فى تلك الكتابات تُوجّه إلى الاتحاديين الذين كانوا ضالعين فى القضية مع اليهود ، حيث يسّروا لهم كثيراً من الوسائل وسكتوا عن الجرائم التى كانت تتزايد فى فلسطين حتى كان موقفهم المشين هذا ، من أعظم بواعث حقد الوطنيين العرب للدولة العثمانية ، كما أن بريطانيا التى أصبحت فلسطين تحت إشرافها بعد الحرب الأولى قد فاقت الاتحاديين فى فرض وجود الصهاينة ، وتأبيد هم حتى يتم لهم التمكن ، قد جعلت الكتاب - كشأن أمّتهم - يحسون بالظلم والاضطهاد الذى يُكال لهم ، وأنه قد أُحيق بهم فانبروا فى كثير من المقالات يدافعون عن فلسطين فى الداخل وفى مننديات الأمم فى أوروبا وأمريكا ، واتجهوا إلى الأدلة التاريخية والأقيسة المنطقية يثبتون بها حق أمّتهم العربية الإسلامية فى فلسطين ، ويدحضون افتراءات الصهاينة وتخريصاتهم فى أرض الموعد التى يتطلعون إليها ، أما الحماس وعدم التنازل عن تسليم هذه الأرض لليهود فذلك ميدان رحب للقول فى هذه القضية الكبرى ، ذلك مانجده على شاكلة هذه الصرخة التى تقول (٣) :

"أفكر فى فلسطين هذه البلاد العربية التى يريد اليهود إخراج أبنائها منها باغراء المال ثم بتكاثر الرجال .

(١) انظر : مجلة الهداية الإسلامية "محمد الخضر حسين" المجلد الأول ص

٥٣١ ، مقال : فى مصر روح قومية وفيها أيضاً غير إسلامية .

(٢) انظر : النثر الأدبى الحديث فى سوريا ٢٠٩ - ٢١٥ .

(٣) السابق نفسه ٢١٤ ، من مقال : ويل للصهيونيين للدكتور منير العجلانى ،

كتبه فى صحيفة القبس (سوريا) ٥ صفر ١٣٥٥ .

أفكروا قول في نفس ويل للصهيونيين أفلا يدركون وبينهم أدباء وشعراء
تُهددهم العاطفة، أية جناية يرتكبون !!

أفلا يُدركون . . أن في كل شبر من أرض فلسطين قبراً رطباً، ترفرف
فوقه روح صاحبه وتقول أنا عربية ، أفلا يدركون أنهم قد ينتصرون على الأحياء
لكنهم سيسقطون صرعى أمام الموتى ، أفلا يدركون ؟ أن صور الانتقام تخرج
عليهم من الزهرة التي ينشقونها والأرض التي يحرقونها والسماء التي يتأملونها ؟ !
ويل للصهيونيين !

أفلا يدركون أن فلسطين قطعة لا تتجزأ من وطننا العربي ، وإرث لا
يبلى من مجدنا العربي ، وأمل لا يضيع من مستقبلنا العربي ؟

كلا ! لن يأخذوها ولو دفعوا ثمنها قناطير الذهب . . فان الرجل
يشترى أرضاً ولكنه لا يشتري تاريخاً ، والحي يُرضى الحي ، ولكنه لا يُرضى الموتى
الذين ترفرف أرواحهم فوقنا وتدعونا إلى ضروب من العبادة يجهلها اليهود
الأغراب !

لو سكت الأحياء في فلسطين لتكلم الموتى ، وملأ كلامهم جوانب
الليل وأحس كل عربي ، في أي بلد مقيم أن صوتاً يُمزق صدره ويهزه إلى التضحية

وعندما تزداد المسألة خطورة بتلك الهجرات الكثيرة التي تدفقت
إلى فلسطين، والعرب مشغولون عن تلك الألوف التي جاءت من أقطار الأرض ،
كان ذلك حافزاً لا جتماعهم وبيعاً لتحركهم للعناية بأمر بلد هم . فلسطين ،
وحين انشأوا " اللجنة العربية العليا " عام (١٣٥٤ / ١٩٣٦ م) شرعوا في جمع
التبرعات وانهاالت الكتابات تبعث في الأمة روح السخاء والبذل ، ومن خير
ما يصور ذلك ما كتبه مصطفى الرافعي حين قال (١) : " نهضت فلسطين تحمّل
العقدة التي عقدت السيف ، والمكر ، والنصب ، عقدة سياسية خبيثة ، فيها
لذلك الشعب الحرّ قتل ، وتخريب ، وفقر .

عقدة الحكم الذي يحكم بثلاثة أساليب : الوعد الكذب ، والفناء
البطيء ، ومطامع اليهود المتوحشة .

أيها المسلمون أليست هذه محنة فلسطين ، ولكنها محنة الإسلام

يريدون ألا يثبت شخصيته العزيزة الحرة .

كل قرش يدفع الآن لفلسطين يذهب إلى هناك ليجاهد هو أيضاً .
أولئك إخواننا المجاهدون ، ومعنى ذلك أن أخلاقنا هي حلفاءهم
في هذا الجهاد .

أولئك اخواننا المنكوبون ، ومعنى ذلك أنهم في نكبتهم امتحان لضمائنا
نحن المسلمين جميعاً ، أولئك كان أسلافكم أيها المسلمون يفتحون الممالك
فافتحوا أنتم أيديكم .

كانوا يرمون أنفسهم في سبيل الله غير مكترثين ، فارموا أنتم في سبيل
الحق بالدنانير والدراهم " .

وهكذا يمثل هذا المقال الرائع وما يضارعه من بيان سالت أسئلة
الأقلام على صفحات تاريخ نكبة الأمة الإسلامية في فلسطين ، تعالج أبعادها
وتستشرف مستقبلها ، ولا تعدد التشهير بانجلترا التي تتجح بالانسانية
والمدنية" ولم يمنعها عرفها الموروث ولا شرعها القائم أن تبغ فلسطين
العربية ، النفائات اليهود ، وليس العرب من ممالكها ولا فلسطين من
أملكها ، ثم تُسخر لضمان هذا البيع الباطل قوة الحكومة وسلطان الدستور
وتمثل تحت العلم البريطاني على موطن المسيح أروع مآسى العدالة^(١) .

إن فلسطين أرض الأنبياء وحرز المسجد الأقصى الذي باركت عناية
الله ماحوله ، وما حرص أمة الاسلام في حفظها بناقلة ولا بد عاجلاً ، قليل كل
مأيدل في سبيلها من جهد وجهاد ، وقليل أيضاً كل ما يقال ويكتب حتى
ترجع كما كانت ، بلد القداسة في أيدي المسلمين وتحت شريعة الله .

هذه الحوادث التي اتخذت بلاد العرب مسرحاً لها ، وهذا
الاضطراب الذي أضرم الحياة في الأمة جعلها تنهض من غفوتها وتفيق من
سباتها ، ومع ما صاحب أكثر هذه الحوادث والثورات من نزعة قومية ومما
اصطبغت به من عوامل اقليميه ، كانت روح الاسلام هي المهيمنة عليها ، وحمية
الدين هي التي تضمن وقودها ، حتى ألهمت الشاعر ، وتجاوب لأصدائها

(١) الرسالة عدد (٣٣) ١١ ديسمبر ١٩٣٣م مقال فلسطين للزيات ،
وانظر: النثر الأدبي الحديث في سوريا ص ٤١ ، ٤٢ .

أخوة الدين فى أقطار العروبة وخارجها .

وخير ما تُختم به هذه الحوادث ماكتبه (الزيات) وأحداث العروبة تضطرم ناراها فى أكثر البلدان ، لقد رأى فى تلك الحوادث والثورات العارمة والدفاع الباسل تاريخ يثور ، وأمة لاتلين للظلم والعدوان (١) .

"على ضفاف الوادى ، وهضاب فلسطين ، ورياض سورية ، يثور تاريخ ويغضب مجد ، ويستغيث مظلوم . . على الوطن الذى ورفت على نيله أول حضارة ، والبلد الذى هبط على طوره أول دين ، والقطر الذى انبثقت من ساحله أول ثقافة . تمتحن الحرية بمن فرضوا على الملك أول دستور (يريد الانجليز) وتمتهن العدالة ممن حملوا لله أول كتاب (أى اليهود) وتبتلى اليهودية بمن أعلنوا للانسان أول حق (أى فرنسا) .

على هذه الأقطار . . يستكلب الطمع ، ويشتجر الهوى ، وينفجر البغي ، فالمفاوضات وعيد ، والاحتجاجات حديد ، والمواعيد مراوغة . . . "

أمّا عزم العرب على دفع الاعتداء فهذا مايؤكدده الواقع " شباب يحمى على لذع البنادق ، ودم يفور على مسّ الأسنة وأمل يشرق فى الوجوه الوضيئة وطموح يومض فى العيون الرغبية ، وماض تميز فى ابهام الدهر يمثل فى الأذهان الصافية ، ومجد تأثّل فى أربعة عشر قرنا يعصق بالنفوس الفتية فما تصنع مدية اللص فى قلب تدّرّع بالايمان ؟ وماذا تبلغ سطوة الباطل من حق تسجل فى لوح الزمان . "

إنّ الامة الاسلامية اذا ابتليت بكل الأحداث والمكائد الخبيثة ، وان فتنت بالاستعمار الماكر الخبيث ودالت عليها دول الأعداء فلن يفت فى عضدها ولا تلين قناتها ، بل إنّ ذلك باعث نقيمتها وظهور نخوتها ، وسوف تمضى فى سبيل الجهاد مرفوعة الرأس ومحفوظة الحقوق ، وفى هذا سبيل الخير وطريق السعادة فانما هي احدى الحسنيين : عيشة الأعداء أو موت الكرماء الشهداء وبهذا يُدفع الباطل وتحيا الأمة " ولينصرن الله من ينصره إنّ الله لقسوى عزيز . "

(١) الرسالة - عدد ١٣٦ - ١٧ ذو القعدة ١٣٥٤ فبراير ١٩٣٦ - مقال تاريخ يثور .

هكذا بكل هذه الالمامات الخاطفة والاشارات الموجزة عن حوادث العالم العربي التي كانت في مطلع هذا العصر وما رافقها من أثر أدبي كان صدى لها ، اضافة الى ما سبقها من حوادث مشهورة أخرى ، تتجلى لنا أهمية هذه الحوادث ومكانتها في المشاعر الأخوية الايمانية ، فقد ألهمت العواطف وأذكت روح الإخاء والتضامن ، وأخرجت على أسلالت الكتاب ويراع الأدباء عبيراً ينقح بشذى الشجاعة ويتلفع بمشاعر الحنو والرحمة ، نحو أخوة استبيحت كرامتهم وديست حقوقهم ، وتطلعوا إلى من يُشارك مصابهم ويُخفف لوعتهم ، وذلك ما أسهمت فيه هذه الكتابات بما رسمته من أحاسيس وعواطف وبما دلّت عليه من الاحتفاء بهذه النوازل والمصائب ، والتي نال العالم الاسلامي من ويلاتها أذى كثيراً وكانت عليه شراً مستطيئراً .

الفصل الرابع

أشهر كتاب الوحدة الإسلامية
وجهودهم في هذا الاتجاه

(١) جمال الدين الأفغانى (١):

يتمتع جمال الدين الأفغانى بالخصوبة والثراء والشمول ، وتتسم جهوده وحركته الإصلاحية بكثرة اتجاهاتها وتعدد أبعادها ، فإذا أضيف إلى ذلك كثرة الشكوك والاضطرابات التى اختلفت فى تفسير بعض أفكاره وسيرته ومنهجه ، تجلّى لنا - فيما يبدو لي - السر وراء كثرة الكتابات

(١) اسمه محمد جمال الدين صفدر، وُلد على ماتو كده آخر الدراسات المحققة عنه فى أسد آباد قرب همذان من بلاد فارس سنة ١٢٥٤ ، انتقل مع والده صغيراً إلى بلاد الأفغان وأهتم والده بتعليمه فى صغره فدرس العلوم الشرعية والعقلية والعربية وألم بفنون من علوم أوروبا الحديثه وقصد الحج سنة ١٢٧٣ بعد ما قضى عاماً فى الهند ثم قفل من مكة إلى بلاد الأفغان حيث انتظم فى خدمة أميرها ، وبسقوط حكومة الأفغان بيد الانجليز اتجه جمال الدين إلى الأستانه بعد أن مرّ بالهند ومصر، وحين وصلها سنة ١٢٨٧ نال مكانة طيبة وعين عضواً فى مجلس المعارف ، ولكن خلافاً نشب بينه وبين بعض العلماء أدى إلى نفيه ، فاتجه إلى مصر وحل فيها بأول سنة ١٢٨٨ وهناك لقي الحفاوة والعناية من الحكومة المصرية ، وبدأ يتوافد عليه الطلاب حتى التف حوله كثير منهم ، ولم تكن له مدرسه ولكنه كان يُلقى دروساً فى مختلف العلوم فى شكل مسامرات ومناقشات ، وقد يَبعث فى طلابه النزعة إلى الحرية والمطالبة بالإصلاح واستحثهم على تحبير الرسائل والكتابة فى الصحف فى مختلف المواضع

وفى سنة ١٢٩٦ أخرجه الخديوي توفيق من مصر فاستقر فى الهند بضع سنوات ثم رحل إلى أوروبا وتنقل بين عدد من بلدانها ومنها فرنسا التى وافى بها تلميذه محمد عبده ، وأصدر منها جريدة العروة الوثقى عام ١٣٠١ ، وفى تنقلاته هذه زار إيران مرتين بدعوة من حاكمها الشاه ، ولكن الشاه لم يرض عن مسلك الأفغانى فطرده حيث غادرها إلى أوروبا ثانية ليظل بها إلى أن استدعاه السلطان عبد الحميد للإقامة فى عاصمة الخلافة التى قضى بها خمس سنين كانت بها نهاية حياته سنة ١٣١٥ .

انظر تفاصيل ترجمته : تاريخ الأستاذ الإمام ج ١ / ٢٧ محمد رشيد رضا ، حاضر العالم الاسلامي ج ٢ / ٢٨٩ بقلم شكيب أرسلان ، زعماء الإصلاح فى العصر الحديث ، أحمد أمين ٦٣ .

التي تناولته ودرسته في البلاد الإسلامية والبلاد الغربية (١) .

بيد أن هذا الفكر المتشعب المناحي، وهذه الدراسات المتعددة حوله تبعث على المزيد من القراءة الفاحصة وبذل الكثير من الجهد للإفصاح والتعرف على جوانب هذه الشخصية ، إلا أن ما يعيننا هنا في هذه الترجمة لا يعدو جهود الأفغاني وآراءه في الوحدة الإسلامية فقط وفي صورة موجزة ، أمّا ما عدا ذلك من جوانب فكره واتجاهات أعماله فيمكن تلّمسها في عديد من الأبحاث المتعددة التي أفردت لذلك .

أ (أساس الوحدة الإسلامية :

وإذا كانت الدراسات التي تعرضت للأفغاني تتفق على أنه أحد رجال الإصلاح وزعمائه في العصر الحديث فإن دعوته إلى الوحدة الإسلامية لم تكن هي كل همه الإصلاحية ، بل قد كان تخليص العالم الإسلامي من التبعية الأجنبية ، وتحريره من الجمود الفكري وإبعاده عن التعصب المذهبي وسواها من أسس دعوته الإصلاحية أيضاً ، وقد بذل في ذلك جهداً واضحاً إلا أن الأهمية الكبرى التي علّقها على الوحدة الإسلامية ربما جعلته يرى سهوله تحقيق إصلاح تلك الجوانب عندما تقوم وتحقق هذه الوحدة العظيمة .

ولهذا فإن هذا الإصلاح العام الذي كان العالم الإسلامي بحاجة شديدة إليه لا يراه الأفغاني يقوم إلا عندما تقوم في العالم الإسلامي حركة دينية قوية ، حركة تُبنى على الفهم الصحيح للإسلام وترتكز على قواعد الدين وتهتم باقتلاع مارسخ في عقول العوام والخواص من فهم بعض العقائد والطقوس الشرعية على غير وجهها القويم ، ولذلك فلا بد من بث العقائد الدينية الصحيحة الحقّه بين الجمهور وشرحها لهم على وجهها المناسب وحملها على وجوهها الصحيحة ، ولا مندوحة من "بعث القرآن وبث تعاليمه

(١) انظر قائمة من هذه الدراسات العربية : جمال الدين الأفغاني والاتجاهات الإسلامية في أدبه - د . علي عبد الحليم محمود ص ٦٢٨ ٦٣١ ط دار عكاظ ١٤٠٠ - جده .

وانظر بعض الدراسات الغربية : جمال الدين الأفغاني وأثره في العالم الإسلامي الحديث د . عبد الباسط محمد حسن ص ١١-١٢ .

الصحيحة بين الجمهور وشرحها على وجهها الثابت من حيث يأخذ بهم إلى ما فيه سعادتهم دنيا وأخرى ، ولا بد من تهذيب علومنا وتنقيح مكتبتنا ، ووضع مصنفات قريبة المأخذ سهلة الفهم لنستعين بها على الوصول إلى الرقي والنجاح" (١) .

إن حال المسلمين الذي قعد بهم عن معارج الرقي والمجد والقوة كما يراه الأفغاني هو بعدهم عن حقيقة الدين التي تدعو إلى كل سبيل النهوض والعزة ، بل إنه يرى أن أوروبا وأمريكا مستعدة لقبول الإسلام إذا - أحسنت الدعوة إليه لولا حالة المسلمين السيئة التي ينظرون إليهم من خلالها وعلى ذلك فإذا كان المسلمون يطمعون في دخول الناس في الإسلام فعليهم قبل كل شيء أن يُبرهنوا على تمسكهم بالإسلام ، وأخذهم بحقيقة القرآن ، أمّا ما قد يظهر من بوادر الرقي والتمدن في البلاد الإسلامية فليس نهوضاً ولا إصلاحاً ، بل إنه يقود إلى التقهقر والانحطاط لأنه يقوم على تقليد الأوروبيين ، لذلك يصرخ الأفغاني بوضوح " إنا معشر المسلمين إذا لم يؤسس نهوضنا وتمددنا على قواعد ديننا وقرآننا فلا خير لنا فيه ، ولا يمكن التخلص من وصمة انحطاطنا وتأخرنا إلا من هذا الطريق" (٢) .

هذه الركيزة الإسلامية التي اتخذها الأفغاني قاعدة تقوم عليها طرق الإصلاح ومناهجه هي معلم أصيل في فكره ، ونبراس مضيء في دعوته ، ومع ما دل عليه من الروعة والعظمة فإنها تسلمنا في الواقع إلى فهم كثير من أقوال الأفغاني وتوجهاته التي تحتدم حولها الفهوم .

والذي يعيننا من هذه القاعدة أنه اتخذها منطلقاً في دعوته إلى الجامعة والوحدة الإسلامية واعتبرها الأساس الذي لا تقوم بدونه .

لقد تجول الأفغاني في كثير من البلاد الإسلامية ودرس حال الأمة ورأى ماتعيشه من التخلف والاضطراب ، ورأى أن أكبر داء تعاني منه بلاد الإسلام داء الفرقة والانقسام ، وتشتت الآراء وتنافر الأهواء وانقسام الأهل والممالك ، ولذا تيقن من ذلك عزم على الدعوة إلى وحدة جامعة

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني ص ٣٢٨ .

(٢) السابق نفسه ص ٣٢٧ .

لهذه الأمة المتفرقة ، ورأى أنه لا مناص من قاعدة يُمكن أن يتفق عليها الجميع ، ولا محيد من الركون إلى أصل يُجمعون على الاعتماد عليه ، ويرضونه على اختلاف مذاهبهم وآرائهم ، هذا الأصل المكين الذى يجب أن تجتمع حوله الآراء والمذاهب الإسلامية هو دينهم الاسلامي الذى يجتمعون على ديانة الله به ، فنبههم الأفغاني أنه لا جنسية للمسلمين إلا في دينهم ولا جنسية لهم إلا في عقيدتهم ، ولا رابطة لهم إلا الرابطة الدينية التي هي أحكم الروابط ، يجتمع عليها التركي بالعربي ، والفارسي بالهندي والمصري بالمغربي ، كما أنها تغنيهم عن الروابط الجنسية بل وتتغلب على الرابطة "النسبية" الحميمة (١)

ويضيف إلى هذا الأصل العظيم أصلاً آخر مرتبطاً به بل يقوم هذا الأصل الأول عليه ، ذلك هو القرآن الذى يأسف الأفغاني لإهمال المسلمين له وإعراضهم عن هديه وتلمس النور من مشعل سواه ، كيف وهو كتابهم المنزل يتلى عليهم بكل حكمة ، ويؤمهم بكل حق ، يامرهم بحماية حوزتهم والدفاع عن ولايتهم ، ويطلب منهم المنعة والقوة من كل سبيل ، فلو رجعوا إليه لنهض بهم إلى الرفعة والمنعة، ولربما بهم عن الذل والضياع (٢) .

(ب) جهوده في سبيل الوحدة الاسلامية :

إذا أتينا إلى الجهد الذى بذله الأفغاني ودعوته إلى الوحدة الإسلامية فضلاً عما سبق أن رأيناه من تصوره لهذه الجامعة وكيفية (٣) وهو من صلب هذا الجهد - فإن الأفغاني كما يُفهم من مجمل أحواله وكما اشتهر به وأكدّه ألقى الناس به ، إن الذى كان يصوّب نحوه أعماله والمحور الذى كانت تدور عليه آماله هي وحدة العالم الاسلامي " وسعيه الحثيث لجمع شتات أهل الشرق ، وإيقاظ الهمم من أهله ، والإشراف بهم على الخطر الدايم الغربي المحدق بكيانهم ، والأخذ بخناقهم ، ليعملوا على جمع كلمتهم ويأخذ كل ملك ، أو أمير في الشرق على ترقية شعبه وتحسين ملكه

(١) انظر الفصل الاول من هذا البحث: (جمال الدين الأفغاني والجامعة الإسلامية) ص : ٩٥ .

(٢) انظر: خاطرات جمال الدين الافغاني ص ٢٣٠ .

(٣) انظر الفصل الأول من هذا البحث: جمال الدين الأفغاني والجامعة الإسلامية ص: ٩٥ وما بعدها

وتحصينه بالحكم الشورى الدستورى ، وتمكينه بما يربط الأقرب فالأقرب ، ويقويه بالتحالف والاتحاد حتى يرجع الكل إلى الانصواء تحت راية الخلافة العظمى^(١) .

هذه الغاية العظيمة النبيلة ، بذل فيها الرجل جهده ، وسعى فى تحقيقها سعيا متواصلا ، وتحمل فى سبيلها الصعاب والمكاره ، وقضى عمره متنقلا مهاجرا ، يغرس بذورها ، ويتطلب القاده الذين يعملون لها وعلى رأسهم الخليفة العثماني سلطان المسلمين .

ج) أبعاد الوحدة ومراميها :

والوحدة هذه ذات أبعاد وأهداف كثيرة لعل أظهرها بعدها الديني والسياسي ، كما كان يراها الأفغاني ، أما بعدها الديني فمع وضوحه وهو ما تشير إليه الآية الكريمة " إنما المؤمنون إخوة " ^(٢) ويدل عليه قوله سبحانه " وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم " ^(٣) فإنه يقضي على معالم الخلاف وسبيل الفرقة الكثيرة فى اتجاهات الحياة ومشاربها المتعددة للأمة ، ويصل ما بين الجميع فى المقاصد والعزائم والأعمال ، بل يتعدى إلى نبذ المنافرة بين القبائل والعشائر ، ويذيب الفوارق بين الأجناس المختلفة فى العادات واللغات ، ويجعل من الأهواء والمنازع المتعددة ميلا وقصدا واحدا ، وهذه الرابطة هي التى تمحو الجنسيات والعصبيات حيث لا جنسية للمسلمين إلا فى دينهم ، ولذلك لا فرق بين الأسود والأبيض ، ولا فضل لعربي على أعجمي ، هم سواسية كأسنان المشط ، بل هم جسد واحد ، يتألم المرء لما ينزل بأخيه وإن نأت به الدار وشط به المزار ، ولا يسكن روعه حتى يزول ما حل بأخيه المسلم فيشاركه فى السراء والضراء .

أما البعد السياسي للوحدة فهو ذلك الوفاق والتآلف والترابط الذى يحس به كل فرد نحو أمته ، يفرح لما تناله من مجد وسلطان ، ويألم لما يصيبها من ضعف وهوان ، وهي ماثلة أمام فكره فى مختلف الأحوال

(١) خاطرات جمال الدين الافغاني ص ٨٤ .

(٢) سورة الحجرات ٩ .

(٣) سورة الانفال ٤٦ .

ذلك الوفاق والتآلف تنمو به بنية الأمه ويشدد به بناؤها ، وهو ما يشهد أزرها ويوجد به بين أبنائها وشعوبها ، فينشأ من ذلك أمة واحدة قوية ومتماسكة بين الأمم ، وحينئذ يتم لها السلطان العزيز في الأرض ، وتتحقق لها السيادة العليا والغلبة على مختلف الأمم .

إن الوحدة هي قوة لإعلاء كلمة الحق وسعي لبسط سيادة المسلمين وسلطانهم في الأرض ، وبذلك يواصلون رسالتهم إلى شتى الأمم كما يطالبهم دينهم " وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله " (١) وكيف يتحقق لهم ذلك بدون هذه الوحدة والسيادة ، بل كيف يقوم لهم دينهم قويمًا بغيرها ، ومعظم أحكام شريعته موقوف اجراؤه على قوة الولاية الشرعية (٢) .

إن هذا البعد السياسي للوحدة هو ذلك الواقع الحقيقي الذي عاشته الأمة الإسلامية في تاريخها الطويل ، في ظل ولاية الاسلام قامت أمة واحدة من المغرب الأقصى إلى حدود الصين ، أقطار متجاورة وأرجاء واسعة وعمران وحضارة وازدهار ، وجيوش ظافرة في البر والبحر وسلطان لا يُغالب في الأرض ، هذا البعد للوحدة ما برح الأفغاني يذكره ويذكر الأمة به مراراً ، بل يأسى لما حل بالأمة حين نسيته وأُشغلت عنه ، بل إنه يرى أن تفزق الأمة وانصداع وحدتها هو الذي جرّ عليها البلاء وسلّط عليها الأعداء " كل هذه الرزايا التي حطت بأقطارنا ، ووضعت من أقدارنا ، ما كان قاذفنا ببلائها ورامينا بسهامها إلا افتراقنا وتدابرننا والتقاطع الذي نهانا الله ونبيه عنه " (٣) .

هذه الوحدة العظيمة الماثلة في ذهن الأمة يثيرها الأفغاني عندما يقارن شأن الأمه في عز وحدتها وما آل إليه أمرها في عصره ، إذ وقفوا في سيرهم ، تأخروا في المعارف والعلوم ، وسبقتهم الأمم في معارج القوة والرقى بل بدأت تنقض على ممالكهم وتنقصها من أطرافها وتمزّقها حين أضحوا أوزاعاً وفرقاً . هذا البعد السياسي للوحدة يذكرنا بما سبقت الإشارة إليه من

(١) سورة الانفال ٣٩ .

(٢) انظر الاعمال الكامله للأفغاني ص ٣٥٦ .

(٣) المرجع السابق ص ٣٥٦ ، وانظر ص ٣٤١-٣٤٣ ، ص ٢٠٤-٢٠٦ .

اضفاء الأفغاني على هذه الوحدة مدلولاً تحريراً ضد الاستعمار^(١) فالتسلط الأوروبي الذي أقدم على ازدراد البلاد الإسلاميه وأخذ يحكمها لا يصح اقراره والسكوت عليه ، بل كيف يتحكم في أمة مسلمة ويسوسها ويسكت المسلمون على ذلك؟ لا ترضى الأمة المسلمه بسلطة غير سلطة الإسلام ، ولا يخضع أفرادها لسلطة أجنبيه مهما بلغت من القوة والجور ، ذلك ما يُذكر به الأفغاني أمته فيقول : " الركن الأعظم لدينهم طرح ولاية الأجنبي عنهم وكشفها عن ديارهم بل متازعة كل ذي شوكة في شوكته . . " ^(٢) وأن إخاء العقيدة يُشعر كل واحد من المسلمين أن سقوط طائفة من أمته تحت سلطة الأجانب والمستعمرين سقوط لنفسه ، وشعور يتألم به وجدانه حتى يزول عنه .

إن أهمية هذه الوحدة في الأمة جعلت الأفغاني يصوبها سهاماً مُصمية في وجوه المستعمرين ، وهي ما تطالبنا به كلمة الا خلاص والتوحيد، والتي " لو أدينا حقوقها وما تطالبنا به تلك الكلمة التي تهل بها السنن وتطمئن قلوبنا بذكرها وهي كلمة الله العليا ، هل كان يمكن للأغراب أن يُمزقوا ممالكنا كل ممزق ، وهل كان يلمع سيف العدوان في وجوهنا وهل كنا نشم نيران الأعداء إلا وأقدامنا في صياصيههم وأيدينا على نواصيههم ، . . أنرضى ونحن الموءمنون وقد كانت لنا الكلمة العليا أن تُضرب علينا الذلة والمسكنة ، وأن يستبد في ديارنا وأموالنا من لا يذهب مذهبنا ولا يرد مشربنا ولا يحترم شريعتنا ولا يرقب فينا إلا ولا ذمة ، بل أكبر همه أن يسوق علينا جيوش الفناء حتى يخلي منا أوطاننا ويستخلف فيها بعدنا أبناء جلدته والجالية من أمته " ^(٣) .

وهكذا تجعل الجامعة الإسلامية كما يرى الأفغاني من المسلمين قوة تقف سداً منيعاً يحول عنهم سيول الاستعمار المتدفقة من مختلف الأرجاء بعد أن خلقت منهم أخوة متآزرين في كل حال .

(١) انظر الفصل الأول من هذا البحث: الأفغاني والجامعة الإسلامية ص ٩٥

والاعمال الكاملة للأفغاني " الأفغاني المناضل ضد الاستعمار "

ص ١٩-٢٨ .

(٢) الاعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني ص ٣٤٢ .

(٣) المصدر السابق ص ٣٥٦ .

د (معالم مهمة في سبيل الوحدة الاسلامية :

إنّ الذي يظهر من فكر الأفغاني وجهوده في الوحدة الاسلامية أن هناك ركائز أو معالم مهمة نبّه الأفغاني وأكد على عظم مكانتها في سبيل الوحدة كما أشار إلى ذلك أحد الباحثين (١) ، هذه الركائز الجامعة هي رابطة الدين ورابطة الحج ورابطة الخلافة .

أما رابطة الدين فحسبنا ما تقدم عنها قبل قليل ، وأما رابطة الحج فهي فرصة عظيمه تُتاح للأمة الاسلامية أن يجتمع فيها عدد كبير منهم من مختلف أرجائها، ويجتمع فيها علماء الأمة ومفكروها ومن يُعنون بقضاياها ويتبادلون الآراء ويناقشون ما يجد من الأحداث، إن الأفغاني وقد قصد الحجاز أدرك من مغزى الحج فوائد عظيمة تحققها الأمة الاسلامية وتأتي هذه الوحدة على رأسها، ومع أن الميل للوحدة والتطلع للسيادة وصدق الرغبة في حفظ حوزة الاسلام مغروسة في نفوس المسلمين إلا أن هناك ما يحيى هذه الوحدة ويبعثها في شعيرة الحج كما يرى الأفغاني ، ذلك أن " العلماء العاملين لو وجهوا فكرهم لا يصل أصوات بعض المسلمين إلى مسامع بعض لأمكنهم أن يجمعوا بين أهوائهم في أقرب وقت. وليس بعسير عليهم ذلك بعدما اختص الله من بقاع الأرض بيته الحرام بالاحترام ، وفرض على كل مسلم أن يحجه ما استطاع ، وفي تلك البقعة يحشر الله من جميع رجال المسلمين وعشائهم وأجناسهم ، فما هي إلا كلمة تُقال بينهم من ذي مكانة في نفوسهم تهتز لها أرجاء الأرض وتضطرب لها سواكن القلوب " (٢) .

هذه الفرصة التي تُتيحها هذه الشعيرة في الديار المقدسة يضيف إليها الأفغاني فكرة ناضجة ترفد وحدة الأمة وتشد جامعتها ، فهو يطالب العلماء بأن ينهضوا لإحياء الرابطة الدينية ويتداركوا الاختلاف الذي وقع ويسعوا لإظهار الاتفاق الذي يدعوا إليه الدين ، بل ويجعلوا ذلك في مدارسهم ومساجدهم حتى تكون مهبطاً لروح حياة الوحدة ، وأن يرتبط " العلماء والخطباء والأئمة والوعاظ في جميع أنحاء الأرض بعضهم ببعض ويجعلوا لهم مراكز في أقطار مختلفة يرجعون إليها في شئون وحدتهم

(١) جمال الدين الافغاني وأثره في العالم الاسلامي الحديث ص ٩١ .

(٢) الاعمال الكاملة لجمال الدين الافغاني ص ٣٥٧ .

ويجمعوا أطراف الوشائج الى معقد واحد يكون مركزه في الاقطار المقدسة،
وأشرفها معهد بيت الله الحرام " (١) .

بهذا الفهم لأهمية الحج في تحقيق الوحدة أدرك الأفغاني أثره
الكبير في شد أزr الدين وحفظه وبث معالمه الصحيحة، وقيامه بدراسة
حال الأمة وتنبيه شعوبها إلى ما يحدث لكل قطر منها فلا يكونون في عزلة
عن أخوانهم في مختلف الأرجاء .

أما رابطة الخلافة ففضلا عما سلف من قول عنها في مكانتها من
الجامعة الاسلامية (٢) عند الأفغاني، حيث كان يحث شعوب الإسلام على
التآلف والوحدة ويرجو ويحث لو توسط ذلك الاتحاد جلالة السلطان
خليفة المسلمين، فانه لم تكن لتخفى عليه مكانة الخلافة وشأنها الكبير في
الجامعة والوحدة الاسلامية واحباط مؤامرات الأعداء كما قال : " كنا على
يقين ولانزال عليه ، ان الذات الشاهانية ، وهي الأب الأكبر لعموم
المسلمين ، وهي الكافلة للشرعية الحافظة للدين ، هي أجدر الناس بالالتفات
إلى حركة الأعداء في البلاد الاسلامية وهي لاتألو جهدا في تعويق سيرهم
واحباط أعمالهم " (٣) .

إن الذي يتبادر للذهن مادام الأفغاني يسعى جاهدا لوحدة
الأمة الاسلامية ولم تخف عليه مكانة الخلافة منها أن يتجه بسرعة إلى الخليفة
لأنه أولى وأفضل بل وأصلح من يقوم على مباركة هذه الدعوة حتى يستجيب
العالم الإسلامي لها وتؤدي ثمارها ، لكن الذي يبدو لي أن الضعف
والخلل والاضطراب الذي كان ينخر في كيان السلطنة العثمانية ، والتآمر
الصليبي الذي كان يقف لإحباط كل مامن شأنه إصلاح السلطنة وتقويتها ،
ثم ضعف الخلفاء الذين استحوذت عليهم المحن والفتن التي لم ينحجوا
كثيرا في وقاية الدولة منها ، فضلا عن العمل فيما هو أبعد وأعظم ، كل
هذه العوامل لعلها هي التي صرفت الأفغاني عن الاتجاه إلى الخليفة
بدعوة الوحدة ، وانصرف بذاورها في أكثر البلاد التي مربها .

(١) الاعمال الكاملة للأفغاني ص ٣٦٣ .

(٢) انظر الفصل الأول من هذا البحث ص ٩٩ .

(٣) انظر الاعمال الكاملة للأفغاني ص ٢٤٥ .

أما حين تولى الخلافة السلطان عبد الحميد وقد كان حريصاً ومُصمماً على إحياء الجامعة الإسلامية، ثم أخذ يدعو لها فلا عجب أن يقبل الأفغاني دعوة السلطان عبد الحميد ويترك أوروبا إلى القسطنطينية عاصمة الخلافة ومقر السلطان، وعندما قابل السلطان وتحدث معه ورأى منه الذكاء والدهاء والسياسة، وعلم منه اليقظة والحذر لكل ما يُدبر من حوله، وما اتخذه من خفي الوسائل وامضى العوامل كي لا تتفق أوروبا على عمل خطير في الدولة العثمانية (١) كل هذه القدرات والكفاءات المدهشة جعلت الأفغاني يتجه إلى السلطان ويقول (٢): "أما مارأيت من يقظة السلطان وشدة حذره واعداده العدة اللازمة لإبطال مكائد أوروبا وحسن نواياه واستعداداته للنهوض بالدولة (الذى فيه نهوض للمسلمين عموماً) فقد دفعنى إلى مدّ يدي له، فبايعته بالخلافة والملك عالماً علم اليقين أن الممالك الإسلامية في الشرق لا تسلم من شراك أوروبا، ولا من السعي وراء إضعافها وتجزئتها، وفي الأخير ازدادها واحدة بعد أخرى، إلا بيقظة وانتباه عمومي، وانضواء تحت راية الخليفة الأعظم".

كاشف الأفغاني السلطان عبد الحميد في كثير من المسائل التي تهم الأمة، واجتهد في بذل النصح والإخلاص، وكانت وحدة الأمة وجامعتهم كما يراها الأفغاني مما أظهره وعرضه للسلطان، غير أن السرعة التي كان يرجو الأفغاني أن تأخذ مجراها في تنفيذ وجوه الإصلاح وتريث السلطان في دراستها وتطبيقها لم تُرض الأفغاني من هذا السلطان، فسأ ظنه، واعتبر ذلك إنصافاً من السلطان عنه وعدم قبوله النصح وقلة اجتهاده ببعض ما كان يقول (٣) الأفغاني، وزاد الأمر سوءاً حين كثرت الرقابة على جمال الدين في الاستانة، ولم يسمح السلطان لأحد بزيارته إلا بأذن خاص مما حدا بالأفغاني أن يفكر في الخروج من الأستانة لولا طلب السلطان منه العدول عن ذلك (٤).

إن الذي يبدو لي أن جمال الدين قد خاب ظنه في تحقيق

-
- (١) انظر الأعمال الكاملة للأفغاني ص ٢٤٥ .
 (٢) المصدر السابق ص ٢٤٦ .
 (٣) المصدر السابق ص ٢٣٧ ، ٢٤٠ .
 (٤) انظر حاضر العالم الاسلامي ٢/ ٢٩٦ .

الوحدة عن طريق السلطان ولكن هذا لم يكن ليبلغ به من العداء للسلطان على نحو ما يصوره أحد دارسيه وأنه أخذ يجاهر بعدائه ولا يتحرز في توجيه اللوم له أو الهجوم عليه، ويطلب منه اقالته من بيعته للسلطان بالخلافة والملك (١).

فمع الإقرار بعدم رضى الأفغانى عن بعض جوانب سياسية عبد الحميد ووصفه له بالطاغية أحيانا (٢)، إلا أن ما يستدل به هذا الدارس لا أراه في محله كما يفهم من خاطرات جمال الدين التي تدل على موقفه ورأيه الأخير في الخلافة العثمانية (٣).

إن ما جاء من قول للأفغانى في الخاطرات عن الخلافة وضعفها حيث وصفها بقوله :

لقد هزلت حتى بدا من هزالها . . كلاها وحتى سامها كل مفلس

ورد ذلك في معرض دفاعه عن التهمة التي وشى بها الوشاة إلى السلطان عنه، عندما قابل خديوى مصر في الأستانة وأنه بايعه بالخلافة، فهو يدافع عن هذه التهمة ويبرئ نفسه منها فيقول (٤) : " أعوذ بالله أن أكون من المنافقين ، وأن أفعل ما أنكره على الغير، وأن أكون همارا مشاءا بنميم، ماهذا الهذيان في هذا الزمان ؟ وفي أي مقام جليل خطير، هم يتلاعبون خلافة عظمى ، وإمامة كبرى ، (ثم أورد البيت المذكور) " .

ثم ها هو يؤكد حقيقة الخلافة العظمى وما تتطلبه من الواجبات والشروط التي لا تتوفر في خديوى مصر " الخلافة كقالة الله في خلقه ، فأين أحلام أولئك العجزة من مقام الإمامة والخلافة ، وما تتطلبه من الشروط والصفات أين ؟ الخديوى (عباس حلمي الثاني) بطروفه وما أحاط بعصره هو عندي أعجز من السلطان عن تعريف أمور الخلافة والقيام بآعبائها على ما يلزمها من مزايا وشروط أهمها الاستقلال " .

(١) الاعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى ص ٥٣ .

(٢) انظر خاطرات جمال الدين الأفغانى ص ٣ .

(٣) المصدر السابق ص ٧٤-٧٩ .

(٤) المصدر السابق ص ٧٩ .

إن ما يفهم من هذا القول إلى آخره كما فى خاطرات جمال الدين (١) وإن كان فيه تعريض بضعف الخلافة من عدة وجوه، إلا أنه ليدل أيضا على أن الأفغانى لا يزال على ولائه للخليفة، ولا يريد به بدىلا ، حيث أقسم للسلطان أنه لم يدربينه وبين خديوي مصر ما أشيع عنه زورا . أمّا مطالبته السلطان باقالة بيعته فمع ما فيها من جرأة على السلطان فالواقع أن ذلك كان فى أمر وعده السلطان بامضائه ولكن تأخر فيه فأغضب ذلك جمال الدين فاحتد كعادته وصّح بطلب الإقالة ، والمفهوم مما جرى بينه وبين السلطان عندما قال ذلك أن السلطان لطفه وأزال موجدته حتى هدأ وسكن ، والذي يبدو لي أن عبارة الأفغانى فى طلب الإقالة هي للإشارة فقط وليست مقصودة بضمونها ، ويعزز ذلك أن الأفغانى قد عوّده السلطان أن يتناقش معه فى أدق المسائل ويصغي إليه ويقول رايه بكل حرية ، فليس غريبا أن يقول الأفغانى ذلك لو لم يكن قد عرف أو ألف حقيقة هذا السلطان الذى يقبل الرأي والمناقشة ولا يصادر آراء غيره ليستبد بالأمر ، ولو كان السلطان عبد الحميد طاغية مستبدا كما يشيع عنه خصومه - ومنهم بعض تلامذة الأفغانى لما بقي الأفغانى على قيد الحياة بعد مقولته هذه ، ولعل فى هذا تذكيرا وإنصافا لهذا السلطان الذى يتطوع بعض الكتاب برميّه بالظلم والتقصير حين يتحدثون عن جمال الدين وصلته به فى السنوات الأخيرة من عمر جمال الدين فى عاصمة الخلافة .

وهكذا يمكن القول : إن الأفغانى الذى أدرك جيدا مكانة الخلافة فى تحقيق جامعة المسلمين قد تقدم إلى الخليفة وعرض عليه ناصحا خلاصة آرائه الإصلاحية التى تشد من أزر الخلافة لصد مطامع الأعداء ، لكنه لما لم يتحقق له ذلك ساء ظنه بالخليفة ولم يعد يعلق على الخلافة ما كان يجنح إليه خياله فى قدرتها على النهوض بالعالم الإسلامى وربط أواصره الضعيفة والممزقة .

(١) ص ٧٩ ، الأعمال الكاملة لجمال الدين ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ .

(٢) خاطرات جمال الدين الأفغانى ص

ومن هذه المسائل على سبيل المثال : الحكم الدستورى ومحاسننه .

الأعمال الكاملة ص ٢٤٥ ، وقبول الأتراك للسان العربى ليكون لسان

دولتهم . الأعمال الكاملة ص ٢٣٦ ، وخطأ توغل العثمانيين فى أوروبا

الأعمال الكاملة ص ٢٣٧ .

(هـ) عوامل أخرى في سبيل تحقيق الوحدة الإسلامية :

لم يكن ماسبق من أسس وركائز للوحدة كافيًا في نظر الأفغاني لتحقيقها ولذلك بذل جهودًا أخرى ونَبِهَ إلى أمور تُعد في الحقيقة متممة لهذه الأسس، هذه الأمور يُمكن النظر إليها باعتبارها عوامل مهمة في تحقيق الوحدة، وهي البعد والحذر من الفرقة بأنواعها المختلفة وصورها المتعددة .

فالتحذير من الفرقة والابتعاد عنها أخذ جوانب مختلفة يمكن أن تُعد أنواعًا لهذه الفرقة ، ومن هذه الأنواع فرقة الحكومات والشعوب، وفرقة المذاهب الدينية ، وفرقة العصبية الجنسية ، كل صور هذه الفرقة أولًا هـ جمال الدين عنايته ، وأكد على اعتبارها من أهم العوائق التي تحول دون قيام الوحدة ، وهي أعظم أسباب فشلها واضمحلالها .

أما فرقة الحكومات الإسلامية وتعددتها ثم تناحرها فقد رأى الأفغاني أن ذلك هو الذي جلب التنازع في الأمة الإسلامية وأدى إلى تفرق الكلمة وانشقاق العصا (١)، ذلك أن كثرة الرؤساء والسلطين مع تباين الأغراض وتعارض الغايات قاد إلى اشغال الأفكار بمظاهرة كل خصم على خصمه واعداد العدة لمغالبتة ، فألهيت الشعوب الإسلامية عن إيماء العلوم وتطويرها والاستفادة منها ، مما قاد إلى ضعفهم ونهضة سواهم ، ثم إن هذه النزاعات الداخلية ألهت المسلمين عن أعدائهم المتربصين بهم حتى تمكنوا منهم . هذه الفرقة قادها وبعثها في الأمة حكام وامراء يسميهم الأفغاني وقد صدق " طلاب الملك " و " طلاب الشهوات " والذين قد يبلغ بهم الفساد إلى الاستعانة بالأجنبي من أعدائهم وموالاتهم على إخوانهم المخالفين لهم ، هؤلاء الأمراء الطامعون هم الذين بهم أخرج الاسلام من الأندلس وهدم ركنه في الهند . لقد ضاق الأفغاني بهؤلاء المنتفعين واحتد في تجريحهم وكشف خطرهم " أولئك اللاهون بلذاتهم العاكفون على شهواتهم هم الذين بددوا شمل الملة وأضاعوا شأنها وأوقفوا سير العلوم فيها . . . ألا قاتل الله الحرس على الدنيا والتهالك على الخسائس ما أشد ضرهما وأسوأ أثرهما نبذوا كلام الله خلف ظهورهم وجحدوا فرضا من أعظم فروضه فاختلفوا والعُدو

على أبوابهم وكان من الواجب عليهم أن يتحدوا في الكلمة الجامعة حتى يدفعوا غارة الأبعاد عنهم ثم لهم أن يعودوا لشئونهم ، ماذا أفادتكم المغالاة في الطبع والمنافسة في السفاسف ؟ أفادتكم حسرة دائمة في الحياه ، وشقاء أبدي بعد الممات ، وسوء ذكر لا تمحوه الأيام (١) .

أما فرقة الشعوب فقد لمسها الأفغاني واضحة وقد طاف في عدد من بلاد المسلمين، وهذه الفرقة هي تفكك عرى الإتصال بين الشعوب الإسلامية وجهل بعضهم اخبار بعض رغم اتصال أقطارهم ، وتجاور أمصارهم (٢) ، فالأفغاني مثلا لا يعلم ولا يهتم بحال أخيه الإيراني ، وكلاهما لا يعرف من حوادث الهند الا النزر اليسير، هذا وهي بلاد متقاربه ، أما أهل المغرب فلا يعلمون إن في الدنيا مقاطعة تسمى الهند وفيها ملايين من المسلمين ، والهنود لا يعرفون أن في المعمورة دولة عثمانية تخفق قلوبهم لاخبارها . وهكذا يجهل أبناء كل قطر ما ألم بالآخر ، وأن هذا الجهل كم يضيع على الأمة من فرص سانحة وصفقات رابحة ، لو استغلت لعادت على الأمة بفوائد لا تحصى .

اما فرقة المذاهب الدينية : فقد وجدت في الأمة من قديم، وبقيامها افترق الناس شيعا وأحزابا ، وكل منها يدعو إلى ملك أو إلى مذهب ، وكان من ذلك أن ضعفت آثار العقائد التي كانت تدعو إلى الوحدة (٣) ، لقد عجب الأفغاني من هذه الفرق في الأمة ، وكيف سهّل وجودها جهل الأمة ، وبارك قيامها الملوك الطامعون في توسيع ممالكهم ، فالسنة والشيعة عندما يتأملها يجدها توأم بالقرآن وبرسالة محمد عليه السلام ، وأما مسائل الخلاف بينهم فانها انقضى أمرها مع أمة قد خلت ، وليس في مناقشتها رقيا وحفظا لكيان الأمة ، بل تفكيك لعرى الوحدة الإسلامية ، لقد صاح الأفغاني في الطائفتين " يا قوم ! وعزة الحق ، إن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب لا يرضى عن العجم ولا عن عموم أهل الشيعة إذا هم قاتلوا أهل السنة ، أو افترقوا عنهم لمجرد تفضيله على أبي بكر ، وجميعهم لا يحسنون أمر دنياهم " والناس

(١) الاعمال الكاملة للأفغاني ص ٣٤٣ .

(٢) المصدر السابق ص ٥٠٨ .

(٣) المصدر السابق ص ٣٦٢ .

أبناء ما يحسنون" وكذلك أبو بكر فلا يُرضيه أن تُدافع أهل السنة عنه ، وأن تقاتل الشيعة لاجل تلك الأفضلية التي مرّ زمنها ، والتي تُخالف روح القرآن الأمر أن يكونوا " كالبنيان المرصوص " (١) لقد حرص الأفغانى على تناسي هذه الفرقة المذهبية بين أبناء البلاد الإسلامية ، وحين يدعو الفرس إلى الاتحاد مع إخوانهم الأفغانيين (٢) يذكّرهم أن رابطتهم الحقّة التي تجمعهم هي الديانة الإسلامية ، أمّا الخلاف الجزئي بينهما لا اختلاف الفرق التي يرجعون إليها فهو خلاف نسبي لا يدعو إلى الشقاق ولا إلى التخالف العنيف أو تمزيق نسيج إتحادهما .

لقد كان الأفغانى ينهيه عن تعصب المذاهب وتأكيد على تآلفها ووحدة أصلها يلتبس أن تكون الأمة أمة واحدة ، لاسّنة ولا شيعة ولا ما شابهما .

أما الفرقة بالعصبية أو الجنسية : فإن دارسى الأفغانى يقعون في صعوبة بالغة واضطراب شديد حين يريدون تحقيق موقفه من نزعة العصبية الجنسية ومثلها الدعوة إلى الوطنية ، وقد كان المتبادر إلى الذهن أن أُعول على أرجح آراء دارسيه - وهم كثر - فى هذا ، بيد أن الأمر اقتضى جهداً رأيت أن أخرج فيه بما أرى من غير تنكّر لفضل الدراسات التي وقفت لدراسته . وباختصار فإن الأفغانى الذى يجمع دارسوه على سعيه الحثيث بالدعوة إلى الجامعة والوحدة الإسلامية ، بل كانت من أكبر آماله وأمانيه ، من الطبيعي أن يُتصوّر نفوره من وحدة الأمة تحت أي جامعة أخرى غير هذه الجامعة كالجامعة الوطنيه أو الرابطة القومية ، ذلك أن هذه الروابط الأخيرة تُخالف رابطة الجامعة الإسلامية بل تعمل على إضعافها وتقويضها .

بيد أن الذى يُؤثر عن الأفغانى وجود الدعوه إلى هذه الروابط وعدم تنكّره لها ، وهذا ما أوقع دارسيه فى حيرة من تفسير ذلك ، وخصوصاً بعد التأكد من نسبتها إليه . فكيف يكون داعية إلى جامعة إسلاميه مليّة ، ويدعو إلى روابط وجامعات قوميه أو وطنيه ؟ !

(١) الأعمال الكامله للأفغانى ص ٣٢٦

(٢) المصدر السابق ص ٣١٦ .

لقد رأى أحد الباحثين المتعمقين في هذه الإزدواجية أن فـكـر الأفغاني بوضوح وجلاء - في رأيه - قد مر بفترة زمنية كانت تشوب أفكاره القومية أفكار عن الوحدة المليية^١ وغناء الروابط الاعتقادية عن الروابط الجنسية^٢ ثم تطور فكره بعد ذلك ليكون في حسم ووضوح فكرا قوميا ناضجا وذا روح عربية على وجه التحديد (١) .

وقد بلغ من قناعة هذا الباحث برأيه في نضوج فكر الأفغاني إلى فكر قومي وأنه هو الذي استقر عليه في آخر حياته ، بلغ بالباحث أن عقد فصلا إضافيا أكد فيه نزعة القومية لدى الأفغاني وأنها ذات روح عربية^(٢) . إن الذي يبدو لي أن القول : إن فكر الأفغاني في نهايته كان فكرا قوميا ليس صحيحا ، ولا أدل على هذا من أن هذا الباحث يقرر حقيقة في هذا الفكر القومي ، فيقول إن " فهم الأفغاني المستنير لمبادئ الإسلام وأفكاره ، جعله يرفض التناقض المزعوم مابين الإسلام والقوميات ، ومن ثم فإن نضوج الفكر القومي لديه لم يكن يعني إدارة الظهر للتضامن الإسلامي ، بل ولا الرفض للجامعة الإسلامية والخلافة الإسلامية " (٣) . وقد جعل التزاوج بين فكر الإسلام والتفكير القومي هو الأمر المناسب لصالح الشعوب وآمال المسلمين .

ومع إعجابي بدقة هذا الباحث إلا أنني أرى أنه عكس الأمر هنا ، فالنزعة إلى الرابطة المليية هي المهيمنة على فكر الأفغاني ، ثم إنه أخضع النزعة القومية والدعوة إلى الوطنية تحت مظلة الجامعة الإسلامية ولم يرتعاضا بينها ، ولو كان فكرا أفغاني في نهايته فكرا قوميا لما صح وشاع بين الباحثين ربطة بالجامعة والوحدة الإسلامية التي اشتهر أمره بها ، إذ إن القومية تجعل " الجنس " هو أهم عناصرها وأولها ، والجامعة الإسلامية تجعل الدين هو الأساس الذي تقوم عليه مع افادتها من الروابط الأخرى بعد ذلك . ثم إن المرء ليعجب كيف يكون رجل داعية إلى الوحدة الإسلامية وجمع شمل المسلمين كالأفغاني ، والذي تواترت الدراسات قديمها

(١) هذا رأى محمد عماره . أنظر الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني

ص ٤١ - ٥١ .

(٢) المصدر السابق فصل " الأفغاني والقومية والعروبة .

(٣) المصدر السابق ص ٦٠ - ٦١ .

وحديثها على جهودها الكبيرة من أجلها - مع ما كشفت عن حقائق عنه^(١) - كيف يكون مع ذلك قوميا ، وكيف تهيم النزعة القومية على فكره ونضاله ؟ إن الميل والهوى للقومية العربية هو الذى دفع الباحث فى تقديرى إلى ذلك ، ومع الإقرار بوجود النعرة الجنسية والوطنية فى فكر الأفغانى ، إلا أنها لا تخرج ولا تحتوى الرابطة الدينية بل العكس من ذلك ، والأفغانى عندما ذكر خواص الأقاليم الخمس التى بها تتميز الشعوب بدأها بالدين ثم جعل اللسان والأخلاق والعوائد والإقليم تاليه^(٢) ، وهذا مخالف لقول الباحث عن الخصائص التى اعتمدها الأفغانى للجماعه الجنسية (١ - دائرة الأمة التى ينتسب إليها ، ٢ - دائرة الملة التى تعتنق ذات الدين الذى يؤمن به ، ٣ - دائرة النوع الانسانى)^(٣) .

وأن فهم الأفغانى للوطنية هو " الذى يجعل منها دائرة تسبق دائرة العقيدة الروحية التى تعقبها فى الاتساع الدائرة الانسانية الشاملة^(٤) " .

والذى لا بد من فهمه هنا حتى يتأكد لنا أن الرابطة الدينية هي الغالبة على فكر الأفغانى لا رابطة سواها حتى فى الآونة الأخيرة من عمره إن فى " الخاطرات " التى جُمع فيها خلاصة فكره وتوفى بعدها بقليل ، ما يؤكد أن وحدة المسلمين هي غايته وأعظم آماله التى كافح وكابد فى سبيلها ، ولأجلها هاجر وجاهد حتى تنهض الأمة الاسلامية من وهدتها^(٥) ، وهذه وحدة غير الوحدة القومية وخلاف الوحدة الشرقية .

(١) ظهر فى أحدث دراسة عن الافغانى مجموعة من الوثائق والمذكرات الخاصة التى عثر عليها أن الأفغانى فى الحقيقة (ايراني الاصل شيعي المذهب وليس سنيا حنفيا كما عرف عنه ومع ذلك فهى تؤكد انه من المصلحين العظام لانه كان يدعو الى توحيد الدول الإسلامية وجمع شمل المسلمين فى وحدة شاملة ترفع قدرهم وتعالى شأنهم . انظر: حقيقة جمال الدين الافغانى (الجزء الثانى) د . عبد النعم حسنين

(٢) انظر خاطرات جمال الدين الافغانى ص ٥٤ .

(٣) الاعمال الكاملة لجمال الدين الافغانى ص ٦٢

(٤) المصدر السابق ص ٦٣ .

(٥) خاطرات جمال الدين الافغانى ص ٤٨ .

ثم إنه عندما ذكر الشرق في مطلع خاطراته (١) ، وأنه الذى خصص دماغه لتشخيص داءه وتحرى دوائه ، وهو يذكر الشرق فى مواطن كثيرة إنمما يعنى الشرق الإسلامى وكل صقع ودوله من دول الإسلام فى الشرق كما هو واضح من قوله ، وكما هو فى البلاد التى ذكرها ، وهذا لا يعنى أن الأفغانى لم يلتفت إلى غير أهل الملة الإسلامية ، بل نظر اليهم نظرة لا تخرج عن روح الإسلام فى تحديد العلاقة بهم ، ولما كان الأفغانى من رجال الإصلاح فقد حدد الأساس الضرورى للإصلاح والنهوض والتمدن على قواعد الدين الإسلامى وما جاء به القرآن الكريم (٢) ، ولا شك أن هذا الأساس ليس ضروريا لو كان الإصلاح للأمم الشرق المسلمة والوثنية ، وهو كذلك لو أن الإصلاح لقومية معينة .

لقد جعل الأفغانى هذا الأساس كما رأينا قبل قليل القاعدة التى إنطلق منها فى الدعوة إلى الجامعة الإسلامية ، وإذا تذكرنا كثيرا من أقوال الأفغانى التى تدعو إلى الرابطة الدينية التى هى أحكم الروابط ، وأنه لا جنسية للمسلمين لا فى دينهم ، وأنهم لا يعتدون برابطة الشعوب وعصبيات الأجناس التى أغناهم الإسلام عنها (٣) ، ثم تأكيده على أن السبب الأعظم والفاعل الأكبر فى انحطاط المسلمين وسقوطهم وتقهرهم هو إهمال ما كان سببا فى النهوض والمجد وعزة الملك ، وهو ترك حكمة الدين والعمل بها ، وهى التى جمعت الأهواء المختلفة ، والكلمة المتفرقة وكانت للملك أقوى من عصبية الجنس وقوته (٤) ، وكيف تنبه أن الافرنج لما علموا قوة الرابطة الدينية سعوا إلى التنفير منها لتمزيق الأمة شيئا وأحزابا (٥) ، كيف يكون صاحب هذه الافكار مغلبا للخصائص القومية على وحدة الاعتقاد الدينى ، كل هذه الحقائق والمعالم فى تقديرى تجعلنى لا أطمئن إلى القول بتطور فكر الأفغانى حيال دعوته إلى الوحدة الإسلامية التى بذل كل الوسائل فى تحقيقها والتذكير بها ، بل بقيت غالبية على كل فكر قومى ووطنى ومهيمنة عليه .

وفى ضوء هذه النتيجة التى وصلنا إليها مع ما أقررنا به سابقا من

-
- (١) خاطرات جمال الدين الافغانى ص ٤٨ .
 (٢) المصدر السابق ص ٩٩ ، الاعمال الكاملة للأفغانى ص ٣٢١ ، ٣٢٨ .
 (٣) الاعمال الكاملة للأفغانى ص ٢٢٥ ، ٢٥٨ .
 (٤) المصدر السابق ص ٢١٨ ، ٢١٩ .
 (٥) المصدر السابق ص ٢٥٥ .

وجود النزعة القومية والوطنية في فكر الافغانى فيلزمنا أن نعطي تفسيراً وتوضيحاً لذلك . إن الأمر هنا لا يعدو التذكير بموقف الإسلام من العصبية وأهل الذمة وإذا كان الإسلام قد ذم العصبية ودعاتها فالمراد العصبية التي تقدم على الدين وتفضل عليه ، وهي التي بالطبع تجعل المرء يخرج على بعض أحكام شريعته ، وأما العصبية التي لا تخرج عن أحكامه وتدور في كل خير ومعروف يدعو إليه فلا يتنكر لها إن لم يحبذها . أما أهل الذمة الذين يتعايشون مع المسلمين تحت حكومة الإسلام فلا منافاة بين الجامعة الإسلامية واخائهم الوطنيين ، وهذه الجامعة ليست عداء دينياً بل تجعل لهم من الحقوق ما يعيشون به مع المسلمين في تآلف ورحمة وإحسان . إذاً في ضوء هذا التصور يمكن أن نفهم أقوال الأفغاني الداعية إلى الجامعة الإسلامية ، والتي لا تتنكر لقيام دويلات وحكومات، ولكل منها نزعة عصبية ووطنية ولكنها لا تقعد بها أو تقف عليها بل تتجاوزها إلى التآلف تحت مظلة العقيدة ودستور القرآن مع سائر الشعوب والحكومات الإسلامية في الأرض .

أما النزعة العربية في فكر الأفغاني فهي لا تعدو تعزيز هذه الوحدة التي سعى إلى تحقيقها ، وإذا كان من البديهي أن رابطة العقيدة إذا جمعت معها رابطة اللغة فإن ذلك يزيد قوة هذه الرابطة متانة وتماسكاً ، وقد علمنا مما سبق أن الجامعة الإسلامية إنما تقوم أساساً على الدين الإسلامي وفهمه، ولأن أصول هذا الدين من قرآن وسنة هي باللسان العربي فلا ريب أن لا يتم فهم أحكامه والعمل بأدابه ومعرفة أسرارهِ وكنوزه إلا بهذا اللسان الذي لا تُنكر مكانته في الإسلام . في ضوء هذا يتسنى لنا فهم تلك النزعة العربية عند الأفغاني ، وكيف كان يتمنى على الدولة العثمانية لو تعربت كما فكر في ذلك بعض خلفائها العظام (١) ، لو أخذ العثمانيون بذلك لأعادوا للدولة الإسلامية وحدتها العظمى ، ولجعلوا منها أعظم مملكة في الأرض وأعزها جانباً .

بعد هذا التوضيح فإنه يمكن القول: إن الباحث الذي ناقشنا آراءه قد جعل ثمار فكر الأفغاني كالنتيجة لنضوج فكره القومي الذي يزاوج بينه وبين الإسلام (٢) ، أما أنا فاني لا أرى آثار فكر الأفغاني وثمراته

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني ص ٢٣٣ ، ٢٣٤ .

(٢) المصدر السابق ص ٧١ .

الناضجة إلا نتيجة لمبادئ دين الاسلام وروحه والتي كان للأفغاني منها حظ كبير من الفهم والتصور ودقة الإدراك، وهذا لا يقلل من إعجابي بدقة وعمق تلك الدراسة التي خالفتها وموضوعيتها .

وهكذا كانت وحدة المسلمين وجمع شتاتهم من أعظم المهام التي تقف أمامها قدرات الدول وطاقات عظماء البشر، وإن سعي الأفغاني لإنمائها رابان تلك الأوقات العصيبة في واقع الأمة الإسلامية رغم أنه أمر في غاية البعد من المنال ، وفي أعنى درجات الصعوبة بين بقاع العالم الإسلامي بالمتجاورة فضلا عن أصقاعه المترامية لجهد عظيم لا يُنسى ، فقد نهّد الأفغاني نفسه في إباء ، وأقدم في جرأة نادرة ، بل عمل في دأب لا يعرف الكلل والهزيمة وكان يتوثب لإيقاد نار هذه الوحدة بعدما قدح شرارتها ، وسعي لإيجادها في أرجاء بلاد المسلمين المترامية يبحث عن من يجاهد معه لتحقيقها ويستحث الزمان والأحداث لسرعة قيامها ، كي تعود لتؤدي رسالة الخير التي تحملها هذه الأمة إلى الإنسانية جمعاء .

ولعلي بعد كل هذه الإشارات الدالة على حرص الأفغاني على إقامة الوحدة الإسلامية ، وما بذله من جهود عديدة في سبيلها ، ألا أكون بعيدا عن الصواب حين أعده من دعاة هذه الوحدة الملامعين .

(٢) الأمير شكيب أرسلان (١) :

تمهيد :

لو لم يكن لهذا البحث سوى بعض اللحظات الممتعة مع هؤلاء الجهابذه الفحول لكانت وحدها حسنة تبعث السرور وتقود إلى الاستئناس بالهمم العالية ، وتنبيء عن عزمات الرجال كيف تكون .

(١) ولد الأمير شكيب بن حمود بن حسن سنة ١٢٨٦ في بلدة الشويفات قرب بيروت من أسرة الأمراء الأرسلايين العريقة ، عُنِيَ والده بتربيته وتعليمه ، فحفظ القرآن وتعلم العربية وأخذ بالثقافة العصرية من المدرسة الامريكانيه إحدى مدارس الرسائل المنتشرة في بلاد الشام انذاك ، اتصل في بيروت مبكرا بالشيخ محمد عبده عندما كان منفيا بها عقب حوادث الثورة العرابيه (١٣٠٠ / ١٨٨٢ م) وكان ذلك باعثا لهمته وانطلاق عزمته في المجد والنضال ، كما رحل إلى مصر واتصل بزعمائها السياسيين وبخاصة تلاميذ الشيخ محمد عبده ، كما سافر إلى الاستانه وادرك جمال الدين الافغانى قبيل وفاته .

نالت أسرته ثقة العثمانيين فكان سنة اعلان الدستور (١٣٢٦ / ١٩٠٨ م) قائم مقام مقاطعة الشوف بلبنان ثم عين نائبا في مجلس المبعوثان العثماني بالاستانه وحين رأى تكالب الاستعمار على دولة الخلافة أخذ بعزيمة في مولاة الخلافة ومناصرة الحكومة العثمانيه إلى آخر الحرب العالمية الاولى .

ولما انتهت هذه الحرب بانفصال العرب عن العثمانيين اتجه الأمير الى أمته العربية يدعو لوحدها ونهضتها ، لكن الاستعمار لم يلبث أن أنشب أظافره فيها وعندها ترك الأمير موطنه ومضى في رحلات ، وضع عصا التسيار بعدها في جنيف وبرلين ، وبقي بها يدافع عن قضايا أمته إلى أن نال لبنان استقلاله (١٣٦٤ / ١٩٤٦) فعاد إليه ولم يلبث الا قليلا حتى توفي .

والامير شكيب مع ذلك عالم بحاثه مؤرخ جليل وخطيب وصحفي بارع فوق ذلك فهو أمير البيان في أدبه العربي الفصيح ، انظر تفاصيل ترجمته :

ذكرى الامير شكيب ارسلان محمد على الطاهر القاهرة ١٩٤٧ م ، مجلة الرسالة مجلد ١٥ ص ٤٦ ، ٢٠٧ رفايل بطي ، مجلة المجمع العلمي بدمشق مجلد ١٥ ص ٣٩٦ بقلم محمد بهجت البيطار .

والأمير شكيب أرسلان من أفذاذ مدرسة الرجال الذين انجبتهم فى العصر الحديث، والذي يجمعه بهم الطموح الكبير والجد العظيم للنهوض بالأمة، والسعي فى إصلاحها وإعادة قوتها والعمل على وحدتها وتضامنها وكل ما فيه مجدها وعزها .

ومع ما تزخر به سيرة هذا الأمير من حياة حافلة بجلائل الأعمال، فله إسهامات عديدة فى ضروب من العلوم والمعارف، وتسّم عال فى دروب السياسة ومعارجها، إذ نجد فيه الأمير والوزير والوالى والسفير، ونجده العالم النحرير والمقدّق الخبير، حيث يؤلف فى التاريخ القديم والمُحدّث الذى يعيشه، وتجد النزعة الاجتماعية فيما يكتب، والبحث والتحليل فى سير الرجال الذين تعرض لهم، فضلا عن أنه المترجم إلى العربية من لغة أخرى، فى ترجمة سليمة شيقة .

أمّا الأدب والبيان فقد أحرز فيه قصب السبق، وسهل له حتى لتحسه فى تأليفه الرصينة التى يفوح عير الأدب من جنبااتها، ولا أدل على ذلك من شهرته الذائعة حيث عرف (بأمير البيان)، فهو الشاعر المُحلّق والناثر المبدع .

مع كل هذه المنايع الثرة المتعددة عند شكيب أرسلان، إلى غيرها من نواحي فكره وجهوده المتعددة، يضطر المقام إلى التذكير - كما سبق مع غيره - أن ما يعنينا منه فقط هو جهود شكيب المبذولة فى سبيل الوحدة الإسلامية - موضوع هذه الدراسة - وتذكير من يريد ماعداها من جوانب شخصية الأخرى، بالاتجاه إلى الدراسات المتعددة التى دارت حول هذه الشخصية اللامعة (١).

أمّا جهود الأمير شكيب فى سبيل الوحدة فهى واضحة وجلية وبيضاء ناصعة تجعله جديرا أن يُضم بحق إلى دعاة الوحدة والتضامن وكتابها الأعلام، وذلك رغم ما يجده المرء من تغليب روح النزعة العربية القومية حتى كأنها المهيمنة على فكره عند بعض دارسيه الذين لم ينكروا دعوته إلى

(١) انظر: قائمة من هذه الدراسات التى دارت حول شكيب أرسلان فى كتاب: شكيب أرسلان حياته وآثاره - سامى الدهان، ٣٧١ .

التضامن وإلى الخلافة العثمانية (١)

وما بذله هذا الأمير في سبيل الوحدة الإسلامية يظهر على امتداد حياته ، ويتجلى واضحاً في كفاحه ونضاله ، وبجانب ذلك يلمسه المرء في كثير من تأليفه التي لا تخفى فيها ، ولقد ارتأيت أن أناقش ذلك من خلال ثلاث مسائل أعدها كافية ولاسهام الأمير شكيب في وحدة الأمة وتضامنها ، وتلك المسائل هي ولاءه للخلافة العثمانية ، ثم اتجاهه إلى الوحدة العربية ، وإلى جانب جهود أخرى في خدمة الإسلام وأُمته .

أ (الولاء للخلافة العثمانية :

يأتى اتصال الأمير شكيب بالدولة العثمانية من جهة أسرته التي كانت تحظى بمكانة مرموقة لدى سلاطين العثمانيين ، مما جعلها تكل إلى هذه الأسرة بعض أعمالها في بعض أقاليم بلاد الشام ، ومضى هو في خدمة بعض هذه الوظائف ، لكن هذا لم يكن هو كل ما حدا به لنصرة الخلافة والذب عن الدولة العثمانية ، إذ الواقع أنّ شكيباً قد حصل على قسط عال من الثقافة والتعليم مع الإمام بما يدور في عصره من أفكار ، وكان له اتصال بمحمد عبده وجمال الدين الأفغانى من خلال رحلاته في مطلع حياته إلى مصر والأستانة ، فأفاد سن أفكارهما ومنها الاهتمام بوحدة الأمة والنهوض بها ومآزره الدولة العثمانية ضد الاستعمار الطامع في افتراسها .

لقد كان شكيب أرسلان من أشدّ المخلصين للدولة العثمانية محبا لها ومبغضا لأعدائها ، فهي دولة الإسلام ، لذلك تعلق بالوطن الإسلامى ودولته العلية الكبرى ، وجعل سلطانها العثماني خليفة المسلمين وإمامهم ، ورنا ببصره إلى الاستانة عاصمة الخلافة ودار السلطنة ، ولاغرو حينئذ أن يدافع وينافح عن بني عثمان ودولتهم إذ هم مركز وحدة الأمة وقوتها آنذاك وينشر أمجادهم ويشيد بقادتهم وجيوشهم ، وهو في ذلك ككثير من معاصريه الذين لا يجدون أدنى غضاظة في ذلك ، بل يعدونه قرينة وعملا صالحا مرضيا .

(١) هذا مانجده ونشمه مباشرة في ثنايا كتاب : شكيب أرسلان حياته وآثاره د . سامى الدهان ، وكذلك بحث الاستاذ أحمد الشرباصى الذى يدل عنوانه على ذلك (شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام) .

هذا الولاء العثماني في أدب شكيب أرسلان على شاكلة قوله فـى
السلطان (١) :

فحبك ذا شرعى وعرفى ومذهبى . . ومدحك ذا فرضى ووترى وواجبى

تجده أوضح ما يكون فى ديوانه الذى جعل فيه قسما خصه (بالمدائح
السلطانية وشئون السياسة العثمانية) بل إنه يقول فى صدر هذا القسم من
هذا الشعر السياسى (٢) : " لي عدة قصائد سلطانية كنت أمدح بها السلطان
عبد الحميد ، ولم أكن أقدمها لحضرته السلطانية ، وإنما كنت أنشرها فى الجرائد
تعظيما لمقام الخلافة وتأييدا لوحدة الأمة " .

ومع أن الأمير شكيب لم يكن يمدح الخليفة للنوال والتكسب شأن كثير
من الشعراء (٣) ، إلا أن إيمانه بمقام الخلافة ومكانتها فى حفظ الأمة ورعاية
الملة هي دافعة إلى ذلك ، وهو يرى أنه بذلك إنما يوافق المألوف مما اتفقت
عليه الأمم ، كما قال (٤) : " جرت عادة الملوك والأمراء سواء فى الشرق أو فى
الغرب أن ينتدبوا لأنفسهم رهطا من الفصحاء من شاعر مغلق وكاتب مبرز وخطيب
مفوه ، ونديم مطرب ، وأمثال هذا الضرب من ذوي المواهب العقلية الوافرة ،
والحظوظ الأدبية الراجحة . يشيدون بذكرهم فى المحافل بالقصائد
والشوارد ، أو بالخطب الأوابد أو بالمناشير الصادرة . . . فالشاعر الذى
يتصل بملك من الملوك أو أمير من الأمراء فى شرق أو غرب لم يكن يجد من الغضاضة
فى شيء التغني فى مدح سيده حتى لو لم يكن أهلا لكل هذا الاطراء لأن
الكلام إنما هو للمقام لا للمقام ، وأنَّ المُقام إنما هو رمز الأمة وعنوان الملة " .

ويمضى الأمير شكيب فى نولاته للخلافة رغم ظهور بعض النزعات التي
كانت تريد الاستقلال عن الخلافة ولم تكن خافية عليه حتى من أبناء أمته العربية .
وعندما أقدمت إيطاليا على غزو طرابلس الغرب من الساحل الليبى

(١) ديوان الأمير شكيب نقلا عن : شكيب أرسلان حياته وآثاره . ١٥٠ .

(٢) السابق نفسه ١٤٩ - ١٥٠ .

(٣) ، ، ١٥٠ - ١٥١ .

(٤) شوقى أو صداقه أربعين سنة - شكيب أرسلان ٢٤ .

تجد نخوة الأمير وعثمانيته الأصيلة لا تجعله يكتفى بعداوة ايطاليا وبيان جرائمها الشنعاء ، لكنه يذهب بنفسه مع بعض القواد العثمانيين ليصطلي بهذه الحرب الضروس وينافح عن وطن أمته باللسان كما حماه بروائع البيان .

وفي هذه الحرب التي فصل كثيرا من أهوالها وعرى همجية الطليان وبعدهم عن الروح الانسانية فيها (١) ، نجده يكتب في إحدى الرسائل الكثيرة التي بعث بها إلى رجال الأمة في مصر يستجيش بها المصريين لمعونته إخوانهم الطرابلسيين ، وقد بعثها إلى صديقه رشيد رضا في أثناء حوادث تلك الحرب ، وبعد أن يذكر في بدايتها فضل جهاد الشيخ رشيد في تهذيب النفوس وإقامة الشريعة وبيان حقيقة الدين ، يشير إلى هول ما هم فيه وما يجب من السرعة في تدارك الأمر ، ويقول (٢) : " نحن الآن في خطب مُستعجل الرأب وفتق مستلزم سرعة السد ، ولا يفيدنا فيه تعنيف مُقرط ، ولا لوم مقصر ، ولا جزاء خائن أو مستهتر ، ولا يغنينا مع إلحاح وافد الشر ، وإطلال نازل البأس ، إكبار الإهمال والوقية بمدبري هذه الأعمال ، بل علينا قبل ذلك واجب أعجل ، وهو تلافي ما فرط فيه غيرنا ، وإبلاء العذر فيما يطلبه الرأي العام منا . . . " .

وبعد أن يشير إلى الطريق التي ينبغي أن تسلكها قوافل المدد ، وما يجب على المصريين من إرسال جنود منظمة أو متطوعة أو ذخيرة ، وما يجب عليهم أن يعملوه بكل استطاعتهم ، تراه يستنهض الهمم لإغاثة الطرابلسيين في هذا الهول " أفلا ينهض الإسلام في كل هذه الممالك إلى اغاثتهم بما يمسك أروماهم على الأقل ، حتى تطول الحرب ، ويستمر الدفاع ، فإن طول الحرب يستدعي تدخل الدول ، ويفت في عضد تجارة ايطالية ، ويشير عليها سائر سكانها ، فتنتهي النازلة بصورة ليست فيها هذه الغضاضة وهذا الذل ولا يُطأطأ الرأس أمام الطليان (٣) . .

لا جرم أن حسن الدفاع عنها (طرابلس) ليقف بالطامحين عن سائر

(١) أنظر : فصل : حوادث العالم الاسلامي (حرب طرابلس) من هذا البحث .

(٢) شكيب ارسلان داعية العروبة والاسلام ٣٠ ، ٣١ .

(٣) السابق نفسه .

حوزتنا ، ويحفظ علينا هذا النزر الباقي من كرامتنا ، وان التخاذل عن هذه النجدة يكون الإجهاز على مهجتنا العمومية ، إذ تعلم أوروبا أنه ليس من حياة ولا من أحياء ، وأن هناك إلا أعداد بدون اعتداد .

و الضغوط التي اضطرت السلطان عبد الحميد إلى تقييد كثير من الحريات وبث الجواسيس مع ما صاحب ذلك من خلل في النظام والإدارة العثمانية ، إضافة إلى تأثر بعض الشعوب العثمانية بالنزعات القومية التي قامت في بلاد الغرب ، كل ذلك كان مبعث التفكير والعمل لدى بعض الأفراد والجماعات العربية في المطالبة بحقوقها لدى السلطنة العثمانية ، وعند ما جاء الاتحاديون إلى السلطة كانت النزعة القومية عندهم غير خافية على كثير من مفكري الأمة العربية ، وكان هذا مما حفزهم إلى التفكير في الانفصال عن الدولة العثمانية ، وكان بعضهم لا يريد الانفصال الجدي ولكنه يدعو إلى سلطة غير مركزية تأخذ البلاد العربية فيها حقها من القيام بأمرها وتعترف بالسيادة العثمانية عليها ، وأظهر ما كان ذلك ، في المؤتمر العربي الذي عقده بعض دعاة الحرية في باريس (١٣٣٥ / ١٩١٣ م) .

كانت هذه التيارات والحركات معلومة لدى الأمير شكيب ارسلان ، وهو لم يتفق مع أصحابها ، ومضى في ولائه العثماني جنديا مناضلا في حرب البلقان (١٩١٢ ، ١٩١٣ م) كما كان قبلها في حرب طرابلس الليبية (١) ، ومع ما كان يبثه الاتحاديون من تظاهر بأنهم سيعطون العرب حقوقهم وما أشاعوه من أمان معسولة لم يطمئن أكثر دعاة التحرر في البلاد العربية لوعودهم ، وقام الظن السيئ في النفوس ، كان شكيب أرسلان يسعى جاهدا لإزالة هذا الخلاف ليلتحم العرب بالعثمانيين .

ولما شبت نار الحرب العامة (١٣٣٦ / ١٩١٤ م) وانضمت الدولة العثمانية إلى ألمانيا ضد الحلفاء ، ورأى بعض متحرري العرب الاتفاق مع الحلفاء والحصول على وعود باستقلالهم ، نجد شكيبا لم ير أكثر ما رآه هؤلاء المتحررون وعلى رأسهم الشريف الحسين بن علي ملك الحجاز ، وكان يرى الواجب أولا في نصرته الدولة العثمانية ثم المطالبة بعد ذلك بالاستقلال ، وجاهر بصراحة أنه لن يقف في صف الدول الاستعمارية ، ضد العثمانيين ،

ولمّا أعلن الشريف حسين ثورته العربية على الأتراك (١٣٣٨ / ١٩١٦ م) عارض شكيب سياسة الشريف واستنكر طعنه للدولة العثمانية وسط محنتها ، ولما شاع فى الشام أن جيش الحسين سيجي^١ إلى الشام لقتال عسكر العثمانيين كتب شكيب ينصح قائد الجيش - ابن الشريف حسين - بالرجوع عن ذلك ويقول (١) : " ماذا تصنع أيها الأمير ؟ تقاتلون العرب بالعرب ، وتسفكون دماء العرب بأيدي العرب ، حتى تكون نتيجة ذلك استيلاء الأجنب على بلاد العرب وتقسيمها بين دول الحلفاء ، واعطاء فلسطين إلى اليهود . . . " .

وفى غضون هذه الحرب أحس الأتراك بانفصال العرب عنهم فشددوا الوثاق على الولايات العربية ، وحاكم الوالى العثماني جمال باشا السفاح دعاة التحرر العرب وأعدمهم فكان لذلك أسوأ الأثر فى نفوس العرب من الترك والميل إلى الحلفاء ، ومع ذلك فقد كان الأمير شكيب يسعى جاهدا لردم هذه الهوة الكبرى ، ويحب البقاء للخلافة العثمانية ويريد للعرب الكرامة والحرية حتى ناله من جراء ذلك أذى كثيرا (٢) ، إذ اتهمه العرب بحب الاستعمار ومواطأة الأتراك ضدّهم ، حيث أنه كان يرى أن فى موالة الحلفاء على العثمانيين خطة استعمارية للقضاء على الدولة العثمانية القوية ثم الاستيلاء بعد ذلك على العرب .

زكت قريحة شكيب وعظمت فراسته وفطنته ، فما انتهت الحرب وانتصر الحلفاء ، وظن العرب الذين والوهم أنه تحقق استقلالهم ، وما إن خرجت الراية العثمانية من ربوع الأقطار العربية إلا وقد حل محلها راية الاستعمار الانجليزي والفرنسي والاطالي ، وضاعت مع أولئك الحلفاء حقوق العرب والأمانى العذاب التى كانوا يحلمون بها ، ووقع ما كان يخشاه هذا الأمير السياسى الأريب .

بانتهاء هذه الحرب تمزقت الدولة العثمانية وأحكم الحلفاء القبضة عليها ووقعت المعاهدات الجائرة ضدها ، ولم يبق لها نفوذ على بلاد العرب ، وهنا تجد الامير شكيب يكاد ينسى ولاءه العثماني ويتجه إلى العمل لوحدة بنى قومه العرب ، بعد ما رأى حكام تركيا يديرون ظهورهم للإسلام وللعرب ،

(١) السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة ٣٨١ ، ٣٨٢ .

(٢) انظر : شكيب ارسلان ، حياته وآثاره ٦٩ - ٧٨ .

ولاشك أن الأمير في ذلك موافق لمنطق الأحداث والواقع بعد أصبح جمع العرب والأتراك بعدها شيئاً في حكم المستحيل .

ولا يعني هذا انتهاء ولاء الأمير للخلافة التي تجمع المسلمين ، كلا ، فهو لا يفتأ يتحدث عنها ويتعرض لها بعد ذلك ، فهو يكتب فصلاً مطولاً عنها^(١) يتعرض فيه لأهميتها وحكمها وشروطها وقضية القرشية فيها . أما حين تسلم مصطفى كمال الأمر في تركيا وألغى الخلافة وجعل من تركيا دولة غير دينية ، آنئذ كان الأمير واضح الكره والعداء لهذا الحاكم العلماني الذي أتى على الإسلام من قواعده ، وجعل يُعرض به وبسياسته الخرقاء^(٢) ، فتارة يعرض به حين كان يستعين بالقوة الدينية في تحريره لتركيا ، فلما قرّر قراره قلب ظهر المجن ونسي ما كان يقوله ، ويصف هذا الحاكم وأعوانه " بأنهم أولئك المسلمون الجغرافيون الذين تواطأوا مع الأجانب في (لوزان) على إلغاء الشريعة الإسلامية من بلادهم ، أملاً في الحظوة عند الأوروبيين ، وطمعاً في الاندماج فيهم ، ثم لبسوا بعد ذلك القبعة تأكيداً لاندماجهم في الأمم الافرنجية" .

والأمير يسخر من انصراف هؤلاء الأتراك عن الدين بحجة الرقنسي والمدنية ، كما لا ينفي يفضح تقليد هم الأعمى للإفنج في الزواج واللباس وسواها . إلا أنه مع كره الأمير الشديد لهذه الشرذمة فإنه لا يرضى أن تُقال كلمة سوء بحق الأمة التركية ، والتي لا يجوز العدل مؤاخذتها بأعمال حكامها الطائشين .

وبعد إلغاء الخلافة بأكثر من عشر سنوات نلاحظ الأمير يدافع عن الخليفة العثماني (وحيد الدين) الذي حكم بين (١٣٣٨ - ١٣٤٠) ويسوغ صلته بالانجليز وعدم انضمامه لمصطفى كمال وحركته^(٣) ، ويذكر الخلافة وعاصمتها المنقطعة النظير ، ويتخوف من خروجها من يد الإسلام ، ولا ينسى أن يُذكر بتمسك الشعب التركي حتى ذلك الحين بآل عثمان رغم مخادعة الحركة الجديدة بقيادة مصطفى كمال لهم ، وهكذا كان شكيب ارسلان الرجل

(١) انظر : تعليقات الأمير شكيب على تاريخ ابن خلدون ٢٣ / ١

(٢) انظر : السيد رشيد رضا أو إخوان أربعين سنة ٤٣٤ - ٤٣٥ - ٥٢٣ .

(٣) انظر : شوقي أو صداقة أربعين سنة ١٢١ - ١٢٤ .

العثماني المخلص، والرجل المؤمن بقوة الخلافة التي لا تُحدّ في حفظ الأمة الإسلامية وصيانة كيانه من الذل والشتات .

ب) الاتجاه إلى الوحدة العربية :

لئن كان الأمير شكيب عثمانيا في شبابه ومطلع سياسته ، فإن ذلك تعبير عن ولائه الإسلامي ، فدولة الخلافة عنده هي الذائدة عن الاسلام والمسلمين وفي مقدمتهم العرب ، بيد أنه مع ذلك لم يكن ليغفل عن عروبه وأصالة محتدده ، وسعيه في رآب الصدع بين العرب والترك إبان الحرب الأولى كان في خدمة الخلافة وخدمة العرب على حد سواء ، ولعل في أبياته التي خاطب بها الأتراك آنئذ ما يشهد لذلك حيث يقول (١) :

مهما يكن من هنات بيننا فلنا . . . معكم على الدهر عهدٌ غير منقضبٍ
كفى الشهادة فيما بيننا نسبا . . . إن لم تكن جمعتنا وحدة النسبِ
مجدى بعثمان حامي ملتي وأنا . . . لم أنس قحطان أصلي في الوري وأبي

وإذا كان شكيب يذيب عروبه في وحدة الأمة تحت راية الخلافة فإن تلمس اهتمامه بالعرب قد يجده من يبحث عنه في عهد ولائه العثماني السابق (٣) ونظرا لضيق المجال فحسبنا متابعة مسيرته في مجال الوحدة العربية بعد ما يئس من تركيا التي تنكرت للإسلام في زعامة حكامها العلمانيين .

وقف الأمير ضد ثورة الشريف (حسين بن علي) على العثمانيين - كما ذكرنا - في أثناء الحرب الأولى ، لكن ما إن انتهت الحرب وتمزق شمل الدولة العثمانية وقامت للعرب دولة في الشام تحت قيادة فيصل بن الشريف حسين إلا والأمير يأمل لهذه الحكومة مستقبلا مشرقا ، ويتجه إلى تأييدها كما قال (٤) :

-
- (١) ديوان الأمير شكيب نقلا عن شكيب ارسلان : داعية العروبة والاسلام ١٠٥
(٢) أي شهادة التوحيد (لا إله إلا الله محمد رسول الله) .
(٣) يمكن تتبع ذلك في مؤلفاته الأولى ومنها (باكورة نظم الامير شكيب ارسلان ط ١٨٨٧م - بيروت ، المختار من رسائل أبي إسحاق الصابي - تحقيق الأمير شكيب ج ١ ط ١٨٩٨م بعيدا - لبنان ، أخبرني سراج ، ومعه خلاصة تاريخ الأندلس ، وانقضاء العصر في دولة بني نصر ط ١٨٩٧م مطبعة الاهرام - الاسكندرية ، ط ٢ - ١٩٢٥ مطبعة المنار - القاهرة .
(٤) الأمير شكيب ارسلان . حياته وآثاره ٨٢ .

"إننا منذ انتهاء الحرب العامة توجهت همتنا إلى إيجاد الوحدة العربية تدريجياً . . " وأصبح ينادى بأنه جندي من جنود الأمة العربية يريد لها الاتحاد والتحرر والسير في موكب النهضة والعلم ، وكان هذا العمل من الأمير شكيب مُزيلا لكثير من الظنون والريب التي حاقت به - حتى من بعض أصدقائه - من وراء إخلاصه للعثمانيين بعد قيام ثورة الشريف ، ويقول الأمير بصدد هذه الحملات موضحاً موقفه في العهد بين العثماني والعربي (١) : " ولم يكن بينهم (أي أنصار الشريف حسين) من هو عفاً اللسان بحقي غير الملك فيصل وكنت أحبه منذ كان زميلاً لي في مجلس الأمة بالأستانة ، وانتهت الحرب العامة وتقاسمت دول الحلفاء البلاد العربية ، وظهر ما ظهر من نكث الانجليز بعهودهم ، وبقي الملك حسين - عفا الله عنه - مستمراً على الوقيعة بي بالرغم من أنني عند تأسيس الحكومة المستقلة في دمشق أعلنت وجوب تأييد فيصل والانضواء تحت لوائه ، وكتبت إلى الصحف وإلى أصحابي بأنني ضد الملك حسين وأولاده في خروجهم على الدولة لأسباب يعرفها الخاص والعام ، ولكن متى صارت المسألة بينهم وبين الأجانب فلا سبيل في التردد في الانتصار لهم لأن القضية تكون حينئذ بين عربي وأجنبي . . "

اتجه الأمير اذن إلى أمته العربية بعد الحرب الأولى ولكن الاستعمار الذي تقسمها جعله يُصرّ على عدم الإقامة تحت حكمهم فيها ، فاختار أوروبا حيث أقام في برلين ثم جنيف .

بيد أن هذا النزول الجديد لم يكن للاستجمام وطلب الراحة ، ولكنه للجهاد والنضال الذي قلّ أن تراه في عزائم الرجال ، انصرف الأمير إلى نصرة العرب والدعاية لهم والدفاع عن قضاياهم وكشف الظلم الذي أنزله الاستعمار بهم فهو في سنة (١٣٤٣ / ١٩٢١ م) يحاول التفاهم مع زعماء إيطاليا لمعاونة العرب ضد المحتلين لأوطانهم ، وعندما تألف الوفد السوري الفلسطيني للدفاع عن قضيتهم أمام جمعية الأمم بجنيف (١٣٤٠ / ١٩٢٢) كان الأمير أبا—رز أعضائه وأنشطهم ، ويترأس مؤتمر العرب المهاجرين في أمريكا الشمالية (١٣٤٩ / ١٩٢٧ م) حين دعوته لذلك ، ويحج إلى مكة (١٣٥١ / ١٩٢٩ م) فتكون فرصة للقاء بعض زعماء العرب وسياسيهم في هذا الجمع وبخاصة الملك

(١) السيد رشيد رضا أولياء أربعين سنة ٣٦١ ، وانظر ص ١٦٠ ، ١٦١ .

السعودى - عبدالعزيز آل سعود - الذى أقام دولة لاسلطة للمستعمرين عليها ، ويطلبه المؤتمر الاسلامي بالقدس (١٣٥٦ / ١٩٣٤ م) للاشتراك في وفد الصلح الذى أرسله لحل النزاع الذى احتدم بين الملك عبد العزيز والإمام يحيى ملك اليمن . وبمشاركته نجح الوفد وتم الصلح وحُسم الخلاف (١)

وهو إلى جانب كل هذه الجهود العظيمة يُحرّر صحيفة بالفرنسية تُدافع عن حقوق العرب وفق فكر الأمير وسياسته ، ولا يني الوقوف عن الرحلات العديدة والمشاركة فى اللقاءات والمؤتمرات الرسمية والفردية ، ذلك فضلا عن التأليف والكتابة التى كان بحق - مع زحمة هذه الأعمال والأعباء - آية فى غزارة مادتها ودقتها العلمية (٢) .

هكذا مضى الأمير مناظلا عن أمته إلى نهاية عمره ، وطار صيته فى الآفاق ، وعرفه سياسيو الأمة العربية ومدّوا أيديهم إليه ، وألوه ثقتههم وتقديرهم العظيمين ، وكان لدعوته إلى الوحدة أثر فى تحقيق الجامعة العربية . ولا مندوحة هنا من إيراد بعض أقواله وهو يدعو لوحدة العرب ، فأتمته العربية قد فرقها الاستعمار ، وأضاعها طمع الأمراء فى الجاه والسلطان ، لذلك يجب ان تقترب ساعة الاتحاد " فالقضية ليست قضية تاج ولا صولجان ، وإنما هى قضية الأمة العربية التى ينبغى أن يكون أمرها فوق الإمارات والولايات ، وأنه خير للمرء أن يكون راعي ضأن فى عزّ قومه من أن يكون السلطان الأعظم على قوم أذلاء وهل من سلطان - عظم أو صغر - لمن سيطر الأجنبي عليه وقاده كما يُقاد البعير (٣) . . . " .

وتعظم نزعة العروبة فى نفس شكيب حتى نجده يبحث فى أصل العرب وسبب تسميتهم بذلك (٤) ، فضلا عن مؤلفاته التى توحى بعظمة العرب ومجدهم

(١) انظر فى تفاصيل هذه الجهود : الأمير شكيب ارسلان حياته واثاره ٨٣-٩٨

(٢) يقول شكيب عن نفسه : انه لا يضيع دقيقة واحدة من وقته ، وأنه يتلقى أكثر من ألفى مكتوب فى دور السنة ، ويجيب عليها كلها ، ويكتب زيادة عليها مائتين إلى مائتين وخمسين مقالة فى دور السنة ، وينشر من التأليف بضعة آلاف من الصفحات المطبوعة تأليفا . انظر : السيد رشيد رضا أو اخاء اربعين سنة ١٦٤ .

(٣) شكيب ارسلان داعية العروبة والاسلام ٤٣ .

(٤) انظر : تعليقات الأمير شكيب ارسلان على تاريخ ابن خلدون ١ / ٨٦ .

التالد كما فى (تاريخ غزوات العرب فى فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزر البحر المتوسط) و(الحلل السندسية فى الاخبار والاثار الاندلسيه) .

إن سبب تغلب المستعمرين هو تفكك العرب وتمزقهم كما يرى الأمير شكيب " وأما سبب استخفاف الانجليز بالعرب فيرجع إلى أمور كثيرة يَطوّل شرحها . فهى تجد أمة كثيرة العدد شديدة البأس متوقدة الذكاء ، الا أنها مع كثرة عديدها مفككة الأجزاء مقطعة الأوصال ، حتى أنه لا علم لبعضها ببعض وهى تجد أمة شديدة البأس لكن بأسها واقع فيما بينها ، وشاغل لها عن الخارج بالكلية (١) . . . " .

ويلوم العرب عن تقاعسهم عن وخذتهم بأسلوب ساخر فيقول (٢) : " لو ندبنا المسلمين إلى البذل فى سبيل أقدس قضية وطنية أو قومية لا متنعموا أو تثاقلوا ، ولكنهم إذا قيل لهم إن هنا مزارع الولي أو قبر أحد الصالحين لتسابقوا إلى التبرع لأجل بناءه ، فحبذا لو جعلنا لمشروع الوحدة العربية قبة أطلقنا عليها اسم أحد المشايخ فكانت تجمع إعانات كثيرة . . . " .

وهو لا يني يكرّر الدعوة لهذه الوحدة التى كان يظنها بعض الناس أوهاما أو خيالا ، ويتلمس لها الأمير كل طريق وأسلوب لوجودها ، ويصور جهده وتعلقه بها كما قال (٣) : " بكينا حتى عمينا على أن نرى تحقيق مشروع الحلف العربى ، وأجمعنا كلنا على أنه لا حياة للعرب فى هذا العصر وما يليه إلا به ، لأنه الوسيلة الوحيدة لصد الاستعمار الذى أنشأ براثته بقسم من بلداننا ، وهو يتهدد القسم الثانى منها ، فإذا نشبت براثته بجزيرة العرب ، كما أنشأها بسورية والعراق وفلسطين والكويت والبحرين و حضر موت وعدن الخ . . لم يبق عربى على وجه البسيطة حرا " .

وبعد أن يرد على الشكوك التى تُثار حول هذا الحلف يقول : " الوحدة العربية يجب تأسيسها منذ الآن ، وإلا ندم جميع العرب ، ولات ساعة مندم " .

(١) شكيب ارسلان داعية العروبة والاسلام ١١٣ .

(٢) السابق نفسه ١١٤ .

(٣) السابق نفسه ١١٩ ، والمقال كتبه الأمير فى (١٣٥٣ / مارس ١٩٣١ م)

وعندما حاضرن الوحدة العربية بدمشق (١٣٥٩ / ١٩٣٧ م) (١) ورأى هذه الوحدة ضرورة، وأن جشع الأمم القوية لن يترك الأمم الضعيفة في اطمئنان ولا أمل في ثبات أمام هذه الأمم إلا بالاتحاد ، يرى أن يكون هذا الاتحاد عسكريا وسياسيا واقتصاديا ، ولا يمكن أن تقع هذه الوحدة دفعة واحدة ، بل هي تسير إلى التمام بالتدرج كسفن الحياة ، ثم ينهى محاضراته بقوله : " أختتم كلامي راجيا أن هذا المشروع المقدس الذي نحن في صددده يتم حسب برنامجنا المرسوم من قبل ، وتقر به عيوننا ونحن في هذه الحياة ، وإذا لم أعش حتى أراه حقيقة مجسمة ، فيوشك أن أبشر به وأنا تحت التراب ، فليست العبرة في حياة الأفراد إذا كانوا ، وإنما العبرة هي في حياة الأمم ، فلتكن اذن كلمتنا دائما لتحيا أمتنا العربية " .

بهذه الاشارات التي تدل على اهتمام الأمير شكيب بوحدة العرب وكثير مما لا يتسع المقام له ، مضى الأمير بجد وبدأب في هذا السبيل حتى ذرّف على السبعين ودنا أجله .

بيد أن هنا أمر لا مندوحة من التعرض له ولو بإيجاز شديد ، ذلك هو مراد شكيب بهذه الوحدة وتحديد هدفها عنده ، وما موقفها من المسلمين من غير العرب ، وما علاقتها بغير المسلمين من العرب ؟

وقبل الاجابة لو نظرنا في بعض أقواله التي لها دلالة هنا حتى نخلص الى المراد منها (٢) ، فهو يوء من بالارتباط الوثيق بين العروبة والاسلام ، وفي إحدى رسائله إلى رشيد رضا عن مآسي الاستعمار في افريقيا يقول : " فليس الاسلام مهددا بل العربية ، ولعمري هل يعيش هذا بدون هذه ؟ " .

ويخاطب الذين يتفكرون للقومية العربية من أبناء شمال أفريقيا ويسمون أنفسهم (المسلمين الإفرنسيين) ويقول : " فعساهم . . ينيبون إلى الصواب ويعلنون أن البراءة من العربية لا تلتئم مع الاسلام الذي يظهر الانتساب إليه " .

ومع ادراكه لفضل الاسلام على العرب في توحيدهم وعزتهم التي لم

(١) انظر : شكيب إرسلان داعية العروبة والاسلام ١١٥-١١٧ .

(٢) أخذت هذه الأقوال من المرجع السابق ١٤٢-١٥٥ .

يبلغوها إلا به ، فإنه لا يرى تعارضا بين الوحدة العربية والأخوة الإسلامية ، بل يقول : " أمّا اتحاد العرب والجامعة العربية فليس فى ذلك إلا مايزيد الشرقيين عموما و المسلمين خصوصا قوة وُمتّة ، . . ولن ينهض الشرق ، لاسيما الشرق الأدنى - بدون النهضة والمدنية العربية - بواسطة الدين الاسلامى العربى - واشجة العروق فى التصف من آسيا وفى أكثر افريقيا وفى جزء من أوروبا ، ولذا نهض العرب نهض الأرخييل الاندونيسى بطبيعة الحال ، فهما من قبيل اللازم والملزوم . . . " .

أمّا مكانة العرب فى الشعوب الاسلامية ورابطتها فانها " ترى فى الأمة العربية المُعلّمة المُهذّبة التى هى لهم بمقام الأستاذ ، فإذا كان الأستاذ راقيا كاملا سار التلميذ على أثره ، واقتبس من أشعة علمه ، واقتدى به ، فى كماله ، وإذا كان مُقصرًا متأخرا متقهقرا كان نصيب تلاميذه التأخروالانحطاط . "

وإذا كان هناك عدد من النصارى وغيرهم ممن يعيشون فى الوطن العربى الذى يضمهم هم والمسلمين فإن الأمير شكيب لا يرى فى جامعتهم العربية ما يبعث بعضهم على النفور من بعض ، وما حدث من تعاون بين هذه الطوائف وما كان من إخاء وتناصر فى سوريا أيام الاستعمار الفرنسى فإنه عنده خير شاهد على ذلك ، فالأخوة بين المتحدّين فى العقيدة أمر طبيعى ، لكن هذا لا يؤخذ منه " أن الأخوة بين المسلمين حاضرة دون الإخاء مع غير المسلمين ، كما يتوهم البعض ، أو كما يفترى آخرون ، كلا ، بل يرتبط المسلمون مع غير المسلمين برابطة الانسانية ، فالنبي صلى الله عليه وسلم قال : " الناس عيال الله وأحب الناس الى الله أنفعهم لعياله " ولم يقل : المسلمون عيال الله . "

والجامعة الاسلامية " ليست بخطر على غير المسلمين من العرب ، بل هى عضد للشعب العربى بأسره ، فلماذا يعطف مثلا مسلموا الهند والجاوة والفرس والترك والبشناق والارناؤوط على فلسطين ؟ الجواب : لأنها مسلمة لا لأنها عربية " .

وأخيراً علاقة الدين بالقومية عند شكيب ؟ إن الدين فى رأيه إنّما جاء لخدمة الانسانية ، وهو ليس ضارا بالرقى المادى بل ضروريا ونافعاً ، وأى اجتماع محتاج إليه ليوافق به بين المادة والمعنى ، ثم يقول مطالباً

بالتربية الدينية أثناء النهضة القومية" يقول بعض الناس مالنا والرجوع الى القرآن فى ابتعاث همم المسلمين إلى التعليم ، فإن النهضة لا ينبغي أن تكون دينية بل وطنية قومية كما هى نهضة أوروبا ؟ . . . نخشى أن جردناها من دعوة القرآن أن تقضى إلى الاباحة والاحاد وعبادة الأبدان واتباع الشهوات مما ضرره يُفوت نفعه ، فلا بد لنا من تربية علمية سائرة جنباً إلى جنب مع تربية دينية ، وهل يظن الناس عندنا فى الشرق أن نهضة من نهضات أوروبا جرت بدون تربية دينية" .

بمثل هذه الاقوال وبما جاء فى مقالة "العروبة جامعة كليه (١)" للأمير شكيب يمكن القول: إن هذه الوحدة العربية قائمة على الدين الإسلامى ولا انفكاك لها عنه ، وهى بهذا لا تتنكر للمسلمين من غير العرب ، بل تشد أزهرهم وتتكاتف معهم لأنهم إخوة فى العقيدة ، وهى أعظم الروابط بين البشر ، بيد أن هذه الأساس الدينى لا يعنى التعصب على غير المسلمين الذين يعيشون بين أبناء الأمة العربية ، بل هم مواطنون لهم حريتهم الدينية ولكنهم يسعون فى خدمة هذه الجامعة العربية والمصلحة الوطنية مثل المسلمين على حد سواء ، وهم فى إطار هذه الجامعة مرتبطون مع المسلمين بروابط قوية لا ينكر فضلها ، وهى الدم والأصل واللغة والمصالح ، فلا تعارض بين الوحدة الإسلامية والوحدة العربية بل هما متلازمان فى وحدة جامعة ، وحرية الأديان لا تعنى الحرية المطلقة بلا حدود أو قيود ، ولا مناص لوجود العلاقة المتينة بين العقيدة والحكم والدين والدولة ، فالوحدة العربية كما يأمل الأمير شكيب ، جامعة كلية لا بين المسلم والمسيحى فقط ، بل بين أبناء الفرق الإسلامية من سنيين وشيعه ودروز - وعلويين واسماعيليين ، وبين الفرق المسيحية من اتباع الكنيسة الشرقيه والغربية وليس ثمة عداوة بين المسلمين والنصارى وإنما الحروب الصليبية هى التى خلقت هذا العدا ، والعقيدة الإسلامية التى تقوم عليها جامعة العرب المسلمين مع من معهم من المسيحيين هى التى جعلت خلفاء المسلمين من بنى أمية وبنى العباس وبنى عثمان يعاملون المسيحيين كما يعاملون بعض المسلمين ويعولون عليهم فى بعض المهام ويحفظون لهم حقوق الذمة والبر والوفاء .

(١) انظر: شكيب ارسلان داعية العروبة والاسلام ص ١٦١-١٨٨ .

ج (جهوده في سبيل الاسلام مما يرتبط بالوحدة :

ورد في بعض المواضع من الفقرتين السابقتين إشارات إلى بعض جهود الأمير شكيب في خدمة الإسلام، والواقع أننا لانكون مخطئين لو اعتبرنا جهوده الأمير في ولائه للخلافة وسعيه للوحدة العربية من صميم عمله للإسلام وجهاده في سبيله والانتصار له ، ومع غناء تلك الجهود في الدلالة على سعي الأمير لإعلاء منارة الإسلام إلا أن ثمة جهوداً أخرى ترمي إلى نفس هذه الغاية الشريفة ، وقد بذل فيها الأمير من وقته وكفاحه ما لا يُقَلَّل من الإشارة العابرة إليها .

ومع احتفاء دارسي الأمير شكيب بابرار مآثره وآرائه وعنايته العظيمة بالإسلام^(١) ، إلا أن المتدبر لتأليف الأمير الكثيره التي تركها لاتخلو من ذلك ولو على وجه الاجمال ، وبجانب ذلك فقد كان يعمل للإسلام في معترك الحياة ، فهو عندما عزم على الإقامة في أوروبا ظل يكتب عن قضايا الإسلام ويجاهد في سبيل التعريف بها في المحافل الأوروبية ، ويقابل السياسيين والصحفيين وعلماء المستشرقين ويناقشهم ويتباحث معهم ، ويرأس المؤتمرات الإسلامي في أوروبا لجمع المسلمين فيها ويبحث مايتعلق بهم ، ويفتح في برلين المعهد الإسلامي " ١٣٤٩ / ١٩٢٧ م " كما يتخذ من بيته منتدا يلتقي فيه بكثير من المسلمين والزوار^(٢) ، ويكثر في كتابات الأمير صور الدفاع والرد والمساءلة ، ولاغضاة في ذلك ، فالعصر والظروف التي كان ينافح فيها تستدعي هذا اللون من الكتابة ، والاستعمار الذي جثم على أكثر بلاد الإسلام استخدم الدسائس الفكرية للصد عن الإسلام والتعريض به ، والهجمة الاستعمارية التي بهرت بعض المسلمين ، بل بغض القادة والمفكرين منهم جعلتهم ينساقون بغير روية إلى تقليد الغرب والتشبه بهم ، ولننظر على سبيل المثال حماسة الأمير واسلوبه وهو ينافح عن نفي التعارض بين الدين والعلم وعن عدم فصل السياسة عن الدين لأن خصوم الإسلام أدركوا تأثير الدين على الحياة فعملوا لإيجاد هذا الفصل حتى يتزعزع سلطان الدين ويقل نفوذه في الحياة لينفتح الباب لتقليد الغرب في نظمه واحكامه ، آنئذ أخذ الأمير يُنَدِّد على

(١) انظر الأمير شكيب ارسلان حياته وآثاره فصل : دفاعه عن المسلمين والإسلام
شكيب ارسلان داعية العروبة والإسلام فصل : شكيب والإسلام

(٢) المصدر السابق ص ١٩٦ .

مغبة ذلك الفصل ، ويدل على الصلة الوثيقة بين الحكم والدين ، ثم ينبه على خطورة مهاجمة الدين التي أُشيع آنذاك أنها هي الحرية والمدنية ويقول (١) : " إنني آليت على نفسي ألا أحاكم ملاحدة العالم الإسلامي ، إلا إلى أوروبا ومآخذها ومتاركها ، إنني لا أقول لهم قال الله تعالى ولا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنهم لا يعتقدون بالله ولا بالرسول ، ولا أقول لهم قال جمال الدين الافغاني أو قال محمد عبده فانهم لا يأخذون باقوالهما ، بل يحتقرونهما ويحتقرون كل شرقي . . . بل أقول لهم : قال المسيو فلان ، والمستر فلان ، والهر فلان ، والسينيور فلان ، وهؤلاء هم أئمة الأمم التي أنتم تدعون إلى الاقتداء بها " ثم يضرب الأمثلة الكثيرة التي تدل على تمسك الدول الأوروبية بالدين .

والأمير يعجب كيف لا يكون للمسلمين جمعيات ودعاة مبشرون بالاسلام يعملون لنشره في الآفاق كما كان سلفهم يركبون لذلك الجبال والبحار (٢) ، كما أن من الأمور التي يؤكد عليها الاهتمام بالتعليم ولتكن أسسه على مبادئ الاسلام ، فكيف يطالب من أناس شيئا لم يُربّو عليه ، وأن يكون مايتلقوه من منبع صاف لا كدرفيه ولا تحريف (٣) .

ويدعو إلى وضع " معلمه إسلاميه " وافيهِ (٤) ، شبيهة بالموسوعات تحوى جميع الموضوعات المتعلقة بالإسلام والمسلمين . ذلك كله مع إيمان واقتناع راسخ بأن المستقبل للإسلام وأنه سبيل العزة لمن ينشدها .

والأمير شكيب في تعليقاته الضافيه على كتاب " حاضر العالم الاسلامي " يقود قارئه إلى أفكار عديدة وعميقه ، وإلى بقاع من الارض نائية عن المسلمين ومجهولة فضلا عن حديث وترجمات عن عديد من الرجال البارزين في تاريخ الاسلام ، وهو في كل ذلك داعية للإسلام وناشر لدوره ومفاخره ، ومُدقق في انتشاره من الصين في الشرق إلى المغرب الأقصى في الغرب ، ومن أقدم العهود إلى عصر الأمير الذي يعيشه ، وبين ذلك يناقش ماتعاقب على هذه

(١) الفتح - عدد ٢٧ محرم ١٣٥١ هـ

(٢) المصدر السابق عدد ٧ رجب ١٣٤٩ هـ

(٣) المصدر السابق عدد ١٧ ابريل ١٩٣٠ م

(٤) انظر حاضر العالم الاسلام ١/ د ، هـ .

الاقطار من الحكومات وما تناوب عليها من النُوب ، ويقف وقفات طويلة أمام حملات الاستعمار واستيلائه على بلاد الاسلام وتآمر أعداء المسلمين وتربصهم بهم ، وفي أثناء ذلك يدل أمتة على الأخطاء والمزالق التي وقعت فيها ويبيّن الأرزاء ، والعلل التي قعدت بها عن معارج الرقي والنهوض ، ويدلّها على الثغرات التي نفذ منها خصومها وتحكموا فيها .

ومع هذا القلب الكبير الذى اتسع لحمل هموم سائر البلاد الاسلامية في تلك التعليقات النفيسة لا يتوانا الأمير أن يكتب رسالة صغيرة رغم أنّها عظيمة المعاني وبالغة الأهمية للأمة حتى يومنا هذا سماها " لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم ؟ (١) " هذه الرسالة العظيمة والتي قد يكون الشقاق بين المسلمين الباعث لتأليفها ، يوم أن وعد الأمير بتأليف كتاب يسميه " الفوضى الاسلامية وما جنته على المسلمين ، والوحدة الاسلامية وما جنته على المسلمين " (٢) ، هذه الرسالة وإن أفاضت فى ذلك (٣) إلا أنّها ترسم الطريق الموصل وتعطي الدواء الناجع لتأخر المسلمين .

واذا كان الاسلام هو سبب رقي المسلمين وسيادتهم فى الماضى ففقد هذا السبب أو ضعفه عما كان عليه هو الذى قعد بالخلف إلى الوراء كما فى أول الرسالة ، وبجانب ذلك هناك العديد من الاسباب العلمية والخلقية كالجهل وفساد الاخلاق والجبن والقنوط ونسيان الماضى المجيد ، إضافة إلى الفهم السيئ لبعض شرائع الاسلام وانعدام الثقة من المسلمين بانفسهم مما هوى بهم إلى الحضيض ، كما جاء فى ثنايا الرسالة ، كما أنّها ترشد إلى وجوه الإصلاح المعنوية والمادية وطرق الأخذ بالاسباب التى أخذت بها الأمم الاخرى فرفعتها من وهديتها وارتقت بها فى سُلّم النهضة والرقي .

بكل هذا الجهاد وتلك الجهود المتعددة المناحي ، الا يحق لنا أن نعد الأمير شكيب علما من أعلام الاتحاد الاسلامي ؟ ذلك ما أرجوه .

(١) ظهرت طبعته الأولى ١٣٥١ / ١٩٣٩ م بمطبعة المنار بمصر .

(٢) انظر شوقي أو صداقه اربعين سنة ص ١٩٦

(٣) انظر لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم شكيب ارسلان ص ٥٤ ، ٦٧ ،

(٣) مصطفى كامل (١)

ذاعت في مصر صيحات المطالبة بالحرية والدستور ، ووجدت الدعوة إلى الوطنية قبل الثورة العربية (١٣٠٠ / ١٨٨٢ م) ببضع عشر من السنين ،

(١) ولد مصطفى كامل لوالده على أفندي محمد (١٢٩١ / ١٨٧٤ م) الذي كان ضابطاً مهندسا بالجيش المصري ، وتلقى تعليمه الابتدائي والثانوي بالقاهرة ، والتحق بكلية الحقوق في مصر مع مدرسة الحقوق الفرنسية التي كان يسافر لاداء امتحانها كل عام حتى حصل على شهادتها ١٨٩٤ م وسنه عشرون عاما . لم يشغل بعد ذلك بمنصب حكومي ولكن اتجه إلى المحاماة ، ولكنها محاماة عن الأمة ودفاع عن الوطن ، ومضى يعمل لاستقلال مصر وكرامتها ، وجاهد لا يفتأ في ذلك يكتب ويخطب ويؤلف ويجوب الديار ، ولم يقتصر على الجهاد في الداخل بل دعا لقضية بلاده في الخارج وفي المحافل الدولية حتى ذاع أمرها ووقف عليه أكابر السياسيين في أرجاء العالم .

مال في أول جهاده إلى فرنسا ليعارض بها النفوذ الانجليزي في مصر ولكن اتفاقهما - فرنسا وانجلترا - وإبرام (الاتفاق الودي) ١٩٠٤ جعله يلغى التفكير في الاعتماد على فرنسا ، ومع ماؤنيت به الحركة الوطنية من صدمة بسبب هذا الاتفاق ودخول اليأس على بعض الوطنيين ، مضى هذا الفتى غير يائس ولا خائر العزم ، واستمر يحمل علم الجهاد والمطالبة بحق أمته في الاستقلال مما دفع صفوة الشبيبة المصرية المناضلين عن الوطنية لتأسيس نادى المدارس العليا ١٩٠٤ م وبذلك سرت روح المبادئ الوطنية وخدمة الوطن إلى الطبقة المثقفة من الأمة .

وفي نفس العام وقعت حادثه (دنشواي) فحمل فيها مصطفى كامل على الانجليز وسياستهم حملات ثائرة في داخل مصر وخارجها مما كان له أعظم الأثر في إحياء المطالبة بالاستقلال وتعديل السياسة الانجليزية ، استمر هذا الفتى يتدفق نشاطا وحيوية في سبيله الواضح فأنشأ سنة ١٩٠٧ م جريدتين يوميتين إحداهما بالفرنسية (ليتندرا اجبسيان) وأخرى انجليزية (ذى اجبشيان استاندر) تدافعان عن حقوق مصر في بلاد أوروبا فضلا عن (اللواء) التي أصدرها ١٩٠٠ م وكانت أعظم مشعل لروح الوطنية والنضال ، وكان تتويج هذا النضال تأسيس حزب يحمل أفكار هذا الفتى ويقوم برسالته في مناوأة المحتل ، ذلك هو الحزب الوطنى المؤسس ١٩٠٧ م وكان هو أول رئيس له ، واستمر - وقد دب المرض في جسمه - في جهاده ورئاسة الحزب =

الا أن هذه الثورة التي انتهت بدك حصون الاسكندرية وهزيمة الجيش المصرى وتمزق قياداته فى معركة التل الكبير واحتلال الانجليز لمصر كادت تقضى على هذه النغمات، حيث كُفِّت الأفواه وَذُهِلَّت العقول وسرى روح اليأس والقنوط إلى النفوس .

وبعد بضع عشرة سنة من هذا الذهول والسكون المهيّب يفاجئ الشاب مصطفى كامل الأمة المصرية بصوته ودعوته إلى الحرية والاستقلال، فغدا إلى إعادة الثقة بالنفوس والمطالبة بالحق المسلوب، ظهر هذا الشاب فكان دافعا للنهوض ومحركا للعزائم وكان كما عرف واشتهر عنه (باعث الحركة الوطنية) فى تاريخ مصر القومي الحديث .

بالكلمات الوطنية الخالدة التي كان يطلقها ، وبذلك الحرارة المفعمة بالحب ، وذلك الهيام بمصر كان مصطفى كامل يقول (١) : " بلادى بلادى ، لك حُبى وفؤادى ، لك حياتى ووجودى ، لك دمي ونفسى ، لك عقلى ولسانى ، لك لُبى وجنانى ، فأنتِ أنتِ الحياة ، ولا حياة إلا بك يا مصر .

إنَّ رُوحى تتغذى من حب الوطن ، وبغيره لا أستطيع الحياة ، إذ لا قيمة للحياة بغير هذا الحب الرائع العظيم الذى يفيض على المرء كل سلوى وكل سعادة حتى فى شقائه ، وبخاصة فى الشقاء حيث لا يجد الإنسان القوة والأمل إلا فى هذا الحب .

سأبقى حتى الممات حاملا لواء الاستقلال ، إذ أجد حياتى فى هذه العقيدة ، وبغير هذه الشعلة الوطنية لا أستطيع الحياة " .

هذه النغمة الوطنية الصارخة عند هذا الفتى نجد معها وفى ثناياها روحا إسلامية ودعوة لتآلف إسلامى وتشجيع واهتمام بالجامعة الإسلامية ، فماذا يكون من هذا ؟ دعوة إلى الوطنية ، ودعوة إلى الجامعة الإسلامية وهما فى الظاهر على طرفى نقيض ! أم أنَّ لكل منهما معنى خاصا عند هذا الفتى حتى جمع بينهما ؟

حتى حان أجله فى مطلع عام ١٩٠٨ م .
انظر تفاصيل ترجمته : مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية - عبد الرحمن الرافعى ، أدب مقاله الصحفية فى مصر - الجزء الخامس ، د . عبد اللطيف حمزة .

وقبل الاجابة لابد أن نرى شيئا من أقواله أو كتاباته التي تدل على أخذه بالجامعة الإسلامية أو ما يدل عليها ، فالدولة العثمانية التي كان الارتباط بها هو ارتباط بوحدة الاسلام والجامعة الاسلامية تجده عند مصطفى كامل ، وهو عندما يرى المسألة الشرقية من بعض نواحيها أنها النزاع القائم بين إنجلترا وبعض الدول الأوروبية بما فيها الدولة العلية يقول بعد ذلك (١) : "فواجب المسلمين أن يلتفتوا جميعا حول راية الخلافة الاسلامية المقدسة ، وأن يُعزّزوها بالأموال والأرواح ، ففي حفظها حفظ كرامتهم وشرفهم ، وفي بقائها مجدها رفعتهم ورفعة العقيدة الإسلامية ذاتها " .

ويقول مُبيناً أهمية علاقة مصر بالدولة العلية وضرر الخلاف بينهما (٢) : فإذا كان الخلاف القديم قد جرّ على الدولة وعلى مصر المصائب والبلايا ، فواجب ، على بني الدولة وبني مصر أن يعتبروا به وأن يجعلوا الوفاق والاتفاق رائد هم في كل أعمالهم ، فمصر من الدولة روحها ومن الخلافة فؤادها ، ولا حياة لهذا الجسم العظيم إلا بالاتفاق بين أعضائه في العمل ، وإذا كانت دول أوروبا تتحد وتتفق مع قوتها وعظمتها عندما يهم المسيحية أمر ، فكيف لا نتحد معاشر المسلمين وبلادنا واقعة في أشدّ البلاء ، والأخطار محدقة بها من كل جانب ، واعدائوها يكيدون لها أعظم كيد كلما سنحت لهم الفرص " .

كما يوضح بجلاء سبب هذا الميل والاتجاه إلى الدولة العلية (٣) : "إنّ اتفاقنا مع تركيا كان دائما أساسا من أسس سياستنا ، وإنّ الخلاف الذي كان مستحكما بين قصر يلدز وسراي عابدين إبان الحركة العربية كان السبب في مصابنا وفي الاحتلال البريطاني ، ولما كانت تركيا هي الدولة صاحبة السيادة على مصر فان عملها وشأنها في المسألة المصرية هما بلا نزاع كبيران ، وإنني أسأل الذين يُنكرون هذه الحقيقة أن يُفكروا لحظة فيما يعول إليه حال مصر لو عقدت تركيا في يوم من الايام اتفاقا مع إنجلترا مشابها لاتفاق الودي الفرنسي الانجليزي ؟ ألا تفقد بلادنا عندئذ البقية الباقية من استقلالها ؟ فكيف مع هذا يندش البعض من الروابط التي تربط مصر بتركيا ، أوليس هذا الارتباط في ذاته أحسن احتجاج على استمرار الاحتلال بغير حق ؟ إنني أسأل الذين

(١) المسألة الشرقية ص ٣٠ .

(٢) المصدر السابق ص ١٠٤ .

(٣) مصطفى كامل للرافعي ص ٣٥٢ ، ٣٥٣ .

لا يكتفون بانتقاد سياستنا بل يتحاملون علينا ان يجيبوني : لماذا يجدون من الأمور المعقولة الطبيعية تحالف فرنسا مع روسيا واتفاقها مع انجلترا ، ويعتبرون من الجنايات ومخالفة الوطنية الحقّة اتفاقنا مع تركيا .

بهذه الاقوال وكثير من مثيلاتها يلحظ المرء تعلق مصطفى كامل بالدولة العثمانية وحرصه الشديد على حسن العلاقة والتضامن معها ، وهو وإن برّر علة ذلك التعلق كما يلاحظ في هذه الأقوال السابقة هنا، فإنه في مواطن أخرى لا يكتّم هذه المحبة والميل، بل تأخذ مظاهراً أخرى ، ومن ذلك المجاهرة بمعاهدة لندن (١٢٥٧ / ١٨٤٠ م) الدولية ، والتي اعترفت باستقلال مصر وضمان عرشها في أسرة محمد على مع بقاء السيادة العثمانية عليها ، كما قد تكون مؤازرة للسياسة العثمانية في الشؤون المصرية التي تخالف سياسة الاستعمار الانجليزي ، إضافة إلى الاكتتاب في الجيش العثماني والابتهاج والسرور بنصره كما حدث في الحرب اليونانية التركية (١) (١٣١٥ / ١٨٩٧ م) .

بجانب هذا الميل العثماني والتقرب إلى الخلافة كان ثمة جهود واهتمام بتوثيق عرى الروابط والتآلف بين الأم الإسلامية الشرقية ، ومصطفى كامل يعدّ ذلك من الرابطة الدينية التي لاتعارض الرابطة الوطنية ، وهو في ذلك مؤمن بقوة الإسلام الكامنة في هذا الاتحاد ، ويؤكد ذلك إصداره جريدة اسبوعية باسم (العالم الاسلامي) ينشر بها كل ما يهم العالم الاسلامي من المقالات والأخبار (٢) ، فضلا عن ذلك العمود الذي يعالج (أوروبا والاسلام) في صحيفة (اللواء) حتى لا يكاد ينقطع منها .

بل وإن حرصه على الجامعة الإسلامية جعله يكتب مدافعا عنها ومفسرا لها ، وذلك عندما صورتها جريدة فرنسية بأنها حرب دينية ضد المسيحية ، ردّ عليها قائلا (٣) : " لقد فسّرت الجامعة الإسلامية في أوروبا تفسيراً لا يتفق ومعناها الحقيقي . . . إنه لا يوجد مسلم متنوّر يعتقد لحظة واحدة أن الشعوب الإسلامية يمكنها أن تؤلف عصبة ضد أوروبا . وإنّي أتساءل من الرجل العاقل السليم الإدراك الذي يُصدّق إمكان تغلب الشعوب الإسلامية على كافة الدول

(١) انظر: مصطفى كامل لرافعي ص ٣٥ - ٣٥٤ ، الجامعة الإسلامية والفكرة

القومية عند مصطفى كامل - محمد عمارة ص ٧٣ - ٨٠ .

(٢) مصطفى كامل للرافعي ٤٢٣ .

(٣) المصدر السابق ٤٢٣ ، ٤٢٤ وكان ذلك في سبتمبر ١٩٠٦ م .

الأوروبية ، ان الحقيقة الساطعة الخالصة من كل شيء ، إن حركة الجامعة الإسلامية بالمعنى المقصود منها في أوروبا - أي الحرب الدينية - لا وجود لها بالمرة ، لأن المسلمين أدركوا من زمان بعيد أنه يستحيل على أية أمة أن تعيش في معزل عن العالم ، وأن الأمة التي تحاول ذلك تقضى على نفسها بالزوال ، أما الشعور الموجود حقيقة وبلا نزاع عند كافة الشعوب الإسلامية فهو شعور انعطافها وحنانها لبعضها البعض ، فكل مسلم يرغب من صميم فؤاده أن يرى أبناء دينه مُعاملين أحسن من المعاملة الحالية ومعتبرين كجزء من الإنسانية ومحترمين في كل مكان ومن كل انسان ، وإنه لما كان لتأخر الشعوب الإسلامية أسباب واحدة فان نهضتهم تكون بوسائل واحدة ، وإن هذه النهضة لا تصير حقيقة تُشاهد بالعيان بفضل أوهام تأليف عصابة إسلامية ضد المسيحية ، بل بالتعليم والنور ، وبما أن الإسلام ليس عقيدة دينية فقط بل قانون اجتماعي ، فان إحياء الأفكار ونشر المعارف لا يتمان إلا بإظهاره على حقيقته ، وإن ميل كل مسلم لأبناء دينه أمر طبيعي وشرعي ولا يوجد رجل منصف ينتقد ذلك الميل ، أما عن تهمة التعصب الإسلامي المزعوم في مصر فاني أؤكد أن بلادنا كثيرة في أوروبا تعرف التعصب العنيف المفقوت ، في حين أن مصر لا تعرفه ، فليس عندنا أحزاب ضد اليهود ولا اشتراكيون ولا فوضويون ولا شيئا من تلك الفرق التي يأكل بعضها بعضا .

هذا الاهتمام بالجامعة الإسلامية وعدم التنكّر لها تجده واضحا ايضا في ثانيا أعداد صحيفة (اللواء)^(١) إلى وفاة مصطفى كامل ، وهناك اهتمام بالمواضيع والشئون الإسلامية في (اللواء) وان كان بصورة أكبر في سنواتها الأولى^(٢) ، الا أنه لا ينقطع أيضا مما يدل على روح واتجاه إسلامي ، وهو ما عُرف عن مصطفى كامل مما يعزّز - بلا ريب - قوة اتجاهه إلى الرابطة والوحدة الإسلامية .

في ضوء كل هذه الاهتمامات والجهود التي لمسناها عند هذا الفتى ، والتي إخالها كافية لأن نعدّه من الأدباء الذين آزرُوا الاتحاد الإسلامي ، لاننسى الكيفية التي كان يريد لها لهذا الاتحاد أن تكون ، فلقد

(١) انظر : ادب المقالة الصحفية في مصر - الجزء الخامس - د . عبد اللطيف

حمزة ص ١٣٦ - ١٤٠ .

(٢) المصدر السابق نفسه ص ١٣٦ - ١٤٠ .

كان اتجاهه الى هذا الاتحاد مطعنا عليه من كثير من خصومه ومن لم يدركوا أبعاد فكرته عنه ، فلقد اتهم أنه إنما كان يعنى بشعار الجامعة الاسلامية العودة بمصر الى حظيرة الحكم العثماني فلذلك سعى له هذه الجامعة ، ثم ان هذه الدعوة أيضا كانت ذا مضمون طائفي ، لأن حديثه فيها عن المسلمين دون الأقباط ، ودعوته أيضا هي لمواجهة بين إسلام الشرق ومسيحية الغرب (١) .

ومع أن هذه الاتهامات تدلنا على العظمة والروعة التي كان يعمل فيها الرجل تحت هذا الشعار إلا أنها تبين لنا كيفية تصوّره لهذه الجامعة مما نحن هنا بحاجة إلى الوقوف عليه .

أمّا أن دعوته لهذه الجامعة تعصب للإسلام على مسيحية الغرب ففي آخر أقواله التي وردت آنفا مع أقوال أخرى مثلها (٢) ما يكفي للرد على هذا الادعاء .

أمّا اتهامه باستخدام هذا الاتحاد للعودة بمصر الى حظيرة الامبراطورية العثمانية فالحق أن الرجل أبان ذلك أتم بيان . فهو يقول رادا على متهميه (٣) : " أمّا دعواكم أن الوطنيين المصريين يريدون الانتقال من استبداد إلى استعباد ، وأنهم إنما يطالبون خروج الانجليز من مصر ليدخلوا تحت حكم جديد ، فهي دعوى لا يقبلها ذولب ، ولا يسلم بها أحد من العقلاء ، فاننا نطلب استقلال وطننا وحرية ديارنا ، ونتمسك بهذا المطلب الى آخر لحظة " .

فهو إذن لا يريد الحكم العثماني أن يقوم على مصر ، وذلك الميل العثماني الذي رأيناه لا يسوّغ عند مصطفى كامل أن تبقى مصر خاضعة لتركيا فلمن يريد مصر اذن ؟ انه يجيب (٤) : " قد صرّحنا ألوف المرات بأننا نريد مصر للمصريين ، وبأن انعطافنا او نفورنا من دولة لا يؤثّر شيئا على هذا

(١) انظر : مصطفى كامل للرافعي ص ٣٤٦ ، الجامعة الاسلامية والفكرة القومية عند مصطفى كامل ص ٥٨ .

(٢) انظر : مصطفى كامل للرافعي ص ٢١١ ، ٤٤٤ ، ٤٩٠ ، ٤٩٤ .

(٣) اللواء في ٢ مايو ١٩٠٦ م نقلا عن الجامعة الاسلامية والفكرة القومية عند مصطفى كامل ص ٦٠ .

(٤) اللواء ٦ أكتوبر ١٩٠٧ م نقلا عن الجامعة الاسلامية والفكرة القومية عند مصطفى كامل ص ٨٨ .

المبدأ الرئيسى لحياتنا وأفعالنا " ولا يريد استبدال احتلال باحتلال " لأننا نبغض المحتل من حيث هو محتل ، ولو كان أقرب الناس إلينا ، لأننا أمة حية متمدة ، نريد أن نحكم أنفسنا بأنفسنا ولا نرضى أن نبقى مصرا تحت حكم وصي . . . " (١) .

إذن فذلك الولاء للخلافة والسلطنة العثمانية ما هو إلا سياسة حكيمة وخطة لمجاهدة الاحتلال الجاثم على البلاد ، وذلك ما يقتضيه الموقف آنذاك لما فيه من استخدام للتوازن الدولى وإفادة من تناقضات الدول فى حل المسألة المصرية ، ثم إن الارتباط بتركيا له الكثير من المبررات التى يمكن بها معارضة الاستعمار الانجليزى الذى هو الداء العضال (٢) ، أمّا حين زوال هذا الداء فالاستقلال عن تركيا والاستغناء عن حكمها أمر سهل ميسور رغم أنها قبل ذلك الاحتلال لم تكن إلا ولاية شكلية لافعلية فى حقيقتها .

رأى مصطفى كامل بكل جلاء هو أن (مصر للمصريين) وهـذا الشعار هو غايته ، ولم يكن شعار الجامعة الاسلامية عنده يعنى العودة بمصر الى حظيرة الدولة العثمانية أبداً ، وإنما هو التضامن والتحالف السياسى ضد الاستعمار الانجليزى (٣) ، وذلك هو معنى الجامعة الاسلامية الذى نراه عنده حسب تصويره لها ، وعندما نسمع ما قاله حين خطب فى ذكرى تأسيس الدولة العثمانية (٤) وأنه " يستحيل علينا (يخاطب المصريين) أن يطلب واحد منا مالكا أجنبيا عنا ، فنحن لانود إلا أن نكون قوة محالفة للدولة العلية ننصرها وتنصرنا ، ونعتز بها وتعتز بنا . . . " حينئذ لا مرأى أن الرجل داعية لاستقلال مصر التام ولم يكن تلبسه بالجامعة الاسلامية يعنى أنه يحطب فى حبل العثمانيين أو يريد استبدال الانجليز بهم أبداً .

وأخيرا فشعار الجامعة الاسلامية عند مصطفى كامل وما صحبه من روح ديني عنده لم يكن مدعاة إلى الطائفية والتعصب الديني ، بل هو روح تسامح

(١) مصطفى كامل لرافعى ص ٤٤٠ .

(٢) انظر : المصدر السابق ص ٣٤٦ - ٣٤٨ ، الجامعة الاسلامية والفكرة القومية عند مصطفى كامل ص ٧٠ - ٨٠ .

(٣) انظر : الجامعة الاسلامية والفكرة القومية عند مصطفى كامل ص ٨٦ - ٩٠ .

(٤) مصطفى كامل للرافعى ص ٣٥٣ .

وتألف ، وهو وان ركّز على أهمية الدين فى التعليم وأكثر فى أقواله الحديث عن المسلمين لم يكن غافلا عن حقوق أرباب الملل الاخرى مع المسلمين ، والوطنية التى كان نضاله لبعثها لم تكن بمعزل عن الدين ، والدين لا ينافيها ، بل يرى أنهما توأمان متلازمان (١) ، وهو فى مقاله عن (رابطة الدين والوطن) (٢) يوضح كل ذلك فيقول : " نجد فى مصر أمة مشتركة ، جزء منها هو الأقباط وجزء عظيم هو المسلمون ، وعلينا واجبان عظيمان : واجب ديني وواجب وطني ، فالواجب الديني يُحتم على الأقباط أن يحافظوا على عقيدتهم أشد المحافظة ، ويدافعوا عنها أقوى الدفاع ولا ملام عليهم إذا انعطفوا إلى إخوانهم فى الدين والعقيدة (ثم يذكر واجب المسلمين الديني مثله) هذا واجبنا الديني نُصرّح به أمام الملأ ولا نخشى فى ذلك أحدا ، أما واجبنا الوطنى فهو العمل باتحاد تام بين المسلمين والأقباط وغيرهم ممن صارت مصر وطنا لهم لخدمة هذه الديار العزيزة ، والسعي وراء استقلالها وحرّيتها . ولم نجاهر بغير ذلك طول حياتنا . بل إننا جاهرنا بأن المسلمين والأقباط فى مصر أمة واحدة ، وأن الدم الذى يجرى فى عروق أغلب مسلمي مصر هو نفسه الدم الذى يجرى فى عروق الأقباط ، وإلى هنا تنتهى الدعوة للاتحاد الجنسي والاتفاق الوطنى ، وليس فى خدمة الاسلام أو الدعوة لاتحاد المسلمين شىء من التعصب الديني أو من المخالفة للمبادئ الوطنية الحقيقية . بل إنّ التمسك بالدين يدعو للتمسك بالوطن وحسبنا دليلا (حب الوطن من الايمان) " .

فى كل هذه الابعاد السياسية والدينية نخلص الى أنّ مصطفى كامل وقد احتفى بالوحدة الاسلامية ووعى الثمار التى تُغلّها ، ورغم الروح الوطنية المهيمنة على جهاده وتحفّزه العظيم لها ، لم يدع الرابطة الدينية أو يتنكّر لها ، بل عرف لها قدرها ومكانتها وجهد كثيرا للاستعانة بها ، وقد مزج - فى رأيي - بين رابطة الدين ورابطة الوطنية دون أن يرى أى تعارض بينهما ، ولذلك جاء عند تلك الحفاوة بالدين الإسلامى والمسلمين والدولة العثمانية حامية للجميع ، ومهما بلغ حماسه وجهاده واعتناقه لفكرة (الوطنية) كما رأينا قبل قليل ، فلا يمكن قبول بعض المبالغات التى تجعل أخذه بشعار الجامعة

(١) انظر مصطفى كامل لرافعى ص ١٤٦ ، ١٤٧ " من إحدى خطبه " .

(٢) اللواء ١٦ يناير ١٩٠٠ م نقلا عن : أدب المقالة الصحفية فى مصر

الاسلامية انما هو وسيلة لتحقيق تلك العقيدة الوطنية (١) أو تكاد ، وإنما هو جمع بينهما كما تشهد أقواله ، جمع بين عقيدته الدينية وعقيدته الوطنية جمعاً ليس إلى إنكاره من سبيل ولم يرأى تعارض بينهما بل كل منهما يشد الآخر وذلك ما يجب فهمه عن هذا الفتى الذى قاد (الحزب الوطنى) فكان لمنهجه هذا أعظم الأثر فى النكاية بالاحتلال والتنكر لوجوده ومقاومته ، وهو نهج لوسارت عليه سياسة مصر بعده ، واجتنب تلك القومية المصرية الضيقة وذلك الحوار والمهادنة للمحتل لما كان له أن يمكث فى مصر قرابة سبعين عاماً ولم يخرج إلا حين عادت تلك الروح الاسلامية وأذكت روح المقاومة ، فصفعت وجهه وضربت قفاه بالعرجون ، فولّى مدبراً بعدما أضاعت سياسة الحوار والمهادنة الفاشلة عشرات السنين ، لم تحقق للأمة فيها خيراً ، بينما جنى فيها المحتل أعظم مآربه وزرع أكثر بذور الشر والفساد التى خلفها تنحريكاً انما بعده .

(١) انظر : الجامعة الاسلامية والفكرة القومية عند مصطفى كامل ص ٩١ ، ٩٣ .

(٤) مصطفى لطفى المنفلوطى (١)

تأتى هذه الإشارة الى الكاتب الأديب المشهور مصطفى لطفى المنفلوطى لاسهامه الجلىّ فى موضوع هذه الدراسة وإن لم ترد الإشارة إليها عند أكثر دارسيه الذين وقفت عليهم ، وإذا كانت هذه الدراسة تسهم فى إبداء هذا الجانب المغمور فإنها لا تنكر الاعجاب ببعض الباحثين المتعمقين والمعاصرين للمنفلوطى الذين أكدوا وجوده ومشاركته فى الاهتمام بالجامعة الاسلامية كما سنرى هنا .

وإذا كان المنفلوطى كما هو معلوم من نشأته وسيرته قد ربيّ تربية دينية ، حفظ القرآن الكريم صغيرا وتعلم فى الأزهر ، وكانت أسرته ذات دين ونسب شريف ، وأنه اتصل بالشيخ محمد عبده فى سنوات دراسته الأولى بالأزهر فإنّ كل هذه العوامل تحدونا أن نخالها ذات أثر كبير فى اتجاهه إلى معالجة شئون جامعة المسلمين واتحادهم ، ومع ذلك فيجوز أن يكون لعصره الذى كثرت فيه مناقشة هذه الوحدة حافزا للخوض فيها مجازاة لأحداث العصر ومواكبتها .

وحين يتجه النظر إلى أدب المنفلوطى الذى يُسعف على جريانه فى هذه الوحدة نجد عددا من الصور والمظاهر التى تؤكد لها رغم سعة الأغراض

(١) ولد مصطفى المنفلوطى فى منفوط التابعة لمديرية أسيوط بمصر سنة ١٢٨٩ من أسرة عُرفت بالعلم والتقى ، وتعلّم فى الأزهر صغيرا فشغف بالأدب وانصرف عن كتب الأزهر ، ولكنه يعد ما ترك الأزهر اتصل بمحمد عبده وتلاميذه ، وبدأ يكتب فى الصحف مقالات وقصائد حتى لمع اسمه وذاع صيته على صفحات الموءيد ، وذلك عندما خرج على الناس بنظراته التى حملت أسلوبه العربى الرائع ، والذى تتلمذ عليه بعد ذلك أكثر شداة الأدب فى الوطن العربى ، وقد عمل محررا فى وزارة المعارف ثم وزارة الحقانيه حتى توفى سنة ١٣٤٣ وهو فى العقد الخامس من عمره . انظر فى ترجمته :

النظرات (ج ١) المقدمة ، الفنون الأدبية وأعلامها فى النهضة العربية الحديثه ٢٨٩ ، مصطفى لطفى المنفلوطى الكاتب - الدكتور محمد محمد ابو الانوار - رسالة ماجستير - ١٩٦٦ م - كلية دار العلوم .

الكثيرة التي عالجها ، ذلك بغنه الذى استحوز على معاصريه ولا يزال خيا ومُحببا إلى اليوم .

فالمدينة الغربية التي تأثر بها بعض معاصريه وتعدّوا ذلك إلى الافتتان بها والدعوة إليها ، وقد كثرت الروافد التي تنقلها ، يلح فيها المنفلوطي أمرا عظيما وشأنا خطيرا ، ومعالجة بعض الكتاب لها في صورة عابثة تبعد عن الجد تجعله يوء كد رسالة الأديب التي يوء من بها " إنَّ في أيدينا معشر الكتاب من نفوس هذه الأمة ودیعة يجب علينا تعهد ها والا حفاظ بها والحدب عليها حتى نوءديها إلى أخلافنا من بعدنا كما أداها إلینا أسلافنا سالمة غير مأروضة (١) ولا متآكله ، فإن فعلنا فذاك ، وإلا فرحمة الله على الصدق والوفاء ، وسلام على الكتاب الأماء " (٢) .

فالأمة المسلمة ذات كيان متميز وشخصية مستقلة ، تنفرد عن الأمم الأخرى بأخلاقها وعاداتها وآدابها ، وهى حين تعصف بقوامها هـذا لاتلوى البحث عن بديل تُقيم حياتها عليه ، فإذا انغمست فى الحضارة الغربية فبماذا تفرق عن أهلها ، وماذا يبقى لها من أصالتها ومدنيتها التي تقوم على أساس من دينها ؟

إنَّ انجراف المسلمين إلى تقليد الأمم الأخرى يقطع كثيرا من أوامر الإخاء وعناصر التقارب والمشاركة مع إخوانهم فى الدين ، ويعمل على ضعفة الشعور بالانجذاب إليهم ، بل إنَّه يخلق الفجوات داخلهم إذا تمادوا فى تقليد غيرهم ، ويبعث على الغربية التي يحسها المرء حين ينتقل من أُمته إلى أمة أخرى ، هذه الآثار البعيدة لارتقاء المسلمين فى الأخذ - بدون وعى - من الحضارة الغربية هو فى ظني ما حدا بالمنفلوطى أن يطالب ببقاء مصر فى عداد الأمة الاسلامية ، ويحدّرها من الميل - فى تلك الفترة - إلى حضارة الغرب ويقول (٣) : " الأمة المصرية أمة مسلمة شرقية ، فيجب أن يبقى لها دينها وشرقيتها ماجرى نيلها فى أرضها ، وذهبت أهرامها فى سمائها حتى تبدّل الأرض غير الأرض والسموات .

(١) المأروضة : التي أكلتها الأرض .

(٢) النظرات ١ / ١٢٠ .

(٣) المصدر السابق نفسه .

إنَّ خطوة واحدة يخطوها المصري إلى الغرب تُدنى إليه أجله ،
وتُدنيه من مهوى سحيق يُقبر فيه قبرا لا حياة له من بعده إلى يوم يبعثون .

لا يستطيع المصري وهو ذلك الضعيف المستسلم أن يكون من المدنية
الغربية إن داناها إلّا كالغريال من دقيق الخبز ، يمسك خُشارة ويفلّت
لبابه ، أو الراوق (١) من الخمر ، يحتفظ بعقاره ويستهن برحيقه ، فخير له
أن يتجنبها جهده ، وأن يفرّ منها فرار السليم من الأُجرب .

بل إنه ليؤكد الدعوة إلى وعى حضارة الإسلام لأبناء أُمته ليركنوا
إليها ولا يتعلقوا بغيرها " إن دعوناهم إلى الحضارة فلنضرب لهم مثلا بحضارة
بغداد وقرطبة وثيبة وفينيقيا ، لا بباريس ورومة وسويسرا ونيويورك ، وإن دعوناهم
إلى مكمة فلننل عليهم آيات الكتب المنزلة ، وأقوال أنبياء الشرق وحكمائهم
لا آيات روسو وباكون ونيوتن وسبنسر ، وإن دعوناهم إلى حرب ، ففي تاريخ
خالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاص وموسى بن نصير وصلاح الدين ، ما يغنينا
عن تاريخ نابليون وولنجتون وواشنطن " .

هذا التنفير من المدنية الأوروبية الذى يحتدّ المنفلوطي فيه إلى هذا
الحّد ، يجب ألا يُظنّ أنه رفض لكل جوانب هذه المدنية ، كلا ، فالرجل على وعى
وبصيرة نيرة وهو يناقش موضوعه ، فهو - شأن المسلم اليقظ - لا يُعارض الأخذ
من جوانب الخير التى فيها ، بل يطالب بالأخذ النافع منها كما قال (٢) " لا مانع
من أن يعرّب لنا المعرّبين المفيد النافع من مؤلفات علماء الغرب ، والجيد
المتع من أدب كتابهم وشعرائهم ، على أن ننظر فيه نظر الباحث المنتقد
لا الضعيف المستسلم ، فلا نأخذ كل قضية علمية مُسلمة ، ولا نطرب لكل معنى
أدبي طربا متهورا ولا مانع من أن ينقل إلينا الناقلون شيئا من عادات
الغربيين ومصطلحاتهم فى مدنيّتهم ، على أن ننظر إليه نظر من يري -
التبسط فى العلم والتوسع فى التجربة والاختبار ، لا على أن نتقلدها ونتحلّها
ونتخذها قاعدتنا فى استحسان ما نستحسن من شعوننا ، واستهجان ما نستجهن
من عاداتنا " .

(١) أى المصفاة .

(٢) النظرات ١ / ١٢٣ .

أما ما وراء ذلك فمدنية الغرب لهم وما يجب على كُتّاب الأمة وقاداتها تجاه ذلك " ألاّ يخدعوا أمّتهم عن نفسها ولا يفسدوا عليها دينها وشرقيتها ولا يزينوا لها تلك المدنية تزيينا يرزوها في استقلالها النفسي ، بعد ما رزأتها السياسة في استقلالها الشخصي " وليُعلم أنّه ليس من عادات القوم واخلاقهم الشخصية الخاصّة ما يُحسدون عليه .

وعندما تهجّم اللورد كرومر - مندوب الاستعمار الانجليزى بمصر - فى كتابه (مصر الحديثه) على الإسلام بكثير من التخرصات ، ومنها اتهامه بالجمود وعدم اتساعه للمدنية الإنسانية ، وأن الدين المسيحى يصلح لمّا لا يصلح له الإسلام ، مُستدلّا على الإسلام بسوء حال المسلمين وما سوى ذلك ، ترى المنفلوطى يتعجب من الذين يتعجبون ممّا أتى به هذا الكاتب ، ذلك أنّه مسيحىّ متمسك بيسوعيته التى تعتقد كما يعتقد بنوها أن الإسلام دين موضوع ابتدعه رجل عربى أمي لم يتعلم فى حياته شيئا ، فلا محل للغرابيّة عندما يطعن هذا المسيحى فى عقائد الإسلام وشرائعه (١) ، وبعد إفاضة من المنفلوطى فى تبين فضل الإسلام على العلم وتشجيع أهله ومباركته للمدنية والعمران وعدم تعارض ذلك مع روحه ، يُذكر بفضلله على النهضة فى أوروبا ، أمّا عندما يتهم كرومر المسلمين بالتعصب بسبب سعيهم فى قيام جامعتهم الإسلامية فالمنفلوطى يقرّ بما أصاب جامعتهم من الوهن والانحلال ، ومالحو بهم من الضعف والفتور ، ولكن الإسلام لسيّس سبب ذلك أبداً ، بل إن المسيحية هى التى سعت بين ملوك الإسلام الضعفاء وأمراء الجهلاء حتى أفسدوا عليهم عقائدهم ومذاهبهم وأوقعوا الفتنة بينهم حتى بعدوا عن روح الإسلام وتمزقوا ، ويختم ذلك كله بقوله (٢) مخاطبا كرومر : " ايها الفيلسوف التاريخى ، لا تقل إنّنا متعصبون تعصبا دينيا فانك قد أسأت إلينا وإلى ديننا ، فلم تتركنا من الذب عنا وعنه بما تعلم أنّه حق وصواب ، على أنه لا عار علينا فيما نقول ، وهل التعصب الدينى الا اتحاد المسلمين يدا واحدة على الذود عن انفسهم والدفاع عن جامعتهم ، ولعلّ شأن دينهم ونصرتهم حتى يكون الدين كله لله .

(١) انظر : النظرات ١٦٢/١ ، ١٦٣

(٢) المصدر السابق ١٧١/١

إن كان رفضاً حُبَّ آل محمدٍ .: فليشهد الثقلانِ أنِّي رافضٌ

وحين خُلِعَ السلطانُ عبد الحميد (١٣١٧ / ١٩٠٩ م) يتأثر المنفلوطي لذلك الحدث الأليم الذي يرى فيه عبرة الدهر ويشعر أن الأمة فقدت من كان ملاذاً لاتحادها وقوتها ، ويسأل من هذا ذلك القصر العظيم الذي كان ينزله السلطان ، ثم يسأل السجن الجديد الذي رحل إليه ، ويستفهم الدهر مندهشاً من دورانه وتقلبه ، ثم يخاطب الراحل المودّع معظماً شأنه ، متعظاً بعبرة الدهر فيه (١) .

وعندما حضر المصلح الإسلامي (اسماعيل بك عصر نسكى) (٢) من بلاد الروس إلى مصر يدعو المسلمين إلى مؤتمر إسلامي عام ، يهش المنفلوطي للأمر ، ويعظم هذا الداعي في نفسه وفي مقصده النبيل فهو يقول (٣) : " سرّني منظر ذلك الرجل العظيم ، والداعي الكريم ، وهو قادم إلى مصر يجتاز التخيوم ويتخطى البلدان ، ويطوى الغبراء طي الكواكب الخضراء ، ويقوده الأمل ، ويسوقه الرجاء ، وبين جنبه همة عالية ، ونفس كبيرة وقلب مشيع ، وفؤاد في الأفق كالنسرف في الطيور ، يحلق في جو الإسلام تحليق من يحاول أن يظلمه بجناحيه .

سرّني منظره ، وإن لم أره وهو قائم بين جماعة المسلمين يحاول أن يرأب صدعهم ، ويملّ شعثهم ويجمع كلمتهم ، ويؤلف بين قلوبهم ، ويدعو إلى الله تعالى دعوة النبوة الأولى ، إلا أن تلك العربية تدعو الأعجمية وهذه أعجمية تدعو

(١) انظر فصل الجامعة الإسلامية (مدح السلطان) ، النظرات ٢ / ١٩ - ٢١
(٢) اسماعيل عصر نسكى (١٨٥٩ - ١٩١٤ م) من كبار رواد الدعوة والاصلاح الاسلامي في العصر الحديث ، وفي شبه جزيرة القرم عاش وبث آرائه الاصلاحية ، وكان يصدر جريدة (ترجمان) ١٨٨٣ - ١٩١٤ التي نالت مكاناً ممتازاً في العالم الاسلامي ، وكان يقروها مسلموا القوقاز وقازان وسيبيريا وتركستان وبعض مسلمي الصين ، واعتنى بنشر التعليم الاسلامي ، وعمل بجد لإخلاص علي تعارف المسلمين وتلاقيهم كي يتحدوا ويخرجوا من تخلفهم وضعفهم حتى مات ، وكان ذلك دافعه إلى زيارة حواضر العالم الاسلامي كالقسطنطينية والقاهرة وسواها ، ليلتقي بعلماء الاسلام ومفكريه ويدرسوا حال أمتهم .

انظر : تراجم الاعلام المعاصرين في العالم الاسلامي - انور الجندى ٥٩ -

العربية الفصحى .

هذا الداعى إلى مؤتمريعيد فيه المسلمين إلى تضامنهم ذهب بالمنفلوطى إلى أيام أمجاد أمته ، وتذكر بعزيمة هذا الداعى أبطال الإسلام وقادته ، الذين جمعوا بجهادهم وحدة الأمة وشادوا عزّها ، وصانوها من الشتات والضياغ ، ثم قاده بعد ذلك إلى ذكر حال الإسلام وقد ضربه الدهر ورماء بنكباته وسرت العلل فى اجزائه ، عندئذ انتابه الحزن كما يحزن الأشياء من ذكرى الشباب وقال (١) : "أضنى مايمض العاشق المفارق إذا مر بالآثار وأطلال الديار ، فرأى النوى والأحجار ، وموقد النار ، ومجال الخيول ومجرّ الذيول ، فذكر ما كان ناسيا ، وهاج من وجده ما كان كامنا ، فبكى واستعبر" .

رأى المنفلوطى أن عصره يعيش جاهلية كالجاهلية الأولى ، والى كانت متفرقة شعوبا وقبائل ، وجاهلية عصرة متفرقة منازل وبيوت ، وآحاد أو أفرادا فلا تراحم ولا تواصل ، ولا تعارف ولا تعاطف ، وهذه الجاهلية المعاصرة كما يراها تأخذ مظاهرها فى أكثر شئون الحياة ، ويراهأ أضاعت الدين فيسأل عنه ويبحث عن موطنه كأنه لا يراه ! ، فالأمر عنده أن هذه الجاهلية أحوج إلى الدعوة والإصلاح من الجاهلية الأولى .

أمّا حين يشارك فى إصلاح حال هذه الأمة كما رآها ، فانه يدعو إلى البدء بتهديب العقائد الدينية ، إذ هى الأساس لكل إصلاح واتحاد ناجحين ، ويحث على تربية النفس تربية اسلامية لا تربية مادية ، وأن يوءتى إلى الإصلاح من باب الدين ، وليكن هو الزاجر والمؤدب ، ويحذّر من خطورة جعله تابعا للعقل ، أو أنّ العقل هو الحكم بينهم وبين دينهم - كما راجت هذه الدعوة فى عصره - فالخير أن يكون الدين حاكما والعقل مفسّرا أو مبيّنا ، ثم يقول (٢) : " فإذا تم ذلك للمصلحين بالرفق والأناة ، والحكمة والسياسة ، فقد تم لهم كل شىء ، وتمّ للمسلمين ما يريدونه من الجامعتين الدينية والسياسية كما تم لهم ذلك فى العهد الأول " .

وحين يتوفى الشيخ علي يوسف وهو صديق المنفلوطى الذى على

(١) النظرات ٣ / ١٣٢ .

(٢) السابق نفسه ٣ / ١٣٥ .

صفحات مؤيده الذائعة عرف الجمهور المنفلوطى كاتبها، حينئذ يعترضه الحزن والأسى ، فتقرأ اللوعة والحرقه فيما كتب فى وفاء وحق ذلك الصديق ، إلا أن ما يعيننا هنا هو تذكيره بمضاء الشيخ علي يوسف فى خدمة الجامعة الإسلامية قارنا بينه وبين الشيخ محمد عبده الذى أسهم هو الآخر بجهد لا ينكر فى سبيلها ، فهو يقول عنهما (١) : " ما كنا نرجو لهذه الأمة غير هذين الرجلين . . فقد كانا لها طودين شامخين رابضين على أكتافها ، يمسكها الأول (محمد عبده) أن تزل بها مزالق المدنية الخالصة فيذهب دينها ، ويمسكها الثانى أن تطير بها أحلام السياسة الكاذبة فتذهب جامعتها ، واليوم لا نرجو لها من بعدهما أحدا ، فويل للأمة فى دينها ، وويل لها فى جامعتها" .

بكل هذه الجهود فى سبيل الوحدة كان المنفلوطى فى نظرى أحد فرسان الوحدة الإسلامية ، وهذا ما رآه هاملتون جب (٢) والعقاد مما يعزز مانذهب إليه ، إلا أن الاستاذ العقاد قال (٣) " لكن انتسابه (أى المنفلوطى) إلى الشرف النبوي هو الذى قربته من شيخ الطرق الصوفية ، وزج به فى منازعات الخلافة ومناوراتها" .

-
- (١) النظرات ٣ / ٤٣ .
 (٢) دراسات فى حضارة الاسلام - هاملتون جب ص ٢٤٣ - ترجمة د . احسان عباس ، د . محمد يوسف نجم .
 (٣) رجال عرفتهم ص ١١١ نقلا عن رسالة : النشر الفنى المصرى فى العصر الحديث ص ١٨٩ ، عبد الباقى احمد على حموده .

(٥) عمر بن قَدّور الجزائري (١)

لا يخفى أن احتلال الفرنسيين للجزائر واستعمارها كان مبكرا وبخاصة إذا ما نظرنا إلى ما احتله بعدها ، لقد دخل الاحتلال الجزائر سنة (١٢٤٧ / ١٨٣٠ م) بينما لم يقدم على احتلال تونس إلا بعد ذلك بنصف قرن من الزمان (١٢٩٨ / ١٨٨٠ م) ، في هذه الفترة المتقدمة من الاستعمار أدرك الفرنسيون أن الشعب الجزائري يناضلهم بروح دينية قوية (٢) تربط الجزائري بآمتهم الاسلامية ، وأن وراء هذه الروح محاذير يجب التنبيه لها حتى يسلس لهم القياد .

لقد حرصوا حين وجدوا هذه الروح على ضرب سور حديدي على الجزائر بغية عزلها عن العالم الإسلامي ، وعملوا على إقامة الحدود الاصطناعية الوهمية لعزلها عن جيرانها ، ومع أن هذه خطة الاستعمار المعادي للإسلام في تمزيق الأمة الواحدة ، وهدف لضرب كل تعاون وتكاتف واقامة فجوات وعزلة بين كل متجاورين فضلا عن المتباعدين ، مع ذلك فقد كانت هذه الخطة تأتي بثمار عكسية لما يريده المستعمرون .

هذا الكاتب والصحفي عمر بن قَدّور الجزائري - رغم ضحالة المعلومات عنه - عاصر هذا الاستعمار ودافعه بما أوتي ، إلا أن اهتمامه باتحاد الأمة

(١) عمر بن قَدّور الجزائري ، رائد من رواد الصحافة الوطنية في الجزائر ، عاش في الجزائر وُعدّ من شعرائها مناضلا للاستعمار كسائر مصلي عصره ، وكانت حياته بين عامي ١٨٨٦ - ١٩٣٢ م ، أصدر جريدة (الفاروق) ١٩١٣ ثم أصدرها في مرة ثانية سنة ١٩٢٠ م بعد توقفها ، كان كثير الكتابة والمراسلة والاتصال بالصحف والمفكرين في العالم الإسلامي ، ونشر ما كتبه في خمسة عشر دوريه في المشرق والمغرب .
انظر في ترجمته : شعراء من الجزائر ، صالح خرفي ص ٣٧ - ٥٥ - ط
١٩٦٩ م معهد الدراسات العربية - القاهرة ، مجلة الأصاله (وزارة التعليم الاصلى والشئون الدينية بالجزائر) عدد (٥٨ - ٥٩) رجب وشعبان ١٣٩٨ - يولييه ١٩٧٨ م ص ٥٥ - ٦٥ - مقال : عمر بن قَدّور الجزائري الدكتور محمد ناصر .

(٢) انظر : الشعر الديني الجزائري الحديث - الدكتور عبد الله ركيبي

الاسلامية كان قمة فكره ونضاله حتى جعله أحد الباحثين (رائد الدعوة إلى التضامن الاسلامي) (١) .

كان سعيه في هذا المضمار عظيما ، وكان فيه سابقا لأهل موطنه ، وتجلى ذلك في مقالاته التي حفلت بها جريدته (الفاروق) (٢) طوال عمرها ، وقبل ذلك بمقالاته التي كان يبعث بها إلى الجرائد الاسلامية في الاستانة والقاهرة والمغرب .

ومع ذلك فهو يسعى جاهدا في مهمته هذه التي أخلص لها ، فيقدم للأمة الاسلامية (مشروعا عظيما) ليكون نواة للتعارف بين ابنائها بعد أن ساءلهم " هل في الامكان تأليف جماعة من مفكري مسلمي الجزائر وتونس والمغرب الأقصى ، تدعى " جماعة التعارف الاسلامي " ؟ .

لقد شعرنا باحساس شريف يسرى بين المفكرين في هذه الأمة الاسلامية في غضون ما نفتته صدورهم ولذلك رأينا أن نهذب هذا الاحساس ونزيده طموحا . . . يُنصّب هذا المشروع العظيم أمام أعين اخواننا المفكرين ليجعلوه قبلة آمالهم . . . فليذلوا كل نفيس لاعلاء التعارف بينهم . . . وإننا لننظر جواب كل فرد منهم على السؤال أعلاه ليتسنى لنا أن نسجله في دفتر التعارف . . . وحرص كافة الانصار في مشاهدة الائتلاف والاتحاد حيث يسهل العمل على الأثر . . . " (٣) .

ويمضي بعد هذا المشروع الذي تفتقده الأمة وتحتاجه ليدرس شأن الأمة دراسة شاملة ليرى مكن الداء وشرّ البلاء ، فتفرق المسلمين وتضارب أهوائهم واختلافهم علّة عليهم كما يقول (٤) : " إن كل مسلم في هذا الوقت ليس بمسلم حقيقة ، بل هو تركي ، أو عربي أو بربري بحسب العناصر ، أو مغربي أو جزائري أو تونسي أو سوري أو مصري . . . بحسب الأوطان ، وذلك التنافر أحدثه انحلال الرابطة الاسلامية التي كانت تربط كل مسلم بأخيه وإن كان

(١) مجلة الاصالّة (المرجع قبل السابق) .

(٢) أصدرها ١٩١٣م في الجزائر وتوقفت سنة ١٩١٥م .

(٣) جريدة الفاروق عدد ٦٦ في ٢٢ / ٦ / ١٩٠٤م نقلا عن مجلة الاصالّة (المرجع السابق) ص ٥٩ .

(٤) المرجع السابق نفسه ص ٦٠ .

أحد هما بأقصى الشرق والاخر بأقصى الغرب

هذا التفرق الذى لاتعد معه الأمة غرور وعجب بنفسها وهى تشرف على الزوال أو تكاد جعله يُشَخَّص داء الأمة المودي بها فى عنوان إحدى مقالاته قائلا : قصور، ثم فتور، فريح الديور، وسكنى القبور، فهل من نشور ؟ . وهو يزيد تشخيص داء الأمة عناية، فيرى أنَّ الجهل وتسَلَّط الأجنبي من العوائق التى تصيب الأمة وتحول دون نهضتها واتحادها ، فالجهل الذى توقعه خرافات المتصوفين (١) بالأمة تحجر على الدين مجارة العصر ونهضته، وتسَلَّط المستعمر أنشأ طائفة من الشباب المتفرنج المغرم بالحضارة الغربية ، فأغشى أبصارهم وأضلهم عن طريق الدين وفصلهم عن قوميتهم الإسلامية .

أمَّا الدواء الناجع الذى يلح على المسلمين أن يأخذوه فهو كما يرى (٢) "إنَّ المسلمين لا يهتمهم فى هذا العصر إلا إصلاح حالتهم الروحية وتنظيم هيأتهم الأخلاقية .

وهذه الغاية تهم المسلمين جميعا لأنهم إذا تمكَّنوا منها تُشرق عليهم شمس القومية الإسلامية التى جاء بها المرسلون ، وبشر بها النبيون ، وهى لا تتوقف الا على إصلاحات اعتقاديته ، وعملية تبرز بعدها إلى عالم الظهور . . . ومن ثم يستأنف التاريخ فى تدوين دور جديد للقومية الإسلامية" .

وإذا كان عمر بن قَدَّور قد ذكر القومية الإسلامية فما هى هذه القومية عنده وما تصوّره لها ؟ .

إنَّه يحدد صورها من نفس نظام الاسلام ، ثم هى بعد ذلك - كما

- (١) كانت الصوفية بطرقها المتعددة منتشرة فى أكثر الزوايا المتعددة فى الشمال الافريقى ومنه الجزائر ، وقد كان للصوفية أثرسيء فى فهم الدين إن لم يكن ساعد الاستعمار على تثبيت اقدامه فقد عانى منه رجال الإصلاح ودعائه عندما نهضوا بدعوتهم للإصلاح ومحاربة الاستعمار ، وادى الى صراع بين المصلحين وأرباب الطرق كما ظهر فى ادب الجزائر الحديث انظر: الشعر الدينى الجزائرى الحديث ٢٣ ، ٥٦١ ومابعدها .
- (٢) المصدر السابق نفسه ص ٦١ .

قال (١) : " تنحصر في قضيتين أو ثلاث الأولى إلا خلاص لفالق الحب والنوى في السر والعلانية ، والثانية الاستقامة نحو هذا المجتمع الإنساني . . . والثالثة هي اعتبار أن المسلمين إخوة قبل كل شيء . . . تلك الرابطة هي قوة روحية إذا تمكنت من ضمير المرء تجعله يحن إلى أخيه حنوا لا يرى به عند أخيه عيبا يُنكره عليه أو شذوذا يخذله بسببه ، رابطة حث عليها الإسلام قبل أن يحث على الصلاة والصيام ، فأصبح بها أهلها المعتنون بتنميتها متضافرين ، وقلوبهم صخور مرصوفة إلى بعضها ، يتألف منهم سور ضخ لا تهزه زواجع الشقاق ولا تمسه أمواج التخاذل " .

بهذا الفهم للجامعة الإسلامية عند الكاتب ، والذي يسميها (القومية الإسلامية) يرى أن إخاء الإسلام وعقيدته هي الرابطة التي تجمع كافة المسلمين شرقا وغربا ، فهم إخوة قبل كل شيء ، ولا عبرة بما بعدها من المذاهب أو الأجناس ، وهم بهذا التضامن قوة تسند الأمة ضد الأعاصير التي تتقاذفها .

إن هذا الكاتب الذي تحمس لهذه الدعوة ورسخ إيمانه بها لم يكن مندفعاً وراء آماله العريضة وخيالاته المجنحة ، ولم يك متجاهلاً واقعته والعقبات التي تقف في سبيل دعوته ، وهو مع ذلك لم يختر عزمه ولم يجنح أمام هذه الصعوبات ، مضى يمحض النصح ويحذر المسلمين مما سيواجههم في سبيل تضامنهم من عقبات ، وما يلزمهم من صبر وحكمة في معالجة واقعهم المرير ، وهو مع ذلك ذو روح متفائلة ، يبشر بسهولة تخطي الصعاب ، ولا ييأس من قيام تضامن إسلامي وسط ذلك الزمن العصيب ، بل يقول (٢) : " الباحث عن جرثومة تلك الصورة الأصلية (للقومية الإسلامية) يعثر عليها ساكنة تحت صور مدلهمة أحدثها تبدل الزمان والناس وأخلاقهم ومحيطهم ، ولقد حصل لها ضمير عظيم من جراء طلوع تلك الصور الحاضرة ، ولكنه ضرر غير مزمّن أو مهلك ، ولذلك فليس من العسير علاجه لأن هذا الداء هو عبارة عن نسيان الناس لأهمية نفوسهم من شدة ما أحاط بهم من هول الجهل وتملك الاجنبى " .

بكل هذه الحفاوة بتضامن الأمة الإسلامية لانعدام نزعة عثمانية

(١) انظر الشعر الديني الجزائر الحديث ص ٦١ .

(٢) المصدر السابق نفسه ص ٦٣ .

وولاء للخلافة لدى هذا الكاتب (١) ، فهو يثار لاعتداء إيطاليا على طرابلس، ويستحث الهمم لمؤازرة العثمانيين فيها ، كما أنه يؤكد على حياة الشعوب الإسلامية في الجزائر ، وحرص الجزائر على متابعة كل الحوادث المتعلقة بالسلطنة ، وماذا يدور ويصدر في بلاط خليفة المسلمين ، ذلك رغم المضايقة الشديدة التي فرضها المستعمرون الفرنسيون على كل ما يبعث على إذكاء هذه المشاعر أو يثيرها .

هكذا بكل هذه الإشارات ، وهذه النتف من كتابات عمر بن قذور مضي بأسلوب سهل بسيط لا تكلف فيه ولا تعقيد يدعو إلى التضامن الإسلامي ويشير بقيامه ، وينبه على العوائق التي تعمل على إحباطه وضعفه ، وجاهد فيه بدأب وعزيمة لا تعرف الخور ولا تتنكر للجد والمثابرة ، وهو بكل هذا - كما يلاحظ - بحق رائد من رواد التضامن الإسلامي أو القومية الإسلامية كما كان يحلو له أن يسميه .

(١) انظر : المرجع السابق نفسه ص ٥٨ ، مجلة الثقافة (أصدرتها وزارة الاعلام والثقافة بالجزائر ، العدد الاول (محرم ١٣٩١ / مارس ١٩٧١ م) ص ٨٥ - ٨٩ ، مقال : ليتقوا الله في طرابلس ، العدد السابع (محرم ١٣٩٢ / مارس ١٩٧٢ م) ص ١١٥ - ١١٨ ، مقال : الشعور الاسلامي في الجزائر .

(٦) كتاب آخرون فى العالم العربي :

بجانب تلك الكوكبة من الأدباء الذين أولو الجامعة الاسلامية والرابطة الدينية عناية عظيمة وحفاوة كبرى ، وكان إخلاصهم وحماسهم لها جليا فى آثارهم وسير حياتهم كما مرّ بنا ، بجانب هؤلاء نجد ثلثة من الأدباء والكتاب والمفكرين الذين لا يُنكر إسهامهم وعنايتهم بهذه الجامعة ومواكبة أحداثها وتطوراتها ، هذه الثلثة أكثر عددا من تلك الكوكبة الأولى وهى تتوزع - كما سنرى باذن الله - على أكثر أرجاء الأقطار العربية ، بيد أن الذى يجب مراعاته هنا - قبل أن نعرض لها - أن الإتيان بها فى هذه المرتبة الثانية قد قادت إليه عدة أمور :

(١) إن حفاوتهم بهذه الوحدة كما تبين من آثارهم التى أمكن الاطلاع عليها أقل من حفاوة الادباء السابقين رغم اهتمامهم الواضح بها .

(٢) إن ماتوفر لهذه الدراسة من آثارهم ، والتى يمكن من خلالها رؤية جهدهم فى هذا المضمار لم تتوفر عن عدد منهم ولم يُتَحَ الاطلاع عليها شأن أحد صعوبات هذا البحث .

(٣) إن بعض هؤلاء الأدباء من هذه الثلثة أسهم فى فترة من حياته بجهد واضح فى مضمار هذه الوحدة بيد أنه بعد ذلك أعرض عنها إمّا لعارض أو غيره ، وإمّا لتطور فى فكره بحيث أصبح يعالجها بصورة باهتة ، وهذا لا يجعل من الإنصاف الادبي الإغضاء عن جهودهم فى هذا الاتجاه .

(٤) إن هذا الترتيب وإن اقتضته فى رأيي طبيعة هذا الفصل وتنظيم البحث لا يعنى تقليل جهود هذه الثلثة من الكتاب والادباء فى الوحدة الاسلامية ، بل ربما كان تطلعهم إليها لا يقل عن تطلع الكوكبة الأولى إلى تحقيقها وأملهم الكبير فيها .

(٥) إن الوقفات البسيطة التى وقفها البحث مع الطائفة الأولى حسبها الإشارة التى تغني عن مثيلاتها عند الادباء الآخرين ، ذلك أنه لو وقف مع هؤلاء الآخرين مثل سابقهم لتعدى هذا الفصل حده الذى ينبغى مراعاته فى حجم رسالة علمية ، ولذا فان البحث سيقنع - مضطرا - مع هذه الثلثة الاخيرة باللمحة الموجزة العجلى دون خوض

فى تفصيل أو مناقشة .

وبعد هذا كله ينبغى التنبيه إلى أن هناك كُتّاباً وأدباءً مزجوا بين تأييد الوحدة الإسلامية ومعارضتها ، مما يُمكن أن يُسمى التيار الوسيط أو نطلق عليهم الكتاب المزدوجين ، مثل ابراهيم المويلحي (١) وغيره ، بل إننا نجد بعض مظاهر معارضة الوحدة التى سنأتى إليها - بحول الله - عند بعض كتاب هذا الفصل الذين وسمناهم بموءيدى الوحدة وأنصارها ، لكن لما هو معروف من الغالب على أمرهم وفكرهم أنهم حريصون على تلك الوحدة جعلناهم فى هذا الفصل ، وأما حين نعرض لأى ظاهرة أو قضية فإننا سنستفيد ممن تعرض لها بأى وجه كان ، إذ المقصود عندئذ توضيح القضية المتناولة وتكاملها ، ولعل هذا يدفع وهما قد يعترض قارئ هذا البحث ، حين يجد كتابات فى القسم المعارض للوحدة من هذا البحث ، وهى من كُتّاب سبق أن ذُكر أنهم من أنصارها المخلصين .

أما حين نريد ذكر هؤلاء الكتاب الذين جعلناهم بعد طائفة سبقتهم فإننا نجد ما يلى :

فى الجزائر :

هؤلاء الأدباء الذين تتوزعهم أكثر الاقطار العربية لو بدأنا بمن هم فى الشمال الافريقي فإننا نجد فى الجزائر الشيخ عبد الحميد بن باديس (٢) الذى

(١) ابراهيم بن عبد الخالق المويلحي (١٣٢٣ / ١٢ ٣) أديب مصرى وكاتب صحفى قوى الاسلوب اشتغل بالتجارة ، ثم أنشأ مطبعة عمل بها فى الصحافة ، وأنشأ جريدته (مصباح الشرق) سنة ١٣١٥ فلاقى نجاحا كبيرا بين الخاصة فى مصر ، وعند ما خُلِع الخديوى اسماعيل (١٣٩٧) دعاه للإقامة فى اوربافلبث معه بضع سنين أصدر فيها بضع جرائد ، ثم زار القسطنطينية (١٣٠٣) وبقي بها حوالى عشر سنوات عاد بعد ها إلى مصر ليخرج على الناس مقالاته التى سماها (ما هنالك) فى وصف حال دار الخلافه وانتقاد سياسة السلطان - انظر : أدب المقالة الصحفية - الدكتور عبد اللطيف حمزة - الجزء الثالث .

(٢) ابن باديس زعيم النهضة الفكرية فى الجزائر الحديثه ومؤسس جمعية العلماء بـقسطنطينية (١٣٠٧ / ١٨٨٩ م) وتوفى (١٣٥٨ / ١٩٤٠) وهو من أشهر علماء الجزائر الذين قاوموا الاستعمار ونشر الإسلام وأحيوا

يحرص على إحياء الشعور الاسلامي والرابطة الدينية ، ويجاهد المستعمر الذى حاول كبت هذه المشاعر فيقول (١) : " ان الاتحاد الإسلامى والوحدة العربية بالمعنى الروحي ، والمعنى الأخوى ، هما موجودان تزول الجبال ولا يزولان ، بل هما فى ازدياد دائم ، بقدر ما يشاهد الناس من عمل فى الغرب ضد العروبة والاسلام " .

وهو يُعنى بالرابطة العربية الإسلامية وبياركةا فى فترة كان بعض القواد السياسيين لا يحفل بها ، فهو يقول فى احدى خطبه (٢) (١٩٣٧/١ ٣٥٥) مشيدا بالعروبة والعربية معا : " أما بعد فحياكم الله أبناء العروبة والإسلام وأنصار العلم والفضيلة ، حُورِيتْ فيكم العروبة حتى ظنَّ أن قد مات منكم عرقها ، ومُسَخ فيكم نُطقها ، فجئتم بعد قرن تصدح بلبلكم بأشعارها فتثير الشعور والمشاعر ، وتهدير خطبائكم بشقاشقها فتدك الحصون والمعازل ، ويهز كتابكم أقلامها فتصيب الكلى والمفاصل " .

وإلى جانب ابن باديس وجمعيته التى جاهدت لحفظ الجزائر مسلمة من ذلك المكر والكيد الذى اتخذه المستعمر لسلخها عن أمتها الإسلامية نجد مناضلا آخر هو "محمد السعيد الزاهري" (٣) ، جسم الزاهري مشاعر

اللغة العربية ، وكان خطيبا بارعا ومصلحا بارزا، ترك بعض تأليف أهمها تفسير القرآن الكريم . انظر : ترجمته وأخباره : ابن باديس حياته وآثاره . د / عمار الطالبي .

(١) مجلة الثقافة (الجزائر) عدد ٧ محرم ١٣٩٢ مارس ١٩٧٢ م ص ١١٦ .

(٢) ابن باديس حياته وآثاره ، د . عماره الطالبي ٣ / ٥٥٥ . نقلا عن تطور النشر الجزائرى الحديث . عبد الله ركيبي ص ٢٦ .

(٣) محمد السعيد الزاهري ، أديب مناضل وشاعر وصحافى من الجزائر عاش بين سنتي ١٨٩٩-١٩٥٦ م ، اتسم بغزارة إنتاجه ، ويميل كشأن مفكرى عصره إلى التربية والإصلاح والتى كان الاستعمار اعظم حافز لها .

انظر مجلة العربى (الكويت) عدد ٣٧٣ ديسمبر ١٩٨٩ م مقال : الزاهري : اديب مناضل من المغرب العربى ص ٦٠-٦٣ ، ويلاحظ أن جميع الاقتباسات الواردة للزاهري هنا من هذا المقال ، تطوّر النشر الجزائرى الحديث ١٣٨ .

الأخوة في ذلك الاتصال الذي جعله ينشر إنتاجه في كبريات الدوريات العربية في الجزائر وتونس والقاهرة ودمشق ، ثم هو مع ذلك وإن احتفى ببلده الجزائر لا يلبث أن يحلّق في موضوع العروبة والإسلام ، فهو يحتضن المغرب العربي ويناديه بتأليف وحدة عربية تكون دعامة في بناء وحدة عربية كبرى، وذلك في الثلاثينات من هذا القرن فهو يقول : " إنّ الشباب العربي الناهض ، لا فرق بين الجزائري منه والتونسي وبين أحد منهما والمراكشي ، بدأت عقليته في اتجاه واحد ، وبدأ شعوره يكون شعورا مغربيا واحدا ، إذا تم ذلك - وسيتم إن شاء الله - سيكون كل مفكر في الجزائر أو في تونس أو في مراكش يفكر بالمغرب العربي ، لا بخصوص جهته " .

ويربط بين مغرب الوطن العربي ومشرقه حين يتحدث عن (مكانة مصر في المغرب العربي) حيث أنّ كل حركة دينية أو أدبية في مصر لها صدى قويّ في المغرب ، " إنّ تاريخ هذه البلاد حافل بالشواهد والبيانات على أنّ المغرب العربي يرتبط بمصر ، منذ العصر الحجري بكثير من روابط النسب والحضارة والدين .

وإنّ الذي هو ما بيننا .. وما بين مصر لمحض النسب
رباط العروبة يجمعنا .. ويجمعنا ديننا والحسب

وهذه العروبة المضمّخة بروح الدين هي التي جعلته ينسج تلك المقالات التي وسمها بعنوان " الاسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير " ويكتب دراسته المطوّلة عن " عروبة البربر " (١) في أسلوب قصصي وروائي شيق .

في تونس :

تجد محمد بيرم التونسي (٢) ، وقد رأى نكبة الاحتلال الفرنسي حلّت ببلاده (١٢٩٨ / ١٨٨٠ م) ثم كشف المحتل عن أباطيله التي كان

(١) نشرت مقالاته الأولى في مجلة الفتح في أواخر العشرينات ، وكتب دراسته المطولة في الثلاثينات الميلادية في المقتطف .

(٢) محمد (بيرم الخامس) بن مصطفى عالم ومؤرخ تونسي ، عاش تونسا وعندهما احتلتها فرنسا (١٣٩٨ / ١٨٨٠ م) خرج إلى الاستانة وبقي بها فترة ثم اتجه إلى مصر فأصدر بها (١٣٠٢) جريدة الاعلام وتوفي بها ١٣٠٧ . انظر : ترجمة لنفسه في ملحق بالجزء الخامس من كتابه : صفوة الاعتبار بمستودع الامصار .

يروجها لشرعية دخوله واستعمارها ، وحاول عزل تونس عن أمتها الإسلامية الكبرى التي تجمعها فانبرى الشيخ محمد بيرم يبحث قضية بلاده باستفاضة ، ويبين ارتباط تونس بالسلطنة العثمانية ، وإن دخول الفرنسيين عدوان صارخ عليها ، وفصل ذلك في قسمين ألحق أحدهما بالكلام على تاريخ تونس والآخـر على تاريخ فرنسا (١) ، وجاءت كتاباته لهذا الحدث كما قال أحد الباحثين (٢) "مثالا فريدا . . . من تاريخ الأدب التونسي لفن الرسائل، السياسية وكان له نفوذ عظيم على وضع أصول الاحتجاجات للنضال السياسي الذي طفح به تاريخ هذا القرن " .

في مصر :

أما في مصر حيث كانت حرية الفكر أرحب من غيرها، ومع تلك النهضة التي بدأت تفيد من مادية الغرب الحضارية والفكرية، وحيث ازدهرت الصحافة ودور النشر، وقد أقام فيها جمال الدين الافغاني بضع سنوات (١٢٨٩ / ١٢٩٧) ، (١٨٧١ / ١٨٧٩ م) ، والتفّ حوله كثير من مريديه وتأثروا بفكره وتحمسوا لارائه وحملوها من بعده .

والذي لامرأ فيه بعد التتبع والدراسة أن تلاميذ الافغاني في مصر كانوا من أظهر من دعا إلى الجامعة الإسلامية بها، وتصوّروهم لها ولمفهومها قريب جدا من رؤية الافغاني لها .

فهذا هو الشيخ محمد عبده (٣) في الفترة الأولى من حياته

(١) انظر صفوة الاعتبار بمستودع الأماض والاقطار - محمد بيرم الخامس التونسي

١٣٢/١ - ١٣٠/٣ ، ١٣٨ - ١٣٠ / ٥ ، ٣١ .

(٢) الحركة الادبية الفكرية في تونس - الشيخ محمد الفاضل بن عاشور ص ٣٤ .

(٣) محمد عبده (١٢٦٦ - ١٣٢٣) من أشهر دعاة الإصلاح والتحرر من التقليد في

العصر الحديث ، ولد في محلة نصر بالبحيرة من ديار مصر ، وتعلم بالأزهر في صباه وتأثر بالتصوّف ، وعمل في التعليم والصحافة وشارك في ثورة عرابي ، فنفي عن مصر مدة ثم عاد إليها في عهد الاحتلال ، فعين قاضيا فمستشارا فمفتيا للديار المصرية حتى وفاته .

انظر : تاريخ الاستاذ الامام محمد عبده (ثلاثة أجزاء) محمد رشيد

رضا ، زعماء الإصلاح في العصر الحديث ، احمد أمين . ٢٨٠ .

وقد نُفي إلى بيروت يقول (١): "إِنَّ مَنْ له قلب من أهل الدين الاسلامي يرى أنَّ المحافظة على الدولة العلية العثمانية ثالثة العقائد بعد الإيمان بالله ورسوله، فإنَّها لوحدتها الحافظة لسلطان الدين، الكافلة ببقاء حوزته، وليس للدين سلطان في سواها... وإني على ضعفي والحمد لله مسلم العقيدة، عثمانى المشرب، وإن كنت عربى اللسان، لا أجد في فرائض الله بعد الإيمان بشرعه والعمل على أصوله فرضاً أعظم من احترام مقام الخلافة والاستمساك بعصمته، والخضوع لجلالته، وشحذ الهمة لنصرته بالفكر والقول والعمل ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، وعندى إنَّ لم أقم على هذا الطريق فلا اعتداد عند الله بإيماني، فإنَّما الخلافة حفاظ الإسلام ودعاة الإيمان، فخاذلها محاد لله ورسوله، ومن حادَّ الله ورسوله فأولئك هم الظالمون"

ثم هو يشترك مع أستاذه الأفغانى فى إصدار صحيفة "العروة الوثقى" التى احتفت بالوحدة الاسلامية كثيراً، ويخشى من خلاف ينشب بين العرب والترك فيوهن قوة الفريقين مما يُسهِّل الأمر لدول أوروبا كي تشب على ديارهم فتكون العاقبة إضعاف الإسلام وقطع الطريق على حياته، لأن هذين الشعبين أقوى شعوب الإسلام آنذاك (٢). بكل هذه الإشارات وغيرها مما يشابهها (٣) لا يخامر المرء الشك فى حفاوة الشيخ محمد عبده بالجامعة الاسلامية، إلا أن المطالع لآثاره لا يعدم بعد ذلك إشارات أخرى تعارضها وتخالفها، فهو بالمقابل كان قليل الثقة فى تمكّن الأتراك العثمانيين من القيام بتوثيق التضامن الاسلامي وتحقيقه (٤)، وهو عندما خاف استغلال العثمانيين لحوادث (الثورة العربية) لإعادة مصر إلى التبعية المباشرة للخلافة ينفى هذا الأمر ويعدّه وهماً، ويعتبر جميع المصريين يكرهون الأتراك ولا يريدون ذكرهم، وأنهم ظلمة ولا يريدون رجعتهم التى ستحمل المصريين على مقاومتهم (٥)، ثم يتعدى ذلك إلى التصريح بكراهته للسلطان عبدالحميد عدة

-
- (١) الأعمال الكاملة للشيخ محمد عبده ٧٢/٣ .
 (٢) المصدر السابق ٧٣٥/١ (مقال: العرب والترك) .
 (٣) انظر الأعمال الكاملة للشيخ محمد عبده ١٠٩/١، ١١٥، الاتجاهات الوطنية فى الادب المعاصر ٣٢٩-٣٣٦ .
 (٤) المصدر السابق ١١٠/١ .
 (٥) الأعمال الكاملة للشيخ محمد عبده ٣٩٢/١، ٣٩٣ (مقال دفاع عن حكومة الثورة)

مرات ويصفه بالسلطان المستبد (١) .

أما حين استشاره الشيخ رشيد رضا عندما أراد إصدار (المنار)
وليجعل من اهدافها تعريف الأمة بحقوق الإمام ، وإمام بحقوق الأمة قال له (٢):
" إنَّ المسلمين ليس لهم اليوم إمام إلا القرآن ، وأنَّ الكلام في الإمامة مثارفتنة
يُخشى ضرره ولا يُرجي نفعه الآن " وأخيرا فإن مفهومه للجامعة الاسلامية
عندما رد على " هاناتو المستشرق الفرنسي ومستشار مستعمراتها الاسلامية "
هو مفهوم التضامن الاسلامي في سبيل الإصلاح الديني والاستفادة من وجود
الدولة العثمانية في دفع عجلة هذا الإصلاح إلى الأمام ، أمّا التوجيه
السياسي فليس في خاطر أحد .

ومهما قيل عن وجود هذا التناقض في فكر الشيخ محمد عبده هذا (٣)
فحسبنا هنا أنَّ فكر الشيخ قد مال في آخر عمره إلى البعد عن المفهوم
السياسي للجامعة الاسلامية ، وأنها فكرة تقوم على مُثل عليا وعواطف يشترك
فيها كل المسلمين على أساس من التعاليم والثقافة الإسلامية ، وأنه أسهم
بمشاركة لا تُنكر في هذه الوحدة مهما تكن تغيرت أو تطورت في فكره ، فقد
أسهم فيها بنصيب معلوم .

كما نجد بمصر الشيخ عبدالعزيز جاويز (٤) الذي لا يخفى تعلّقه
بالجامعة الاسلامية كما يظهر في علاقته الوطنية بالحزب الوطني ورئيسه
(مصطفى كامل) والذي كان حريصا على حسن العلاقة بالدولة العلية
والمحافظة عليها ، وعند وفاة مصطفى كامل (١٣١٦ / ٨ / ١٩٠٨ م) يولييه الحزب
رئاسة تحرير اللواء ، ويخرج على الناس بتلك المقالات الملتهبة التي لا تُخفي
تعلقه بالدعوة إلى الجامعة الاسلامية وحَدَّ به على شعوب أمتة الاسلامية (٥) ،

(١) الأعمال الكاملة للشيخ محمد عبده ١ / ٧٣٣ ، ٧٣٧ ، (مقال : حديث عن
الدولة العلية) .

(٢) المصدر السابق ١ / ٧٣٤ ، (مقال الرد على هاناتو) ، ١ / ١١٥ ، ١١٦ .

(٣) المصدر السابق ١ / ١٠٤ - ١٠٥ ، الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر
١ / ٣٢٩ ، مصر وحركة الجامعة الاسلامية ٤٧ - ٥٣ .

(٤) سبقت ترجمته ص ١٤١ .

(٥) انظر عبد العزيز جاويز - أنور الجندی ص ٦٤ .

وحين قام الايطاليون بحرب طرابلس (١٣٢٧ / ١٩١١ م) ينبرى جاويز لنصرة
العثمانيين وموازرتهم فيها ، ويحث على جمع التبرعات ويهاجم بعنف شديد
صنائع الاستعمار الذى استنكروا المساعدة فى هذا الجهاد (١) .

لقد استمر منافحاً عن دولة الخلافة حتى بعد ما خُلِعَ السلطان
عبد الحميد وخشى أكثر العرب من سياسة الاتحاديين (٢) ، ونجده يهاجر إلى
الأستانه (١٣٢٨ / ١٩١٢ م) ويصدر بها مجلة (الهلال العثماني) والتي
حاول فيها أن يقيم الألفة والاتحاد بين العرب والترك ، ولم يكن فى هذه
الفترة من أنصار الانفصال عن الدولة العثمانية (٣) وإنما كان على مثل رأي الأمير
شكيب ارسلان، الذى يهدف إلى معارضة الاتجاه الذى يرمى إلى تمزيق الدولة
العثمانية، لأن ذلك وسيلة للقضاء على قوة العالم الإسلامى .

وهناك الشيخ على يوسف (٤) ، صاحب (المؤيد) الذى ألقى
الجامعة الإسلامية والرابطة العثمانية عناية واضحة فى القول والكتابة والعمل (٥)
فهو عندما زار الأستانه مع خديوى مصر وكتب عن هذه الرحلة يلجّ على تقوية
رابطة الاتصال بين مصر ودار الخلافة العظمى، ويكشف عن تضليل أوروبا وتآمر
دولها على عداوتها ، ونظراً لحفاوته بالسلطان والجامعة العثمانية يُنعم
عليه السلطان عبد الحميد بعدد من الألقاب والأوسمة العالية تقديراً لجهوده
ومسلكه .

واعتقد على يوسف أنّ التضامن بين الشعوب الإسلامية والدولة
العثمانية أمر ضرورى لحفظ هذه الشعوب، وهاجم المحاولات التى تجري فى
البلاد العربيه للاستقلال عنها ، ذلك كله فضلاً عن مواقفه المؤازرة للسياسة
العثمانية كما ظهرت فى كتاباته : فى أزمة العقبة (١٣٠٩ / ١٨٩٢ م) والحرب
التركية اليونانية (١٣١٤ / ١٨٩٧ م) والحرب الطرابلسية (١٣٢٨ / ١٩١١ م) -

(١) انظر فصل حوادث العالم الإسلامى من هذا البحث "الحرب الطرابلسية" .

(٢) انظر مجلة الهداية " عبد العزيز جاويز " يناير ١٩١٠ م ص ٤٦-٥٤ مقال
"مدرسة التبشير الإسلامى" .

(٣) انظر: عبد العزيز جاويز ص ١١٢ - ١١٣ .

(٤) سبقت ترجمته ص ١٠٨ .

(٥) انظر أدب مقاله الصحفيه ٤ / ٤٨-٦١ ، السلطان عبد الحميد والخلافة

الإسلامية ص ١٣٢-١٣٥ .

وغيرها .

وفى نهاية حياة على يوسف نجد موقفه السابق يتغير ولم يعد ذلك المتحمس للجامعة العثمانية ودولتها ، وقد كان ذلك التغير مع بداية عصر الوفاق بين الخديوي عباس وسلطان الاحتلال الانجليزى بعدما عُزل اللورد كرومر، فقد كتب آنذاك (١) إن الجامعة الإسلامية كعقيدة سياسية غير موجودة ويفسر ذلك بأن "الجامعة الإسلامية قسمان " دينية وسياسية " والدينية موجودة بوجود العقيدة الإسلامية ، والسياسية غير موجودة ولم توجد لعدم وجود الرابطة بين الأمم الإسلامية . . . وهي المصلحة . . . ذلك أن المسلمين إذا أوجدوا جامعة إسلامية سياسية أوجد غيرهم جامعة مسيحية وهكذا فتكون المصلحة من ذلك عليهم " وفي هذا ما يدل على ارتباط سياسة على يوسف بالخديوى فى الفترة الاخيره من حياته وتقلبها بتغييراتها ، فهي وإن استندت على الخلافة - كما رأينا - فإنها فى حقيقتها كما انتهى بها الأمر لم تعد مرتبطة بالجامعة العثمانية .

ولي الدين يكن (٢) ، رغم قصائده ومقالاته اللاذعة فى انتقاد الحكومة العثمانية ، ورغم ما كان يوجه من ذم وطعن إلى السلطان عبد الحميد فهو إنما يريد بذلك الإصلاح لا الخروج على الجامعة العثمانية ، ويؤكد ذلك كونه من دعاة الجامعة الإسلامية فى أول أمره وكان يعنى بشئون تركيا أكثر من شئون مصر التى أقام فيها ، ويدعو لتأييدها ويدافع عن السلطان عبد الحميد ورجاله (٤) ، حتى إن السلطان غمره بعطفه وأنعم عليه بأحد الرتب .

ولقد بلغ حماس ولي الدين لنزعة العثمانية أنه كان يُنازع الوطنيين المصريين اتجاههم إلى حكم مصر بأنفسهم ويقول (٥) : " إنما أحدث بيننا خلاف أته

(١) المؤيد عدد (٥١٠٨) سنة ١٩٠٧ م نقلا عن ادب مقاله الصحفيه فى مصر ٦٠ / ٤ ، وانظر الصفحات ٦١ ، ٦٢ .

(٢) سبقت ترجمته ص ١٤٠ .

(٣) انظر نماذج منه فى : الصحائف السود ٧٢ - ٧٥ .

(٤) انظر فى الأدب الحديث ١٤٨ / ٢ - ١٥٠ .

(٥) انظر : المصدر السابق ٤١٤ / ١ .

" يريد عبد الله النديم احد هؤلاء الوطنيين " كان عدوا للعثمانيين وهو قدما ممن يقولون : " مصر للمصريين ، ونحن نقول : مصر للعثمانيين " .

والأستاذ أحمد حسن الزيات (١) وإن لم تغلب المسائل الدينية على فكره النير، هو ركن مكين في بناء الوحدة العربية ومدماك مرصوص لكيان الوحدة الاسلامية (٢)، كيف ولو لم يكن له الا " الرسالة " لكفاه نضالا في هذا المجال فهي التي حملت العالم العربي في قلبها ، والعالم الاسلامي بين جوانحها، وجمعت بين علماء الفكر والأدب والثقافة ، وقطعت المسافات إلى كل قطر، وأفسحت صفحاتها للكتاب من كل مصر، وردمت الفجوة التي أقامها الاستعمار وألغيت السياسة بين أبناء العالم الإسلامي ، لو لم يكن له إلا " الرسالة " أم الأيادي البيضاء على الأدب والفكر، والتي قال فيها أحد رجال مصر وقد سافر إلى الشرق بعد احتجاجها " لو أن الحكومة (المصرية) أغلقت سفاراتها في الشرق وأبقت على رساله لكان خيرا لها وأجدى عليها " (٣) .

لو لم يكن له إلا هذه (الرسالة) التي شرقت وغربت في سماء البلاد الإسلامية لكفاه فخرا أن يُعد من رجال الاتحاد والتضامن الفكري والادبي ، وهو اتحاد لا يُنكر مداه في أي وحدة تكون ، قضية الوحدة في الرسالة وحدة سياسية ووحدة فكرية معا ، وإذا كانت العروبة في مناط هذه الوحدة فالزيات يجلي هذه الوحدة بأنها إسلامية ويقول (٤) " لانطمع أن نجعل من الوطن العربي الذي قطعه الغاصبون الآكلون دويلات أو لقيمات يسهل ازدرادها ، وحدة كاملة ، وذلك فوق الطاقة الآن ، لأنه عمل لم يقو عليه من قبل غير محمد صلى الله عليه وسلم ، ولن يقوى عليه من بعد غير رجل من رجال محمد صلى الله عليه

(١) أحمد حسن الزيات (١٣٠٢ / ١٣٨٨ م) أديب من كبار الكتاب المتفنيين في مصر، ولد وتعلم بمصر وعمل أكثر حياته في التدريس في مصر والعراق ، وكان من أعضاء مجمع اللغة العربية في القاهرة ومجمع دمشق أيضا ، وأعظم أعماله إصداره مجلته الذائعة (الرسالة) سنة ١٣٥٣ واستمراره في رئاسة تحريرها أكثر من عشرين عاما ، إضافة إلى عدة مؤلفات ومترجمات أخرى . انظر : الزيات والرسالة - محمد سيد محمد ، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة مجلد ٢٤ ص ٢١٣ .

(٢) انظر الزيات والرسالة د . محمد سيد محمد الفصل الرابع قضايا الرسالة .

(٣) المرجع السابق ٢٠٢ .

(٤) الرسالة العدد ٦٠١ - ٨ يناير ١٩٤٤ مقال " اذكرو يا زعماء العرب " .

وسلم .

ويؤكد الزيات نزعة التضامن في كتاباته الخالدة التي دَبَّجها ، فهو يدعو أمة التوحيد لتتحد (١) ، ويرى أنه لا بد للمسلمين من مؤتمر يُعقد باستمرار (٢) ولا عذر لهم فيه ، وليكن لهم مثل جدّ المبشرين والمستعمرين التي لا تنقطع اجتماعاتهم ، ثم تجده يُنفّر من الإلليمية الضيقة (٣) ، ويحذّر من التعصب المؤدي إلى الفرقة (٤) ، فضلا عن عنايته بحال البلاد الإسلامية وأحداثها ومتابعة شعونها وتقلباتها (٥) ، كل ذلك مع احتفاء بالأعياد الإسلامية والمناسبات الدينية (٦) ، والتي تنم عن روح متشربة بالاسلام ، واعتزاز بأنه النور والسعادة في هذه الحياة .

ومصطفى صادق الرافعي (٧) بنشأته الدينية وثقافته الإسلامية العريقة لم يغفل عما يتعلق بقوة الأمة الإسلامية وتآلفها ، وأن لا تفوته تأمرات أعداء الإسلام التي عاصرها ونتائجها الوخيمة على أمته ، فالحرب العامة الأولى التي سمع أهوالها وجعلته بانسانية يقول (٨) : " وأنا يابني في خاصة نفسي أكرها لحرب لأنني أراها تُصوّر بكل ألوان الهلاك والخراب فكرة العدم المبهمة على قطعة من أديم الارض وأمقتها لانها تلوث الحياة بدماء الرجال ثم لا تغسلها إلا بدموع النساء والاطفال ، وأبغضها لانها تدفن تاريخها الصحيح للمستقبل ولا تترك للحاضر الا تاريخها المشوه في أعضاء الجرحى " ، هذه الحرب يراها بفلسفته إنها سبب في رجوع الناس بعدها إلى الانسانية الخالصة ، وهي كذلك ضرورة اجتماعيه لن يخلو منها تاريخ الإنسانية إلا إذا رجع الناس أمة واحدة في تركيب لا يقسمها على نفسها ، أما سبب هذه الحرب فهو

(١) انظر وحى الرسالة - احمد حسن الزيات ١/٤٩ ، ٢/١٨٧ ، ٢٤٢ ، ٣٠٨ .

(٢) المصدر السابق ٢/٣٤٥ .

(٣) المصدر السابق ١/٤٩ (مقال : فرعونيين وعرب) .

(٤) المصدر السابق ٢/٢٦٦ (مقال : العصبية داؤنا الموروث) .

(٥) المصدر السابق ١/٤٥ ، ٦٨ ، ٢٩٥ ، ٤٢٥ ، ١٩٩ ، ٤٦٢ .

(٦) المصدر السابق ١/٣٠ ، ١١٢ ، ١٨٠ ، ٧٢ ، ٤٠٣ ، ١٣٣ ، ٢١٠ ، ٤٨٥ .

(٧) مصطفى صادق الرافعي (١٢٩٨ / ١٣٥٦) أديب وكاتب وشاعر لامع ، عاش في مصر ، وأصيب بالصرم وكانت له نزعة اسلامية واضحة فيما يكتب ، وألف بعض كتب تدل علي تضلع علمي وقدرة فائقة له ديوان شعر ، وعديد من الكتابات الادبية التي امتازت بأسلوبه العذب الرصين .

انظر : حياة الرافعي - محمد سعيد العريان ، الادب العربي المعاصر في

مصر - شوقي ضيف ٢٤٢ .

(٨) الساكين مصطفى صادق الرافعي ص ٢٢٦

فساد الحضارة الغربية وضلالها ، وتحويلها روح الإنسانية إلى الحالة المتأزمة الساخطة تحب القتل والعدوان ، فكانت الحرب العظمى تنقيحاً لإلهيا عنيفا لهذه الحضارة الزائغة (١) .

والرافعي فيما يبدو وإنما يرمي إلى إظهار نزعة الإسلام الإنسانية والتي بها يتألف البشر على وجه الأرض ويتعارفون عليها شعوبا وقبائل ولا يختصمون ، ولعله يؤمن من طرف خفي إلى روح الجهاد في الإسلام والتي لا تتنكر للنزعة الإنسانية وإنما تمضي في سبيلها بخلاف مآرب الحروب المعاصرة وذلك ما دفعه إلى التساؤل متى تكون الحرب حقا ومتى تكون الحرب باطلا ؟ (٢) وحين ألغى كمال اتاتورك الخلافة الإسلامية رمز اتحاد الأمة ينبري الرافعي يفضح حقيقة أمره وتناقض سياسته وتلاعبه بالأمة وعواطفها ، ثم يؤكد تنكُّره للإسلام وعداءه له ، ولا يعدم الإشارات الرمزية إلى غرور مصطفى كمال وأنه صنيعه أعداء الإسلام ، والذين لا يريدون للامة قوة ولا اتحادا وإنما يسرهم أن يتفرقوا أوزاعا وشيعا (٣) ، وإذا اتجه العرب إلى بديل يجمعهم بعدد الخلافة حيث كانت المناداة إلى جامعة عربية تنهض بهم ، فالرافعي يؤكد أن أي نهضة واجتماع بدون أن يركن إلى الدين الإسلامي واللغة العربية لا قيمة له فلا غنى له ولا قوام بدونها ، والشرق العربي مادته الإسلام ، وما الإسلام في حقيقته إلا مجموعة أخلاق قوية ترمي إلى شدّ أزر المنتمين إليه من كل جهة (٤) .

وحين يعرض لنكبة فلسطين باليهود يرى القضية قضية العرب والمسلمين جميعا ، والمسئولية في ذلك عليهم وحدهم ، وتراه حينئذ يخاطب العرب لينهضوا بواجبهم ، ويذكر شبابهم بالمكائد التي تُدار حولهم ، ويناشد المسلمين نصره فلسطين ومساعدتها فهي محتتم جميعا ، وأن يتبرعوا للجهاد

(١) انظر تحت رايه القرآن مصطفى صادق الرافعي ص ٣٦٨ فصل (رأيي في الحضارة الغربية) .

(٢) انظر مصطفى صادق الرافعي والاتجاهات الإسلامية في أدبه ص ٧٥ ، ٧٦

(٣) انظر وحي القلم الجزء ٢ / ٢٠٩ - ٢٢٩ .

(٤) المصدر السابق ٣ / ١٧٠ مقال : " نهضة الأقطار العربية "

فى سبيلها ، وليفرضوا على السياسة احترام مشاعر المسلمين ، فان المضطهدين هم اخوانهم والأرض المغتصبة من ديارهم (١) .

واخيرا فالرافعى بنزعتة الاسلامية الصافية التى اصطبغ بها أدبه - كما رآها دارسوه (٢) ، لو لم يكن له الا سفره العظيم "تحت راية القرآن" لكفى المرء أن يعده داعية تضامن إسلامي تحت شريعة الكتاب العزيز (٣)، نابذا لكل مذهب وتيار من الشرق أو الغرب يريد الهيمنة عليه ، ففي ظلال هذا القرآن قامت أعظم وأفضل وحده عرفها البشر، وليس غريبا أن تقوم هذه الوحدة ويدعو إليها على مدى الزمن رجال أحسوا عظم المسؤولية واستشعروا أمانة الكلمة فى الحياة .

فى بلاد الشام :

=====

كتاب آخرون نجد منهم رفيق العظم (٤) والذى سبق أن رأيناه ينافح عن الجامعة الاسلامية التى أظهر بعض مفكرى الغرب وزعمائه تخوفهم منها (٥) ، ورأى أن ما أوقع المسلمين فى الحيرة " ووقف بهم عن السير مع الأمم الراقية فى سبيل المدنية الصحيحة " ، وكشف ما بينهم وبين الأمم المتمدنة فرموه بكل نقيصه ونالوهم بكل سوء إلا انقسام عروة وحدتهم الدينيه ، والخروج عن قانونها الجامع الذى يرمى إلى غرض الاجتماع الصحيح والمدنية الفاضلة ، ويريد الشعوب على توحيد الكلمة لضرورة القيام على شئون الحياة المدنية ، وإنما يتحقق معنى الحياة فى قوم إذا أعزوا جانبهم ، و زادوا عن حوضهم ، وكانوا يدا على من ناوأهم ، وأقسطوا فى المعاملة إلى من عاداهم ، وهذا

(١) انظر : وحى القلم ٢ / ٢٤٠ - ٢٦٠ مقالات " يا شباب العرب " ، و " لو " و " الأيدى المتوضئة " و " أيها المسلمون " .

(٢) اشهرهم كاتبان

(١) عبد الستار السطوحى فى كتابه : الجانب الإسلامى فى أدب مصطفى الرافعى .

(٢) الدكتور على عبد الحليم محمود فى كتابه : مصطفى صادق الرافعى والاتجاه الإسلامى فى أدبه .

(٣) انظر تحت راية القرآن ص ٥٠ ، ٥١ .

(٤) سبقت ترجمته ص ١٢١ .

(٥) انظر فصل الجامعة الاسلاميه من هذا البحث ص ١٢١

مايريدہ الاسلام " (١) .

وبجانب قوله هذا نجده يُثني على السلطان عبد الحميد بالإضافة إلى كتابته العلمية عن فضل الاتحاد ونفعه للبلاد والعباد (٢) ، أمّا عندما يكتب في السيرة النبوية وتاريخ السياسة الإسلامية فهو يولي نظام السلطة في الإسلام ومقام الإمامة العظمى - الخلافة - اهتمامه الذي لا يخفى . وهو حين تولى الاتحاديين سلطة الحكم في الدولة العثمانية وعملوا على بعث العصبية التركية ، وشاب الأمة العربية نفور من هذه السياسة يحرص على بقاء الجامعة العثمانية (٣) ، ويحاول معرفة داء هذه النفرة والقلق واسباب سوء الظن بين الترك والعرب ، ويدعو ساسة الترك إلى الوفاق ، فالعرب - كما يرى - لا يتعصبون للجنسية ولا يسعون لإقامة خلافة عربية كما أشيع عنهم .

وفي الشام نجد أيضا الكاتب الأديب بدر الدين النعساني (٤) الذي مال إلى ماسار إليه كبار مصلحي عصره من الكتابة في إصلاح أمر المسلمين ورفع شأن الثقافة والحضارة العربية والإسلامية (٥) ، ومع ذلك زار كثيرا من البلاد الإسلامية وعرف أحوالها ومنها عاصمة الخلافة ، ولعل أهم ما تتجلى

(١) مجموعة آثار رفيق بك المعظم " القسم الثاني " ص ٥٥ ، جمعها شقيقه : عثمان العظم .

(٢) المصدر السابق ص ٢ ، ١٣ .

(٣) المصدر السابق ص ١١٨ - ١١٤ " رسالة الجامعة العثمانية والعصبية التركية

(٤) أبو فراس محمد بن بدر الدين بن مصطفى رسلان النعساني من أهل

حلب ، كاتب أديب ، تعلم بالأزهر ثمان سنوات فلم تؤقه الدراسة فيه فمال

إلى حلقة الشيخ محمد عيده وتلامذته ، ثم زار كثيرا من بلاد العالم

الإسلامي وعاد إلى حلب معلما للعربية بها ، وفي الحرب العامة

الاولى أزر الدولة العثمانية بكتاباتة ، فلما انتهت ترك السياسة

وقضى حياته إلى آخرها بين التعليم والتأليف وكانت حياته بين

سنتي (١٢٩٨ / ١٣٦٢) .

انظر : قدماء ومعاصرون : سامي الدهان ص ٢٤٦ - ٢٦٣ ، مجلة

مجمع اللغة العربية بدمشق مجلد ١٩ ص ٤٧٠ .

(٥) انظر : قدماء ومعاصرون ، ٢٥٠ .

عنده ، تلك النزعة العثمانية التي مضى فيها إلى شوط بعيد من حياته بحيث اشتغل بالتدريس في المدرسة السلطانية التابعة للدولة بحلب ، وعندما قامت الحرب العامة الأولى واشتركت الدولة العثمانية فيها كانت بحاجة إلى دعاية وتبشير لها في البلاد العربية ، فأُرسل النعساني إلى المدينة النبوية ليصدر فيها بأول هذه الحرب جريدة (الحجاز) ويحررها بقلمه (١) ويدعو فيها للسياسة العثمانية ، ويُنفّر ممن يخالفونها أو يريدون الخروج عليها في البلاد الحجازية .

في العراق :

=====

كان المجتهد الشيعي محمد الحسين آل كاشف (٢) الغطا أشهر من نهى للاتحاد الإسلامي بهذا القطر كما تدل على ذلك إحدى الدراسات المعاصرة ، وأنه كان متحمسا لهذه الوحدة حتى قيل عنه (٣) " إنه " بلغ الذروة . وقل من زعماء الدين من تبنى الوحدة الإسلامية بأسلوب عاش عقلية العصر . بدأها قبل نصف قرن بكتابه (الدين والاسلام) وقد لاقى من أجله المضايقات حتى اضطرت السلطات التركية إلى إتلافه ، وضيق الخناق على مؤلفه مما اضطر معها للسفر إلى البلاد العربية طلبا لحرية آرائه ومعتقداته " .

وإذا كانت المراجع لم تسعف بروئية فكر الرجل وتصوّره للجامعة

(١) انظر: النثر الأدبي في المملكة العربية السعودية - د . محمد عبد الرحمن الشامخ ص ٧٣ .

(٢) محمد حسين آل كاشف الغطا (١٢٩٥ - ١٣٧٣) أديب إمامي من أهل النجف ، كان كاتباً وشاعراً وانتهت إليه الرئاسة في الفتوى ، وكان من زعماء الثورات والحركات الوطنية والتحريرية التي احتدمت في العراق خلال النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري ، ولم يعد مكانه طيبة في البحث والتأليف حيث أخرج بضعة عشر كتاب تركها وراءه ، انظر : الادب العصري - رفايل بطي - الجزء الثاني - من قسم المنظوم ٧٢-٩٢ ، أساليب المقالة وتطورها في الادب الحديث والصحافة العراقية ٣٦٠ وما بعدها .

(٣) شعراء الغرى - على الخاقاني ٨ / ١١٢ - ١١٣ نقلا عن : أساليب المقالة وتطورها في الادب العراقي الحديث والصحافة العراقية . ٣٧ .

الاسلامية اضافة الى عدم توفر الكتاب المذكور، فالذى يظهر أنه لا يريد الجامعة الإسلامية تحت مظلة الحكم العثماني، ولا تكون تحت لواء الخلافة، وإلا لما ضايقته السلطات العثمانية، فربما نزع بالجامعة الإسلامية منزعا عربيا على الصورة التي تريد الخليفة أن يكون عربيا على نحو ما كان يرى عبد الرحمن الكواكبي، أو أنه أراد بها مجرد التعاون والتضامن بين الشعوب الإسلامية دون خضوع مباشر لسلطان الخليفة، كما كان يرى ذلك بعض دعاة الجامعة الإسلامية ومنهم بعض تلامذة جمال الدين الأفغاني ..